محور رسالة الإسلام في سيرة سيد الأنام

محمد صلى الله عليه وسلم

تأليف
الشيخ عبد الله محمد بابا الشنقيطي

دار عبد الله الشنقيطي

الشيخ عبد الله الشنقيطي
محور رسالة الإسلام
دار عبد الله الشنقيطي

محور رسالة الإسلام
في سيرة سيد الأنام
محمد ﷺ



عالم الكتب

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت لبنان

ص.ب: ٨٧٢٣ - ١١ برقياً: نابعلبكي

تلفون: ٣١٥١٤٢ - ٨١٧٤١٨ (١ ٩٦١ ٠٠)

جـوال: ٣٣٨١٨٣١ ٩٦١ ٠٠

فـاكس: ١٣١٥١٤٢ ٩٦١ ٠٠

دار عبد الله الشنقيطي

مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية

شارع المنصور - خلف مسجد ابن حسن

ص.ب: ١٣٧٨ مكة

تلفون المكتب: ٥٤٢٨٢٥٧ - ٥٤٢١٤٠٣

جـوال: ٠٥٠٣٥٠٨٥٤٦

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

محور رسالة الإسلام

في سيرة سيد الأنام

محمد ﷺ

تأليف

الشيخ عبد الله محمد بابا الشنقيطي

دار عبد الله الشنقيطي


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القَلَم: الآية ٤].

وقال ﷺ: «إنَّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق».

قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

(كان صلّى الله عليه وسلم خلقه القرآن).

تنبيه

اعلم وفقني الله وإيَّاك لما يحبه ويرضاه ـ أن علم السيرة النبويَّة يشمل الكثير من جوانب حياة رسول الله ﷺ ومن أبرزها أعلام نبوَّته ﷺ ومناقبه، وخصائصه، وشمائله، وغزواته، ومعجزاته، وخطبه ونسبه الشريف إلى غير ذلك. وكان كل جانب من هذه الجوانب قد أُلِّف فيه كثير من الكتب من عهد التابعين إلى يومنا هذا وكتابنا هذا ليس سيرة نبويَّة جديدة تضاف إلى السيرة التي دوَّنها الحفّاظ قبلنا، وإنّما هو تجديد في صياغة جوانب منها يتطلَّبها الجيل المعاصر لتجديد العهد بتعزيزه ﷺ وتوقيره وجلب كل ما يتوجَّب له المحبة بالحق في قلب كل إنسان وتعريف البعض أن محبته ﷺ فرض عين على كل مسلم سواء محبة طاعة واتباع أو محبة شخصه الكريم، مبيناً ذلك بالأدلة من الكتاب والسُّنَّة وأقوال وأفعال صحابته (رضي الله عنهم أجمعين) وقد أطلنا في ترجمة الكتاب ومقدمته من أجل أن يكون الناظر فيهما على بصيرة مما يتضمَّنه الكتاب في الجملة قبل الوقوف على جميع ما فيه، فإن أكن قد أصبت الذي أردت فهذا توفيق من الله وإن تكن الأخرى فلا يكلّف الله نفساً إلاّ وسعها.

والله الهادي إلى سواء السبيل

المؤلف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: الآية ١] .

أحمده حمد الشاكرين، وأثني عليه ثناء العارفين، لا أحصي ثناء عليه، هو كما أثنى على نفسه وأستعينه استعانة من لا حول له ولا قوة إلاَّ به، وأستغفره استغفار التائبين. وأشهد أنَّ لا إله إلاَّ هو وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله الذي اصطفاه لوحيه وانتخبه لحمل رسالته، وفضَّله على جميع خلقه، وختم به نبوته، الشافع المشفع في الأولين والآخرين، المرفوع ذكره في العالمين. قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: الآية ٤] .

رفع الله ذكره في الشهادة والأذان وعند افتتاح الخطب في الجمع والجماعات، وقد فرض الصلاة عليه في التشهدات، كما اختصه بالرفع فوق السموات، وجعل رسالته خاتمة الرسالات، وجعله رحمة مهداة وسمَّاه السراج المنير فهو أفضل الخليقة نفساً وأعظمهم خَلْقاً وخُلُقاً وأزكاهم نسباً وداراً فصلَّى الله عليه كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون، فجزاه الله عن أمة الإسلام أفضل ما جازى به نبيًا عن أمته.

فما من نعمة إلاَّ هو سببها، فإنَّه أنقذنا به ربنا من الهلكة، وجعلنا به خير أمَّة أخرجت للناس دائنين بدينه الذي ارتضى فقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة: الآية ١٢٨] . فالله وصف رسوله بأن همّه وشانه هو ما يدخل أمته الجنة. وينقذهم من النار وأنّه حريص على ذلك، وأنّه عزيز عليه ما يشق على أمّته وهو العنت.

وقال القرطبي: «لم يجمع الله لأحد من الأنبياء من أسمائه تعالى إلاَّ لنبينا محمد ﷺ». قال تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ١٢٨]. وكلا الاسمين مصاغ للمبالغة في الرأفة والرحمة.

روى الإمام البخاري[١] في صحيحه في أول كتاب الدعوات قال: (لكل نبي دعوة مستجابة) ثم أورد الحديث قال: حدثنا إسماعيل قال حدثني مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها، وأريد أن أختبيء دعوتي شفاعة لأمّتي في الآخرة»**.

فأراد عليه الصلاة والسلام لحكمة بالغة أن يجعل دعوته مدخرة لأمته في وقت هم أحوج ما يكونون لها، بعد فوات فرصة العمل والندم على التفريط في التوبة والاستغفار على ما اكتسبوا من المعاصي والآثام في الدنيا حتى ينجيهم الله من عذاب النار، ولا إحسان فوق هذا يجلب محبته مصداقاً لقوله ﷺ كما في الصحيحين وغيرهما: **«والله لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»**[٢].

وقد فرض الله علينا طاعته، وتعزيره، وتوقيره، ومحبَّته والقيام بحقوقه، وسد دون جنته الطرق فلن تفتح لأحد من أمته إلاَّ من طريقه ﷺ بذلك استحق أن تكون محبته أوفى وأزكى من محبتنا لأنفسنا وأولادنا وأهلينا وأموالنا والناس أجمعين، لأنه جاءنا بالرأفة والرحمة، وعلَّمنا الكتاب والحكمة وبالغ في النصيحة، وأتى بالهداية لينقذنا من العماية ودعا إلى الفلاح ومهَّد سبيله بين سبيل النجاح وأقام دليله.

ومن تدبر كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ يبهره ما يجد فيهما من النصوص التي تنبىء بمكانة محمد ﷺ عند ربه عزّ وجل وبما حباه به من خصائص لم يعطها غيره من الأنبياء والمرسلين عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم وخاصة ما ورد من ذكره والتنويه به ﷺ في سورة الأحزاب وسورة الحجرات وسورة التحريم وسورة المجادلة وما ورد من تكريم الله تعالى له ونعمه عليه في سورة الفتح وسورة الضحى وسورة الإنشراح وغير ذلك من سور القرآن الكريم. فقد شاء الله أن يجعل سيرة حياة رسوله صفحة معروضة للأجيال، فضمنها هذا القرآن المتلو في كل زمان ومكان، وهي في الوقت ذاته آية تكريم الله سبحانه وتعالى لرسوله حيث يتولى بذاته العلية أمره ويعرضه للبشرية كافة في قرآنه الخالد على مرّ الزمان، وأبان من فضله بما قرن من الإيمان برسوله مع الإيمان به ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [النساء: الآية ١٣٦] . وقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٥٨] . وقرن اسمه باسمه ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشرح: الآية ٤] . أي لا أُذكر إلاَّ ذكرت معي.

وأخرج القاضي عيَّاض في الشفاء أن آدم (عليه السلام) لما أكل من الشجرة قال:

---

(١) البخاري في الصحيح.

(٢) متفق عليه.

(اللهم بحق محمد اغفر لي خطيئتي، قال الله يا آدم من أين عرفت محمداً ولم أخلقه بعد؟ قال: لما خلقتني بيدك وأدخلتني جنّتك وأسجدت لي ملائكتك رأيت مكتوباً على باب جنّتك: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله: فعلمت أنه ليس أحد أكرم عليك ممن قرنت اسمه باسمك).

وفرض الله في كتابه أتباع سنّة نبيه ﷺ ووضع رسوله من دينه وفرضه وكتابه الموضع الذي أبان جلّ ثناؤه أنه جعله علماً لدينه بما افترض من طاعته وحرم من معصيته فقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النِّساء: الآية ٨٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: الآية ٧]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٣٦]. وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النِّساء: الآية ٦٥]. ولازم ذلك جعل الإيمان الذي ما سواه تبعاً له منوطاً بالإيمان برسوله، فلو آمن عبد بالله ولم يؤمن برسوله ﷺ لم يقع عليه اسم الإيمان أبداً حتى يؤمن برسوله ﷺ وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور: الآية ٦٣]. دليل على جعل الله سبحانه وتعالى سنّة رسوله مبينة عن الله ما أراد، ودليل على خاصه وعامه ثم قرن الحكمة وهي السنّة بكتابه وهو القرآن ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦٤]. فأتبعها إياه ولم يجعل هذا لأحد من خلقه غير رسوله محمد ﷺ.

والسيرة النبوية الغرض من دراستها ـ كما قال الشيخ البوطي ـ هو أن يتصور المسلم الحقيقة الإسلامية من مجموعها متجسدة في حياة رسول الله ﷺ بعد فهمها كقواعد ومبادىء وأحكام وهي توضح الجانب العملي والتطبيقي للأحداث التي مر بها رسول الله ﷺ من مراحل الدعوة، شاملة مبادىء الإسلام وأحكامه، فالله سبحانه وتعالى سمَّاه نوراً فقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المَائدة: الآية ١٥]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزَاب: الآيتان ٤٥ ـ ٤٦]. كما أقر ذلك رسول الله ﷺ عندما ألقى كعب بن زهير قصيدته التي يقول فيها:

إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

بل سماه سراجاً منيراً، ولم يسم بإسم السراج غيره إلاّ الشمس التي عليها مدار الحياة على الأرض بحرارتها وأشعتها فهي أساس الحياة المادية ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ [النّبَإِ: الآية ١٣].

وجعله ﷺ أساس الحياة الروحية والخلقية للناس أجمعين ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٤٦]. فلا يهتدي أحد من الخلق بدونه ولا يستضاء إلاَّ بنوره، فهو الهادي إلى سبل السعادة في الدنيا والآخرة، وكل سبيل غير سبيله فهي ضلال، فرسول الله ﷺ نور متجسّد لهداية العالم ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: الآية ١]. نذيراً للبشرية من حيرة ظلمات الشرك والضلال وغواية الشيطان والهوى، فهو ﷺ بشر من الناس ولكنه متخلّق بخلق القرآن الكريم، فكل أموره ﷺ معدّة إعداداً إلهياً منذ طفولته، فقد شق صدره بعد السنة الثانية من عمره واستخرجت من قلبه علقة سوداء: يقول أهل العلم إنها تعبير عما يولد في الطبيعة البشرية من الغرائز الشهوانية والغل والحقد والحسد، وهو ما ينزع من أهل الجنة فقال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحِجر: الآية ٤٧] . ليصفو ويسمو ﷺ عن نوازع الدنيا ومباهجها ومفاتنها، كما شق صدره ليلة الإسراء وملىء قلبه بالحكمة والإيمان، كما جاء في الصحيحين وأخرج البزار [(١)] من حديث ابن عباس مرفوعاً أن النبي ﷺ قال: «فضلت على الأنبياء بخصلتين: إحداهما كان شيطاني كافراً فأعانني الله عليه فأسلم ولم يذكر ابن عباس الأخرى»[(٢)].

وعند الإمام مسلم أنه لمَّا قيل له صليت جالساً وسبق أن قالت أن صلاة المرء جالساً بنصف صلاته قائماً فقال ﷺ: «ولكني لست كأحد منكم» وأيضاً في حديث صيام التطوع باب بركة السحور وكذلك قال لست كهيئتكم إني أظل أطعم وأسقى وهو ﷺ مشرع ولا يقول إلا حقاً، وآيات القرآن الكريم تؤيده بأنه على الحق المبين ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل: الآية ٧٩] ومنها أيضاً: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحَجّ: الآية ٦٧] . ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزّخرُف: الآية ٤٣] . وقال ﷺ: «إني على علم من الله علمنيه» البخاري وغيره وقال ﷺ «إنما أنا رحمة مهداة»[(٣)] رواه الحاكم وصححه وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧] . وقال ﷺ: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»[(٤)].

فبهذه النصوص وغيرها ثبت أن القدرة الإلهية هيّأت هذا النبي العظيم ﷺ ليكون قدوة وأسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.

ونحن يلزمنا بلا ريب أن ندرس جميع النواحي الشخصية والإجتماعية والإنسانية في حياته ﷺ ما دام هو قدوتنا الحسنة، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ

---

(١) رواه البزار. (٢) صحيح مسلم.
(٣) رواه الحاكم وصححه.
(٤) أحمد والحاكم وصححه وهو في صحيح الجامع الصغير.

﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ [الأحزاب: الآية ٢١]. حتى نطبّق ما استطعنا من سيرته على حياتنا وسلوكنا، فالمسألة أخطر من أن تتصور بأنها لا تعنينا لأن أمره متعلّق بمصيرنا. وقد جاء في صحيحي البخاري ومسلم: (ولقد أوحى إلي أنكم تفتنون في القبور مثل أو قريباً من فتنة الدجّال، يؤتى أحدكم فيقال له: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن أو الموقن، فيقول: هو محمد رسول الله ﷺ جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا وآمنا وتبعنا فيقال له نم صالحاً، فقد علمنا إن كنت لموقناً، وأما المنافق أو المرتاب فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته)[١]. إذاً نحن نفتن في القبر بالسؤال عنه، وقد جاء في كتاب وسائل القبول لخصائص الرسول ﷺ نظم العلامة أم الخيرات بنت أحمد المختار الشنقيطية والذي قام بشرحه ابن أخيها فضيلة الشيخ العالم أحمد بن محمد الأمين بن أحمد المختار المدرّس بالمسجد الحرام (سابقاً) ما نصه:

خص نبي الله فيما قد ذكر بأنه يسأل عنه من قبر
ولم يكن ذا لنبي قبله أبان رب العرش فيه فضله

ولما كانت محبته ﷺ هي فرض عين بالكتاب والسنّة والإجماع، فلازم ذلك معرفة سيرته ﷺ لتوقف محبته عليها، لأن أهل العلم متفقون على أن الواجب الذي لا يقع الفرض إلاّ به فهو واجب، كالطهارة بالنسبة للصلاة. ذكر الإمام ابن كثير عن الواقدي، عن عبد الله بن عمر بن علي بن الحسين عن أبيه، قال سمعت علياً ابن الحسين يقول كنا نعلم مغازي رسول الله ﷺ كما نعلم سورة من القرآن الكريم، وبهذا تظهر أهمية السيرة لاشتمال القرآن الكريم على الكثير منها، وكذلك السنّة النبوية وهي تدرس لتبين خيرية رسالة الإسلام وخيرية رسول الإسلام وخيرية الأمة التي يقول الله عنها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: الآية ١١٠].

وقد عرف البدوي الشنقيطي في نظمه للغزوات فضل خيرية الرسول ﷺ على غيره من الرسل، ثم خيرية الملّة الحنفية التي جاء بها، ثم خيرية الأمة التي بعث فيها على مثيلاتها فقال:

حمداً لمن أرسل خير مرسل لخير أمة بخير الملل

فإنه لا يخفى أن كل ما أوتيت هذه الأمة من الخصائص والفضائل إنما هو مستمد من خصوصية النبي ﷺ. وكما قال الشاعر:

لما دعا الله داعينا لطاعته بأكرم الرسل كنا أكرم الأمم

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

فالتعرف على سيرته ﷺ هو السبيل الوحيد لمحبته ﷺ لأن المرء لا يحب من لا يعرف وإذا كان المرء يحب غيره لما يشاهد فيه من الخصال الحميدة والأخلاق الكريمة، كما يمتلكه الإعجاب بالعظماء ذوي المواهب الخاصة من أبطال وقواد وشعراء ومخترعين وفنانين، فما بالك بمن اجتمعت كافة خصال المحامد فيه، وزاد أن الله أنقذ به من آمن بالله من الشقاوة إلى السعادة، ومن النار إلى الجنة ومن معصية الله إلى رضوانه. . . ولا تجد فيه مغمزاً واحداً من قبيح أو رذيلة بل إن الله جعله رؤوفاً رحيماً وأوجب طاعته ومحبته وتعزيزه وتوقيره.

ومنه ذكر مناقبه ومآثره وبيان أوصافه السنية وأحواله العلية وخصائصه ومعجزاته وصفاته وشمائله التي لا تحصى. ولله در القائل:

وعلى تفنن واصفيه بوصفه ... يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

وكما قال ابن الخطيب:

مدحتك آيات الكتاب فما عسى ... يثنى على علياك نظم مديحي
وإذا كتاب الله أثنى مفصحاً ... كان القصور قصار كل فصيح

وكما قال الآخر:

ماذا عسى الشعراء اليوم تمدحه ... من بعد ما مدحت حم تنزيل

فإذا كنا لا نعرف سيرة من جعله الله قدوة لنا حتى نقتدي به نكون قد فرطنا وعصينا فيما فرضه الله علينا وقصّرنا في اتّباع ديننا وإيماننا فنستعيذ بالله من ذلك.

وبعد:

فهذه نبذة يسيرة من سيرة نبينا محمد ﷺ سيد ولد آدم جمعتها من كتب السيرة المختلفة، أحببت إعادة صياغتها ونشرها بصورة تبرز الطريقة التي دارت بها الأحداث من بدء الدعوة إلى أن دخل الناس في دين الله أفواجاً، مع إبداء بعض التعليقات والتعليلات التي توضح الصورة جلية بدلاً من تسجيل الوقائع التي كان معمولاً بها عند القدامى، وقد ركزت على اختيار بعض الآيات القرآنية التي تعالج ما دار بين رسول الله ﷺ وكفار قريش وما دار بينه وبين أهل الكتاب من اليهود والنصارى بشأن صدق الرسالة وإثبات وحدانية الله سبحانه وتعالى، وإثبات البعث بعد الفناء، والآيات التي تصف وقائع بعض المعارك في غزواته ﷺ والتي تصور الأحداث التي كانت قاسية على المسلمين وما واجهوه من كثافة العدو وتفوّقه في السلاح والخيل والعدة وما أصابهم من اضطراب وخوف في معركتي أحد وحصار الأحزاب اللتين غزت فيهما قريش دار هجرته ﷺ وألّبَتْ عليه قبائل العرب واليهود ليطفئوا نور الله. وقد وصف الله ذلك بقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾

[الأحزاب: الآية ١٠]. وقد بيّن القرآن أن الحكمة الكامنة من وراء ذلك هي تربية الأمة الإسلامية وتمحيصها، وأن الغرض هو تمييز الصفوف وفرز المؤمن من المنافق ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٤١﴾ [آل عِمرَان: الآيتان ١٤٠ ـ ١٤١] . وليعدّ الجماعة المسلمة للمهمة العظمى التي ناط بها حمل الرسالة وتبليغها وهي مهمة القيادة الراشدة للبشرية وإقرار منهج الله في الأرض في صورته المثالية الواقعية.

وقد سميت الكتاب **(محور رسالة الإسلام في سيرة سيد الأنام ﷺ)** وأهم العناصر التي نريد إبرازها في هذا الكتاب تتلخص في الأبواب التالية من أجل: **(التعرف على مضمون الكتاب)**.

الباب الأول:

السيرة والدعوة (الفصل الأول)

ويتضمن هذا الفصل إعطاء فكرة عن مضمون الكتاب، وهي الرغبة في المشاركة في تجديد ما انطوى من سيرته ﷺ وشمائله رجاء أن يكون ذلك من الأعمال الصالحة التي يرجى ثوابها في الدنيا والآخرة فقد قال ﷺ: **«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاَّ من ثلاث: صدقة جارية أو علم يتنفع به أو ولد صالح يدعو له»**(١) واقتداء بعلماء السلف الصالح وإن كنت لست إلاَّ متطفلاً على موائد كتبهم لعلّي أسلك في مسلكهم رجاء أن يكون في ذلك ما يقربني إلى الله زلفى.

وقد نتعرض في أثناء رصدنا لأحداث السيرة إلى كشف بعض دسائس ومكائد أعداء الإسلام والفتن التي يحيكونها ضد الإسلام وأهله والرد عليها ما أمكن ذلك، كما نتطرق في ثنايا فصول الكتاب إلى جوانب تعالج أوضاعاً وشبهات أخرى حلت في حياة الناس اليوم بسبب انجرافهم وسقوطهم في أوحال المدنية الحديثة لعل في ذلك وسيلة توقظ ضمير أبناء المسلمين على الواقع الأليم الذي فرض عليهم أن يعيشوا فيه اليوم والذي تتحكم في إفرازات أملتها الحضارة الغربية التي قوامها الإلحاد والزندقة والفجور، حيث اجتالتهم المدنية الغربية عن دينهم وورّثتهم مكانه ثقافة وحضارة أهل الغرب وعاداتهم وتقاليدهم وهي عبادة الدنيا والاستغراق في شهواتها ومتاعها وملذاتها، ونسيان الإله المعبود وتعاليمه نسياناً مطلقاً، والدعوة السافرة إلى الانحلال بالتعري الجسدي للمرأة باسم الزينة والحضارة والحرية، وهم على أثر من قبلهم ﴿وَقَالُوٓاْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ

---

(١) متفق عليه.

﴿وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ﴾ [الجَاثيَة: الآية ٢٤] . وقول محدثيهم (أرحام تدفع وقبور تبلع وبين هاتين لهو ولعب).

وقد كرّس المستشرقون وهم حملة الفكر الصليبي جهودهم بتحطيم الإسلام ومبادئه وتدمير القيم الأخلاقية التي جاء بها، وتحويل المسلمين عن منهجهم القرآني الذي عمل خلال ثلاثة عشر قرناً على تهذيب أخلاق أهله وصيانتهم من كل رجس.

وأول هذه الشبهات والمكائد التي نرد عليها قولهم بأن الإسلام انتشر بالسيف بدلاً من حجة الإقناع ونظراً لتعلق هذه المسألة بالسيرة النبوية فقد يشتمل هذا الكتاب على الرد عليها باختصار حيث قالوا إن الإسلام لو كان دين حق لكان دين الرحمة، وما استوجب سل السيف على الخلق ولما سلب أملاكهم واسترق ذراريهم بالسبي، ولكانت الدعوة إليه باللسان والإرشاد إليه بقوة البيان. وسنتعرض لرد تلك الشبهة عند بدء الإذن بالقتال الذي أذن الله فيه للمسلمين بعد استقرارهم بالمدينة بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ [الحَجّ: الآيتان ٣٩، ٤٠] .

وأما السيرة في عصرنا هذا فقد أصبحت لا تتعدى قصة مولده ﷺ تتلى في يوم ميلاده، أو تأليف مدائح له تصاغ بنعوت مستغربة يتلوها العاشقون يتأوهون من طرب لما يصاحب ذلك من طبل وطار زاعمين أنه هو حد محبته ﷺ، وتجد في أكثر الدول العربية والإسلامية يعطل العمل يوم ميلاده ﷺ ووسائل الإعلام من إذاعة وتلفزة في كل بلد إسلامي تنوه به في ذلك اليوم كحادث عابر مر مرور التاريخ، كما يحتفل النصارى بميلاد المسيح واليهود بيوم الغفران.

كذلك القرآن حوّل من شريعة وأحكام وعقيدة وسلوك وعظة وتوجيه إلى قراءة ملحنة بأنغام مرددة أقصى عن التحكيم، وفرغ من مضمونه الذي جاء من أجله ولولا أن الله سبحانه وتعالى تكفل بحفظه لبدّل وغيّر.

وأملنا في الله سبحانه وتعالى أن ينفخ الروح من جديد في أمة الإسلام وأن تعود إلى دينها وتحكم كتابها، وتسنن بسنّة رسولها ﷺ.

يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي: عجيب أن يجهل المسلمون حكمة ذكر النبي العظيم خمس مرات في الأذان كل يوم ينادي باسمه الشريف ملء الجو. . ثم حكمة ذكره في كل صلاة من الفريضة والسنّة والنافلة يهمس باسمه الكريم ملء النفس. وهل الحكمة من ذلك الفرض عليهم ألاّ ينقطعوا عن نبيهم ﷺ ولا يوماً واحداً من التاريخ ولا جزءاً واحداً من اليوم فيمتد الزمن مهما امتد والإسلام كأنه على أوّله والمسلم كأنه مع نبيه ﷺ بين يديه تبعثه روح الرسالة ويسطع في نفسه إشراق النبوة فيكون دائماً في أمره كالمسلم الأوّل الذي غيّر وجه الأرض . . . إلخ.

الباب الثاني:

محور رسالة الإسلام

وهو بحث يلخص ما دار بين رسول الله ﷺ وكفار قريش في أمر الدعوة وهي عقيدة التوحيد من ربوبية وألوهية ومقاومة كفار قريش لذلك وتصلبهم على البقاء على الشرك الذي ورثوه عن آبائهم وأجدادهم وإنكار البعث وهو ما عنيناه في مضمون كتابنا هذا (محور رسالة الإسلام في سيرة سيد الأنام ﷺ) للوقوف على حقيقة دعوة الإسلام ووجهة نظر المشركين المعاندين المكابرين ومعالجة القرآن الكريم للعقائد المنحرفة والأضاليل الباطلة والتصورات الفاسدة سواء لدى العرب المشركين بالجزيرة أو كفار أهل الكتاب الذين حرّفوا وبدّلوا في الكتب التي جاءتهم بها رسلهم عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

الباب الثالث:

الهجرة

كان سبب الهجرة من مكة إلى المدينة هو أن الدعوة في مكة وصلت إلى طريق مسدود بسبب موقف قريش العنيد، وخاصة بعد وفاة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، وموت أبي طالب الذي كان ينافح عن رسول الله ﷺ. كما أن الدعوة استوفت حقها في البلاغ، فقد ظل القرآن ينزل على رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة في جدال قريش في قضية العقيدة آمن من آمن وهم العصبة التي اختارها الله لحمل دينه ونصرة نبيه ولم يبق إلاَّ المعاندون.

فقد روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب فهيىء لي أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب**»(١).

فكان من فتح الله على رسوله وعلى الدعوة أن يلتقي بنفر من الخزرج عند العقبة يحلقون رؤوسهم فقال لهم رسول الله ﷺ: «**أنتم من موالي يهود؟**» قالوا: نعم، فعرض عليهم الإسلام فاستجابوا لدعوته وأسلموا ونقلوا أمر رسول الله ﷺ إلى قومهم في المدينة وما مرت فترة حتى فشى الإسلام بينهم، فقد وجد فيهم رسول الله ﷺ استعداداً لقبول الدعوة والحماسة لها.

ولم تمض سنتان حتى بايعوا رسول الله ﷺ على أن يحموه مما يحموا منه نساءهم وذراريهم، وهكذا كان سبب الهجرة.

---

(١) رواه البخاري.

الباب الرابع:

غزوات رسول الله ﷺ

قال الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزي في كتابه ـ زاد المعاد في هدي خير العباد ـ إن رسول الله ﷺ لما استقر بالمدينة المنورة، وأيده الله بنصره وبعبادة المؤمنين الأنصار وألَّف بين قلوبهم بعد العداوة التي كانت بينهم، فمنعته أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلوا نفوسهم دونه، وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أولى بهم من أنفسهم رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة. وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة وصاحوا بهم من كل جانب، والله يأمرهم بالصبر والعفو والصفح حتى قويت شوكتهم فأذن لهم في القتال: فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ﴾ [الحج: الآيتان ٣٩ ـ ٤٠] . انتهى.

وكانت بيعة العقبة الثانية قد نصت على حماية رسول الله ﷺ إذا قدم المدينة حتى يبلّغ رسالة ربه، فقد جعلت حال أهل المدينة ومن معهم من المهاجرين، وحال مشركي مكة وغيرهم من العرب في حال حرب بالطبع، كما هو مقتضى العرف في ذلك العصر لأن الرسول ﷺ خرج وهو مطارد يريدون قتله. قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: الآية ٣٠] . والمدينة بقدوم رسول الله ﷺ وأصحابه من المهاجرين إليها بدأت معالم الدولة الإسلامية تظهر فيها، وولى السلوك الفردي، وحل محله الولاء المشترك ـ الشرع يضع طابعه على كل نواحي الحياة ـ بدأ المسجد يكتظ بالمصلين وبدأت مطاردة المحرمات، وبدأت الشرائع تتوزّع على قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وبدأ القرآن يصف أعداء الإسلام ويحذر منهم، ويبيّن نواياهم نحو الإسلام وأهل الإسلام قال تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠٥] . وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٧] . وقال تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [المُمتَحنَة: الآية ٢]. وقال تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ﴾ [التوبَة: الآية ١٠] .

وتمشياً مع توجيهات الوحي بدأت السرايا تتكون لحماية الإيمان في موطنه الجديد لقمع من تحدثه نفسه بالعدوان. وأصبح للإسلام دولة تحمي حماه، وقوة تخشى، وشوكة ترهب الأعداء، وأخذ الإسلام بعد الهجرة منعطفاً سياسياً مهماً تحول بعده من مركز الضعف إلى مركز القوة. وأخذت السرايا تجوب المناطق المجاورة للمدينة تحسباً

لكل طارئ، وتترصد طريق القوافل المارة بين مكة والشام، وتتطلع أحوال القبائل المعادية هناك، وإشعار اليهود القاطنين حول المدينة والأعراب بأن المسلمين أصبحت لهم قوة تحميهم وترهب أعداءهم، وأهم أهداف السرايا أخذ الطريق على قوافل قريش المتجهة إلى الشام في تجارتها، جزاء وقوفها في وجه الدعوة وتآمرها على قتل رسول الله ﷺ وتنكيلها بأصحابه ﷺ وقصاصاً من حصار قريش للمسلمين في معاهدة المقاطعة التي شملت حتى كفار بني هاشم، وبني المطّلب، وهو الميثاق الذي تحالفت قريش فيه على تجويع المسلمين ومن يحميهم في شعب أبي طالب مدة ثلاث سنين.

وهكذا شرّع الله لنبيّه بعد الهجرة سنّة الجهاد لرد بغي قريش بعد أن أخرجوه ﷺ من بين أظهرهم، وهموا بقتله.

وكانت قريش بعد أن فاتها قتل رسول الله ﷺ أو القبض عليه ووصوله المدينة أرسلت إلى عبد الله بن أبي ابن سلول بصفته زعيم الخزرج بكتاب تقول فيه (إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لنقاتلنّه أو لتخرجنّه، أو لنسيرنّ إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم). ثم أرسلت إلى المهاجرين من المسلمين تقول: (لا يغرنّكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب، سنأتيكم فنستأصلكم، ونبيد خضراءكم في عقر داركم).

وأخذ رسول الله ﷺ يبعث السرايا والبعوث ويأمرها بالتعرض لقوافل قريش، والاستيلاء عليها مما كان سبباً في بدء الغزوات التي دارت بين قريش وغيرهم من الأعراب وبين المسلمين.

وسوف نتطرق إلى الغزوات الكبيرة المهمة، مثل بدر، وأحد، والأحزاب، والحديبية، والفتح وحنين، وتبوك.

الباب الخامس:

الشمائل المحمدية

وهو بحث الشمائل المتضمنة ذكر كمالاته ﷺ التي نعرف بها حسن صورته من أوصافه وصفاته الخَلقية والخُلقية المؤدية إلى كمال محبته ﷺ. ونتعرض لها على النحو التالي:

أولاً: فهو ﷺ أوتي كل الحسن، ولم يؤت يوسف إلاَّ شطره كما جاء في الأثر(١) وجاء (في أسد الغابة) أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ كما وصف حسان رضي الله عنه.

---

(١) رواه مسلم.

متى يبد في الداجي البهيم جبينه   يلح مثل مصباح الدجى المتوقد
فمن كان أو من قد يكون كأحمد   نظام لحق أو نكال لملحد[١]

وقال أيضاً رضي الله عنه:

وأحسن منك لم تر قط عيني   وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرأ من كل عيب   كأنك قد خلقت كما تشاء

وقال أيضاً:

أغر عليه للنبوة خاتم   من الله مشهود يلوح ويشهد

وقد جاء في الحديث الذي رواه أحمد رحمه الله عن العرباض بن سارية رضي الله عنه الذي يقول فيه ﷺ: سأخبركم بأول أمري، ثم ذكر رؤيا أمه حين وضعته، أنها خرج منها نور ساطع أضاءت منه قصور الشام، وقال ﷺ: «اللهم كما أحسنت خَلقي فأحسن خُلقي»[٢].

ومن الأوصاف البهية ما ذكره ربيبه هند بن أبي هالة رضي الله عنه وكان وصافاً، قال: كان ﷺ فخماً مفخماً يتلألأ تلألؤ القمر ليلة البدر، أزهر اللون أبلج، بهي، بهيج الوجه، أبيض مشرب، أشم، أزج الحاجبين، مفلج الأنياب، كحيل الجفن، أدعج العين، أهدب أشفار العين. مدوّر الوجه، أسيل خد، طويل بنان، إذ أفتر، رئيَ النور من فيه، ثناياه كأنها حب البرد إذا بدت، قويم القناة، وسيطاً بين الربعة والطول . . . إلخ.

ثانياً: صفاته الخلقية: شب رسول الله ﷺ في مجتمع قريش فكان أحسنهم خُلقاً وأفضلهم مروءة وأكرمهم حسباً، وأرجحهم عقلاً وأصدقهم قولاً وأعظمهم أمانة حتى عرف بينهم بالأمين.

ويشهد بذلك أعداؤه قبل أصدقائه، فقد قال عنه عتبة بن ربيعة عندما سمع قريشاً يقولون إن محمداً ﷺ ساحر أو كاهن أو شاعر، أو كذاب. فقال مقولته المشهورة:

(يا معشر قريش، قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، لقد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أكرمكم خلقاً، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم كاذب، وساحر مجنون)[٣].

هذه شهادة من عدوٍ لرسول الله ﷺ قُتل كافراً يوم بدر.

الشهادة الثانية: أن أبا سفيان بن حرب عندما سأله هرقل ملك الروم عن صدق رسول الله ﷺ في دعوى النبوة ليستدل على أخلاقه، قال هرقل: (هل كنتم تتهمونه

---

(١) أسد الغابة.
(٢) رواه أحمد وهو في صحيح الجامع الصغير.   (٣) ابن هشام.

بالكذب قبل أن يقول ما قال)؟ فقال أبو سفيان لا[1]. فعلق هرقل: (ما كان ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله) وهذا أبو سفيان وهو لا يزال من ألدّ أعدائه.

الشهادة الثالثة: أنه ﷺ لما أمره الله تعالى إنذار عشيرته الأقربين وطلع على الصفا وناداهم جماعات وفرادى. قال لهم: لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تغير عليكم كنتم مصدقي؟ قالوا: نعم أنت عندنا غير متهم، ولم نجرب عليك كذبة قط، فقال لهم: إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد). وهو في الصحيح فهذه الطامة التي بدلت الموقف من صادق وأمين، وشريف، إلى كذاب وساحر مجنون.

ولما رموه بذلك تولى الله الدفاع عنه فقال تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القَلَم: الآيات ١-٤].

فهذا الرد على المشركين ببطلان دعوى الجنون على النبي الكريم ﷺ لذلك قرن نفي الجنون بالدليل القاطع على سلامته بقوله: ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ [الطُور: الآية ٢٩] فنبه تعالى بالنعم الظاهرة التي يعرفونها فيه، فقد ألفوه كامل العقل، ذا سيرة مرضية، بريئاً من كل عيب، موصوفاً بكل مكرمة، فظهور هذه النعم عليه ينافي وجود الجنون. ومن خصائصه ﷺ أن الله أقامه مقام ذاته في أخذ البيعة وإصدار الأحكام في تحليل الطيبات وتحريم الخبائث.

وأنه وضع عن أمته بسببه الإصر، والأغلال التي كانت على الأمم قبلهم، وأنه جل جلاله أعطاه الرضى، والسؤل، والكوثر، وسماع القول، وإتمام النعمة، والعفو عما تقدم وتأخر، وشرح الصدر ووضع الوزر، ورفع الذكر وعزة النصر، ونزول السكينة، وإيتاء الكتاب، والسبع المثاني، والقرآن العظيم.

ثالثاً: بحث عن مقام رسول الله ﷺ عند ربه:

لقد أوجب الله لنبيّه الطاعة والتقدير والتعزير والتوقير والإعظام والإجلال والمحبة الذاتية لشخصه الكريم فجعل ذلك من فروض دينه وواجباته الأساسية التي لا يتحقق إيمان ولا دين بدونها دلت على ذلك نصوص من الكتاب والسنّة وإجماع الأمة، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِّتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفَتْح: الآيتان ٨، ٩]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحُجرَات: الآية ١]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوٓا أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ

---

(١) رواه البخاري.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحُجرات: الآيتان ٢، ٣] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: الآية ٢٤]. وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ﴾ [التوبة: الآية ١٢٠]. وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٥٦، ١٥٧]. ويكفي رسول الله ﷺ من الفخر ما نسبه إليه ربه سبحانه وتعالى من إعطائه الحق في التحليل والتحريم وأنه يضع عن أمته الإصر والأغلال.

والله أعطى المصطفى محمداً ... أسماء من أسمائه ومجدا
فهو رؤوف بالورى رحيم ... وشاهد وصادق كريم
مبشر بالفضل والثواب ... ومنذر الكفار بالعذاب

وأما السنّة النبوية فقد روى البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»[(١)]، وروى البخاري في صحيحه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان»[(٢)] وذكر منها أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما.

رابعاً: إن الباعث على جلب هذا الفصل في السيرة النبوية (وهو من باب العقيدة) قوة الهجمة التي يتعرض لها الإسلام ورسوله ﷺ في هذه الآونة من بلاد الإسلام من العلمانيين الملحدين تبعاً لأسيادهم من المستشرقين حملة الفكر الصليبي الذين تمردوا على الله سبحانه وتعالى.

يقول الكاتب الفرنسي (فولتير): إن فكرة الألوهية والرسالات والوحي والحياة الآخرة والحساب والجنة والنار، إن هذه كلها أوهام تبنتها البشرية في غيبة من العقل والآن وقد صحا العقل فقد آن الأوان لنبذها وتركها للهمج المتأخرين) وهو يهاجم الدين ويصفه بأنه الأغلال التي تغل الفكر عن الانطلاق والتي ينبغي أن تحطم لكي يثبت الإنسان وجوده ويقوم بدوره الذي يجب أن يقوم به في الأرض.

---

(١) صحيح البخاري.
(٢) البخاري.

ويقول جوليان هكسلي: (إن الإنسان كان يخضع لله بسبب الجهل والعجز، والآن بعد أن تعلّم وسيطر على البيئة قد آن له أن يأخذ على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل في عصر الجهل والعجز على عاتق الله ويصبح هو الله)، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

هذا المنهج اختطه الشيطان لإضلال هؤلاء الكفرة ثم أتبعهم من الملحدين العلمانيين في البلاد الإسلامية، وأصبحوا يسخرون من الدين ومن رسوله ﷺ فيقول أحدهم بمناسبة افتتاح السد العالي في مصر: (إن هذه الصحراء بقيت في يد الله ملايين السنين فظلّت كما هي صحراء جرداء فلما تسلّمها الإنسان حوَّلها إلى مروج خضراء)!!!

ومن أولئك رسام الكركتير في جريدة الأهرام صلاح جاهين الذي رسم فيها رجلاً بدوياً يرمز إلى رسول الله ﷺ وهو يركب حماراً في وضع مقلوب أي رأس الحمار في اتجاه ووجه الرجل في الاتجاه الآخر ثم يعقب في أرضية الصورة بصورة الديك وتسع دجاجات ويقول في عنوان الرسم (محمد أفندي جوز التسعة) وهذا هجوم سافر على شخص رسول الله ﷺ وزوجاته، ومن العجيب أن يصدر في بلد كان من معاقل وحصون الإسلام الكبيرة ولا يزال إن شاء الله، ولهذا المثل مثيلاته في بقية الدول الإسلامية وقد صدر في إحدى صحفها أن آدم (عليه السلام) طُرد من الجنة بسبب عدم دفع أجرة السكن وهذا استهزاء برسل الله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: الآيتان ٦٥ ـ ٦٦]. فأصبح لزاماً تبيان وجهة نظر الإسلام وحكمه على هؤلاء المستهزئين الملحدين في دين الله ورسله في بلاد الإسلام!!

كما أنه من جهة أخرى فإن هناك طائفتين من المسلمين على طرفي نقيض في سلوكهم وتعريفهم لمحبة رسول الله ﷺ وتعظيمه.

الطائفة الأولى:

وهم بعض الدعاة الذين يتظاهرون بالمعرفة عندما يتكلمون عن جناب رسول الله ﷺ من ناحية التعظيم أو التقدير أو المحبة فتجد أحدهم تصدر عنه ألفاظ نابية وغير لائقة بمقام رسول الله ﷺ وتنبىء عن غلظة وجفوة، وأما محبة شخصه ﷺ فتجدها في المستوى الأدنى، ولا يعتبرها شيئاً في أصل الدين ولا رابطة بينها وبين الإيمان، وحتى إن البعض يراها من باب المغالاة المنهى عنها، فهذا الفهم خاطىء لأن الذي ألزم محبته ﷺ وأوجب تعظيمه وتقديره هو الله سبحانه وتعالى، كما مرّ بنا في الآيات المتقدمة والأحاديث النبوية، ولا يوجد من خوّل له أن يستدرك على هذا الحق لأن الذي وهبه هو الله سبحانه وتعالى، فتعظيم رسول الله ﷺ ومحبته لازم في كل أوان وبين كل

قبيل، ويقال لن يتاح لمصلح أن يهدي قوماً وهو مغموط الحق معرّض للجفوة والكنود وخاصة أن الله سبحانه وتعالى جعل لنبيه ﷺ من الكفاية ما خوّله المكان الأسنى من التعظيم والمحبة والإعجاب والثناء بحكم دينه الذي جاء به وشمائله التي لا يوازيه فيها أحد مع ما وفّر له من صفات تجلب المحبة من فصاحة وصباحة ودماثة تحببانه إلى كل من رآه، وتجمع عليه قلوب من عاشره، ولا يختلف في ذلك عدو ولا صديق، وكان جامعاً للمحبة والثقة مشهوراً بالعفة والصدق والأمانة، ووصفه الله تعالى بأنه رؤوف رحيم كما جعل الله محبته فرض عين على كل مسلم، سواء محبة طاعة واتّباع أو محبة ذات شخصه الكريم، فالله سبحانه وتعالى مدح نبيه ﷺ بالثناء عليه في الملاء الأعلى وثنى بملائكته قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٥٦]. وأوجب ذلك على عباده في الأرض بإلزام الصلاة والسلام عليه، وأرغم أنف من لم يفعل ذلك، وأبعده من الرحمة، وتوعد المجالس التي لا يذكر فيها إسم الله ولا يصلى فيها على نبيه ﷺ بأنها ترة وحسرة على أصحابها، كما بيّن أن محبته دائمة في قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الضحى: الآية ٣].

أي ما تركك ربك ولا جفاك ولا كرهك منذ ودّك وأحبّك، فمدحه بعظيم الخلق فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القَلَم: الآية ٤]. والذي يوضح حقيقة هذا الأمر هو ما سوف ننقله عن محبة أصحاب رسول الله ﷺ له في هذا الباب.

أما الطائفة الثانية:

التي ينسب إليها أنها غالت في رسول الله ﷺ حتى تجاوزت الحد، وأنها لا تميز بين حقوق الله سبحانه وتعالى وبين ما يجب لرسوله ﷺ من الالتجاء في الشدائد ودعاء المضطر بتفريج الكروب والمصائب، أو صرف شيء من العبادة لغير الله، فهذه الطائفة هي المخطئة والجاهلة وهي التي أشار إليها الحديث: (لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم)[(١)].

أي لا تخرجوني عن مقام العبودية لله، ولا تجعلوني ﷺ نداً ولا شريكاً، وهو تحذير بأن يستهوينا الشيطان بأن نقول أقوالاً أو نفعل أفعالاً تؤول بنا إلى الشرك، وهو ما حذّر منه رسول الله ﷺ مثل السجود لغير الله والذبح والنذر أو اتخاذ قبره وثن يعبد من دون الله أو إشراكه في أي نوع من العبادة، ولا فرق في دعاء المضطر وكشف السوء عن المكروب وبين تحصيل المطالب الأخرى التي لا يقدر على تحصيلها إلاّ الله، مثل

---

(١) رواه مسلم.

جلب الأولاد وطلب المغفرة والنجاة من الدواهي والابتلاءات. هذه المذكورات لا يجوز الالتجاء فيها إلاَّ إلى الله سبحانه وتعالى، لأنها من خصائص الربوبية، فمن دعا غير الله طالباً منه ما لا يقدر عليه إلاّ الله من جلب نفع أو دفع ضر، مثل أن يقول اغفر لي أو ارحمني أو أغثني أو أنت حسبي فقد شبّه المخلوق بالخالق في خصائص الألوهية.

فإن أخص خصائص الألوهية، التفرّد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع والمغفرة وإجابة المضطر، فهذه كلها للواحد القهّار ومحبته ﷺ وتعظيمه هو اتّباعه والاقتداء به في إخلاص التوحيد والعبادة لله وحده لا شريك له، فمن أصرح الآيات الواردة في ذلك ما جاء في سورة النمل من قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النَّمل: الآية ٥٩] . إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: الآية ٦٤]. وهذه الآيات اشتملت على قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النَّمل: الآية ٦٢]. فبيّن سبحانه وتعالى أن إجابة المضطرين إذا التجأوا ودعوا كشف السوء عن المكروبين لا فرق بينها وبين خلق السموات والأرض وإنزال الماء وإنبات النبات ونصب الجبال وإجراء الأنهار بأنه سبحانه وتعالى ذكر الجميع بنسق واحد في سياق واحد واتبع جميعه بقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النَّمل: الآية ٦٠] . أي لا يفعل ذلك إلاَّ دعوى أن يكون هناك إله مع الله.

والحقيقة أن الحق ضائع بين الإفراط والتفريط بين الطائفتين وهو شبيه بما فعلته الشيعة والنواصب، فالنواصب يلعنون علياً ويسبّون آل البيت، والشيعة أفرطوا في علي وآل البيت، وهذا ما لا ينبغي.

وقصدنا في هذا البحث رد الشبهات التي يرددها السفهاء الشائنون لدين الله والمستهزؤون برسوله ﷺ بالشواهد والبينات وبالحق الذي يثبت له الحب في قلوب المؤمنين دون مغالات ولا تفريط.

الباب السادس:

ما خلفه رسول الله ﷺ بعد رحيله إلى الرفيق الأعلى

وهو بحث يعطي فكرة عما خلفه رسول الله ﷺ بعد رحيله إلى الرفيق الأعلى بعد أن دانت له جزيرة العرب ودخل الناس في دين الله أفواجاً وتمّ إكمال الدين عقيدة وشريعة وأخلاقاً كما بيّن آثار نجاح الدعوة وإظهار دين الله على كل دين تصديقاً لقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح: الآية ٢٨] . وما تركه لأصحابه من معالم واضحة تبشر بنشر الإسلام في بلاد فارس والروم، وفي أقطار الدنيا التي بشر بأن دعوته سوف تبلغها.

الباب السابع:

حالة المسلمين في العصر الحاضر، وهي خاتمة الكتاب

وهو بحث خاتمة الكتاب، ويصور حالة الانحطاط والتردي اللذين أصابا المسلمين، من ضعف وذل وهوان وغلبة أعداء في تاريخهم الحديث.

كان من أهم أهداف الإسلام الأساسية هو جعل العقيدة قاعدة التجمع التي يقوم على أساسها وجود الأمة المسلمة بدلاً من وشائج القرابة والنسب والعصبية والوطن، حيث لا يرى قيام أمة مسلمة من أفراد مهما بلغت كثرتهم دون أن يكون لهم ولاء مشترك يربطهم بعقيدتهم، ويمكّنهم من إقامة شريعتهم وشعائرهم ووحدة تدفع عنهم أعداءهم، وهدف يضم مصالحهم فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٠] . وهو بهذا يحصر ولاءهم فيما بينهم ثم يؤكده بقوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٣] . إنها الركيزة المهمة التي تقوم عليها الجماعة المسلمة لتحقيق وجودها، وأنه بدون ذلك الاعتصام لا تكون تجمعاً إسلامياً، ولا يكون هناك منهج لله تتجمع عليه أمة، وإنما تكون هناك مناهج جاهلية، ولا يكون هناك قيادة راشدة تقوم على التقوى والإسلام، ولا تجمع القلوب إلاّ تحت لواء راية الإسلام. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفَال: الآية ٧٢] . ثم عقب سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفَال: الآية ٧٣] وذلك بعد ما بيّن أن أعداءهم الكفار هم فيما بينهم بعضهم أولياء بعض وهو ولاء مقابل ولاء. فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفَال: الآية ٧٣] . فقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفَال: الآية ٧٣] أي إذا لم تقيموا بينكم الولاء الذي يربط بعضكم ببعض وهو شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله اعتقاداً وعبادةً وشريعةً وسلوكاً وتعاوناً ونصحاً لله ولرسوله وللمؤمنين وأئمّتهم وعامتهم، تكن فتنة في الأرض وفساد كبير، يتغلّب فيها الباطل على الحق ويتغلّب عليكم أعداؤكم، وهو ما وقع في عصرنا الحالي، وهذه القاعدة هي أول ما فعل رسول الله ﷺ بعد استقراره بالمدينة المنوّرة فوضع كتاب معاهدة بين المهاجرين والأنصار ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس ـ ووادع فيه من اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم ثم زاد على ذلك أن آخى بين المهاجرين والأنصار مما يؤكد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبَة: الآية ٧١] . فالله سبحانه وتعالى وصف

المؤمنين والمؤمنات أنهم جماعة متماسكة قوية متضامنة تقوم بواجبها الديني والدنيوي في وحدة من النصيحة لبعضها البعض وبيّن ذلك بآية أخرى فقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: الآية ٢٩]. وكما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: الآيات ١-٣]. وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦﴾ [الأنفال: الآية ٤٦]. وطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ هما المؤديتان إلى عدم التنازع المؤدي إلى الفشل واختلاف الكلمة وذهاب الريح الذي هو القوة فقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠]. وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»**(١)، وزاد البخاري في روايته وشبك بين أصابعه. وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»**(٢). هذا هو الذي أمر به الدين الإسلامي الحنيف وعلى ضوئه جرى تطبيق هذه القاعدة من عهد الصحابة رضوان الله عليهم، ثم من جاء بعدهم وسار على منهجهم إلى أن جاءت نكبة الأندلس، وهي عقاب من الله للمسلمين على تفرقهم وتشتتهم وحرب بعضهم لبعض، وتعاونهم مع أعداءهم من الصليبيين ضد بعضهم البعض، واتخاذ أولئك الأعداء بطانة من دون المؤمنين مخالفة لأمر الله. ومن ذلك التاريخ والمسلمون في انحدار وانحطاط وذل وضعف إلى أن زحف عليهم عدوهم الصليبي واجتاحهم واحتلهم احتلالاً عسكرياً حوّل البلاد من بلاد إسلام التي يطلق عليها في التعريف الإسلامي (دار الإسلام) وهي التي يطبق فيها حكم الله بغض النظر عن عقيدة سكانها والتي يقابلها (دار الكفر) وهي الأرض التي تحكم بشرع حكامها أو أهواء قادتها دون النظر إلى ما يعتنقه قاطنوها، وقد عمت هذه الظاهرة جميع الأقطار الإسلامية من مشرق الأرض إلى مغربها باستثناء المملكة العربية السعودية من بلاد جزيرة العرب التي تضم بلاد الحرمين الشريفين مكة المكرمة والمدينة المنورة وذلك بفضل الله سبحانه وتعالى الذي حماها من دخول المستعمر الصليبي، ثم بفضل إخلاص مؤسس تلك الدولة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود الذي أسسها على تحكيم كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

---

(١) رواه الشيخان.

(٢) رواه أحمد ومسلم.

وقام المستعمر الصليبي بإضفاء صبغته على أبناء المسلمين في المأكل والمشرب والملبس، ثم قام يشكك ضعاف النفوس من المسلمين في دينهم وتمسكهم بالقرآن العظيم إلى أن أجلاهم عن دينهم وورثهم مكانه ثقافته وحضارته وعاداته وتقاليده التي تقوم على عبادة الدنيا والاستغراق في شهواتها ومتاعها وملذاتها ونسيان الإله المعبود وتعاليمه نسياناً مطلقاً، والدعوة السافرة إلى الانحلال بالتعرّي الجسدي للمرأة باسم الزينة والحضارة والحرية، كما قاموا بتحطيم الإسلام ومبادئه وتدمير القيم الأخلاقية التي جاء بها وتحويل المسلمين عن منهجهم القرآني الذي عمل على تهذيب الأخلاق وصيانة الأعراض واستحسان مكارم الأخلاق وكون المستعمر مجتمعاً إلحادياً علمانياً لا يعترف بالدين، واختار من ذلك المجتمع نخبة على مثال مصطفى كمال أتاتورك الذي عمل مع الغزو الصليبي على هدم وإلغاء الخلافة الإسلامية، ثم سار بعدها شوطاً بعيداً في إزالة الشخصية الإسلامية ومعالمها فجعل العطلة الإسبوعية يوم الأحد متمشياً مع النصارى كما جعل الأحرف اللاتينية حرفاً للكتابة التركية بعد أن كانت العربية، ثم إن المستعمر عمّم أفكار مصطفى أتاتورك ومنهجه على الأقطار الإسلامية الأخرى، وأخطر عمل استعمله المستعمر الصليبي هي الخطة التي استعملها لاستبعاد أن يكون بين المسلمين ولاء، كما ينص على ذلك كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ والتي وضحنا نصوصها آنفاً ومن أهداف تلك الخطة:

أولاً: دمج المجتمع العلماني الإلحادي مع الأقليات اليهودية والنصرانية التي كانت موجودة أصلاً بالبلاد تحت الحكم الإسلامي وإعطائهم دوراً بارزاً في إدارة الحكم بأنظمة المستعمر التي تبيح كل ما هو محرّم في دين الإسلام، فأنشأت محاكم مدنية تحكم بين المسلمين في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، قد يكون القاضي فيها يهودياً أو نصرانياً أو ممن سلك مسلكهم وأنشأوا فكرة الوطنية التي يتساوى فيها المسلم مع اليهودي أو النصراني حتى لا تكون نزعة إلى الإسلام ثم أنشأوا فكرة القومية وهي مماثلة للوطنية. والهدف واحد وهو ألاّ يكون ولاء عقدي بين المسلمين، فأقاموا مناهج على هذه الخطط تدرس في المدارس والجامعات حتى أفرغوا البلاد من دين الإسلام، وأصدروا دساتير تمنع على المسلمين وهم أغلبية مطلقة يمثلون ٩٠٪ من سكان البلاد تكوين وسيلة ولاء تجمع كلمتهم وتوحد صفوفهم مثل بقية الديانات الأخرى من نصارى بأنواعهم ـ كاثوليك وبروستنت وأرثوزكس وأرمن ويهود ـ وسمحوا للملاحدة والعلمانيين الذين كانوا ينتسبون إلى الإسلام إنشاء أحزاب مبادئها تحارب الدين الإسلامي مثل البعثيين والقوميين والشيوعيين وأضرابهم ممن تأثروا بالحركات المادية الحديثة والأفكار الإلحادية الهدّامة التي انحرفوا بها عن عقيدة الإسلام. وقد فرض على المسلمين أن يبقوا أفراداً من غير ولاء بينهم، وأشتاتاً من غير جامع، وهملاً من غير رابط، وأحياء من غير هدف.

ثانياً: من أهداف الخطة، إشغال المسلمين وتوجيههم إلى ما يفسد أخلاقهم، حتى

لا يفكروا فيما يصلح شأنهم بتسليط الغرائز، وتحكيم الشهوات، وإثارة الفتن وخاصة في البلاد التي أعطت للمرأة الحرية في السفور والتبرّج والاختلاط والتي ترتكب فيها المآثم باسم (الترفيه) (وشم الهوى) وتغيير الجو ويلتقي فيها المحافظ وغير المحافظ في جو الحرية اللاأخلاقية، وقد سهّل ذلك الترف الذي أصبح مستشرباً في نفوس الناس بسبب فيض المال وطغيان المادة على الأخلاق ليس في طبقة الأغنياء فقط بل تعدّاهم إلى الطبقات الأخرى من جراء الرخاء والنعمة، ووفر ذلك الخدم وتيسّر كل ما لذّ وطاب مما كان داعياً إلى الراحة والفراغ، وتيسرت وسائل اللهو من محطات فضائية تزخر بأنواع الخلاعة والمجون، وفي هذا العصر تجددت المزدكية والبابكية في حضارة الغرب التي هي محط الأنظار في التقدم وأصبح شعار القرامطة هو السائد بقولهم لا حقيقة في هذا الوجود، وكل أمر مباح ونشط أتباع شيخ الجبل حسن الصباح عباد اللذة المحرمة ورواد المنكر والغي والضلال، وتمردوا على الدين، وتحللوا من الخلق باسم حقوق المرأة لنشر الإباحية علانية بالتبرّج والتهتّك والاختلاط والإغراء والتزين والاستثارة بالحركات والضحكات الفاجرة، كلها فواحش أصبحت سارية المفعول، وانتقلت هذه الأعراض إلى بلاد الإسلام لأن القانون يقول إن الضعيف يقلّد القوي، والغلبة للأرقى والأقوى مع الانبهار الصناعي التكنولوجي الذي تتفوّق به الحضارة الغربية وأن العادات تتنقل دائماً بين المتجاورين، والزمن يعمل عمله في الاختلاط بالرحلات، والتواصل، وتبادل المنافع.

وقد زاد على ذلك عوامل الثقافة من إعلام، تلفزة ومحطات فضائية، وصحافة وإذاعة، وانتقال الناس مع البضائع والسلع من أقصى الأرض إلى أقصاها حاملين الأفكار الجديدة والمدنية وأنماط الحياة المستحدثة. وآخر ما يقال حديثاً عن العولمة: وهي تعني (أن العالم يجب أن يكون على شكل واحد) تقوده الحضارة الغربية سواء بالانقياد والطاعة أو بالإكراه والغلبة، وأول الإنقياد والطاعة هو توحيد الزي في الملبس وتحكمهم فيه باسم الموضة في الأزياء وأنواع الزينة والتجميل وتصفيف الشعر والتي تتبع باريس وروما وهوليود في كل فصل من فصول السنة. وهذا من أنواع أتباع أولياء الشياطين الذين قال الله فيهم: ﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٧].

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لتتبعن سَنَنَ مَن كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم، قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»**[(١)].

والذي تهدف إليه الحضارة الغربية التي تقوم على الإلحاد والزندقة والفجور وهدم

---

(١) متفق عليه.

الأخلاق الفاضلة، والذي حذر منه الشرع هو ما حل في حياة الناس اليوم بسبب انجرافهم وسقوطهم في أوحال المدنية الحديثة.

وكنا نبهنا في الفقرة الأولى بأننا سوف نتعرض في أثناء رصدنا لأحداث السيرة إلى جوانب تعالج أوضاعاً وشبهات حلّت في حياة الناس اليوم بسبب اندراس الدين، وربما بمجانفة العامة للصواب، أو مخالفتهم لمقاصد الشريعة وخاصة في هذه البلاد التي لا تزال تحافظ على بعض القيم الأخلاقية خشية أن يصيبها ما أصاب غيرها، حتى لا يفضي بنا ذلك إلى غفلة تؤول بنا إلى أن نكون عبيداً لشهواتنا وملذاتنا ونكون كما قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩﴾ [مريم: الآية ٥٩] . وهذا واضح أن الذي تستغرقه الشهوات مصيره الغي وهو الضلال والهلاك نرجو الله السلامة والعافية، وقد وصف العلاّمة ابن خلدون مآل الأمة التي تستغرقها الشهوات والملذات فقال: إن الأمة إذا اتجهت إلى الترف والدعة والراحة والسكون صار لهم ذلك طبيعة وجبلة شأن العوائد كلها، يرجعون إلى تحصيل ثمرات ذلك من المباني والمساكن والملابس فيبنون القصور ويجرون المياه إليها ويغرسون الرياض ويجلبون المهرة في فن المطابخ والمطاعم والمشارب والآنية وسائر الماعون، وينغمسون شيئاً فشيئاً فيستمتعون بأحوال الدنيا، ويؤثرون الراحة على المتاعب ويتأنّقون في أحوال الملابس والمطاعم والآنية والفرش، ويألفون ذلك ويورثونه من بعدهم لأجيالهم، وينزعون إلى رقة العيش ويتفاخرون في ذلك في أكل الطيب ولبس الأنيق وركوب الفاره من المراكب ويناغي خلفهم في ذلك سلفهم في المباهات والولائم والأعراس وتكثر حوائجهم باختلاف ما تنزع إليه نفوسهم من الشهوات والملذات والتنعم بأصناف الترف وما تتلون به موائدهم حتى يبتعدوا عن البداوة والخشونة وينسون خلق البسالة التي كانت هي الحماية وينتقلون من عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة ويفقدون حلاوة العز والشرف بسبب الترف الذي بلغ غايته من النعيم وغضارة العيش فيصيرون عيالاً من جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم وهم أجبن من حمر مستنفرة فرت من قسورة.

وهذا الوصف قد يكون مطابقاً كلياً أو جزئياً على هذه الأمة، فقد تغيرت الطباع، واختلفت المقاييس، وتبلد الحس، وشاع الإغضاء، وقلّت المبالاة وأصبح المنكر يرى علناً ولا يجد من ينكره، وتغلب طابع الترفيه والمرح على حياة الناس على طابع الجد والكد والنشاط، فتحول الليل إلى نشاط ملاهي مغاير للظاهرة الكونية التي جعلته للنوم والسكون وراحة الأبدان والأعصاب، لأن الليل جعله الله لباساً ساتراً فيه السبات والانزواء. فقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: الآية ٩٦] . وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا ١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ١١﴾ [النبإ: الآيتان ١٠،١١] . كل له اختصاصه، وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ [الروم: الآية ٢٣] .

فقد انتشرت مدن الملاهي المليئة بأنواع الألعاب والأطعمة والاستراحات، وكذلك قصور الأفراح الفخمة التي تبهر بالزينة والمتاع، الفسيحة التي تستوعب المدعوين الذين يفاخرون بكثرة أعدادهم، وأصبح الفقير يهلك بتقليد الغني في كل أبهة ومباهاة لكون الأعراس أصبحت لا تقام إلاّ في تلك القصور، ومن وقت العشاء والناس تنحشر في الأماكن العامة والشواطىء رجالاً ونساءاً وولداناً، إلى أن يطلع الفجر أو يتعالى النهار.

ومن مساوىء تلك الظاهرة ما يتبعها من إسراف وتبذير يفوق التصور، وهذا ما أصبحت العادة جارية به في هذا الزمن، كما جاء في حديث رسول الله ﷺ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنّا عند رسول الله ﷺ فقال: **«كيف أنتم إذا وقعت فيكم خمس وأعوذ بالله أن تكون فيكم أو تدرككم، ما ظهرت الفاحشة في قوم يعمل بها فيهم علانية إلاّ ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم»**... الحديث[1]. فلربما هو الحاصل الآن من أمراض لم تكن في الأسلاف، مثل مرض نقص المناعة والسرطان والفشل الكلوي وغيرها التي تكشف حيناً بعد حين.

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا — فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

وهذا البحث سنتعرض له بتوسع في آخر الكتاب.

---

(١) ذكره في كنز العمال ورمز له هب.

الباب الأول

السيرة والدعوة

الفصل الأول:

المبشرات بمبعثه ﷺ

ذكر البشارات به ﷺ:

عن العرباض بن سارية رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم بأول أمري، أنا دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني وقد خرج منها نور ساطع أضاءت منه قصور الشام**»[1]، فدعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٩]. وبشارة عيسى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصَّف: الآية ٦]. وقد اتضح ذلك من سلام الأنبياء عليه ليلة الإسراء، حيث قالوا مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، إلاّ ما كان من آدم وإبراهيم عليهما السلام حيث قالا مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، اعترافاً منهم به وتعزيزاً لما أخبروا به من الميثاق الذي أخذه الله على النبيين لأن جاءهم هذا الرسول ليؤمنن به ولينصرنه ثم أكّد ذلك عليهم بالإقرار. قال تعالى: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عِمرَان: الآيتان ٨١- ٨٢]. فالله سبحانه وتعالى أشهدهم وأشهد نفسه معهم، وقال وأنا معكم من الشاهدين.

وقد جاء ذكره ﷺ ووصفه في الكتب السماوية السابقة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات ١٩٢ ـ ١٩٦]. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٥٧].

---

(١) رواه الإمام أحمد وغيره.

فرسالته ﷺ بدء العلم بها مع بدأ الخليقة ولجميع الأنبياء والملأ الأعلى... إذ يقول كل أهل سماء ليلة الإسراء لجبريل من معك فيقول معي محمد ﷺ فيقولون أبعث؟ فيقول: نعم. الحديث[1].

وأما الإرهاصات والمبشرات بمبعثه ﷺ فأكثر من أن تعد وسنذكر منها على سبيل المثال ثلاثة أو أربعة متواترة، عند أهل السير.

١ - وفود عبد المسيح:

عن جابر بن حازم، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: لما كان ليلة ولد النبي ﷺ ارتجّ إيوان كسرى، فسقطت منه أربع عشرة شرفة، فعظم ذلك على أهل مملكته فما كان أوشك أن كتب إليه صاحب اليمن يخبره أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة، وكتب إليه صاحب السماوة يخبره أن وادي السماوة انقطع تلك الليلة. وكتب إليه صاحب طبرية أن الماء لم يجر تلك الليلة في بحيرة طبريه، وكتب إليه حاجب نار فارس يخبره أن بيوت النيران خمدت تلك الليلة، ولم تخمد قبل ذلك من ألف سنة، فلما تواترت الكتب أبرز سريره، وظهر لأهل مملكته، فأخبرهم بالخبر فقال الموبذان (فقيه الفرس):

(أيها الملك إني رأيت تلك الليلة رؤيا هالتني، قال له: وما رأيت؟ قال: رأيت إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً وقد اقتحمت دجلة وانتشرت في بلادنا، فقال: رأيت عظيماً، فما عندك في تأويلها؟.

قال: ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكن أرسل إلى عاملك بالحيرة يوجه إليك رجلاً من علمائهم، فإنهم أصحاب علم بالحدثان، فبعث إليه بعبد المسيح بن نفيلة الغساني، فلما قدم عليه أخبره كسرى الخبر، فقال له: أيها الملك والله ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكن جهزني إلى خال لي بالشام يقال له سطيح، قال: جهزوه فلما قدم على سطيح وجده قد احتضر فناداه فلم يجبه وكلّمه فلم يرد عليه، فقال عبد المسيح.

أصم أم يسمع غطريف اليمن ... يا فاصل الخطة أعيت من ومن
أتاك شيخ الحي من آل سنن ... أبيض فضفاض الرداء والبدن
رسول قيل العجم يهوى للوثن ... لا يرهب الوعد ولا ريب الزمن

فلافى إليه رأسه، وقال عبد المسيح: وقد أوفى على الضريح، بعثك ملك ساسان لارتجاج الإيوان وخمود النيران، ورؤيا الموبذان، رأى إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً، قد اقتحمت في الوادي وانتشرت في البلاد، يا عبد المسيح إذا ظهرت التلاوة، وغاض وادي

---

(١) الحديث في الصحيحين.

السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وظهر صاحب الهراوة، وخمدت نار فارس، فليست بابل للفرس مقاماً ولا الشام لسطيح شاماً، يملك منهم ملوك ومليكات عدد سقوط الشرفات وكل ما هو آتٍ آت، ثم قال:

إن كان ملك بني ساسان أفرطهم ... فإن ذا الدهر أطوار دهارير
منهم بنوا الصرح بهرام وأخوته ... والهرمزان وسابور وسابور
فربما أصبحوا منهم بمنزلة ... يهاب صولهم الأسد المهاصير
حثوا المطى وجدوا في رحالهم ... فما يقوم لهم سرح ولا كور
والناس أولاد علات فمن علموا ... أن قد أفل فمخقور ومهجور
والخير والشر مقرونان في قرن ... فالخير متبع والشر محذور

ثم أتى كسرى فأخبره، فغمه ذلك ثم تعزى فقال: إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكاً يدور الزمان، فهلكوا كلهم في أربعين سنة!!

٢ ـ خبر الكاهن، خطر بن مالك:

وفي عيون الأثر، روى أبو جعفر العقيلي عن رجل من بني لهب أو لهيب بن مالك قال: حضرت مع رسول الله ﷺ فذكرت عندنا الكهانة، فقلت بأبي أنت وأمي نحن أول من عرف حراسة السماء وخبر الشياطين ومنعهم من استراق السمع وقذف النجوم، وذلك أنا اجتمعنا إلى كاهن يقال له خطر بن مالك، وكان شيخاً كبيراً، قد أتت عليه مائتان وثمانون سنة، وكان من أعلم كهاننا، فقلنا: يا خطر، هل عندك علم من هذه النجوم التي يرمي بها، فإنّا قد فزعنا منها وخفنا سوء عاقبتها! فقال أئتو سحر أخبركم الخبر، أم الخير أم ضرر أو لأمن أو حذر، قال: فانصرفنا عنه فلما كان من الغد في وجه السحر أتيناه، فإذا هو قائم على قدميه شاخص في السماء بعينيه، فناديناه يا خطر فأومأ إلينا أن أمسكوا، فأمسكنا فانقض نجم عظيم من السماء وصرخ الكاهن رافعاً صوته فقال: (أصابه أصابه خامره، عاقبه، عاجله، عذابه، أحرقه شهابه، زايله جوابه، يا ويله ما حاله بلبله بلبله عاوده خباله، تقطعت حباله وغيّرت أحواله.

وأمسك طويلاً وهو يقول يا معشر قحطان أخبركم بالحق والبيان أقسمت بالكعبة والأركان والبلد المؤتمن، لقد منع السمع عتاة الجان بثاقب بكف ذي سلطان من أجل مبعوث بالتنزيل والفرقان وبالهدى وفاصل القرآن، تبطل به عبادة الأوثان)، فقلنا ويحك يا خطر إنك لتذكر أمراً عظيماً فما ترى لقومك يا خطر؟ قال أرى لقومي ما أرى لنفسي، فقلنا: يا خطر ممن هو؟ فقال: والحياة والعيش انه لمن قريش ما في حكمه طيش، ولا في خلقه هيش، يكون في جيش وأي جيش من آل قحطان وآل أيش، فقلنا: بيّن لنا من

قريش هو؟ فقال: (والبيت ذي الدعائم إنه من نجل هاشم من معشر أكارم يبعث بالملاحم وقتل كل ظالم). ثم قال: (هذا البيان أخبرني به رئيس الجان)، ثم قال: (والله أكبر جاء الحق وظهر وانقطع عن الجن الخبر) ثم سكت وأغمي عليه فما أفاق إلاّ بعد ثلاثة فقال: (لا إله إلاّ الله) فقال: رسول الله ﷺ:

«سبحان الله لقد نطق عن مثل نبوتي وإنه ليبعث يوم القيامة أمة وحده». يقول العلامة المختار بن بونا الشنقيطي في نظم وسيلة السعادة في نظم وسيلة السعادة في ذكر من بشروا به ﷺ.

وذاته على الصفا جبلت ... في خلقها وخلقها قد كملت
وأخبر الجن به والكهنة ... كخطر بن مالك إذ بينه
يقوله والبيت ذي الدعائم ... أيلاء إنه من آل هاشم
وقال إذ قالوا له واشتوروا ... ماذا لقومك ترى يا خطر
أرى لقومي ما أرى لنفسي ... أن يتبعوا خير نبي الإنس
يبعث في مكة دار الحمس ... يحكم التنزيل دون لبس

وقضية حراسة السماء وخير الشياطين ومنعهم من استراق السمع وقذف النجوم بهم قد وردت في سورة الجن عند قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجن: الآية ٨ ـ ٩].

ويقول الشاعر:

بعث الله عند مبعثه الشهب ... حراساً وضاق عنها الفضاء
تطرد الجن عن مقاعد للسمع ... كما تطرد الذئاب الرعاء
فمحت آية الكهانة آيا ... ت من الوحي ما لهن إمّحاء

٣ ـ خبر صاحب اليمن ولقائه بأبي بكر الصدّيق:

ويروى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه خرج إلى اليمن بتجارة فلقى شيخاً عالماً قد قرأ الكتب السماوية القديمة وأتت عليه ثلاثمائة وتسعون سنة، قال أبو بكر: فلما رآني قال: أحسبك حرمياً. قلت: نعم، فقال: وأحسبك تيمياً، قلت: نعم، قال: بقيت لي فيك واحدة، اكشف لي عن بطنك، قلت: لا أفعل. أو تخبرني لمَ ذلك؟ قال: أجد في العلم الصحيح أن نبياً في الحرم يعاونه على أمره فتى وكهل، أما الفتى: فخواض غمرات ودفاع معضلات، وأما الكهل: فأبيض نحيف على بطنه شامة وعلى فخذه اليسرى علامة، وما عليك أن تريني ما سألتك عنه فقد تكاملت لي فيك الصفة إلاّ ما خفي عليّ، قال

أبو بكر: فكشفت له عن بطني فرأى شامة سوداء فوق سرتي، قال: أنت هو ورب الكعبة. فأرسل معه أبيات وبعضها.

حييت وفي الأيام للمرء عبرة ... ثلاث مئين ثم تسعين آمنا
وقد خمدت مني شرارة قوتي ... وأبقيت شيخاً لا أطيق الشواجنا
وأنت ورب البيت تأتي محمداً ... لعامك هذا قد أقام البراهنا
فحي رسول الله عني فإنني ... على دينه حيا وإن كنت بائنا

قال أبو بكر: فحفظت الأبيات وقدمت مكة... وإذا الناس يقولون يتيم أبي طالب يزعم أنه نبي ويقول أبي بكر رضي الله عنه إنه كان يقول في نفسه أن هذا الرجل أُعد أو خُلق لأمر عظيم، قال: فجئت النبي ﷺ فقرعت عليه الباب فخرج إلي فعرض عليَّ الإسلام فما تلجلجت في تصديقه وقلت أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنك رسول الله وفرح بذلك رسول الله ﷺ. يقول العلامة المختار بن بونا الشنقيطي في نظم وسيلة السعادة في ذكر من بشروا به ﷺ:

أما سمعت قصة الصديق ... مع الذي لقى في الطريق
أعني الذي أرسل بالأبيات ... لما له رأي من الآيات
وابن سلام بالرسالة شهد ... لما له من العلامات عهد

ويروى أن أحد التبابعة من ملوك اليمن أمَّرَ ابنه على المدينة (يثرب)، فقتل غيلة، فجاء لاستئصال أهلها، وحرق نخيلها، فقاتلته (بنو قيلة) ورئيسهم يومئذ عمرو بن طلحة أخو بني النجار، فجعلوا يقاتلونه بالنهار، ويقرونه بالليل، فتعجب من ذلك، فبينما هم كذلك إذ أتاه شامول اليهودي وهو أعلم بني قريظة، فقال: أيها الملك لا تقدر على فتح هذه المدينة، وإنما نخشى عليك عاجل العقوبة إن لم تنته عنها، فقال: ولِمَ ذلك؟ فقال: هي مهاجر نبي من ولد إسماعيل مولده بمكة واسمه أحمد وهذه دار هجرته.

٤ ـ خبر هتوف الجن به ﷺ:

ومن البشائر بنبوته ﷺ هتوف الجن بها، وهي كثيرة، ومن أثبتها ما رواه عثمان بن عبد الرحمن عن محسن بن كعب قال: بينما عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ذات يوم جالساً إذ مر به رجل فقيل له أتعرف هذا المار يا أمير المؤمنين؟ قال: ومن هو؟ قالوا: هذا سواد بن قارب، رجل من أهل اليمن، وكان له رئي من الجن، فأرسل إليه عمر، فقال: أنت سواد بن قارب؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، فقال: أنت الذي أتاك رئيك بظهور النبي ﷺ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، فقص عليه قصته.

قال: يا أمير المؤمنين: بينما أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان، إذ أتاني رئي من

الجن، فضربني برجله وقال: قم يا سواد بن قارب واسمع مقالي واعقل إن كنت تعقل، إنه قد بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى الله تعالى وإلى عبادته وأنشأ يقول:

عجبت للجن وتطلابها ... وشدها العيس بأقتابها
تهوى إلى مكة تبغي الهدى ... ما صادق الجن ككذابها
فارحل إلى الصفوة من هاشم ... ليس قدامها كأذنابها

فقلت له دعني، فأنا أمسيت ناعساً ولم أرفع بما قال رأساً.

فلما كانت الليلة الثانية أتاني فضربني برجله وقال: قم يا سواد ابن قارب فاسمع مقالتي واعقل إن كنت تعقل، إنه قد بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى الله تعالى وإلى عبادته وأنشأ يقول:

عجبت للجن وتجساسها ... وشدها العيس بأحلاسها
تهوى إلى مكة تبغي الهدى ... ما خير الجن كأنجاسها
فارحل إلى الصفوة عن هاشم ... واسم بعينيك إلى رأسها

قال فأصبحت وقد امتحن الله تعالى قلبي للإسلام فرحلت ناقتي وأتيت، فإذا رسول الله ﷺ وأصحابه فقلت اسمع مقالي يا رسول الله، قال هات فأنشأت:

أتاني نجي بين هَدْءٍ ورقدة ... ولم أك فيما قد تلوت بكاذب
ثلاث ليال قوله كل ليلة ... أتاك رسول من لؤي بن غالب
فشمرت عن ذيل الإزار ووسطت ... بي الذعلب الوجناء بين السباسب
فأشهد أن الله لا شيء غيره ... وأنك مأمون على كل غائب
وأنك أدنى المرسلين وسيلة ... إلى الله يا ابن الأكرمين الأطايب
فمرنا بما يأتيك يا خير من مشى ... وإن كان فيما جاء شيب الذوائب
وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعة ... سواك بمغن عن سواد بن قارب

ففرح رسول الله ﷺ وأصحابه بمقالتي فرحاً شديداً حتى رؤي الفرح في وجوههم، قال: فوثب عمر فالتزمه وقال: كنت أحب أن أسمع منك هذا الحديث، فهل يأتيك رئيك اليوم؟ فقال: مذ قرأت القرآن، فلا، ونعم العوض كتاب الله من الجن.

٥ ـ خبر تنبؤ هرقل ملك الروم بظهور ملك الختان:

وجاء في صحيح البخاري، أن الناطور صاحب إيلياء هو وهرقل أسقفاً على نصارى الشام، يحدث أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح يوماً خبيث النفس، فقال بعض بطارقته قد استنكرنا هيئتك؟ قال ابن الناطور: وكان هرقل حزاء ينظر في النجوم، فقال لهم حين سألوه: إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر، فمن يختتن من

هذه الأمة؟ قالوا: ليس يختتن إلاّ اليهود، فلا يهمنك شأنهم، واكتب إلى مدائن ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود، فبينما هم على أمرهم. أُتِيَ هرقلُ برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن خبر رسول الله ﷺ فلما استخبره هرقل قال: اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا؟ فنظروا إليه فحدثوا أنه مختتن، وسأله عن العرب فقال هم يختتنون، فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية وكان نظيره في العلم وسار هرقل إلى حمص، فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي ﷺ وأنه نبي فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص ثم أمر بأبوابها فغلقت ثم أطلع فقال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم وآيس من الإيمان. قال: ردوهم علي، وقال: إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه فكان ذلك آخر شأن هرقل.

٦ ـ خبر بشرى ملك اليمن سيف بن ذي يزن بمبعث رسول الله ﷺ:

ومن المبشرات أيضاً بمبعث رسول الله ﷺ ما جاء على لسان سيف بن ذي يزن الحميري بعد انتصاره على الأحباش وتحريره اليمن منهم بعد احتلال دام ثمانين سنة. لما ظهر سيف بن ذي يزن بالحبشة وذلك بعد مولد النبي ﷺ أتته وفود العرب وأشرافها وشعراؤها تهنئه وتمدحه وتذكر ما كان من بلائه وطلبه بثأر قومه، فأتاه وفد قريش، وفيهم عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبد شمس وأسد بن عبد العزى وعبد الله بن جدعان، فقدموا عليه وهو في قصر له يقال له غمدان. فطلبوا الإذن عليه، فأذن لهم فدخلوا، فوجدوه متضمخاً بالعنبر، يلمع بيض المسك في مفرق رأسه، وعليه بردان أخضران قد اتّزر بإحداهما وارتدى الآخر، وسيفه بين يديه والملوك عن يمينه وشماله والمقاديل، فدنا عبد المطلب بن هاشم، فاستأذنه في الكلام، فقال له: قل، فقال: إن الله تعالى أيها الملك أحلك محلاً رفيعاً صعباً منيعاً باذخاً شامخاً، وأنبتك منبتاً طابت أرومته، وعزت جرثومته، ونبل أصله، وبسق فرعه في أكرم معدن وأطيب موطن، فأنت، أبيت اللعن، رأس العرب وربيعها الذي به تخصب، وملكها الذي له تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي إليه يلجأ العباد، سلفك خير سلف وأنت لنا بعدهم خير خلف، ولن يهلك من أنت خلفه ولن يخمل من أنت سلفه.

نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته، وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أنهجك لكشف الذي فدحنا، فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة.

قال من أنت أيها المتكلم؟ قال: أنا عبد المطلب بن هاشم، قال: ابن أُختنا؟ قال:

نعم، فأدناه وقرّبه، ثم أقبل عليه وعلى القوم وقال: مرحباً وأهلاً وسهلاً، وناقة ورحلاً ومستناخاً سهلاً وملكاً ربحلاً يعطي عطاء جزلاً ـ فذهبت مثلاً ـ وكان أول ما تكلم به.

قد سمع الملك مقالتكم، وعرف قرابتكم، وقبل وسيلتكم، فأهل الشرف والنباهة أنتم ولكم القربى ما أقمتم والأحباء إذا ظعنتم قال: ثم استنهضوا إلى دار الضيافة والوفود وأجريت عليهم الأنزال فأقاموا ببابه شهراً لا يصلون إليه ولا يؤذن لهم في الانصراف.

ثم انتبه إليهم انتباهة، فدعا بعبد المطلب من بينهم فخلا به، وأدنى مجلسه، وقال يا عبد المطلب إني مفض إليك من سر علمي أمراً لو غيرك كان لم أبح له به، ولكن رأيتك موضعه فأطلعتك عليه فليكن مصوناً حتى يأذن الله فيه فإن الله بالغ أمره... إني أجد في العلم المخزون والكتاب المكنون الذي أدخرناه لأنفسنا، واحتجبناه دون غيرنا خيراً عظيماً وخطراً جسيماً، فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة للناس كافة ولرهطك عامة ولنفسك خاصة.

قال عبد المطلب: مثلك أيها الملك من بر وسر وبشر، ما هو؟ فداك أهل الوبر وزمراً بعد زمر.

قال ابن ذي يزن: إذا ولد بتهامة مولود بين كتفيه شامة كانت له الإمامة إلى يوم القيامة.

قال عبد المطلب: أبيت اللعن لقد أبت بخير ما آب به أحد فلولا إجلال الملك لسألته أن يزيد في البشارة، ما أزداد به سروراً، قال ابن ذي يزن: هذا حينه الذي يولد فيه أو قد ولد، يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه، قد ولدناه مراراً والله باعثه جهاراً وجاعل له منا أنصاراً، يُعز بهم أولياءه ويذل بهم أعداءه، ويفتح كرائم الأرض ويضرب بهم الناس عن عرض، يخمد الأديان، ويدحر الشيطان، ويكسر الأوثان، ويعبد الرحمن، قوله حكم وفصل، وأمره حزم وعدل، يأمر بالمعروف ويفعله وينهى عن المنكر ويبطله.

فقال عبد المطلب: أطال الله عمرك، ودام ملكك، وعلا جدك، وعز فخرك، فهل الملك يسرني بأن يوضح فيه بعد الإيضاح؟ فقال ابن ذي يزن، والبيت ذي الطنب والعلامات والنصب إنك يا عبد المطلب لجده من غير كذب، فخرّ عبد المطلب ساجداً، قال ابن ذي يزن: ارفع رأسك ثلج صدرك وعلا أمرك، فهل أحسست شيئاً مما ذكرت لك.

قال عبد المطلب: أيها الملك، كان لي ابن كنت له محباً، وعليه حدباً مشفقاً، فزوجته كريمة من كرائم قومه، يقال لها آمنة بنت وهب بن عبد مناف. فجاءت بغلام بين كتفيه شامة فيه كل ما ذكرت من علامة، مات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمه.

قال ابن ذي يزن: إن الذي قلت لك كما قلت، فاحفظ ابنك، واحذر عليه اليهود، فإنهم له أعداء، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً، واطو ما ذكرت لك، دون هؤلاء الرهط الذين معك، فإني لست آمن أن تدخلهم النفاسة من أن تكون لكم الرياسة، فيبغون له الغوائل وينصبون له الحبائل، وهم فاعلون وأبناؤهم ولولا أني أعلم أن الموت مجتاحي قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي حتى أصير بيثرب دار هجرته فإني أجد في الكتاب الناطق والعلم السابق أن يثرب دار هجرته وبيت نصرته، ولولا أني أتوقّى عليه الآفات وأحذر عليه العاهات، لأعلنت على حداثة سنه أمره وأوطأت أقدام العرب عقبه، ولكني صارف ذلك إليك عن غير تقصير مني، ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد وعشرة إماء سود وخمسة أرطال فضة وحلّتين من حلل اليمن وكرش مملوءة عنبراً، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال لعبد المطلب بن هاشم إذا حال الحول فائتني بما يكون من أمره.

فما حال الحول حتى مات ابن ذي يزن فكان عبد المطلب يقول يا معشر قريش لا يغبطني رجل منكم بجزيل عطاء الملك، فإنه إلى نفاد ولكن يغبطني بما يبقى لي ذكره وفخره لعقبي فإذا قالوا له وما ذاك؟ قال: سيظهر بعد حين.

٧ ـ خبر وصف رسول الله ﷺ في التوراة والانجيل:

وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، حينما سئل عن وصف رسول الله ﷺ في التوراة قال (أجل ـ والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، فأنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقول لا إله إلاّ الله فيفتح بها أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً)(١).

ونعود إلى ما قدمنا عن بشارة الكتب السابقة بالنبي ﷺ لتكون برهاناً واقعاً على التصريح بصحة نبوّة نبينا محمد ﷺ من واقع الألفاظ المسطرة في كتب أهل الكتاب خصوصاً الكتابين الذين أشار إليهما القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٧] حيث وجد في السفر الخامس في التوراة في الفصل الحادي عشر منه قول الله تعالى لموسى عليه السلام (إني أقيم لكم نبياً من أنفسكم ومن إخوتكم وأيما رجل لم يسمع لما يؤديه

---

(١) رواه البخاري (٢١٢٥).

ذلك النبي انتقمت منه) وفي التثنية ـ ١٨ ـ ١٩ (أقيم لهم نبياً من وسط أخوتهم مثلك، اجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به ويكون الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي، أنا أطالبه، ثم في السفر العشرين من التوراة (إن الرب جاء من طور سنين، وطلع لنا من ساعير وظهر من جبال فاران وعن يمينه ربوات من القدسين فمنحهم القوة ودعا بجميع قدسيه بالبركة) وقد ورد في بعض التفاسير في قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣﴾ [التِّين: الآيات ١-٣] أن هذا القسم هو موضع الرسالات الثلاثة فإن التين والزيتون نبتا في هذا المكان وهو ساعور أو ساعير، وهو المكان الذي بعث منه سيدنا المسيح عليه السلام، والطور هو الذي بعث منه موسى عليه السلام وفاران هي جبال مكة وهو البلد الأمين الذي بعث منه سيدنا محمد ﷺ.

وفي الإنجيل المنسوب إلى يوحنا في الفصل الخامس عشر منه (أن البار، اقليط روح الحق الذي يرسله الرب باسمي وهو يعلمكم كل شيء). وهذه بعض ألفاظ البشارات من هذين الكتابين وقد نقلت إلى اللسان العربي من اللسان السرياني وليس يجحدها أحد من أهل المعرفة بالكتابين وقد نقلتها باختصار من كتاب الأعلام بمناقب الإسلام لأبي الحسن العامري المتوفى ٣٨١هـ.

وجلت هذه الألفاظ من الكتب التي تنسب إلى التوراة والإنجيل هو أسلوب فقط يستخدمه أهل السير للتأكيد على جحد أهل الكتاب بالبشارات التي وردت والتي هي بين أيديهم تثبت في كتبهم نبوة سيدنا محمد ﷺ وإلاَّ فمن أصدق من الله حديثاً: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٧]. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝١٩٧﴾ [الشعراء: الآية ١٩٧] وقول عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصَّف: الآية ٦].

فقد وردت صفة الرسول الذي ينزل عليه القرآن، كما ورد في أصول العقيدة التي جاء بها في كتب الأولين، ومن ثم كان علماء بني إسرائيل يتوقعون هذه الرسالة وينتظرون هذا الرسول ويحسون أن زمانه قد أظل، كما ورد على لسان سلمان الفارسي ولسان عبد الله بن سلام رضي الله عنهما.

فبشارة أهل الكتاب والكهان برسول الله ﷺ بلغت حد التواتر، ومعرفة أهل الكتاب بشخصه ﷺ، جاء بها القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٤٦﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٦].

الفصل الثاني

حالة سكان جزيرة العرب وما حولها قبل مبعثه ﷺ

وقد بعث الله نبيّه محمداً ﷺ والناس في جزيرة العرب أصناف في الدينات وأجناس في الأعراق.

الصنف الأول: أهل الكتاب:

وهم اليهود والنصارى بدلوا وحرّفوا في أحكام الله التي أنزلها عليهم، فافتعلوا كذباً صاغوه بألسنتهم فخلطوه بحق الله الذي أنزل إليهم، فذكر تبارك وتعالى لنبيّه من كفرهم فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٧٨] . وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التّوبَة: الآيتان ٣٠،٣١] . وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: الآية ١٤] ـ أي جحدوا رسالة محمد ﷺ وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة وقالوا إن المسيح ابن مريم ابن الله، جلّ سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

الصنف الثاني: العرب البائدة:

وهم العرب عبدة الأوثان، كفروا بالله وابتدعوا ما لم يأذن به الله، ونصبوا بأيديهم حجارة وأخشاباً وصوراً استحسنوها، ودعوها آلهة عبدوها من دون الله، وكان بعضهم يقول إن الملائكة بنات الله وأقاموا لها تماثيل ترمز لعبادتها ويقيمون لها الشعائر والنذور. قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الزّخرُف: الآيتان ١٥،١٦]. إلى أن قال: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزّخرُف: الآية ١٩]. وقال تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسرَاء: الآية ٤٠] .

والعرب صنفان: عرب بائدة وهم (قوم هود وهم عاد، وقوم صالح وهم ثمود،

وقوم شعيب وهم أهل مدين، وقوم تبع وهم أهل اليمن) وهم الذين كذبوا رسلهم وأصابهم عذاب الاستئصال وباروا ويلحق بهم طسم وجديس وأميم وجرهم والعمالقة، والكل بادوا.

يقول صاحب عمود النسب العلاّمة أحمد البدوي الشنقيطي:

العرب من أبناء سام جرهم ... عاد ثمود ووبار منهم
كذا أميم وعبيل طسم ... جديس عمليق به يتموا
فهؤلاء العرب باروا والذبيح ... منهم تعرب على القول الصحيح
وهو أبو قحطان في قول أبي ... عنه فقحطان بن هود النبي
أو هو هود وجميع العرب ... بعد لعدنان وقحطان نسب

وقد أشار الشيخ البدوي رحمه الله إلى الخلاف الواقع في نسبة القحطانيين إلى إسماعيل عليه السلام مع أنه صدر قوله بأن إسماعيل عليه السلام هو أبو قحطان - تأكيداً لما قاله ابن هشام: أن العرب كلها من ولد إسماعيل - ويؤيد ذلك أحاديث منها قوله ﷺ: **«إرموا يا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً»**(١) قال هذا القول لقوم من أسلم من خزاعة وهم من سبأ. والحديث الآخر عن أبي هريرة في قصة أم إسماعيل عليه السلام هاجر حيث قال وهو يخاطب الأنصار: (فتلك أمكم يا بني ماء السماء) ذكره الإمام البخاري في باب واتخذ الله إبراهيم خليلاً من كتاب أحاديث الأنبياء(٢).

العرب الذين بقوا من عهد إسماعيل عليه السلام:

والعرب الذين بقوا من عهد إسماعيل عليه السلام إلى رسالة نبينا محمد ﷺ هم الذين بعد بهم العهد، ومتّعهم الله جيلاً بعد جيل، حتى طال عليهم العمر ونسوا ملّة أبيهم إبراهيم، وانحرفوا عنها إلى عبادة الأصنام، وورد فيهم قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ٢٩﴾ [الزخرف: الآية ٢٩]. والحق هو كتاب الله القرآن، ورسول مبين هو محمد ﷺ، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٠﴾ [الزخرف: الآية ٣٠]. وورد فيهم قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ٦﴾ [يس: الآية ٦]. وقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ [السجدة: الآية ٣].

وكفار قريش ومن على شاكلتهم كانوا يظنون أنهم على دين إبراهيم، وأنهم أهدى من أهل الكتاب، الذين كانوا يعيشون معهم في جزيرة العرب، لأن اليهود كانوا يقولون

(١) صحيح البخاري.
(٢) الصحيح عند أهل الأنساب أن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشد.

عزيز ابن الله، والنصارى يقولون المسيح ابن الله... بينما هم يعبدون الملائكة والجن، على اعتبار ما يرون أن ذلك أقرب إلى الله، لأنهم يرون أن الملائكة بنات الله، والجن بينهم وبين الله نسب كما ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزّخرُف: الآية ١٥]. وهم الملائكة، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصَّافات: الآية ١٥٨]. سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً. وأيضاً كانوا يقولون: (لو أن عندنا ذكراً من الأولين ـ مثل قوم موسى وعيسى ـ لكنا عباد الله المخلصين، ولما جاءهم رسول منهم وجاءهم الذكر الذي يتمنونه، كفروا به ـ فلعنة الله على الكافرين).

كما قالوا أيضاً: (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لأن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم، اليهود أو النصارى فلما جاءهم نذير ما زادهم إلاّ نفوراً، استكباراً في الأرض ومكر السيء، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله).

انحراف العرب عن ملّة إبراهيم (عليه السلام):

ويقال أن العرب كانوا في أول عهدهم على الملّة الحنيفية ملّة إبراهيم عليه السلام ثم تحولوا بإغواء الشيطان إلى عبادة الأصنام، ويقال أن أول من أدخل عبادة الأصنام إلى جزيرة العرب هو عمر بن لحى بن قميئة بن إلياس الخزاعي استجلبها من العمالة من جهة الشام، وأول صنم أدخله حرّم الله بمكة هو صنم قريش الذي يقال له هبل، وكان عمرو بن لحى من أغنى أهل زمانه، مما جعله يغري الناس بالمال ليعبدوا الأوثان. وقد حمل قريشاً على عبادة الحجارة الممسوخة وهي أساف ـ ونائله.

وعمرو بن لحى مع ابتداعه عبادة الأصنام اختلق البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وغير ذلك من الاختلاقات، والتي ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [المَائدة: الآية ١٠٣]. وعمرو بن لحى هو الذي ورد فيه الحديث أنه ﷺ رآه يجرّ قُصْبَتُه في النار [(١)] والعياذ بالله لكونه بدّل وغيّر وشرّع. وقد انتشرت عبادة الأصنام عند العرب حتى ملأت كل فج فيهم.

فهذيل بن مدركة اتخذوا سواعاً، وكلب بن وبرة اتخذوا وداً بدومة الجندل وأنعم من طيىء، وأهل جرش من مذحج اتخذوا يغوث الجرش، وخيوان بطن من همذان اتخذوا يعوق، وذو الكلاع من حمير نسراً بأرض حمير، ولبني ملكان صنم اسمه سعد، ولقريش هبل صنم على جوف الكعبة. واتخذوا أسافاً ونائلة على موضع زمزم (وكان أساف ونائلة رجلاً وامرأة من جرهم، فوقع أساف على نائلة في جوف الكعبة فمسخهما الله حجرين).

---

(١) متفق عليه.

قال ابن إسحاق: واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه، فإذا أراد الرجل سفراً تمسح به حين يركب، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره. وإذا قدم من سفره تمسح به فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله. فلما بعث الله رسوله محمداً ﷺ بالتوحيد، قالت قريش: أجعل الآلهة إلاهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب.

الطواغيت: وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، وتهدى لها كما تهدى للكعبة، وتطوف بها كطوافها بها، وتنحر عندها، وهي تعرف فضل الكعبة عليها لأنها قد عرفت أنها بيت إبراهيم الخليل ومسجده.

فكانت لقريش وبني كنانة العزى بنخلة، وكان سدنتها وحجابها بنو شيبان من سليم حلفاء بني هاشم. وكانت اللات لثقيف بالطائف وكانت سدنتها وحجابها بنو معتب من ثقيف. وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر. وكان ذو الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة. وكانت فلس لطيىء ومن يليها بجبل طيىء. وكان لحمير وأهل اليمن بيت بصنعاء يقال له رئام، وكان رضاء بيتاً لبني ربيعة بن كعب. وكان ذو الكعبات لبكر وتغلب ابني وائل.

أما اليهودية والنصرانية، فقد انتشرتا على نطاق واسع في اليمن، وفي يثرب كان لليهود تجمع ضخم في خيبر وفدك وتيماً، ووادي القرى، وللنصرانية وجود كذلك عند الغساسنة وقبائل تغلب وطيىء. واعتنقها بعض ملوك الحيرة.

والحنفاء هم الذين كانوا لا يقرون عبادة الأصنام، ويؤمنون بالله الواحد الأحد، وبعضهم كان من أهل الكتاب، وبعضهم كان يعتبر نفسه على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وينتظر قدوم نبي يأتيه الوحي من السماء ليتبعه.

اليمن قبل الإسلام:

يقال إن أول من ملك اليمن يعرب بن قحطان انتزعها من بقية قوم عاد، ثم توارث الملك بنوه يشجب وعبد شمس وسبأ، ويعرف ملوك اليمن بالتبابعة فواحدهم يسمى تبع، وذكر القرآن عهدهم الزاهر أيام السد، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سَبَإ: الآية ١٥].

وعن فرة بن سيك المرادي قال: لما أنزل، قال رجل: يا رسول الله وما سبأ، أرض أم أمرأة؟ قال: (ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد له عشرة من الولد فتيامن منهم ستة وتشاءم أربعة، فأما الذين تشاءموا، فلخم وجذام وغسان وعاملة، وأما الذين تيامنوا فالأزد،

والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار، فقال الرجل يا رسول الله: وما أنمار؟ قال: الذين منهم خثعم وبجيلة)[1] .

ويقدر المؤرخون أن هذا الأمر كان قبل قرابة سبعة قرون قبل الميلاد، واستمر ثلاثة قرون بعده، وخلال عهدهم الزاهر أيام ملك سليمان (عليه السلام) وقصة ملكة سبأ مذكورة في القرآن وكانوا قد انحرفوا عن التوحيد وصاروا يعبدون الشمس كما يشير إليه القرآن بقوله: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النمل: الآية ٢٢-٢٤] ويشير القرآن الكريم إلى لباقة بلقيس وحصافة عقلها، وحزمها وانتشار الشورى الواعية في حكمها ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النّمل: الآيات ٢٩-٣٥] . ثم يحدثنا عن إسلامها ودخولها في دين الله: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النّمل: الآية ٤٤] . ويحدثنا ابن هشام عن عك بن عدنان الذين رحلوا إلى اليمن وعاشوا أيام السد، وعن خروج عمرو بن عامر لما رأى ملامح انهياره. والذي يوضحه القرآن أنهم كانوا على هدى من الله، وبارك الله لهم في أرضهم وزرعهم وضرعهم. حتى انحرفوا عما جاءهم به نبيهم تبع وبعد أن انهار السد وتفرّق شملهم في كل صقيع فقال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ [سَبَإ: الآيات ١٦-٢١] .

وبعد انهيار السد تفرّق شملهم، وتمزقوا في البلدان كل ممزق كما ذكر القرآن الكريم.

---

(١) رواه الترمذي.

ويقدر المؤرخون أن هذا الأمر قد تمّ قبل ثلاثة قرون من البعثة النبوية، وهي صورة لحضارة قامت على أساس العقيدة، وانهارت حين خرجت عن منهج الله بعد أن عاشت قروناً طوالاً.

وفي مرحلة استيلاء أبي كريب تبان أسعد على ملك اليمن، وامتداد نفوذه حتى وصل إلى مكة والمدينة، وهو الذي ساق الحبرين من يهود المدينة إلى اليمن، وعمّر البيت الحرام وكساه، وذكر ابن قتيبة: أن أبا كريم بن أسعد الحميري آمن بالنبي ﷺ قبل أن يبعث بسبعمائة سنة، وأنه ترك وصية بيثرب تسلم إليه ويقول فيها أنه آمن به:

شهدت على أحمد أنه رسول من الله بادي النسم
فلو مد عمري إلى عمره لكنت وزيراً له وابن عم

وكان ملكه قبل ملك ربيعة بن نصر، وهو الذي أدخل النصرانية إلى اليمن. وجاء بعده ابن حسان الذي امتد نفوذه إلى العراق وبعده أخوه عمرو.

وفي مرحلة دخول النصرانية إلى نجران (وكانت لا تزال على الدين الصحيح في توحيد الله تعالى ونبوة عيسى عليه السلام قبل أن يغير الملك قسطنطين وبولس رسالة المسيح القائمة على التوحيد، ثم أتمت تحريفها المجامع المقدسة) فقد صادف دخول النصرانية وجود ذي نواس على رأس الحكم والذي كان يهودياً، وسار بجنوده فدعاهم إلى اليهودية وخيّرهم بين القتل وبين الدخول في دينه فاختاروا القتل. وقصة الغلام والساحر والراهب والملك التي رواها الإمام مسلم والترمذي تدل على عظمة هؤلاء المسلمين وثباتهم على الحق في وجه الطاغية ذي نواس.

وحكى الله قصتهم في سورة البروج عند قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج: الآيات ٤-١٠].

ثم انهار حكم التبابعة بعد ذلك على اليمن، وابتدأ الاستيلاء الأجنبي على أرضهم، حيث استولى الأحباش عليها بمساعدة الرومان ثأراً من ذي نواس باسم النصرانية عام ٥٢٥م، وبقوا على ذلك حتى استعادوا استقلالهم بمعونة الفرس بقيادة سيف بن ذي يزن الحميري، والذي اغتيل من الحبشة الذين أبقاهم لخدمته، وبموته انقطع الملك عن بيت ذي يزن، وولى كسرى غلاماً فارسياً على صنعاء، وجعل اليمن ولاية فارسية، فلم تزل الولاة من الفرس تتعاقب على اليمن حتى كان آخرهم بآذان الذي اعتنق الإسلام سنة ٦٣٨م، وبإسلامه انتهى نفوذ فارس على بلاد اليمن.

الفصل الثالث

قصة أمّنا هاجر وابنها إسماعيل عليهما السلام وسكناهما بقعة بيت الله الحرام وهي لا تزال خلاء

سبق أن أشرنا إلى تشريف الله سبحانه وتعالى لخليله سيدنا إبراهيم عليه السلام بأن جعل في ذريته النبوة والكتاب إلى قيام الساعة وذلك بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العَنكبوت: الآية ٢٧].

وإبراهيم هو أبو الأنبياء، خرج مهاجراً وفاراً بدينه من أرض بابل، بعد أن نجّاه الله من نار نمرود التي ألقي فيها، وكان معه ابن أخيه لوط الذي آمن معه، قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [العَنكبوت: الآية ٢٦] . فانطلقا إلى أرض فلسطين وذلك قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبيَاء: الآية ٧١].

وجاء في صحيح مسلم أن سيدنا إبراهيم كانت معه زوجته سارة وكانت من أجمل النساء، ولما رآها ملك الأردن افتتن بها وقال لسيدنا إبراهيم من هذه منك؟ فخشي إبراهيم أن يقتله إن أخبره أنها زوجته فقال: أختي على نيّة أنها أخته في الدين.

ولما أراد الفاجر أن يعتدي عليها مدّ يده فانصرع وشلت يده، فقام يسترضيها ويستعطفها أن تدعو له بإطلاق يده، ففعلت، فعاود الكرة فنزل به ما نزل به أولاً، فأعاد وطلبها أن تعفو عنه، وتدعو له بإطلاق يده، وقال لها لك الله ـ أن أطلقك وأطلق زوجك، ففعلت فأطلقها ومن معها، ثم كافأها الجبار بأن أهدى إليها جارية ـ وهي هاجر.

يقال أنها ابنة ملك القبط، سبيت في حرب وقعت بين مملكتي البترا والإسكندرية، ولما كانت سارة زوجة سيدنا إبراهيم لم يرزقها الله الذرية في ذلك الوقت أهدت هاجر إلى زوجها إبراهيم عليه السلام عليه السلام وعندما ولدت منه ابنه إسماعيل، غارت سارة من هاجر وابنها إسماعيل أشد الغيرة، وخاصة لما رأت حدب إبراهيم على ولده إسماعيل وحبه له، فأمر الله سبحانه وتعالى سيدنا إبراهيم أن يبعد عن سارة هاجر وابنها، وأن يسكنهما مكة، وكان من ذلك انتشار العرب من ذرية إسماعيل في جزيرة العرب حول بيت الله الحرام تمهيداً وتحضيراً للرسالة الخاتمة وهي مكنونة في طوايا الزمان لتكون في ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ومخبأة في مكنون الغيب لنبيّنا محمد ﷺ الذي هو الرسول الوحيد الذي أرسل من ولد اسماعيل وكان إبراهيم عليه السلام سأل ربه الذرية المؤمنة والخلف الصالح ﴿هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصَّافات: الآيتان ١٠٠ ـ ١٠١] ، وهو إسماعيل عليه السلام.

بداية إعمار أم القرى (بناء البيت):

فلما وهب الله سبحانه وتعالى الولد الصالح وهو إسماعيل الذي وصفه الله بالحليم.

أراد الله سبحانه وتعالى أن يختبر خليله إبراهيم عليه السلام في أمر الخلة التي وهبه إياها في ابنه الوحيد، والذي لا يتصور فرحه به وهو شيخ كبير، وهو مقطوع من الأهل والقرابة، بسبب فراره بدينه وخروجه من وطنه الذي امتحن فيه بوضعه في النار، فأمره الله أولاً أن ينقل ولده الرضيع وأمه إلى بقعة بيت الله، التي هي في ذلك الوقت قفراً خلاء، لا ماء ولا زرع ولا أنيس بها.

فهو ما كاد يأنس ويفرح بالغلام الوحيد فإذا هو يؤمر بوضعه بعيداً عنه ببقعة موحشة ليس بها شيء من وسائل الحياة، ولكن إبراهيم الذي قال الله عنه: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ٣٧﴾ [النجم: الآية ٣٧]. لا يخالجه إلاّ الشعور بالطاعة... ولا يخطر له إلاّ خاطر التسليم، خرج بأم ولده هاجر وابنها قاصداً مكة وهي خلاء، ودلهم عليها جبريل عليه السلام فلما أراد إبراهيم الانصراف عن ابنه وأمه هاجر، قالت له هاجر: إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله، قالت: إذاً لا يضيعنا، ولم يترك عندهما إلاّ ركوة من ماء، ونحو صاع من التمر، فجعل إبراهيم يختفي بالشجر ويلتفت إليهما، ولما شق عليه ذلك، التجأ إلى ربه في حفظ ما تركه من ذريته، فطلب لهم أولاً الأمان ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: الآية ٣٥] . وأن يحفظهم من عبادة الأصنام ثم يتابع الدعاء ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٧] . ثم ينبه أن وجودهم هناك هو لإقامة الصلاة وهي رمز لكافة العبادات التي سوف تشرع بعد رفع قواعد البيت، وبالأذان بالحج على يد خليله إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، والبيت أقيم لعبادة الله وحده لا شريك له، على أساس قوله تعالى: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ [الحج: الآية ٢٦] وقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦﴾ [الحج: الآية ٢٦].

والابتلاء الأعظم لسيدنا إبراهيم في اختبار الخلة، هو ما أمر الله به خليله من ذبح ولده إسماعيل[١] كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصَّافات: الآية ١٠٢] .

---

(١) هذا هو الصحيح في الذبيح أنه إسماعيل.

قال العلاّمة ابن القيم رحمه الله: إن الخلة منصب عظيم يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها، فأمر الله سبحانه وتعالى خليله إبراهيم عليه السلام أن يذبح ابنه الوحيد البكر والذي جبلت نفسه على محبته.

فلما أقدم على ذبحه وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة ولده الوحيد البكر ـ خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة ـ فلم يبق في الذبح مصلحة، إذ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس عليه. فقد حصل المطلوب فنسخ الأمر وفدى الذبيح وصدق الخليل الرؤيا وحصل مراد الرب ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾﴾ ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصَّافات: الآية ١٠٣ ـ ١١٢].

فهذه بشارة أخرى من الله لنبيّه وخليله لصبره على ذلك الابتلاء، وعلى امتثال ما أمره به دون تردد أو انزعاج، وإنما هو القبول والرضى. ومضت بذلك سنة النحر في الأضحى في دين الإسلام ذكرى لذلك الحادث العظيم الذي أثبت حقيقة الإيمان.

وقد أشار العلاّمة أحمد البدوي الشنقيطي رحمه الله في نظمه لعمود نسب رسول الله ﷺ إلى قصة خروج سيدنا إبراهيم عليه السلام من أرض كنعان، ومروره بالملك الفاجر وما وقع له مع سارة ثم إجلاء هاجر وابنها إسماعيل عليه السلام إلى بقعة بيت الله الحرام فقال:

ومر في فراره على الذي ... غصب سارة ولم تستنقذ
إلاّ بشل يده وصرعه ... وأنقذت سارة من طَبَعه(١)
ومن وراء الحجب الخليل ... عاين أن عصمها الجليل
وأتحف الملك زوجة الخليل ... بهاجر واتحفت بها الحليل
وسبيت من ملك القبط ابنته ... هاجر ذي وانجبت ريحانته
إذ ولدت أبا عمود النسب ... ولا محيد عنه للمستعرب
وأجلت الحرة هاجر إلى ... بقعة بيت الله إذ هي خلا
ودل جبريل عليها الظاعنين ... واسترزق الخليل رب العالمين
وبعد لأي شيد الخليل ... قواعد البيت وإسماعيل

---

(١) الطبع محركة الخلق الفاسد.

انتقال خاتمة الرسالات من ولد إسحاق بن إبراهيم إلى ولد إسماعل بن إبراهيم عليهم السلام:

ولما أراد الله سبحانه وتعالى أن يقيم الملة الإسلامية الحنيفية، ويجعلها هي الملة الباقية إلى قيام الساعة وينسخ بها ما قبلها على إثر ما أصاب الملل السابقة من يهودية ونصرانية من عور وإنحراف وتشويه وتحريف في الكتب السماوية، كما أراد أن تنتقل الرسالة الجديدة من ذرية إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام التي كانت محصورة فيها الرسالات السماوية إلى ذرية أخيه إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام والتي لم يبعث منها بعد إسماعيل إلاّ نبينا محمد ﷺ.

والله سبحانه وتعالى كان قد شرّف سيدنا إبراهيم عليه السلام بأن جعل جميع الرسالات من بعده في ذريته فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العَنكبوت: الآية ٢٧].

واليهود الذين يدعون أنهم أبناء إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام لما يعرفونه في كتبهم من صفات نبيّنا محمد ﷺ وأنه نبي آخر الزمان، وأنه سوف يبعث بمكة، وأن مهاجره يثرب وهي المدينة، فقد جاؤوا قبل مبعثه من فلسطين بمئات السنين وأقاموا المستوطنات وبنوا القلاع والحصون بالمدينة وخيبر وفدك وتيما، يتطلعون أن تكون الرسالة فيهم، وكانوا يقولون للعرب الذين يضايقونهم بالمدينة وهم الأوس، والخزرج، سوف يبعث فينا نبي ونقتلكم به أشر قتلة لاعتقادهم أنه منهم، وأن العرب مشركون عبدة أصنام ويستحقون القتل.

ولما بعث الله محمداً ﷺ من العرب، ورأى اليهود أن الرسالة تحولت عنهم إلى العرب سقط في أيديهم، فحقدوا وجحدوا وكفروا بالرسالة وبصاحبها، ورغم ذلك ظلوا يتوقعون أن يعتبروا أنفسهم خارج نطاق دعوة الرسالة الجديدة وأن يقتصر أمر الدعوة على الأميين من العرب.

فلما وجدوا القرآن يدعوهم أول ما يدعوا إلى الإسلام والإيمان بالرسالة وبصاحبها الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل بحكم أنهم أعرف به من المشركين وأجدر بالاستجابة له من المشركين، أخذتهم العزة بالإثم وعدوا توجيه الدعوة إليهم نوعاً من الإهانة والاستطالة فوبّخهم الله على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٨٩].

وما سقناه من الحديث الذي سلف عن إسكان إبراهيم لبعض ذريته في بقعة بيت الله الحرام وهي خلاء، ودعائه بأن يجعل ذلك المكان آمناً، وأن يجعل أفئدة من الناس تهوى

إليهم، وأن يرزق أهله من الثمرات لتعمر تلك البقعة، ثم أمر الله إبراهيم وابنه إسماعيل ببناء البيت وسألا ربهما أن يتقبل منهما وأن يجعلهما مسلمين، وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة، وأن يبعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم ويطهرهم من الأرجاس والأدناس.

كان هذا كله تمهيداً وتحضيراً لإقامة رسالة الإسلام الخالدة الخاتمة، فاستجاب الله دعاء سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وأرسل من هذا البيت محمداً ﷺ وتحققت على يديه الأمة الإسلامية القائمة بأمر الله، الوارثة لعهد الله مع إبراهيم في إقامة الإمامة من بعده.

والدعوة المستجابة تستجاب، ولكنها تحقق في أوانها الذي يقدره الله بحكمته، وانتشرت ذرية إسماعيل وهم العرب، فشاء الله سبحانه وتعالى أن ينبثق نور الهداية من جديد بمبعث سيد ولد آدم محمد بن عبد الله ﷺ. وهي الملّة الحنيفية، ويجعلها الملة الباقية إلى قيام الساعة، وينسخ بها ما قبلها على إثر ما أصاب الملل السابقة من يهودية ونصرانية من عور وانحراف وتشويه وتحريف للكتب السماوية.

الفصل الرابع

ذكر النسب الشريف

روى مسلم في صحيحه عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»**[١].

وروى الترمذي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله خلق الخلق فجعلني من خير فرقهم، وخير الفريقين ثم تخير القبائل فجعلني من خير القبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً»**[٢]. وقد نظم أحد العلماء آباء الرسول فقال:

أباء سيد الورى على الرتب ... هو ابن عبد الله عبد المطلب
وهاشم عبد مناف بن قصي ... بن كلاب مرة كعب لؤي

---

(١) صحيح مسلم باب فضل نسب النبي ﷺ.
(٢) سنن الترمذي.

وغـالـب بـن فـهـر بـن مـالـك والـنـضـر قـل كـنـانـه كـذلـك
خـزيـمـة مـدركـة الـيـاس ومـضـر نـزارهـم قـيـاس
ثـم مـعـد بـعـده عـدنـان وبـعـد ذا تـخـتـلـف الأعـيـان

ثم إن العلاّمة المرحوم أحمد البدوي الشنقيطي رحمه الله أجاد في نظمه الذي حوى آباء الرسول ﷺ وأمهاته فقال:

الـنـسـب الـذي عـلـيـه اتـفـقـا كـل الـورى إذ بـالـنـبـي أشـرقـا
أحـمـد عـبـد الله عـبـد الـمـطـلـب وهـاشـم عـبـد مـنـاف الـمـنـتـخـب
ابـن قـصـي بـن كـلاب مـرة كـعـب لـؤي غـالـب الـغـرة
فـهـو بـن مـالـك ونـضـر ذو الـسِّـكَـةْ كـنـانـة خـزيـمـة فـمـدركـة
إلـيـاسـهـا مـضـرهـا نـزار مـعـد عـدنـان انـتـهـى الأخـيـار

وهذا النسب الصحيح الذي اتفق عليه بين أهل العلم ينتهي إلى عدنان ويروي حديث (لا ترفعوني فوق عدنان[1] أو لا تجاوزوا معد بن عدنان) وقرأ: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفُرقان: الآية ٣٨].

وقال الشنقيطي في عمود النسب:

مـا فـوق عـدنـان مـن أجـداد الـنـبـي يـنـسـب مـن نـسـبـه الـكـذب

ونسبه بالترتيب هو محمد ﷺ بن عبد الله بن عبد المطلب واسمه شيبة بن هاشم، واسمه عمرو بن عبد مناف، واسمه المغيرة بن قصي، واسمه زيد بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، وهو الملقب بقريش وإليه تنتسب القبيلة، ابن مالك بن النضر، واسمه قيس بن كنانة بن خزيمة بن مدركة، واسمه عامر بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وجاء في نظم عمود نسبه ﷺ للعلاّمة أحمد البدوي الشنقيطي ترتيب ستة أمهات من جهة آبائه، هو قوله:

تـرتـيـب أمـهـات سـلـك الـنـسـب لـسـتـة آمـنـة أم الـنـبـي
فـبـنـت عـمـرو بـن عـائـذ الـهـمـام فـاطـمـة لآل مـخـزوم الـكـرام
فـبـنـت عـمـرو سـيـد الأنـصـاري سـلـمـى ذؤابـة بـنـي الـنـجـاري
عـاتـكـتـا سـلـيـم الـلـتـان مـن الـعـواتـك ذوات الـشـان
عـواتـك الـنـبـي أم وهـب وأم هـاشـم وأم الـنـدب
عـبـد مـنـاف وذه الأخـيـرة عـمـة عـمـة الأولـى الـصـغـيـرة

---

(١) رواه ابن سعد عن ابن عباس.

وهن بالترتيب ذا لذي الرجال إلا وقصي بن مرة بن هلال
فالخثعمية التي أقصت قصي إلى قضاعة إذ آمت في لؤي

وجاء في شرح الأنساب للشيخ حماد على نظم العلامّة الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي المسمى عمود النسب الشريف أن ابن الكلبي قال:

عددت للنبي ﷺ خمسمائة أم كلها من نكاح صحيح ليس فيهن شيء مما كانت الجاهلية تفعله بل لم يزل ينقل ﷺ من أصلاب رجال طاهرين إلى أرحام نساء طاهرات من لدن آدم عليه السلام إلى أبيه عبد الله وذلك عند شرحه لقوله:

من مؤمنين متناكحينا خرج لا من متسافحينا
ينقل من أصلاب طاهرينا لطاهرات من لدن أبينا
وكيف لا والمشركون نجس ومن أذىَ نبينا مقدس
من ساجد لساجد تقلبا صلى عليه الله ما هب الصبا

أدلّة أن والديّ رسول الله ﷺ من أهل الفترة والتحقيق أن أهل الفترة معذورون:

كما تعرض الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي في نظم عمود نسب رسول الله ﷺ إلى أن والديه ﷺ معذورون بعدم الإيمان لأنهم من أهل الفترة الذين لم تبلغهم الرسالة لكونهم ماتوا قبل مبعثه ﷺ. فقال:

والعذر بالفترة والأحياء فيومنوا ورد في الأنباء
والقول فيهم بخلاف هذا يأباه أنه النبي آذى
ولعن الإله من آذاه في هذه الدار وفي أخراه

قسّم أهل العلم أصحاب الفترة إلى ثلاثة أقسام وهي:

١ - قسم بدّل وغيّر وشرّع من أهل الفترة كعمرو بن لحى الذي استجلب الأصنام إلى جزيرة العرب وهو أول من بدّل دين إبراهيم عليه السلام إلى عبادة الأصنام وكان أول من سبّب السوائب كما جاء في الصحيحين وهذا القسم في النار.

٢ - قسم كان حنيفاً أي اتّبع ملّة إبراهيم عليه السلام كزيد بن نفيل وورقة بن نوفل، وقس بن ساعدة وهؤلاء موحدون بالله سبحانه وتعالى وهذا القسم يعد من أهل الجنة.

٣ - قسم بقي غافلاً لم يوحد ولم يغير أو يبدّل أو يشرّع وهؤلاء وردت فيهم نصوص من الكتاب والسنّة أنهم لا يعذبون حتى تقوم عليهم الحجة بإرسال الرسل هم ومن في حكمهم من المعتوهين كالمجانين والصم والبكم ومن ماتوا صغاراً والأدلة من الكتاب والسنّة مستفيضة في هذا المعنى من ضمنها قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥] . وقوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا

يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: الآية ١٦٥] ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه: الآية ١٣٤] . والآيات في هذا المعنى لا تحصى.

وأما أبوي الرسول ﷺ فهما من أهل الفترة، بل من خيارهم، لما ذكر من شرفهما وخيرتهما نسباً وطباعاً، ولما أثر عنهما من الفضائل، وقد عاشا في آخر زمن الفترة، وماتا وهما في سن الشباب، ولم تبلغهما دعوة الرسول ﷺ فقد مات أبوه وهو حمل في بطن أمه، كما ماتت أمه وهو ابن ست سنين ﷺ ولم يبدلا أو يغيرا أو يشرعا.

وقد قال العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في كتابه (أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن) أن ما ورد من تعذيب بعض أهل الفترة في النار أخبار آحاد لا تقوى على مصادمة القواطع من الآيات التي تبّين عذرهم حتى يأتيهم نذير.

ونسوق مسألة ما جرى بين فضيلته وبين أحد الشيوخ الذين يقولون بأن آباء الرسول ﷺ في النار وهي على النحو التالي:

سأل أحد الحاضرين بدرس الشيخ محمد الأمين الذي كان يلقيه عادة في المسجد النبوي بعد عصر كل يوم خلال شهر رمضان من كل عام. هل آباء الرسول ﷺ في النار كما يقول البعض.

فأجاب الشيخ السائل بأن آباء الرسول يعتبرون من أهل الفترة الذين ماتوا قبل مبعثه ﷺ وأن الله سبحانه وتعالى تمدح في كتابه العزيز بأنه لا يعذب أحداً من خلقه حتى يبعث إليه رسولاً ينذره ويحذره وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسرَاء: الآية ١٥] . وهم ماتوا قبل مبعثه.

فقام الشيخ الذي يقول بأن آباء الرسول في النار، وكان من بين الحاضرين معترضاً على فتوى الشيخ الأمين وموجهاً كلامه للشيخ الأمين. فقال لعلّ الشيخ لم يطلع على حديث مسلم (إن أبي وأباك في النار) فقال الشيخ محمد الأمين: قلتُ ما قلتُ، وأنا على بصيرة مما قلت، ومطلع على حديث مسلم المروي عن أنس بن مالك، ولكن الحديث حديث آحاد ظني الدلالة لا يرد آيات كثيرة وردت في كتاب الله قطعية الدلالة بأن الله سبحانه وتعالى لا يعذب عباده حتى يبين لهم ما يتقون، وأن يقيم عليهم الحجة بإرسال الرسل ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣١] . وقوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النّساء: الآية ١٦٥] . وقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣٠] .

وهذا إقرار بأن الرسل جاءتهم تقص عليهم آيات الله، وتنذرهم لقاء يومهم هذا، وهو يوم الحساب ليعقب هذا المشهد أن عذاب الله لا ينال أحداً إلاّ بعد الإنذار، وأن الله لا يأخذ العباد إلاّ بعد أن ينبهوا من غفلتهم: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعَام: الآية ١٣١]. فجعل سبحانه العقاب مرهوناً بالتكذيب والكفر بعد البلاغ والإنذار.

فرد الشيخ الذي يقول إن آباء الرسول في النار قائلاً إن آباء الرسول هم وأهل الفترة جاءهم نذير بدليل قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فَاطِر: الآية ٢٤] فرد عليه الشيخ محمد الأمين: سبحان الله ينفي الله سبحانه وتعالى بأن ما جاءهم نذير، وتثبته أنت؟ إن أمرك عجيب يا شيخ. ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ [يس: الآية ٦]. وما في هذه الآية نافية على التحقيق بدليل الفاء في قوله (فهم غافلون) أي لعلة عدم إنذارهم، ثم قال سبحانه في القصص: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [القَصَص: الآية ٤٦]. وقال تعالى في سورة النبأ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ [سَبَإ: الآية ٤٤]. وقوله تعالى في سورة السجدة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾ [السَّجدَة: الآية ٣]. ثم استدل الشيخ المعترض الذي يقول بأن آباء الرسول هم وأهل الفترة في النار مرة أخرى بحديث مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي»**، فرد الشيخ الأمين قائلاً: يا شيخ أنا لم أقل بأن آباء الرسول ماتوا على الإيمان حتى يجوز الاستغفار لهم لأنهم ماتوا قبل مبعثه ﷺ وإنما قلت إنهم من أهل الفترة الوارد فيهم بالسنّة الصحيحة أنهم يوم القيامة يبعثون ثم يمتحنون بنار تشب لهم فيأمرهم الله باقتحام تلك النار، فمن اقتحمها دخل الجنة، وهو الذي كان يصدق الرسل لو جائته في الدنيا، ومن امتنع دخل النار، وعذب فيها، وهو الذي كان يكذب الرسل لو جائته والله أعلم. فاعترض الشيخ الذي يقول بدخول أهل الفترة النار، بأن الدار الآخرة ليست دار جزاء ولا تكليف ولا امتحان.

فرد عليه الشيخ الأمين قائلاً: ألا تقرأ قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القَلَم: الآيتان ٤٢ ـ ٤٣]. أهذا في الدنيا أم في الآخرة.

وعندها توقف الحوار، والمقصد هو أن آباء الرسول ﷺ هم من أهل الفترة، ولا يجوز التعرض لهم حتى لا يؤذى ذلك الرسول ﷺ، وأكيد أن أي شخص قيل له إن والديك في النار، ولم يكن الذي قال ذلك عنده نص صريح شاف من الكتاب والسنّة،

ولا يوجد له نص آخر معارض ولا تأويل، فقد آذى الذي قال ذلك، وخاصة أن الله سبحانه وتعالى لعن من يؤذي رسوله في الدنيا والآخرة وأعد له عذاباً أليماً فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٥٧]. ولو كان الأذى من باب ما يعكر الصفو فهو محرم في حقه ﷺ ودليل ذلك حديث المسور بن مخرمة: قال سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: **«إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني في أن ينكحوا ابنتهم علياً بن أبي طالب، فلا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن. إلاّ أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي، وينكح ابنتهم فإنما هي بضعة مني يريبني ما أرابها ويؤذيني ما أذاها»**[1]. وهذا من خصوصياته ﷺ لقوله في رواية أخرى: «لا أحرم حلالاً». فأي شيء يؤذيه، وإن كان مباحاً شرعاً فحرام فعله. كما أن رسول الله ﷺ أدخر له ربه العطاء في الآخرة: ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضحى: الآيتان ٤،٥]. فأولى بهذا العطاء أن يشمل والديه ﷺ، ثم إن الله نهى المؤمنين عن كل ما يؤذي رسوله ﷺ ولم يحدد القرآن نوع الأذى بل أطلقه فقال: إن الذين يؤذون الله ورسوله الآية ونهانا أنّ نكون كبني إسرائيل فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٦٩] . فالله سبحانه وتعالى نهى عن طول الانتظار في بيوت رسوله ﷺ لتناول الطعام وهم مدعوون إليه واعتبره أذى لرسوله، فكيف بمن يؤذيه في والديه وقال ﷺ: **«لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات»**[2]. والآية التي أوردها الشيخ الذي يقول بأن آباء الرسول في النار وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: الآية ٢٤] . قال جل المفسرين إنها على العموم، وإن العرب الذين من بعد إسماعيل لا تشملهم بتخصيص الآيات التي أوردها الشيخ الأمين صاحب أضواء البيان في الرد عليه وكذلك آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزخرف: الآيتان ٢٩ ـ ٣٠]. والحق هو كتاب الله، والرسول المبين هو محمد ﷺ وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الصَّافات: الآيات ١٦٧-١٦٩]. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أحمد والنسائي.

رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: الآيات ١٥٥-١٥٧].

فالقرآن لم يرد على كفار قريش بأن جاءكم كتاب ورسوله قبل محمد ﷺ عندما قالوا مقالتهم هذه، وإنما الذي جاء به الرد وهذا كتاب أنزلناه عليكم لقطع حجتكم كي لا تقولوا إنه لم ينزل عليكم كتاب كالذي أنزل على اليهود والنصارى. ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٧] . وهو هذا القرآن وهو ما تؤكده الآية السابقة: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾ [سبأ: الآية ٤٤] .

وجاء في نظم النوازل للعلامة محمد العاقب بن مايابي سيدي عبد الله بن الشنقيطي قوله:

ومن يقل في النار والد النبي ... فهو لعين قاله بن العربي

ذكر سيادة عبد المطلب، وحفر بئر زمزم:

وعبد الله والد النبي ﷺ هو الذبيح، وسمي بذلك لأن أباه عبد المطلب لما ظهر وساد قريشاً وأهل مكة السيادة الحسنى، وتولى السقاية والرفادة بعد عمه المطلب، فأقامها للناس وأقام لقومه مقام آبائه وشرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه، وقد ولد وفي رأسه شيبة وكني بها فهو يدعى شيبة.

ولما ترأس قريش وصار إليه جل أمرها، صار من ليلة إلى ثلاث يأتيه آت في المنام يقول له اذهب إلى قرية النمل، ونقر الغراب الأعصم بين الفرث والدم فاحفر تجد زمزم، فخرج فوجد قرية النمل والغراب الأعصم ينقر فيها ولم يجد الفرث ولا الدم فتحير لوجود بعض رؤياه وفقد بعضها... فبينما هو كذلك إذ أقبل نفر من الحمس يطردون بقرة فذبحوها ونثروا فرثها ودمها حيث كانت قرية النمل ونقر الغراب الأعصم بين الفرث والدم، فشرع في الحفر ومعه ابنه الحارث وليس له يومئذ ولد غيره. وكلما مرّ عليه أحد من قريش نهاه وقال له أتعبت نفسك، ولم يكترث لقولهم، فلما بدا له الطي وهو أصل فتحة البئر المطوية أي المبنية... كبّر.

فعرفت قريش أنه أدرك حاجته، فقالوا: يا عبد المطلب إنها بئر أبينا إسماعيل، وإنّ لنا فيها حقاً فأشركنا فيها، قال: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم، فخاصموه إلى كاهن بني سعد، وقيل إنه لما حفرها وجد فيها غزالين من ذهب وحلياً كثيراً من الذهب وأدراعاً وأسيافاً فحسدوه وتظاهروا عليه، وقالوا والله لا يبقى لك هذا وحدك دوننا، فقال لهم عبد المطلب: أترضيكم مني واحدة، قالوا: ما هي؟ قال:

القرعة. قالوا: زدت على الإنصاف... فجعلوا السهام ثلاثة.

سهم للبيت، وسهم لعبد المطلب، وسهم لقريش. فوقع سهم عبد المطلب على الماء وسهم البيت على المال، وسهم قريش على السلاح.

ذكر قصة نذر عبد المطلب أن يذبح عاشر أولاده وهو عبد الله والد سيدنا رسول الله ﷺ:

نذر عبد المطلب إن رزق عشرة من الولد يحمونه من قريش أن ينحر عاشرهم تقرباً إلى الله، فأتم والد الرسول ﷺ عبد الله العاشر المعلق عليه النذر ـ وأراد عبد المطلب أن ينحره ليوفي بالنذر فأبت بنو مخزوم ذلك لأنهم أخوال عبد الله ـ قالوا: تنحر ابننا وتترك أبناء غيرنا، والله لا يكون ذلك وفينا عين تطرف... فأشار إليه عظماء قومه أن يفديه، فقال لا بد لذلك من مشورة كاهن، فسار إلى كاهن خيبر فأمره بأن يقرع عليه وعلى عشرة من الإبل فكلما وقع عليه السهم زاد عشرة على الأولى ثم كذلك حتى يقع السهم على الإبل فما وقع السهم على الإبل حتى بلغت مائة ناقة عشراء، فنحرها عنه فكانت سنّة بعد ذلك في أمة الإسلام دية أحدهم مائة ناقة.

وشيبة إذ بير زمزم حفر	همت بمنعه قريش فنذر
إن جاءه من البنين عشرة	يحمونه من البغات الفجره
لينحرن واحداً تقربا	به فلما رام نحره أبى
عنه قريش فمضى لخيبرا	مستأمراً كاهنها فأمرا
أن استهم عليه والأبالي	فإن عليه خرجت في الحال
فزد عليها عشرة واقترعا	حتى إذا السهم عليها وقعا
فانحر فإن ربه قد رضيا	بأنها له فداء فعيا
ففعل الذي به قد أمرا	حتى انتهت لمائة فنحرا
من بعد ضربها ثلاثاً وهي لا	تعدوا العشار الكوم فيما نقلا
وكان والد النبي المقتدى	بمائة فداؤه من الردى
فكان ذاك سنة في أمته	عن نفس كل مؤمن في فديته

ذكر زواج عبد الله بآمنة بنت وهب الزهرية:

شب عبد الله أعزّ فتيان قريش وأجملهم، فلما بلغ أن يتزوج نظر له أبوه في نساء قريش فأداه نظره إلى آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة سيد بني زهرة، وهي سيدة بنات قريش، فخرج إلى وهب فسر به وزوجه. وزوج عبد المطلب بنت أخيه هالة بنت

أهيب بن عبد مناف فولدت له حمزة وكان ترب النبي ﷺ ورضيعه من ثويبة وابن خالته بعد العمومة والصحبة والنصرة. ويقال إن عبد الله بن عبد الله بن عبد المطلب مرَّ حين خرج مع والده عبد المطلب يريد آمنة بنت وهب التي تزوجها فيما بعد، أنه مرّ بفاطمة بنت عدي بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وهي تبيع أدماً وهي أخت ورقة بن نوفل، وكانت تنظر وتعتاف فرأت في وجهه نور النبوة، فقالت له قع علي، ولك مثل الإبل التي نحرت عليك، ويشير البدوي الشنقيطي في نظم عمود النسب الشريف أنه أجابها.

وقال عبد الله حين اعتصما	ممن دعته إذ تبيع الأدما
أما الحرام فالممات دونه	والحل فلا حل استبينه
فكيف بالأمر الذي تبغينه	يحمي الكريم عرضه ودينه

وخرج سريعاً حتى دخل على آمنة بنت وهب فوقع عليها فحملت برسول الله ﷺ وبعد ذلك مرّ على المرأة التي دعته فلم تعرض عليه ما سبق أن عرضت عليه، فقال لها مالك وما سألت؟ قالت فارقك النور الذي كان معك. ويقول الشاعر:

لم تزل في ضمائر الكون تختار	لك الأمهات والآباء

وأجمع أهل السَير أن آمنة بنت وهب قالت لما حملت برسول الله ﷺ لم أجد له ثقلة كما تجد النساء إلاّ أني أنكرت رفع حيضتي، وأتاني آت وأنا بين النائم واليقظان فقال هل شعرت أنك حملت، فكأني أقول ما أدري، فقال: . . . إنك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها، وذلك يوم الاثنين، ثم أمهلني حتى دنا ولادتي، أتاني ذلك الآتي فقال: قولي أعيذه بالواحد الصمد من شر كل حاسد، قالت: فكنت أقول ذلك، وبقيت على ذلك حتى وضعته، وقالت لم أجد له مشقة.

ذكر وفاة والد رسول الله ﷺ:

وأما والده عبد الله فقد خرج في عير لقريش إلى الشام وفي أثناء قفولهم من الشام وخلال مرورهم بالمدينة مرض عبد الله بن عبد المطلب، فقال لأصحاب العير أنا أتخلف عند أخوالي بني عدي بن النجار فمكث عندهم شهراً ثم توفي، ودفن في دار النابغة، وهو رجل من أخوال أبيه عبد المطلب، ولما علم والده عبد المطلب بموته وجد عليه وجداً شديداً. ورسول الله ﷺ حمل، ولعبد الله يوم توفي خمس وعشرون سنة، وترك من المال أمة تسمى أم أيمن وهي حاضنة رسول الله ﷺ كما ترك خمس جمال وقطيع من الغنم.

الفصل الخامس

مولد المصطفى ﷺ

ولد رسول الله ﷺ بعد وفاة والده بعدة أشهر لم يضبط تحديدها، وكان مولده بعد واقعة الفيل بخمسين يوماً، ليلة الإثنين في الثانية عشرة خلت من ربيع الأول عام الفيل، وقالت أمه آمنة بنت وهب... لقد علقت به تعني رسول الله ﷺ فما وجدت له مشقة حتى وضعته، فلما فصل مني خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب، ثم وقع على الأرض معتمداً على يديه ثم أخذ قبضة من تراب فقبضها ورفع رأسه إلى السماء، وفي رواية وقع جانباً على ركبتيه رافعاً رأسه إلى السماء، وخرج معه نور أضاءت له قصور الشام وأسواقها حتى رأيت أعناق الإبل ببصرى.

وفي الحديث عنه ﷺ قال: **«رأت أمي حين وضعتني سطع منها نور أضاءت له قصور بصرى»**[١].

وروى ابن عباس عن والده العباس قال ولد رسول الله ﷺ مختوناً مسروراً، وأعجب ذلك جده عبد المطلب وقال ليكونن لإبني هذا الشأن، فكان له شأن[٢].

وروى أن والدته ﷺ لمّا وضعته أرسلت إلى جده عبد المطلب، فجاءه البشير وهو جالس في الحجر ومعه وجهاء قومه، بأنه رزق مولوداً فسر ذلك عبد المطلب، فدخل عليها فأخبرته بما رأت، وما قيل لها، وما أمرت به من تسميته أحمد أو محمد... فأخذه عبد المطلب فأدخله الكعبة، وقام عنده يدعو الله ويشكر ما أعطاه ويروى أنه قال يومئذ:

الحمد لله الذي أعطاني ... هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد في المهد على الغلمان ... أعيذه بالله ذي الأركان
حتى أراه بالغ البنيان ... أعيذه من شر ذي شنآن
من حاسد مضطرب العنان

شاء الله سبحانه وتعالى أن يولد المصطفى ﷺ بعد وقعة الفيل بخمسين يوماً الموافق ٥٧١ لميلاد المسيح عليه السلام، ذلك الحدث العظيم الذي كانت تنتظره البشرية وترتقبه الخليقة لانبعاث النور من جديد في الكون بميلاد خاتم الرسل، والذي خشع لذكره الكاهن والموبذان، وتصدّع من خشيته الدست والإيوان، وغاضت بحيرات السماوات

---

(١) رواه أحمد وصححه السيوطي في الحاج الصغير.
(٢) رواه ابن سعد.

وطبرية، وخمدت النيران وعمت الفرحة الأكوان. وأن يجعل من رسوله محمد ﷺ المثل الأعلى للإنسان الكامل، ويمكنه من رسم الأخلاق الفاضلة. وإلاّ كيف اجتمع فيه ما تفرق في جميع الناس من خصال الرجولة في بيئة لا تملك من بعض ذلك ما تعطيه.

يقول شوقي:

ولد الهدى فالكائنات ضياء ... وفم الزمان تبسم وثناء

ويقول الإمام البصيري:

ما مضت فترة من الرسل إلاّ ... بشرت قومها بك الأنبياء
تتباهى بك العصور وتسمو ... بك علياء بعدها علياء
وبدا للوجود منك كريم ... من كريم آباؤه كرماء
نسب تحسب العلا بحلاه ... قلدتها نجومها الجوزاء
حبذا عقد سؤدد وفخار ... أنت فيه اليتيمة العصماء
ومحيا كالشمس منك وضيء ... أسفرت عنه ليلة غراء
ليلة المولد الذي كان للدين ... سرور بيومه وازدهاء
وتوالت بشرى الهواتف أن قد ... ولد المصطفى وحق الهناء
مولد كان منه طالع الكفر ... وبال عليهم ووباء
فهنيئاً به لآمنة الفضل ... الذي شرفت به حواء
من لحواء أنها حملت أحمد ... أن أنها به نفساء
يوم نالت بوضعه ابنة وهب ... من فخار ما لم تنله النساء
وأتت قومها بأفضل مما ... حملت مريم به العذراء

يقول محمد بن محمدي العلوي الشنقيطي:

أكرم بمولد ذي الختام بيومه ... وبشهره وبعامه والموضع
حلّى الزمان به كما حلى الربى ... بالروض إثر الساريات الهمع

يقول الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا الشنقيطي:

أهلاً بصاحب هذا المولد النبوي ... مقابل الطرف الأمي والأبوى
أهلاً بميلاد مولود به كملت ... بشرى البشائر للبادي وللقروى
أهلاً بميلاد من لم يحك مولده ... من الظروف مكاني ولا ملوى
أكرم بها ليلة غراء مسفرة ... عن غرة في محيا الضئضيء القصوى
أكرم بها ليلة غراء ضاحية ... فيها يتيمة سمط اللؤلؤ اللأوى
أكرم بها ليلة غراء مظهرة ... سرّ الوجود الذي فيه الوجود طوى

أكرم بها ليلة غراء مطلعة ... شمس الضحى بسماء المطلع النبوى
أكرم بها ليلة غراء منتجة ... نتيجة العالم السفلي والعلوى
هي التي عرف الكهان أن لها ... شأناً متى لاح فيها للنجوم هوى
يا ليلة المولد الميمون طالعة ... طوي زمانك من فيه الزمان طوى
طوى الذي طوي السبع الطباق له ... طياً وزياً له بسط البساط زوى
لولاك ما نزل الذكر الحكيم ولا الـ ... ـدين القويم ولا ما في الصحاح روى
ولا وعاه ابن مسعود ولا أنس ... ولا رواه أبو داود والنووى
ولا روى قارئ صحّت قرائته ... حرفاً من المقرء الزيدي والأبوى
لولاك ما استنبط الأحكام مجتهد ... ولا استبان حلال البيع من ربوى
ولا أقيمت من الإسلام قاعدة ... ولا بدا فضل سني على حشوى
ولا أبان بيانيٌ معانيَّه ... ولا نحا النحو نحوي ولا لغوى
لولاك لم يغلب الروم الغلاب ولا ... ملوك ساسان تيمي ولا عدوى
لولاك ما جمعت جمع الحجيج ولا ... أموا لرمي جمار الموقف المنوى
لولاك ما جعلت بشرى المسيح . . ولا ... فدى الذبيح ولا أيوب من بلوى
فكم أفدت صديقاً أو أبدت عدي ... وكم أعنت ضعيفاً أو أهنت غوى
وكم جلبت إلى الإعداء عادية ... وكم نهبت لهم من جامل وشوى

إلى أن يقول:

خذها إليك ربيعاً بنت ليلتها ... زهراء شاذية من زهرك الشذوى

ويقول حسان بن ثابت الأنصاري شاعر رسول الله ﷺ:

وأحسن منك لم تر قط عيني ... وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرءاً من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاء

وجاء في أسد الغابة أن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ كما وصف حسان:

متى يبد في الداجي البهيم جبينه ... يلح مثل مصباح الدجى المتوقد
فمن كان أو من قد يكون كأحمد ... نظام الحق أو نكال لملحد

فقد روى مسلم عن أبي قتادة الأنصاري: أنه ﷺ سئل عن صيام يوم الاثنين فقال: **«ذلك يوم ولدت فيه، وأنزلت عليَّ فيه النبوة»**. كما روى الإمام البخاري أن أبا لهب رؤي في النوم بعد موته فقيل له ما فعل الله بك؟ فقال: في النار إلاّ أنه خفف عنّي كل ليلة إثنين، وأمصّ من بين اصبعي هاتين ماء، وأشار إلى النقرة التي بين الإبهام والسبابة، وذلك بإعتاقي لثويبة عندما بشرتني بولادة النبي محمد ﷺ وإرضاعها له.

وقد جاء في كتاب وسائل القبول لخصائص الرسول ﷺ نظم العلامة أم الخيرات بنت أحمد المختار الشنقيطي ما نصّه:

فأحمد قد خصّه رب الفلق ... بكونه أوّل الأشياء خلق
أي بدأ الحق بروح الماحي ... من قبل خلق سائر الأرواح
وبالنبوة لها قد شرفا ... ليعلم الملأ الاصطفا

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**سئل رسول الله ﷺ متى وجبت لك النبوة؟ فقال: بين خلق آدم ونفخ الروح فيه**»(١).

كما روى الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال: «**إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينة وسأنبئكم بأول ذلك. وأنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور حين وضعتني أضاءت منه قصور الشام**».

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**كنت أوّل النبيين في الخلق وآخرهم في البعث**»(٢). ولما كان اليوم السابع من ولادته ذبح عنه جده عبد المطلب ودعا لاسمه قريشاً فقالوا:

يا عبد المطلب أرأيت ابنك هذا الذي أكرمتنا على وجهه ما سميته؟ قال: سميته محمداً، قالوا: ولِمَ رغبت به عن أسماء أهل بيته؟ قال: أردت أن يحمده الله في السماء وخلقه في الأرض.

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أغرّ عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهد
وضم الإله إسم النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشقّ له من اسمه ليجلّه ... فذو العرش محمود وهذا محمد
فأمسى سراجاً مستنيراً وهادياً ... يلوح كما لاح الصقيل المهنّد
وأنذرنا ناراً وبشر جنة ... وعلمنا الإسلام فالله نحمد

وكانت حاضنته أم أيمن بركة وكان ورثها من والده عبد الله بن عبد المطلب، فلما كبر أعتقها وزوّجها مولاه زيد بن حارثة فولدت له أسامة بن زيد وهو الحب بن الحب.

ذكر مرضعاته ﷺ:

أوّل من أرضع رسول الله ﷺ ثوبية مولاة عمه أبي لهب بلبن ابن لها يقال له

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) رواه ابن سعد.

مسروح أيامًا قبل أن تقدم حليمة السعدية، وكانت أرضعت عمه حمزة بن عبد المطلب، وأرضعت أيضاً معه أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وكان أبو لهب لما بشرته مولاته ثوبية بولادة رسول الله ﷺ أعتقها.

وجاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم: (أن أبا لهب لما مات رآه بعض أهله في النوم، فسأله: ماذا لقيت بعدنا؟ قال أبو لهب: لم أذق بعدكم رخاء غير أني سقيت في هذه بعتاقي ثوبية، وأشار إلى النقرة التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع، وذلك بفضل فرحه ببشارته بمولد رسول الله ﷺ.

وكان رسول الله ﷺ يبعث إلى ثوبية من المدينة بصلة وكسوة حتى جاءه خبرها أنها توفيت، فسأل عن ابنها وقرابتها، فقالوا: ابنها مات قبلها ولا لها قرابة، ويقول صاحب قرة الأبصار:

وكم حوت ثويبة من بركة　　لما غدت ظئراً له وبركة

ثبت أن رسول الله ﷺ عرض عليه الزواج من ابنة حمزة بن عبد المطلب، فقال: إنها إبنة أخي من الرضاعة، وأنها لا تحل لي، يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب. ثم أرضعته حليمة السعدية بلبن إبنها عبد الله أخي أبيه وجد أمه وهي الشيماء أولاد الحارث بن عبد العزى بن رفاعة السعدي، واختلف في إسلام أبويه من الرضاعة، وأرضعت حليمة مع رسول الله ﷺ ابن عمه أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وكان شديد العداوة لرسول الله ﷺ قبل إسلامه حتى أنه كان يهجو رسول الله ﷺ ويرد عليه حسان بن ثابت في ذلك:

لقد علم الأقوام أن ابن هاشم　　هو الغصن ذو الأفنان لا الواحد الوغد
وما لك فيهم محتد يعرفونه　　فدونك فالصق مثل ما لصق القرد
وإن سنام المجد من آل هاشم　　بنو بنت مخزوم ووالدك العبد
وما ولدت أفناء زهرة منكم　　كريماً ولم يقرب عجائزك المجد
ولست كعباس ولا كابن أمه　　ولكن هجين ليس يورى له زند
وإن امرءٍ أكانت سمية أمه　　وسمراء مغلوب إذا بلغ الجهد
وأنت زنيم نيط في آل هاشم　　كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

ولما بلغ الشعر أبا سفيان، قال: هذا شعر لم يغب عنه ابن أبي قحافة، وأسلم عام الفتح وحسن إسلامه. وكان عمه حمزة بن عبد المطلب مسترضعاً في بني سعد بن بكر فأرضعت أمه رسول الله ﷺ يوماً وهو عند أمه حليمة فكان حمزة رضيع رسول الله ﷺ من جهتين، من جهة ثوبية، ومن جهة السعدية.

وكانت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية، أم رسول الله ﷺ التي أرضعته، تحدث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه في نسوة بني سعد بن بكر تلتمس الرضعاء، قالت وذلك في سنة شهباء لم تبق لنا شيئاً، قالت: فخرجت على أتان لي قمراء، معنا شارف من الإبل لا تبض بقطرة من لبن، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع، ما في ثديٍّ ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذيه. قالت: ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج فخرجت على آتاني تلك مع رفيقاتي، وقد أطلت عليهم المسير بسبب عجف وضعف آتاني. وما منا امرأة من صويحباتي إلاّ وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه، إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكلنا نقول يتيم؟ وما عسى أن تصنع أمه وجده، فكلنا نكرهه لذلك. فما بقيت امرأة قدمت معي إلاّ أخذت رضيعاً غيري، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي، ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذهن. قال: لا عليك، أن تفعلي عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. قالت: فذهبت إليه فأخذته وما حملني على أخذه إلاّ أني لم أجد غيره، قالت: فلما أخذته رجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن. فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك. وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا إنها لحافل فحلب منها ما شرب، وشربت معه حتى أنهينا رياً وشبعاً فبتنا بخير ليلة. قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا، تعلمي والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة، قالت: فقلت، والله إني لأرجو ذلك، قالت: ثم خرجنا وركبت أنا آتاني وحملته معي عليها. فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حمرهم حتى إن صواحبي يقلن لي يا ابنة أبي ذؤيب، ويحك أربعي علينا. أليست هذه أتانك الذي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى، والله إنها لهي هي، فيقلن والله إن لها لشأناً. قالت: ثم قدمنا منازلنا في بلاد بني سعد ولا أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تروح علي حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن وتروح غنمي شباعاً لبناً فلم نزل نؤمل من الله الزيادة والخير حتى كان غلاماً.

ويقول الإمام البصيري:

وبدت في رضاعه معجزات ... ليس فيها عن العيون خفاء

إذ أبته ليتمه مرضعات ... قلن ما في اليتيم عنا غناء

فأتته من آل سعد فتاة ... قد أبتها لفقرها الرضعاء

أرضعته لبانها فسقتها وبنيها ألبانهن الشاء
أصبحت شؤلاً عجافاً وأمست ما بها شائل ولا عجفاء
أخصب العيش عندها بعد محل إذ غدا للنبي منها غذاء
يا لها منةً لقد ضوعف الأجر عليها من جنسها والجزاء
وإذا سخر الإله أناساً لسعيد فإنهم سعداء
حبة أنبتت سنابل والعصف لديه يستشرق الضعفاء

ذكر شق صدره الأول ﷺ وهو عند ظئرة (حليمة السعدية):

قالت حليمة: فقدمنا به على أمه، ونحن أحرص شيء على مكثه فينا لما كنا نرى من بركته. فكلمنا أمه وقلت لها لو تركت ابني حتى يغلظ، فإني أخشى عليه وباء مكة، قالت: فلم نزل بها حتى ردته معنا، قالت: فرجعنا به فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه في بهم لنا خلف بيوتنا، إذ أتانا أخوه يشتد فقال لي ولأبيه ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض. فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه.

قالت: فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائما منتقعاً وجهه. قالت: فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا له: مالك يا بني. قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني وشقا بطني، فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو، قالت: فرجعنا به إلى خبائنا.

قالت أي حليمة وقال لي أبوه: لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فالحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به، قالت: فاحتملناه، فقدمنا به على أمه، فقالت ما أقدمك به يا ظئر وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك. قالت، فقلت: قد بلغ الله بني وقضيت الذي علي، وتخوفت الأحداث عليه، فأديته إليك كما تحبين، قالت أمه: أي (آمنة بنت وهب) ما هذا شأنك يا ظئر، فأصدقيني خبرك، قالت: فلم تدعني حتى أخبرتها، قالت: افتخوفت عليه الشيطان؟ قالت، قلت: نعم، قالت: كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لبنيّ لشأناً أفلا أخبرك خبره؟ قالت، قلت: بلى، قالت: حين حملت به رأيت أنه خرج مني نور أضاء لي قصور بصرى من أرض الشام ثم حملت به، فوالله ما رأيت من حمل قط كان أحق علي ولا أيسر منه، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض، رافع رأسه إلى السماء دعيه عنك وانطلقي راشدة.

ويقول صاحب قرة الأبصار:

وشق صدر أشرف الأنام وهو ابن عامين وسدس عام
وشق للبعث وللإسراء أيضاً كما قد جاء في الأنباء

وشق صدره ﷺ ثبت[1].

ويقول العلامة المختار ابن بونا في رائيته:

وشق لتقديس السريرة صدره ... وعن شق ذاك الصدر شق له البدر

ويقول الإمام البصيري:

شق عن قلبه وأخرج منه ... مضغة عند غسله سوداء

ختمته يمنى الأمين وقد ... أودع ما لم تذع له أنباء

وروى ابن هشام أن نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا له: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك؟ قال: نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى أخي عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهماً لنا، إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطشتان ذهب مملوءة ثلجاً، ثم أخذاني فشقا بطني واستخرجا قلبي، فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء، فطرحاها ثم غسلا قلبي وبطني، بذلك الثلج حتى أنقياه، ثم قال أحدهما للآخر زنه بعشرة من أمته فوزنني بهم فوزنتهم، ثم قال زنه بمائة من أمته فوزنني فوزنتهم، ثم قال زنه بألف من أمته فوزنني فوزنتهم. فقال: دعه عنك فوالله لو وزنته بأمته لوزنها.

وزاد الطبري بعد هذا قال: ثم ضموني إلى صدورهم وقبّلوا رأسي، وما بين عيني ثم قالوا: يا حبيب لم ترع إنك لو تدري ما يراد بك من الخير لقرت عينك.

ذكر وفاة أمه وكفالة جده له ﷺ:

وقال ابن هشام كان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب، وجده عبد المطلب بن هاشم في كلاءة الله وحفظه، ينبته الله نباتاً حسناً لما يراد به من كرامته، فلما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين توفيت أمه بنت وهب بالأبواء بين مكة والمدينة، وكانت تقصد به أخواله من بني عدي بن النجار، تزوره إياهم، فماتت وهي راجعة به إلى مكة، فضمه جده عبد المطلب إليه، وكان يجلسه معه على فراشه الذي لا يجلس عليه غيره تحت ظل الكعبة. وكان حدباً عليه ويسره ما يراه يصنع.

فلما بلغ رسول الله ﷺ ثمان سنين، هلك جده عبد المطلب بن هاشم، وكان جده قد أوصى به إلى عمه أبي طالب شقيق والده عبد الله، فكفله أبو طالب أحسن كفالة وكان يقدمه على أبنائه، وكان لا يفارقه حتى بلغ إثنتي عشرة سنة.

---

(١) في صحيحي البخاري ومسلم.

خبر بحيرا الراهب:

خرج به عمه أبو طالب في عير لقريش إلى الشام، فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام وبها راهب يقال له بحيرا في صومعة له، وكان إليه علم أهل النصرانية، فلما نزل العير قريباً من صومعة بحيرا، صنع لهم طعاماً كثيراً وكان قبل ذلك لا يكلمهم ولا يعرض لهم، وسبب ذلك أنه رأى وهو في صومعته غمامة تظل رسول الله ﷺ من بين القوم، ولما نزلوا تحت الشجرة رأى الغمامة أظلت الشجرة وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها، فلما رأى بحيرا نزل من صومعته، ثم أرسل إليهم فقال: إني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش، فأنا أحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم وعبدكم وحرّكم، فقال له رجل معهم: والله يا بحيرا إن لك لشأناً اليوم! فما كنت تصنع هذا بنا وكنا نمر بك كثيراً فما شأنك اليوم؟ قال له بحيرا: صدقت قد كان ما تقول. فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه في رحال القوم تحت الشجرة، فلما نظر بحيرا لم يرى الصفة التي يعرف من بين القوم فقال: يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي، قالوا له: يا بحيرا ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلاّ غلام. وهو أحدث القوم سناً فتخلف في رحالهم، فقال: لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم.

فقال رجل من قريش مع القوم واللات والعزى، إن كان اللؤم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن المطلب عن طعام. ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم، فلما رآه بحيرا جلس يلحظه لحظاً شديداً، وينظر إلى أشياء في جسده، قد كان يجدها عنده في صفته.

حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرا فقال له: يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلاّ ما أخبرتني عما أسألك عنه، فأجابه رسول الله ﷺ: **«لا تسألني باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئاً بغضهما»**، فقال له بحيرا: فبالله إلاّ ما أخبرتني عما أسألك عنه. فقال له: **«سلني عما بدا لك»**، فجعل يسأله عن أشياء في حاله في نومه وفي هيئته وأموره، فجعل رسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه في موضعه من صفّته التي عنده، قال ابن إسحاق: فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب. فقال له: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال له بحيرا: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً. قال: فإنه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه، قال: مات وأمه حبلى به، قال: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه يهود فالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده.

يقول صاحب قرة الأبصار:

ثم إلى الشام مع العم ارتحل والعمر في ثالثة العشر دخل
وعاد مع ميسرة للشام وهو من الرحمن في إكرام

فرجع به أبو طالب إلى مكة... فشب رسول الله ﷺ بمكة والله سبحانه وتعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية، لما يريد به من كرامته ورسالته، فهو أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزهاً وتكرماً، حتى كان اسمه في قومه الأمين لما جعل الله فيه من الأمور الصالحة. وأعظمهم جواراً، وأرجحهم حلماً، وأصدقهم قولاً، وأعظمهم أمانة، حتى عرف بين أهل مكة وهو في ريعان شبابه بالأمين، لأنه استوفي من مكارم الأخلاق كل مكرمة لم ينلها إنسان قبله ولا بعده...

ولأنهم لم يشهدوا نشأة كعجيب نشأته، فقد ملك عليهم مشاعرهم بخلقه وحلمه ووفائه وصدق لهجته وكرم عشرته وتواضعه، عاش كعيشة قومه فقراء يزيد عليهم باليتم بفقد الأبوين، ولكنه يمتاز بسلامة الفطرة وسمو النفس وعزة وطهارة العقيدة والاعتصام بالفضيلة، فلم تكن نشأته جارياً على المألوف في الصبيان من تأثر عقولهم ونفوسهم بما يرون ويسمعون في بيئتهم. ولو جرى الأمر على ذلك لشارك (حاشاه) قومه في تعظيم الأصنام وعبادتها. ولكن عناية الله حفظته من ذلك كله فنشأ على أكمل ما تتحلى به النفوس من جميل الصفات وحميد الخصال، لم يسجد لصنم ولم يشارك في عيد من أعيادها ولم يذق لحوم قرابينها.

ذكر اشتراكه في بناء الكعبة ودخوله مع قومه في حرب الفجار:

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ كان ينقل الحجارة مع قومه لبناء الكعبة... وكانوا يحملون أزرهم على عواتقهم لتقيهم الحجارة وكان رسول الله ﷺ يحمل الحجارة على عاتقه وإزاره مشدود عليه. فقال له عمه العباس رضي الله عنه: يا ابن أخي لو جعلت إزارك على عاتقك ليقيك الحجارة، ففعل، فسقط مغشياً عليه ثم صاح قائلاً: إزاري. فقام يحمل الحجارة[١]، وقيل إنه نهره ملك بأن لا يرفع إزاره.

كما شارك قومه مع أعمامه في حرب الفجار وقال ﷺ: **«كنت أنبل على أعمامي، أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها»**، كما حضر حلف الفضول وهو ﷺ يومئذ ابن عشرين سنة، حيث تحالفت بنو هاشم وبنو زهرة وبنو تيم على نصرة المظلوم، حتى

---

(١) متفق عليه.

يؤدي إليه حقه، قال رسول الله ﷺ: **«ما أحب أن لي بحلف حضرته بدار بن جدعان حمر النعم»**(١).

ذكر زواجه بخديجة بنت خويلد ابن أسد بن عبد العزى وقصة نسطورا الراهب:

قال ابن إسحاق وكانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن العزى امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم.

وكان نشاط قريش الأساسي في التجارة وذلك معنى قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ [قُرَيش: الآيتان ١ ـ ٢]. لكون مكة واد غير ذي زرع لقلة المياه بها. فلما بلغ خديجة عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه. بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة... فقال له عمه أبو طالب: أقبل فإنه رزق ساقه الله إليك، فقبل رسول الله ﷺ منها ذلك وخرج في مالها ذلك وخرج معه غلامها ميسرة، حتى قدم الشام فنزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب يدعى نسطورا.

فاطّلع الراهب إلى ميسرة فقال له: من هذا الرجل الذي نزل تحت الشجرة؟ فقال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلاّ نبي، ثم باع رسول الله ﷺ سلعته التي خرج بها واشترى ما أراد أن يشتري، ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة، وكان ميسرة يرى (إذا كانت الهاجرة واشتد الحر) غمامة تظله من الشمس وهو يسير على بعيره، فلما قدم مكة وقدم على خديجة بمالها فباعت ما جاء به فأضعف أو قريباً من ذلك وحدثها ميسرة عن قول الراهب وعما كان يرى من إظلال الغمامة له، وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة مع ما أراد الله لها من كرامة.

فلما أخبرها ميسرة بما قال الراهب نسطورا في رسول الله ﷺ وما رأى هو نفسه (أي ميسرة) منذ خروجهم إلى أن عادوا إلى مكة، أدركت خديجة أنه حاجة نفسها، ولكن كيف تصل إليه؟ وكانت لها صديقة حميمة تدعى نفيسة بنت منية فدستها إلى رسول الله ﷺ لتلوح له بالأمر وتعلم رأيه.

فقالت: يا محمد ما يمنعك أن تتزوج؟ قال: ما بيدي ما أتزوج به، قالت: فإن كفيت ذلك، ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة... ألا تجيب؟... قال فمن

---

(١) رواه أحمد والحاكم.

هي؟ قالت: قلت خديجة. قال: فكيف لي بذلك؟ قالت، قلت: عليّ. قال: فأنا أفعل، فذهبت فأخبرتها.

وكان ﷺ في ذلك الوقت قد بلغ الخامسة والعشرين، شاباً ناهداً، سوي الخلقة مشرق الطلعة نبيل المظهر كريم المخبر، وكان زاهداً في الناس، عزوفاً عنهم إلاّ ما تقتضيه ضرورة المعايشة نزوعاً إلى التفكير منكباً على شأنه.

فأرسلت خديجة رضي الله عنها إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها، فحضر ودخل رسول الله ﷺ في عمومته فزوجه عمه أبو طالب، وأمهرها عشرين بكراً من الإبل، فقال: عمرو بن أسد هذا الفحل لا يقدع أنفه، وقال عمه أبو طالب الذي كان كفيلاً عليه وذكر ماله من رفعة وحسب وأنه لا يوزن به فتى من قريش إلاّ رجح به فضلاً وعقلاً.

ورضي أهل مكة عن هذه الخطبة وفرحوا بها فتغنت بها ولائدهم، ورددوا فيها الأهازيج.

لا تزهدي خديج في محمد نجم يضيء كضياء الفرقد

ولم تكن خديجة تزهد في رسول الله ﷺ لأنها هي التي اختارته بعد أن رضيت سيرته، فابتهجت بصحبته وأحسنت إليه.

وكان بها برّاً كريماً محسناً أعانها في تدبير تجارتها، وكان يخرج مع رجل من قريش استأجرته خديجة في تجارتها إلى سوق حباشة وهو سوق بتهامة، وكان رسول الله ﷺ يحدث عن خديجة فيقول ما رأيت من صاحبة لأجير خيراً من خديجة ما كنا نرجع أنا وصاحبي إلاّ وجدنا عندها تحفة من طعام تخبئه لنا.

وقال صاحب قرة الأبصار في نظمه:

وعاد مع ميسرة للشام وهو من الرحمن في إكرام
تظله الأملاك في المسير حين اشتداد الحر في الهجير
وإذ إلى مكة عاد وافتتح ستاً وعشرين من العمر نكح
خديجة من بعد أربعينا مضت لها من عمرها يقينا
خير نساء الناس أجمعينا وقد أقامت معه عشرينا
مع أربع ورزق البنينا منها سوى أحدهم يقينا
ثم ابن خمس مع ثلاثين حضر بناء بيت الله إذ بني الحجر
بيده الكريمة الزكية صلى عليه بارئ البرية

وروى ابن هشام أن خديجة بنت خويلد رضي الله عنها لما علمت من سيرة رسول الله ﷺ ما علمت وما أخبرها به مولاها ميسرة، أرسلت إلى رسول الله ﷺ فقالت له: يا بن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك ووسطك في قومك وأمانتك وحسن خلقك

وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها، وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالاً، كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه.

وكانت خديجة رضي الله عنها تتطلع إلى أمر عظيم من محمد ﷺ لما تحسه في نفسها من صفات كمال خارقة يتحلى بها ﷺ، منها صدق اللهجة، وحسن الخلق وعلو الهمة، وسمو الروح، وأيضاً لما تجمع لديها من أخبار قرب مبعث نبي أظل زمانه، جعلها تتأكد أنه هو أهلاً لأن يكون هو النبي المنتظر وأصبحت تؤمل فيه ذلك.

من ذلك ما ذكره صاحب السيرة الحلبية [1] عن ابن إسحاق، قال:

كان لنساء قريش في الجاهلية عيد يجتمعن فيه: فاجتمعن يوماً، فجاءهن يهودي، وقال: يا معشر نساء قريش إنه يوشك أن يكون فيكنَّ نبي قرب وجوده، فأيتكن استطاعت أن تكون له فراشاً فلتفعل، فحصبنه النساء وقبحنه وأغلظن له، وأغضت خديجة على قوله - ووقع ذلك في نفسها.

فلما أخبرها ميسرة بما رآه من الآيات، وما رأته هي من الصفات، وما تسمعه من ابن عمها ورقة بن نوفل، الذي كانت تتردد عليه وتقص له ما تجده في خبره ﷺ.

وكان ورقة بن نوفل نصرانياً قد تتبع الكتب - وعرف منها خبر مبعث رسول الله ﷺ فجعل ورقة يستبطىء ظهور نبينا محمد ﷺ وقال في ذلك:

لجحت وكنت في الذكرى لجوجا ... لهم طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظاري يا خديجا
ببطن المكتين على رجائي ... حديثك أن أرى منه خروجا
بما خبرتنا من قول قس ... من الرهبان أكره أن يعوجا
بأن محمداً سيسود يوما ... ويخصم من يكون له حجيجا

وكان شائعاً بين الناس بأن نبياً سيظهر قريباً، وأن اسمه محمد أو أحمد، وأنه أظل زمانه، وهذا الذي جعلها تتحقق أنه هو النبي المنتظر، وأصبحت تترقب ظهور أمره وتحس كأنها تراه رأى العين، وبذلك كانت تحثه ﷺ على التحنث وتعينه عليه وتهيىء له الزاد، حتى أكرمه الله في شهر رمضان بالرسالة، وقد أشار الشاعر إلى عقل خديجة ورجاحته وقوة فراستها بأن محمداً ﷺ هو الكنز الذي تبحث عنه، وأنه المنى الذي تريده، وأن ما أحسن ما يبلغ المنى الأذكياء قال الإمام البصري رحمه الله.

---

(١) السيرة الحلبية ج١ ص٣٣٨.

ورأتـه خـديـجـة والـتّـقـى والـزهْـد فـيـه سـجـيـة والـحـيـاء
وأتـاهـا أن الـغـمـامـة والـسـرْح أظـلـتـه مـنـهـمـا أفـيـاء
وأحـاديـث أن وعـد رسـول الله بـالـبـعـث حـان مـنـه الـوفـاء
فـدعـتـه إلـى الـزواج ومـا أحـسـن مـا يـبـلـغ الـمـنـى الأذكـيـاء
وأتـاه فـي بـيـتـهـا جـبـريـل ولـذي الـلـب فـي الأمـور ارتـيـاء
فـأمـاطـت عـنـهـا الـخـمـار لِـتـدري أهـو الـوحـي أم هـو الأغـمـاء
فـاخـتـفـى عـنـد كـشـفـهـا الـرأس جـبـريـل فـمـا عـاد أو أعـيـد الـغـطـاء
فـاسـتـبـانـت خـديـجـة أنـه الـكـنـز الـذي حـاولـتـه والـكـيـمـيـاء
وإذا حـلـت الـهـدايـة قـلـبـاً نـشـطـت لـلـعـبـادة الأعـضـاء

وهي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، يجتمع نسبها مع نسب رسول الله ﷺ في قصي، وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤي يجتمع نسبها مع نسب رسول الله ﷺ في لؤي بن غالب. ومكثت خديجة مع رسول الله ﷺ نحواً من أربع وعشرين سنة، فولدت له أولاده كلاً إلاّ إبراهيم فأمه ماريا القبطية. وكان أكبر أولاده منها يدعى القاسم، وبه كان يكنى ﷺ والطيب والطاهر وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة (عليهم السلام).

وخديجة هي أول من آمن برسول الله ﷺ وصدّقت بما جاء به من الله، وآزرته على أمره، فخفف الله بها عن نبيّه ﷺ فكان لا يسمع شيئاً مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلاّ فرج الله عليه بها، إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس.

فأما أولاده الذكور فلم يرد الله أن تمتد بهم الحياة فماتوا صغاراً، وأما بناته فقد كبرن وتزوجن وهاجرن مع رسول الله ﷺ إلى المدينة مع أزواجهن ودفنَّ جميعاً في المدينة.

وخديجة يكفيها ما شرّفها الله به، بأن جعلها زوجاً لخاتم رسله، وهي التي آزرت المصطفى ﷺ في أمر الدعوة إلى الله، وكانت له خير ناصر وخير مواس، فكانت أول من آمن به وصدقت بما جاء به، وبيتها هو الذي أشرق منه نور الإسلام، وهو الذي نزل فيه ثلثي القرآن، وهو شرف عظيم ـ ذكر الله به نساء النبي ليعرفن مكانتهن بما أنعم الله عليهن به ـ فجعل بيوتهن مهبط الوحي ومشرق النور والهدى والإيمان، وهو حظ عظيم لتحس نفوسهن بجلالة قدره فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٤] . وكافأها الله سبحانه وتعالى بأن بعث إليها الروح الأمين

بإبلاغ السلام وبشارتها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب[1].

كما يكفيها أن رسول الله ﷺ لم ينسها أبداً، وكلما رأى أي واحدة من صحيباتها يقول فلانة؟ أهلاً كانت تأتينا على عهد خديجة، ويكرّمها حتى غارت أمنّا عائشة فقالت: أبدلك الله خيراً منها، وانتصر النبي ﷺ لخديجة وقال: والله لم يبدلني خيراً منها، إنها آمنت بي حين كذّبني الناس، وواستني بمالها حين حرمني الناس، ورزقت منها الولد.

اجتماع قريش على تحكيم رسول الله ﷺ على وضع الحجر الأسود في مكانه من البيت:

قال ابن إسحاق: ثم إن قبائل قريش جمعت الحجارة لبناء الكعبة، كل قبيلة تجمع على حدة ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوزوا وتخالفوا وأعدوا للقتال. فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت، وتعاقدت بقية القبائل هي الأخرى. فمكثت قريش على ذلك أربع ليال، حتى اتفق رأيهم على تحكيم أول داخل عليهم من باب المسجد يقضي بينهم، ففعلوا وكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمد. فلما انتهى إليه الأمر قال ﷺ: **«هلم إلي بثوب»**. فأتى به. فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده، ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده الشريفة، ثم بنى عليه ﷺ. انتهى[2].

وهذه الحادثة تجعلنا نربط بين بناء البيت أساساً من قبل أبوي رسول الله ﷺ وهما إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، واستجابة دعائهما بإقامة الملّة الإسلامية وبعث فيهم رسولاً منهم وهو رسول الله ﷺ عند هذا البيت وحادثة اشتراك رسول الله ﷺ في تجديد بناء البيت على قواعد إبراهيم عليه السلام، هي وراثة إمامته التي عهد الله بها لإبراهيم عليه السلام بقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٤]. ورسول الله ﷺ هو من ذرية إبراهيم الصالحة المعهود إليها بالإمامة، وهو أيضاً استجابة لدعاء سيدنا إبراهيم: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٨٤].

ومن هذا يتبيّن أنه ﷺ ما عرض عليه تدبير أمر من المعضلات بعد الرسالة ولا قبلها إلاّ أشار فيه بأعدل الآراء وأقربها إلى السلم والإرضاء ولو كان دخوله ﷺ على قريش بعد أن كلّف بالرسالة أو علموا يومئذ بأنها مخبأة له في طوايا الزمان لما قبلوا

---

(١) رواه البخاري.
(٢) من سيرة ابن هشام باختصار.

تحكيمه، ولما سلم منهم (صلوات الله وسلامه عليه) مع أنهم كانوا يسمونه الأمين قبل أن ينزل عليه الوحي.

حالة العرب وما حولها قبل مبعث رسول الله ﷺ:

إن العرب في الجزيرة العربية قبل الإسلام كانوا في جاهلية جهلاء، وفي ضلالة عمياء، يسفكون الدماء، وينهبون بعضهم بعضاً، حتى أن بعضهم يسترق المنهوب ويبيعه بيع الرقيق، كما حصل لزيد بن حارثة، وسلمان الفارسي وصهيب الرومي، حتى شاع فيهم التصعلك وأصبح يعتبر نوعاً من المغامرات والبطولات، وله دواوين شعر وهم يخيفون الطريق ويتعاطون كبائر الآثام ويقتلون أولادهم من الفاقة مع تفشي أكل الربا فيهم وشرب الخمر ولعب الميسر، وكانوا من جراء ذلك في بلاء عظيم وجهالات مطبقة وشرور موبقة، وبنات موؤدة وأصنام معبودة، وأرحام مقطوعة.

قال الكلبي: كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمّسح بالصنم، وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسّح به (من كتاب الأصنام).

وتنوّعت العرب في عبادة الأصنام، فمنهم من اتّخذ بيتاً، ومنهم من اتخذ صنماً، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم، وسموها الأنصاب وكان في جوف (الكعبة البيت الذي بني لعبادة الله وحده)، وفي فنائه ثلاثمائة وستون صنماً.

وكان للعرب ـ شأن كل أمة مشركة في كل زمان ومكان ـ آلهات شتى من الجن والملائكة والكواكب، وكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله، فيتخذونهم شفعاء لهم عند الله، ويعبدونهم ويتوسلون بهم عند الله، واتخذوا كذلك الجن شركاء الله، وآمنوا بقدرتهم وتأثيرهم وعبدوهم.

قال الكلبي: كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن، وقال صاعد كانت حمير تعبد الشمس (وهم قوم سبأ الوارد ذكرهم في سورة النمل وقصتهم مع سليمان عليه السلام، وقد دلّ عليهم الهدهد فأخبر سليمان عليه السلام): ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النمل: الآيات ٢٢-٢٤] وكنانة تعبد القمر وتميم الدبران ولخم وجذام المشتري وطيء سهيلاً، وقيس الشعري، وأسد عطارد.

وكانت كل قبيلة أمة قائمة بنفسها تتحفز لشن الغارة على جارتها. وأصدق قول في ذلك ما قاله جعفر بن أبي طالب، وهو يحدث نجاشي الحبشة في مواجهة رسل قريش

إليه ليسلم المهاجرين من المسلمين الذين فروا بدينهم إلى الحبشة، يقول جعفر رضي الله عنه:

أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام ونسيء الجوار، ويأكل القوي منّا الضعيف، فكنّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى عبادة الله وحده لا شريك له لنوحّده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

ومن أقبح ما عرف بينهم بعض أنواع التزاويج التي كانوا يتعاطونها وهي ـ أن النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليّته أو بنته، فيصدقها ثم ينكحها، والنكاح الثاني كان الرجل يقول لأمرأته إذا طهرت من طمثها أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع، ونكاح ثالث يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها. فإذا حملت ووضعت ومرّ عليها ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان تسمي من أحبت منهم باسمه فيلحق به ولدها، ولا يستطيع أن يمتنع منه الرجل.

والنكاح الرابع ـ هو كالسابق ولكنه يخص صاحبات الرايات وهن البغايا. وإذا حملت إحداهن ووضعت حملها، جمعوا لها ودعوا لها القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون شبهه به، ولا يمتنع من ذلك، وهناك نوع آخر وهو زواج الشغار بأن يزوج الرجل ابنته أو أخته لآخر على أن يزوج الآخر ابنته أو أخته مقابل ذلك.

ودلالة هذه الأنواع كلها تنبىء عن الانحطاط والتردي الذي وقع فيه المجتمع الجاهلي، وهو لا يحتاج إلى تعليق، علماً بأن الديانات السماوية كلها تحافظ على الأصول الخمسة[1] ومنها المحافظة على النسب فكيف يليق أو يتصور أن رجلاً مهما بلغ

---

(١) هي المجموعة من قول بعض الأفاضل:

قد أجمع الأنبياء والرسل قاطبة — على الديانة بالتوحيد في الملك

وحفظ مال ونفس معهما نسب — وحفظ عقل وعرض غير مبتذل

اهـ.

من ديوثته يرسل امرأته إلى رجل آخر لتأتي له منه بولد نجيب، فهذا لا فرق بينه وبين البهيمة سواء ناقة أو فرس التي يطلب لها الفحل النجيب.

وقد وصفهم كسرى قبل مبعث رسول الله ﷺ فقال: لقد فكرت في أمر العرب وغيرهم من الأمم، ونظرت في حال من يقدم عليّ من وفود الأمم، فوجدت الروم لها حظ في اجتماع ألفتها، وعظم سلطانها وكثرة مدائنها ووثيق بنيانها، وإن لها ديناً يبين حلالها وحرامها، ويرد سفيهها ويقيم جاهلها، ورأيت الهند نحواً من ذلك في حكمتها وطبعها مع كثرة أنهار بلادها وثمارها وعجيب صناعتها، وطيب أشجارها، ودقيق حسابها وكثرة عددها، وكذلك الصين في اجتماعها وكثرة صناعات أيديها في آلة الحرب، وصناعة الحديد وفروسيتها وهمتها، وأن لها ملكاً يجمعها والترك والخزر على ما بهم من سوء الحال في المعاش وقلة الريف والثمار والحصون، وما هو رأس عمارة الدنيا في المساكن والملابس، لهم ملوك تضم قواصيهم وتدبر أمرهم.

ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير في أمر دين ولا دنيا، ولا حزم ولا قوة، مع أن ما يدل على مهانتها وذلها وصغار همتها لحالتهم التي هم بها مع الوحوش النافرة والطيور الحائرة يقتلون أولادهم من الفاقة، ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة، قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذاتها، فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الإبل التي تعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها، وإن قرى أحدهم ضيفاً عدها مكرمة، وإن أطعم أكلة عدها غنيمة، تنطق بذلك أشعارهم وتفتخر بذلك رجالهم، ما خلا هذه التنوخية التي أسس جدي اجتماعها، وشد مملكتها ومنعها من عدوها (يعني اليمن)، ثم لا أراكم على ما بكم من الذلة والقلة والفاقة والبؤس . . .إلخ.

ويقول عنهم العلامة المؤرخ ابن خلدون:

فلم تكن أمة من الأمم أسغب عيشاً من العرب لبعدهم عن الأرياف وحبوبها، وكانوا كثيراً ما يأكلون العقارب والجرابيع والضبوبة والعلهز وهو وبر الإبل يخلطونه بدمها ويطبخونه!!!

الفصل السادس

مبعث رسول الله ﷺ

بعث الله عند مبعثه الشهب ... حراساً وضاق عنها الفضاء
تطرد الجن عن مقاعد للسمع ... كما تطرد الذئاب الرعاء

فـمـحـت آيـة الـكـهـانـة آيـات   مـن الـوحـي مـا لـهـن إمـحـاء

وأما خبر مبعثه ﷺ :

فهو كما قال الشاعر تأخر بعثاً وهو فضل مقدم، فقد روى ابن كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال عندما سئل متى وجبت لك النبوة؟ قال: بين خلق آدم ونفخ الروح فيه، وسيرته تبدأ من عهد الميثاق الذي أخذ الله على النبيين قبل خلق آدم في عالم الأرواح بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عِمرَان: الآيتان ٨١، ٨٢].

وقبل أن ندخل في تفاصيل مبعثه بالرسالة نوجز بعض جوانب حياته ﷺ والتي عرضناها بقدر من التفصيل.

نشأ محمد ﷺ يتيماً من أبيه، رضيعاً في بني سعد بن بكر، وما هي إلاّ سنوات ستة حتى فقد أمه آمنة بنت وهب، فكفله جده عبد المطلب ابن هاشم سنتين، حيث توفي عنه وهو ابن ثمان ثم احتضنه عمه أبو طالب، حتى بلغ سن الرشد، ولما بلغ مبلغ الفتوة مارس أعباء الحياة التي كانت في زمنه من رعي الأغنام والاشتراك في حروب قومه، ثم تاجراً أجيراً وكان بعيداً عن مجالس اللهو والمجون التي اعتادها فتيان أهل مكة. لم يشرب الخمر ولم يأكل الربا، ولم يلعب الميسر ولم يقرب صنماً، وكان ﷺ في فترة ما قبل مبعثه يؤثر الوحدة ويطيل السكوت ويديم التفكير، يفكر في خلق السموات والأرض، ومن الذي خلق الموت والحياة، وجعل الظلام والنور ودبّر أمر هذا العالم.

روى ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ كان يجاور من كل سنة شهراً، وكان ذلك مما تتحنث به قريش في الجاهلية، والتحنث التبرر حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته، وذلك الشهر هو شهر رمضان. وقال الإمام البصيري:

ألف الـنـسـك والـعـبـادة والـخـلـوة   طـفـلاً وهـكـذا الـنـجـبـاء
وإذا حـلـت الـهـدايـة قـلـبـاً   نـشـطـت في الـعـبـادة الأعـضـاء

ذكر أول نزول الوحي:

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: كان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء فكان يلحق بغار حراء فيتحنث فيه: (والتحنث التعبّد)، الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق وهو في غار حرّاء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ، فقال رسول الله ﷺ قلت: ما أنا بقارئ،

فأخذني فغطني حتى بلغ من الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العَلق: الآيات ١ ـ ٥] . فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره حتى دخل على خديجة، فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسي، قالت خديجة كلا، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً، فوالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل، وهو ابن عم خديجة، وكان امرءاً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت خديجة: يا عم اسمع من ابن أخيك، قال ورقة يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره النبي ﷺ خبر ما رأى، فقال ورقة هذا الناموس الذي أنزل على موسى ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ أو مخرجي هم؟ قال ورقة: نعم، لم يأت رجل بما جئت به إلاّ أوذي، حتى حزن رسول الله ﷺ(١).

وفي رواية أخرى لابن إسحاق قال: خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها. جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى. قال رسول الله ﷺ: **«فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ، قال، قلت: ما أقرأه؟ قال: فغطني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلاّ افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي. فقال:** ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العَلق: الآيات ١ ـ ٥]. قال: فقرأتها ثم انتهى، فانصرف عني وهببت من نومي، فكأنما كتبت في قلبي كتاباً. قال: فخرجت حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول يا محمد: أنت رسول الله وأنا جبريل. فقال رسول الله ﷺ: **«وانصرفت راجعاً إلى بيتي»**، ويقال أنه ﷺ كان فزعاً، وقال زملوني زملوني، ثم حدث خديجة بالذي رأى، فقالت أبشر يا ابن عم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده أني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة. ثم انطلقت بي

---

(١) أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري.

إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وهو ابن عمها. وكان ورقة قد تنصر وعنده علم من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ فقال ورقة: قدوس قدوس لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وإنه لنبي هذه الأمة.

ويروى عن ورقة أنه قال لرسول الله ﷺ يا ليتني كنت جذعاً، لأنصرنك إذ يخرجك قومك... فقال ﷺ: «أوَ مخرجي هم»؟ قال ورقة: لم يأت أحد بما أتيت به إلاّ وأخرجه قومه أو كما قال.

وفي الصحيح إن خديجة قالت لرسول الله ﷺ حين هبط إليها من الغار: أبشر فوالله لن يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة، وتقري الضيف، وتحمل الكل وتعين على نوائب الحق.

وأراد الله لنوره أن يشرق من غار حرّاء، وأن ينزل قرآنه على هذا الأمي لتكون آيته أبهر للعيون ودعوته أبرع للعقول، وكلمته أعلق بالأفئدة. وأصبح حراء مشرق النور ومطلع الحق ومهبط الوحي وملتقى السماء والأرض، فإلى هذا الغار فرّ محمد ﷺ من الشرك ومن باطل العقائد وزورها، وآوى إلى هذا الجبل يحتمي فيه من الوثنية وعبادة الأصنام وقطع الأرحام ووأد البنات وأكل الربا وارتكاب الفواحش، وتسلط القوي على الضعيف.

وهنالك أنزل الله على رسوله وحيه لينذر من كان حياً ويمضي إلى الغاية المقدورة لنشر العدل ورسالة التوحيد هابط من حراء، وقد حمل أعباء النبوة واطّلع بأمانة الرسالة، وأفضى الله إليه بوحيه وكلّفه بهداية خلقه، نزّل بذلك النور ديناً قيماً جديداً لإنقاذ البشرية من الظلمات إلى النور وإصلاحاً شاملاً كاملاً ورحمة للعالمين.

بدء الدعوة:

وعندما بدأ رسول الله ﷺ الدعوة إلى الإسلام استجابة لأمر ربه في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثّر: الآيات ١ - ٥]. أسلمت خديجة بنت خويلد زوج رسول الله ﷺ ثم علي بن أبي طالب، ثم زيد بن حارثة ثم أبو بكر الصديق، ثم أسلم على يد أبي بكر كل من عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقّاص، وطلحة بن عبيد الله ، وجاء بهم أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فأسلموا وصدقوا. وتبع ذلك أبو عبيدة بن الجرّاح، وأبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال، والأرقم بن أبي الأرقم، وأبناء مظعون عثمان وأخواه قدامة وعبد الله ابنا مظعون وعبيدة بن الحارث بن المطلب وسعيد بن زيد وامرأته فاطمة بنت الخطاب وأسماء بنت أبي بكر الصديق وأختها أم المؤمنين عائشة وهي يومئذ صغيرة

وخباب بن الأرت وعمير بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود ومسعود بن القاري، كما أسلم سليط وأخوه وابنا عمرو بن عبد شمس وعيّاش بن أبي ربيعة وامرأته وخنيس بن حذافة وعامر بن ربيعة وابنا جحش عبد الله وأبو أحمد وجعفر وامرأته ونعيم بن عبد الله بن أسد وعامر بن فهيرة وخالد بن سعيد وامرأته، وحاطب بن عمرو وأبو حذيفة وواقد بن عبد الله وخالد بن البكير وإخوانه عامر وعاقل وإياس وعمار بن ياسر ووالده ياسر وأمه سمية، وصهيب الرومي وهكذا دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء وفشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث الناس به، إلاّ أن رسول الله ﷺ لم يؤمر بإعلان الدعوة والمجاهرة بها في ذلك الوقت.

رد فعل قريش على الجهر بالدعوة:

وبعد مضي ثلاث سنوات من مبعثه ﷺ كلّف بالإنذار والإعذار وبالجهر بالدعوة وخاصة عشيرته الأقربين، فنزل عليه قول الله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤﴾ [الحِجر: الآية ٩٤]. ثم نزل عليه قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢١٤]. فصعد رسول الله ﷺ على الصفا، وقيل على جبل أبي قبيس، وصاح بأعلى صوته واصباحاه يا بني عبد المطلب، يا بني مناف، يا بني زهرة، يا بني كعب بن لؤي، يا بني مخزوم، يا بني عبد الدار، يا بني تيم، يا بني أسد، يا بني، يا بني، حتى اجتمعوا عليه. قال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ فأجابوا: نعم، أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط. قال:

إذاً... إني نذيركم بين يدي عذاب شديد. إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة، ولا من الآخرة نصيباً إلاّ أن تقولوا ـ لا إله إلاّ الله ـ فقام عمه أبو لهب فقال: تباً سائر هذا اليوم. ألهذا جمعتنا... فأنزل الله فيه: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ٥﴾ [المَسَد: الآيات ١ ـ ٥][1].

ولما أجمع بنو هاشم بقيادة أبي طالب على حماية رسول الله ﷺ ولو لم يكونوا على دينه وإنما بدافع العصبية القبلية. خرج أبو لهب على إخوانه، وحالف عليهم قريشاً، وكان معهم في الصحيفة التي كتبوها بمقاطعة بني هاشم وتجويعهم كي يسلموا لهم

(١) متفق عليه.

محمداً ﷺ وكان من أكابر كفار مكة في ذلك الوقت، ـ عمرو بن هشام (أبو جهل)، وأبو لهب بن عبد المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن قبيس بن عدي، والوليد بن المغيرة، وأمية وأخوه أبي ابنا خلف، وأبو قيس بن الفاكة، والعاص بن وائل، والنضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، والحكم بن العاص، أبو سفيان بن حرب، وعتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وأعانهم قوم آخرون، وهؤلاء هم وجهاء الأغنياء المترفين بمكة وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سَبَإ: الآية ٣٤]. ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الزخرُف: الآيتان ٢٣،٢٤]. فقام هؤلاء المترفون ليسدوا عليه طريق الدعوة، وتفجرت عليه الأذية من كل سفهاء مكة وعلى رأسهم أبو جهل وأبو لهب وتفنن شياطينهم في أذى رسول الله ﷺ فعذبوه في نفسه وفي أصحابه فما استكان ولا لان ولا تردد.

وكانت خديجة زوجة تثبّته وتخفف عنه وتهوّن عليه وتؤازره على أمره، وقام عمه أبو طالب ينافح عنه ويمنع قريشاً من الخلوص إليه.

اختيار الله أن تكون فيهم الرسالة الخاتمة:

ولما أراد الله بالعرب خيراً، بعث فيهم رسولاً من أنفسهم، يعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم مبعوثاً بالحق والهدى، ويأمرهم بالعدل والإحسان، وينهاهم عن الفحشاء والمنكر، ويدعوهم إلى ترك المعصية وحمية الجاهلية، ويدعوهم إلى أن يكونوا أُخوة متحابين يداً واحدة كالبناء المرصوص يشد بعضهم بعضاً أشداء على الكفار رحماء بينهم، وهو مؤيد بكتاب من عند الله، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فُصّلَت: الآيتان ٤١،٤٢] ، وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف: الآية ١].
وبيّن الله تعالى فائدة الكتاب ومهمته فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: الآية ١]، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النّحل: الآية ٤٤] . وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النّحل: الآية ٨٩]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: الآيتان ٥٢، ٥٣]. ثم كلّف الله رسوله ﷺ بإنذار عشيرته الأقربين، ثم عمّ الخلق من بعدهم، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ثم قال تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ﴾ [الأنعام: الآية ٩٢] ، ثم قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ [يس: الآية ٦] ، ثم قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ [القصص: الآية ٤٦]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبإ: الآية ٢٨].

ومن دلالة الآيات السابقة يتّضح أن الإسلام دين عام لكل من هو على وجه الأرض، فكانت أم القرى ومن حولها نقطة البداية: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ [الشورى: الآية ٧] ، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: الآية ٥٩]، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ﴾ [الأنعام: الآية ٩٢].

فهذه البقعة هي التي اختارها الله لتكون مصدر النور الأخير والرسالة الخاتمة، والنقطة التي يبدأ منها انطلاق الدعوة الإسلامية، استجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: الآيتان ١٢٨، ١٢٩].

وهو تذكير المسلمين بنعمة الله عليهم بإرسال هذا النبي منهم استجابة لدعوة إبراهيم الذي قام ببناء البيت وقام بتطهيره هو وابنه إسماعيل عليهما السلام. وأما ميدان البلاغ فهو العالم كله شرقه وغربه، ولكن المعركة بدأت بمكة بين كفار قريش ورسول الله ﷺ عندما صدع بالأمر: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر: الآية ٩٤] . ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشّعَراء: الآية ٢١٤] .

أول مواجهة لقريش مع الدعوة:

قال ابن إسحاق: فلما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه، ولم يردوا عليه إلاّ ما كان من أمر أبي لهب، حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك ناكروه، وأعظموه، وأجمعوا خلافه وعداوته إلاّ من عصم الله تعالى منهم بالإسلام، وهم قليلون مستخفون وحدب عليه عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه. ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله لا يرده عنه شيء. فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ ماض في سبّ آلهتهم وعيب دينهم، واعتزال أوثانهم، وأنه غير مكترث لما يوجهون إليه من

أذية وتكذيب وسبّه ورميه بالسحر والكهانة والجنون، فتنادوا في حجر البيت، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط، سفّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرّق جماعتنا وسبّ آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، فبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى استلم الركن، فوثبوا عليه وثبة رجل واحد يقولون: أنت الذي تعيب آلهتنا وأنت الذي تعيب ديننا، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فقام أحدهم يأخذ رداءه فتصدى لهم أبو بكر الصديق، وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، ثم انصرفوا عنه ورجع أبو بكر يومئذ وقد صدعوا رأسه من شدة جذبهم للحيته، وكان رجلاً كثيف اللحية.

إغراء قريش رسول الله ﷺ بسيادته عليهم، أو جمع المال له:

ثم جاء دور عتبة بن ربيعة وكان من أكبر سادات قريش فقال يوماً في ناديهم ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فتعطيه أيها يشاء ويكفّ عنا؟ فقالوا: نعم يا أبا الوليد. فقام إليه عتبة وجلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي إنك منّا حيث علمت من الوساطة في العشيرة والمكانة في النسب، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منّي أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل بعضها، فقال رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد، أسمع»، قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا، وإن كان الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يتداوى منه، حتى إذا فرغ عتبة من كلامه ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: «أقد أفرغت يا أبا وليد»؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني. قال: أفعل.

فقال رسول الله ﷺ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفاتحة: الآية ١] ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾ [فُصّلَت: الآيات ١-٧]. وعتبة يطرق مأخوذاً، كأنما على رأسه طائر واقع، ومضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه حتى بلغ فيها: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا

﴿أَلَا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [فُصِّلَت: الآيتان ١٣، ١٤].

فوضع عتبة يده على فم رسول الله ﷺ ثم قال رسول الله ﷺ: **«قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك»**.

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي إني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت به نبأ عظيم، فإن تصيبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزّكم وكنتم أسعد الناس به، قالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدالكم، ولما واجهوه بقولهم سحرك يا أبا الوليد، قال عتبة: يا معشر قريش:

(قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة، لقد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أكرمكم خلقاً وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم كاذب وساحر ومجنون).

قصة إسلام حمزة بن عبد المطلب:

وكان سبب إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه أن أبا جهل بن هشام قام بأذية رسول الله ﷺ فأذاه وشتمه ونال منه ما يكره من العيب، ولم يكلمه رسول الله ﷺ وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان تسمع ما تفوه به أبو جهل على رسول الله ﷺ وبعد ما حدث من أبي جهل وانصراف رسول الله ﷺ أقبل حمزة بن عبد المطلب راجعاً من صيد كان يخرج له متوشحاً قوسه، وكان أعزّ فتى في قريش وأشد شكيمة وبأساً.

فلما رأته مولاة ابن جدعان قالت له: يا أبا عمارة لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد ﷺ آنفاً من أبي الحكم بن هشام، حيث وجد ابن أخيك هاهنا جالساً فآذاه وسبّه وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه، ولم يكلمه محمد ﷺ وصوّرت له شناعة ما لقيه ابن أخيه من عدو الله أبي جهل.

فما كان من حمزة رضي الله عنه، الذي حمله الغضب على البحث عن عمرو بن هشام، فوجده في نادي قومه، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه وضربه بالقوس فشجه شجة منكرة، ثم قال: أتشتم يا مصفر الأست محمداً وأنا على دينه أقول ما يقول (فرد علي إن استطعت) فقام رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا صاحبهم أبا جهل. . . فخشي أبو جهل أن يتصاعد الأمر إلى نزاع بين بني مخزوم وبني عبد مناف فقال: دعوا

أبا عمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سبّاً مقذعاً، وكان هذا سبب إسلام عمّ الرسول ﷺ (حمزة بن عبد المطلب). وكما يقول المثل اشتدي زيم تنفرجي.

وكما يقول الإمام البصيري:

كل أمر ناب النبيين فالـ ـشدة فيه محمودة والرخاء

ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه ثم سري الأمر بينه وبين كفار قريش حتى تباعد الرجال وتضاغنوا، وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ فتذامروا وحض بعضهم بعضاً عليه.

إنذار قريش لأبي طالب:

ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب فقالوا له: يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنّا، وإنّا والله لا نصير على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنّا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين. ثم انصرفوا فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم - فبعث إلى رسول الله ﷺ فقال له: «يا ابن أخي إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا للذي كانوا قالوا له فأبق علي وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق». فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله ومسلّمه، ولكن الرسول ﷺ أجابه ذلك الجواب الذي خيّس أنف الشيطان وغيّر وجه الزمان وحسم الأمر بين التوحيد والشرك، فقال عليه الصلاة والسلام:

يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته، ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى ثم قام، فلما ولى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يابن أخي - فأقبل رسول الله ﷺ، فقال أبو طالب: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً.

ولما اشتد النزاع بين قريش وبين أبي طالب، وعلموا أنه لا ينوي خذلان ابن أخيه أو تسليمه، راودوه بأن يعطوه أنهد فتى في قريش وأجمله، فله عقله ونصرته، وهو عمارة بن الوليد ويعطيهم محمداً ﷺ على أساس أنه خالف دينه ودين آبائه ليقتلوه. فأجابهم: أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه. هذا والله ما لا يكون أبداً - فقال المطعم بن عدي بن عبد مناف: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك. وجهدوا على التخلص مما تكرهه.

فكبر ذلك على أبي طالب بأن يكون أبناء عمومته من بني مناف مثل المطعم وأبو سفيان وأخوه أبو لهب وعتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وأضرابهم يشايعون أعداء بني هاشم، فازداد واشتد العداء وتنابذ القوم وحميت الحرب فأخذ أبو طالب يعرض بهم:

ألا قل لعمرو والوليد ومطعم ... ألا ليت حظي من حياطتكم بكر
أرى أخوينا من أبينا وأمنا ... إذا سئلا قالا إلى غيرنا الأمر
أخص خصوصاً عبد شمس ونوفلا ... هما نبذانا مثل ما ينبذ الجمر
هما أغمزا للقوم في أخويهما ... فقد أصبحا منهم أكفهما صفر
هما أشركا في المجد من لا أباً له ... من الناس إلاّ أن يرس له ذكر
وتيم ومخزوم وزهرة منهم ... وكانوا لنا مولى إذا بغي النصر
فوالله ما تنفك منا عداوة ... ولا منهم ما كان من نسلنا شفر

وأيضاً قال:

اذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر ... فعبد مناف سرها وصميمها
وإن حصلت أشراف عبد منافها ... ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرن يوماً فإن محمدا ... هو المصطفى من سرها وكريمها
تداعت قريش غثها وسمينها ... علينا فلم تظفر وطاشت حلومها
وكنا قديماً لا نقر ظلامة ... إذا ما ثنوا صعر الخدود نقيمها
ونحمي حماها كل يوم كريهة ... ونضرب عن أحجارها من يرومها
بنا انتعش العود الذواء وإنما ... بأكنافنا تندي وتنمي أرومها

فلما خشي أبو طالب دهماء العرب أن يركبوه مع قومه، قال قصيدته التي تعوذ فيها بالحرم المكي وبمكانه منها، وتودد فيها أشراف قومه، وهو مع ذلك يخبرهم وغيرهم من شعره أنه غير مسلّم رسول الله ﷺ ولا تاركه لشيء أبداً حتى يهلك دونه فقال:

ولما رأيت القوم لا ورد فيهم ... وقد قطعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى ... وقد طاوعوا أمر العدو المزايل
وقد حالفوا قوماً علينا أظنةِ ... يعضون غيظاً خلفنا بالأنامل
صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة ... وأبيض عَضب من تراث المقاول
وأحضرت عند البيت رهطي وأخوتي ... وأمسكت من أثوابه بالوصائل

وهي طويلة إلى أن يقول:

كذبتم وبيت الله نبزي محمدا ... ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

ثم يقول:

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده في رحمة وفواضل

وهي طويلة:

ثم يعترف بصدق النبي ﷺ ويقول: إن دينه هو الحق، ولكن يخشى الملامة والسبة إن تبعه.

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبّة لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

منافسة السيادة في قريش بين بني عبد مناف وبني مخزوم:

وكان شرف قريش قبل الإسلام بين بني مناف وبني مخزوم، وكان شرف بني مخزوم في المغيرة بن عبد الله بن مخزوم حتى إن بعض ذريته آثر اسم المغيرة على اسم المخزوم، وكان هشام بن المغيرة يسمى رب مكة، ولما مات أرخت قريش بموته، وكان ابنه عمرو (أبو جهل) زعيماً من زعماء قريش، والوليد بن المغيرة أخو هشام، كان أكبر رجل في مكة بعد موت أخيه هشام، وكان يلقبه بالوحيد وهو الذ أشار إليه القرآن الكريم: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾﴾ [المدَّثِّر: الآيات ١١ ـ ١٥]. وكان يقال له ريحانة قريش.

وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزّخرُف: الآية ٣١] . إن المشركين عنوا الوليد بن المغيرة في مكة وعروة بن مسعود الثقفي رضي الله عنه في الطائف وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [القَلَم: الآية ١٠] . وقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ [المدَّثِّر: الآية ١١]. كلها نازلة في الوليد بن المغيرة. ومن أجل التنافس بين بني عبد مناف وبني مخزوم كانت عداوة بني مخزوم للإسلام. وذلك ما جاء على لسان عدو الله أبي جهل، فقد قال أبو جهل عليه لعنة الله: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه، فلا واللات لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه.

وفي رواية أخرى عن المغيرة بن شعبة قال يونس بن بكير عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن المغيرة بن شعبة ـ قال: إن أول يوم عرفت فيه رسول الله ﷺ ـ إني أمشي أنا وأبو جهل إذ لقينا رسول الله ﷺ فقال لأبي جهل: «يا أبا الحكم هلم إلى الله وإلى رسوله، أدعوك إلى الله»، فقال أبو جهل يا محمد هل أنت منته عن سبّ آلهتنا؟ هل تريد إلاّ أن نشهد أن قد بلغت؟ فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حق ما اتّبعتك، فانصرف

رسول الله ﷺ وأقبل أبو جهل علي فقال: إني لأعلم أن ما يقول حق، ولكن بنو قصي قالوا فينا الحجابة، فقلنا نعم، فقالوا فينا الندوة، قلنا نعم، ثم قالوا فينا اللواء، فقلنا نعم، وقالوا فينا السقاية، فقلنا نعم، ثم أطعموا فأطعمنا، حتى إذا تحاذينا الركب قالوا منا نبي، والله لا أفعل وهذا الحسد هو سبب عصيان إبليس وطرده من رحمة الله.

صحيفة المقاطعة:

وفي السنة السابعة من البعثة اجتمع وجوه قريش وأصحاب الرأي في مكة يتشاورون ليدبروا لهم أمراً يردوا فيه أمر رسالة سيدنا محمد ﷺ. فقام أبو جهل بن هشام وقال: يا قوم أما إنه ليوشك أن يكون أمر شديد، وإن هذا الرجل ليبالغ فيما يدعو إليه، حتى كان ما كان من أمره فإن لم يكن قتله واستئصال خضرائه حتى يذهب بدعوته وتذهب به، فليكن تدبير جديد، وتطاولت الأعناق تترقب ما يكون من تدبير أبي جهل في جهاد محمد ﷺ وأصحابه واسترسل يقول: يا قوم، إن هذا الحي من بني عبد مناف هو منا ومنكم حيث علمتم، يطلبون غاية ليس إليها سبيل أفنتركهم وما يحاولون حتى يؤول أمرهم إلى أمر لا نستطيع مقاومته. وهذا أبو طالب بن عبد المطلب يمنع ابن أخيه أن يخلص إليه ما يكرهه، فما لنا سبيل عليه بعد، فاجتمع أمرهم على ما يريدون وليجتمع أمرنا على ما نريد ولتكن براءة قاطعة بيننا وبين هذا الحي من قريش، لا نناكحهم ولا يناكحونا، لا معونة بيننا وبينهم في أمر، فلا نبيعهم شيئاً، ولا نبتاع منهم، ولا نخالطهم في شيء، وكل رحم بيننا مقطوعة حتى يفيئوا إلى أمرنا، فإنهم يوشكون إن بلغت هذه القطيعة أن تجف خضرائهم فيموتوا جوعاً وعطشاً وعرياً، أو يعودوا إلينا مغلوبين، وما نجرد سيفاً من غمده، ولا نريق دماً، يا قوم فإن رأيتم، فهذه يدي، وليكن بيننا عهد مكتوب نعلقه في جوف الكعبة، توكيداً لما تقاسمنا عليه وإن أبيتم... فصاح صائح من أقصى المجلس رأينا تبعاً لك يا أبا الحكم، وجاء كاتبهم منصور بن عكرمة. فأملى عليه.

باسمك اللهم ـ هذا ما تعاهدت عليه أشراف مكة وذوو الرأي من قريش، أبو الحكم بن هشام ـ وأبو لهب بن عبد المطلب ـ ومنصور بن عبد شرحبيل وبغيض بن عامر.

إنهم براء من بني هاشم وبني عبد المطلب، لا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم ولا يناكحونهم ولا يخالطونهم في شيء، وكل رحم بينهم مقطوعة حتى يفيئوا. وتناول أبو الحكم الصحيفة فطواها ثم علّقها في جوف الكعبة ليشهد الله أمرهم وأمر بني عبد مناف.

وآوى محمد ﷺ وأصحابه إلى شعب أبي طالب من شعاب مكة، حتى يقضي الله

أمراً بينهم وبين بني عمهم من قريش، ليس لهم مطمع إلاّ فيما بين أيديهم من طعام ولباس وشراب ولا يعرفون إلى كم يمتد الحصار المضروب في هذا الشعب الضيق ليس له إلاّ باب واحد يقف الأعداء بمرصد قريب منه يمنعون أن يدخل إليهم داخل بشيء من الزاد أو الميرة.

فقال أبو طالب:

ألا أبلغا عني على ذات بيننا ... لؤياً وخصاً من لؤي بني كعب
ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً ... نبياً كموسى خط في أول الكتب
وإن الذي ألصقتم في كتابكم ... لكم كائن نحساً كراغية السقب
أفيقوا أفيقوا قبل أن يحفر الثرى ... ويصبح من لم يجد ذنباً كذي الذنب
ولا تتبعوا أمر الوشاة وتقطعوا ... أواصرنا بعد المودة والقرب
وتستجلبوا حرباً عواناً وربما ... أمر على من ذاقه جلب الحرب
فلسنا ورب البيت نسلم أحمدا ... لعزَّاء[1] من عض الزمان ولا كرب

وتتابعت الشهور، والمسلمون في معتقلهم من شعب أبي طالب، لا يجدون من الطعام ما يغني ولا من اللباس ما يدفيء من قرّ إلاّ ما يتسلل إليهم في جنح الظلام يرسله من يرسله من أبناء عمومتهم على حذر من رقبة أعدائهم. وجاء الموسم وأَمَّ مكة الحجيج من قبائل العرب الذين لا دخل لهم فيما تحالفت عليه بطون قريش.

وخرج المسلمون ليشتروا زاداً من زاد القوم، فإذا رآهم أبو لهب في السوق، فيقوم منادياً يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد، حتى لا يدركوا معكم شيئاً، فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فأنا ضامن أن لا خسارة عليكم، فيرجع المسلمون إلى أهليهم، فما باعوا ولا اشتروا، وليس في أيديهم شيء يطعمون به، وتغدوا التجار إلى أبي لهب فيربحهم فيما معهم من الطعام واللباس، ومضى عام وعام وأوشك الثالث والمسلمون حيث حصروهم أبناء عمومتهم من قريش حتى جهدوا وأوشكت نفوسهم على التلف جوعاً وعرياً.

الرسول ﷺ يثبت أصحابه ويؤكد أن الأمر سوف يكون في النهاية لصالحهم:

قد كان النبي ﷺ يخفف ما يصيب أصحابه في سبيل الله فيثبتهم، ويربط على قلوبهم، ويقول لقد كان من قبلكم ليمشط الحديد ما دون عظمه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه. ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنتين، ما يصرفه ذلك

---

(١) السنة الشديدة.

عن دينه وليتممن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلاّ الله[1]، فتهدأ نفوسهم مطمئنين، ويبلغ بهم الجهد، حتى أكلوا ما يسقط على الأرض من ورق الشجر، وحتى يصنعوا ما تصنع الشاة لا تجد إلاّ ما تقمم من خشاش الأرض ومن بأرض النبت في مسائل اللوي، ويشد سعد بن أبي وقاص على بطنه من ألم الجوع، حتى يكاد يلتصق بظهره، وينال منه الجوع حتى يخرج في سواد الليل يلتمس رمقة فيطأ على شيء رطب فيضعه في فمه فيبتلعه لا يدري ما هو ولا يجد له في فمه مذاقاً.

ويتضوع أطفال المسلمين، وتسمع أصواتهم من وراء الشعب صائحين من السغب، والمسلمون صابرون على ما أصابهم لأنهم وهبوا أنفسهم لله تعالى.

أسباب نقض الصحيفة:

ويشفق هشام بن عمرو بن ربيعة على ما نال لأمه نضلة بن هشام بن عبد مناف، وكان مع المسلمين في شعب أبي طالب، فيأتي ببعير قد أوقر طعاماً وبزاً، فيصل به على فم الشعب ليلاً وقريش في غفلاتها، ثم يخلع خطامه ويضربه على جنبيه، فيدخل الشعب عليهم ليقتسموا من طعام وبز ويفعل ذلك حكيم بن حزام من أجل عمته أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

ويقول أبو طالب لابن أخيه: لقد بلغ الجهد منا ما ترى وإن رجالاً من قريش قد استشعروا الندم على ما تعاقدوا عليه، ولولا شرف السمعة، وتهمة الخيانة لأحلوا أنفسهم مما ارتبطوا به من عهد الصحيفة ويبتسم رسول الله ﷺ ويقول لعمه: **«إن الله سلط الأرضة على صحيفة قريش فلم تبق فيها إلاّ اسم الله»**. ويفرح أبو طالب ويقول ربك أخبرك بهذا؟ نعم، وخرج أبو طالب إلى قريش في ناديهم ليتحدث إليهم في أمر.

وكان هشام بن عمرو بن ربيعة قد شق عليه ما يلقي أخوه نضلة والمسلمون في شعب أبي طالب، فمشى إلى جماعة من أشراف قريش لهم في بني عبد مناف مصاهرة وخؤولة، فيحرضهم على نقض الصحيفة، رعاية لحرمة النسب، وحفاظاً على حق الدم، وكان ميعادهم حيث وجوه قريش مجتمعون في ناديهم من الحجر، ويقدمهم زهير بن أمية وأمه عاتكة بنت عبد المطلب، فيطوف بالكعبة سبعاً ثم يقبل على الناس فيقول:

يا أهل مكة أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يبتاع منهم. والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، ويرتاع أبو جهل بن هشام

---

(١) صحيح البخاري.

لما يسمع فلا يكاد يورد رأيه حتى تأخذه الأصوات من كل جانب، مزقوا هذه الصحيفة لا نرضى ما كتب فيها، ونبرأ إلى الله منه ـ تلك كانت أصوات هشام بن عمرو وأصحابه الأربعة، المطعم بن عدي بن عبد مناف ـ وزهير بن أمية بن المغيرة ـ والعاصي بن هشام ـ وزمعة بن الأسود، ويبلغ الغيظ بأبي جهل وأصحابه ما يبلغ إذا رأوا ما أجمعوا عليه، يحاول أن يخرج من أيديهم، حين ظنوا أنهم من الغاية التي يسعون إليها على خطوات، وأن محمداً وأصحابه يوشكون أن يفيئوا.

وقال أبو جهل هذا أمر دبر بليل، وما أحسبكم إلاّ دبرتموه في غير هذا المكان، ويقدم في الحال أبو طالب بن عبد المطلب في جماعة من بني أبيه، قد لبسوا أحسن ما يجدون من الثياب، فما أن سمعوا ما قال أبو جهل حتى ابتدره أبو طالب، بل هو أمر قد قضاه رب محمد ﷺ.

والتفت أهل النادي إلى حيث كان أبو طالب، لا يدرون ما يعني مما قال. فقالوا: أفصح. . . فقال: إن بيننا وبينكم هذا العهد المكتوب في الصحيفة، أن ابن أخي أخبرني من أمرها ـ أن الله سلّط الأرضة على الصحيفة ولم يبق مكتوباً إلاّ إسم الله، فهلم إلى صحيفتكم فإن كان كما قال ابن أخي فانتهوا إلى قطيعتنا وانزلوا عما فيها، وإن كان كاذباً دفعته إليكم فما شئتم فافعلوا به.

ويقول الإمام البصيري في أمر الصحيفة:

فتية بيتوا على فعل خير ... حمد الصبح أمرهم والمساء
يا لأمر أتاه بعد هشام ... زمعة أنه الفتى الأتاء
وزهير والمطعم بن عدي ... وأبو البختري من حيث شاؤوا
نقضوا مبرم الصحيفة إذ شد ... دت عليهم من العدا الأنداء
ذكرتنا بأكلها أكل منساة ... سليمان الأرضة الخرساء
وبها أخرج النبي وكم ... أخرج خبئاله الغيوب خبا
لا تخل جانب النبي مضاماً ... حين مسّته منهم الأسواء
كل أمر ناب النبيين فال ... شّدة فيه محمودة والرخاء

ووثب المطعم بن عدي إلى حيث كانت الصحيفة في جوف الكعبة وفض غلافها ونظر القرّاء فإذا الأرضة قد تحتتها، لم تترك فيها من شيء يقرأ إلاّ باسمك اللهم.

وخرج المسلمون من شعب أبي طالب إلى فضاء مكة لعهدهم يوم كانوا، وانفك الحصار الذي كان مضروباً عليهم ثلاث سنين لا يبيعون ولا يبتاعون. . ولم ينل ذلك من أنفسهم شيئاً، ولم يوهن عزائمهم ومضت ثلاث سنوات أخرى بعد هذا الحصار وهم في

أذى من قريش، ورسول الله ﷺ يتلو كتاب الله على أسماعهم، ويقرعهم بالحجة بعد الحجة، وهم في غيٍّ واستكبار عن الحق.

وحاولت قريش أكثر من مرة أن تغري عمه أبا طالب باعتباره عميد أسرة بني هاشم أن يكفّ عنهم محمداً ﷺ وذلك عن سبّ آلهتهم وعيب دينهم ودين آبائهم، وهدده وقالوا: إما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه.

ولما أن ضرب الإخفاق على هذه المحاولات اشتدوا وتضاعف احتدامهم، وأيقنوا أن انتصار ذلك الدين معناه القضاء على ما يمتازون به بين قبائل العرب من السيادة، ثم هم فوق ذلك يخسرون الثروة والجاه الذين يستأثرون بهما عن طريق سدانة الكعبة الشريفة وحماية أصنام القبائل الأخرى المودعة في الكعبة أو حولها.

وأما رسول الله ﷺ رغم ما يتعرض له دائماً من بذاءة القوم وتكذيبهم له، فإنه في ذمة قومه وخاصة أبا طالب وذمار بني هاشم عموماً.

يحفزهم على ذلك ما جبلت عليه العرب من قوة العصبية، مع أنهم لم ينعطفوا نحو الدين الذي دعاهم إليه. وخلال ذلك بذلت جهود كثيرة لإغراء محمد ﷺ بالجاه والمال على أن يكف عن هذا الدين واستمر الحال ورسول الله ﷺ يدعو وينتهز الفرصة ليعرض دين الإسلام على القبائل التي ترد أسواق مكة وما حولها، مثل عكاظ وذي المجاز ومجنة وأيام الحج. وكان عمه أبو لهب واسمه عبد العزى يقتفي أثره صائحاً بأعلى صوته، إنه مشعوذ، يريد أن يصرفكم عن دين آبائكم إلى العقائد الكاذبة فتحاشوه ولا تسمعوا إليه.

خبر حمالة الحطب:

ولما نزلت سورة المسد: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المَسَد: الآية ١] ظنت أم جميل زوجة أبي لهب أن رسول الله ﷺ قد هجاها بشعر فيه مذمّتها وتهديدها، وهو تصوير مزر مثير للسخرية من امرأة معجبة بنفسها وبحسبها، والسورة رسمت لها صورة حمّالة الحطب في جيدها حبل من مسد.

فلم تتمالك من نفسها تلك السخرية، فملأت يدها بالحجارة وأتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق، فلما وقفت عليهما، أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ فلا تر إلاّ أبا بكر، فقالت يا أبا بكر: أين صاحبك؟ وقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، وقالت والله إني لشاعرة ثم قالت: (مذمماً عصينا وأمره أبيناً ودينه قلينا) ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ فقال: ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عني.

وكانت هي وزوجها أبو لهب والمترفون في مكة يثيرون حرباً على رسول الله ﷺ وعلى الدعوة فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾ [المَسَد: الآيات ١-٥]. ويقول في ذلك الإمام البصيري:

وأعدت حمالة الحطب القهر ... وجاءت كأنها الورقاء
يوم جاءت غضبى تقول أفي مثلي ... من أحمد يقال الهجاء
وتولت وما رأته ومن أين ... ترى الشمس مقلة عمياء

الحوار بين قريش - ورسول الله ﷺ:

واستمر السجال بين رسول الله ﷺ وكفار قريش، فطلبوا منه مرة أن يحضر إليهم ليكلموه، فلما حضر طلبوا أبا جهل أن يكلمه عنهم، فقال أبو جهل، يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا واللآت ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً. جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا، فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً، ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك، وسكت ونظر إلى النبي ﷺ... فقال ﷺ: **«ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل علي كتاباً، أمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة. وإن تردوه علي أصبر لأمر الله. حتى يحكم الله بيني وبينكم»**، فجعلت قريش تتهامس ويقول البعض: إنه غير قابل. فعاود أبو جهل الكلام... يا محمد إن كنت غير قابل شيئاً مما عرضناه عليك، فإنك تعلم أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ولا أقل ماء ولا أشد عيشاً منا فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل. فإن صدقوك، وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله... وأنه بعثك رسولاً كما تقول.

وسكت أبو جهل، فقال رسول الله ﷺ: **«ما بهذا بعثت إليكم إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه مني فهو حظكم في الدنيا والآخرة وتملكون به العرب والعجم، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله - حتى يحكم الله**

بيني وبينكم فجعلت قريش تتهامس أنه غير فاعل».

فقال أبو جهل. . . فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك، سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك. ثم تدخّل أبو سفيان بن حرب قائلاً: واسأل ربك فيجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه نحن ـ وكذلك تدخّل أمية بن خلف، فقال: نعم مؤكداً ما قاله أبو سفيان بن حرب، وحتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم.

فقال رسول الله ﷺ: **«ما أنا بفاعل وما أنا بمن يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً»**. فقامت قريش تتهامس، وقالوا فليرينا ما يتوعدنا به، أسقط علينا كسفاً من السماء كما زعمت، فربك إن شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك حتى تفعل.

فأجابهم رسول الله ﷺ ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله لكم فعل ـ فقال أبو سفيان: إنه بلغنا أنما يعلمك هذا الذي جئت به رجل باليمامة يقال له الرحمن، وإنا واللاّت لا نؤمن بالرحمن أبداً فقد أعذرنا إليك، وإنا واللات لا نتركك وما بلغت منّا حتى نهلك أو تهلكنا.

ثم تكلم أمية بن خلف وقال: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله ـ ثم تكلم أبو سفيان، فقال: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً، وعند ذلك قام رسول الله ﷺ وقام معه ابن عمته عبد الله بن أمية. وجعل يقول لرسول الله ﷺ: إن قومك عرضوا عليك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم لا تفعل؟ ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب، فلم تفعل فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه، وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ثم تأتي بصك. . . معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. . . وايم الله أن لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك.

أبو جهل يهدد برضخ رأس نبينا محمد ﷺ والذعر الذي أصاب أبا جهل من جرّاء ذلك:

فقام أبو جهل بعد هذا الاجتماع الحاشد وهذه المحاورة المريرة، وقال يا معشر قريش: إن محمداً أبى إلاّ ما ترون من عيب ديننا وشتم آلهتنا، وإني أُعاهد اللاّت لأجلبن له غداً بحجر ما أطيق حمله فإذا سجد في صلاته رضخت به رأسه. . . فأسلموني عند

ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم. فصرخ الجميع واللآت لا نسلمك لشيء أبداً فامض لما تريد.

ولما كان من الغد غدا رسول الله ﷺ كما يغدو وكان ﷺ وهو بمكة يصلي وقبلته إلى بيت المقدس إلاّ أنه يضع الكعبة في قبلته، أي يصلي بين الركن الذي به الحجر الأسود والركن اليماني، فقام يصلي كعادته وقريش في أنديتهم حول الكعبة جالسون ينتظرون ما أبو جهل فاعل. فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل إلى نحو رسول الله ﷺ حتى إذا دنا منه رجع مهزوماً منتقعاً لونه مرعوباً، قد يبست يداه على الحجر، حتى إذا قفز الحجر من يده قامت إليه رجال قريش فقالوا له: مالك يا أبا الحكم.

قال قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه، عرض لي دونه فحل من الإبل لم أر مثل هامته ولا مثل قصرته (العنق) ولا أنيابه لفحل قط، فهمَّ بي أن يأكلني.

أمر الهجرة إلى الحبشة:

ولما اشتدت عداوة كفار قريش لرسول الله ﷺ وأصحابه ورأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله، ثم من عمه أبي طالب وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء. قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق... حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه.

فخرج أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم فكانت أول هجرة في الإسلام[1].

فشل قريش في المكيدة التي دبّرتها لإرجاع مهاجري الحبشة:

فأرسلت قريش في أثرهم إلى النجاشي ملك الحبشة وقد بالغت بإرسال الهدايا والأموال للنجاشي وبطارقته، لعلّه يدفع إليهم القوم الذين هاجروا إليه ـ فطلب النجاشي إحضار المطلوبين... وقال لوفد قريش: ما تطلبون منهم؟ قال إن قومنا يطلبون ردهم إليهم لأنهم أتباع رجل يزعم أنه نبي نخاف أن يفسدوا عليك ملكك ـ فقام

---

(١) رواه ابن هشام والحديث في الصحيح.

جعفر بن أبي طالب، وطلب من النجاشي أن يسأل وفد قريش. هل هم الذين لجأوا إليه أحرار أم عبيد؟ فقالوا: أحرار.

فقال جعفر إسألهم: هل أهرقنا دماً بغير حق فيقتص منّا؟ فقالوا: لا. فقال جعفر اسألهم: هل أخذنا أموال الناس بغير حق حتى نطالب بقضائها؟ فقالوا: لا.

فقال النجاشي لوفد قريش: إذاً ما تطلبون منهم؟ قالوا: كنا نحن وهم على أمر واحد، وعلى دين آبائنا فتركوا ذلك واتبعوا غيره.

فقال النجاشي لجعفر بن أبي طالب: ما هذا الدين الذي كنتم عليه وما الذي اتبعتموه... فقال جعفر: أما الذي كنّا عليه فهو دين الشيطان. كنا نكفر بالله ونعبد الحجارة. وأما الذي تحوّلنا إليه فدين الإسلام، جاءنا به من عند الله رسول وكتاب مثل كتاب ابن مريم موافقاً له.

فقال النجاشي: تكلمت بأمر عظيم، فعلى رسلك، ثم أمر بضرب الناقوس، فاجتمعت إليه القساوسة والرهبان، فقال لهم: أنشدكم الله الذي أنزل الإنجيل على عيسى، هل تجدون بين عيسى وبين يوم القيامة نبياً؟ قالوا: اللهم نعم. ـ وقد بشّرنا عيسى وقال: من آمن به فقد آمن بي، ومن كفر به فقد كفر بي، فقال النجاشي لجعفر رضي الله: ماذا يقول لكم هذا الرجل؟ وما يأمركم به؟ وما ينهاكم عنه؟ وفي رواية أخرى أنه قال له: ما هذا الدين؟ فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به ديني.

فقال جعفر: أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منّا الضعيف، فكنّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم وحسن الجوار والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام... (فعدد عليه أمور الإسلام) فصدقناه وآمنا به، واتّبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً وحرمنا ما حرّم علينا وأحللنا ما أحل لنا ـ فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث... فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ـ خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك. فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم. فقال له النجاشي: فاقرأه علي، فقرأ عليه من سورة العنكبوت والروم فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته وبكت

أساقفته حين سمعوا ما تلا عليهم. ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة. انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما. ولا يكادون.

فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً عنهم بما استأصل به خضراءهم. فقال له عبد الله بن أبي ربيعة وهو رفيقه في حمل رسالة قريش للنجاشي لا تفعل، فإن لهم أرحاماً. وإن كانوا قد خالفونا. فقال عمرو والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد. ثم غدا عليه من الغد فقال: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فاسألهم عمّا يقولون فيه. فأرسل إليهم ليسألهم عنه. وقالوا فيما بينهم لا نقول إلاّ ما جاءنا به نبينا، فلما دخلوا على النجاشي قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا عليه الصلاة والسلام، نقول هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول فضرب النجاشي الأرض، فأخذ منها عوداً ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود فتناحرت بطارقته حوله حين قال ما قال. فقال: وإن تناحرتم اذهبوا فأنتم شيوم بأرض ـ والشيوم الآمنون ـ من سبّكم غرم ثم قال: من سبّكم غرم، ثم قال: من سبّكم غرم.

قال ابن هشام فرد النجاشي على صاحبي قريش هداياهما وقال: فلا حاجة لي بها... فإن الله ما أخذ مني الرشوة حين رد علي ملكي، قال فخرجا مقبوحين حقيرين مردوداً عليهما ما جاءا به، ولما قدم رسم قريش على قريش، ولم يدركوا ما طلبوا من أصحاب رسول الله ﷺ وردهم النجاشي بما يكرهون أصابهم الكمد، وانهمكوا في أذية المسلمين وتعذيب الضعفاء منهم.

فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر ـ وكان أمية بن خلف يخرج ببلال بن رباح إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ـ ثم يقول له: لا واللآت حتى تكفر بمحمد وتعبد اللآت والعزى فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد، أحد.

قال ابن إسحاق: إنه حدّثه هشام بن عروة عن أبيه أن ورقة بن نوفل كان يمر ببلال وهو يعذب وهو يقول أحد، أحد، ثم يقبل على أمية بن خلف ويقول: أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حناناً (أي لأجعلن قبره موضع حنان) فأنقذ أبو بكر بلالاً بالشراء والعتق. كما عتق أبو بكر من المستضعفين الذين يعذبون عامر بن فهيرة وأم عبيس وزنيرة والفهدية وابنها ـ وقام أبو جهل بتعذيب آل ياسر حتى قتل ياسر والد عمار تحت التعذيب، وطعن زوجته والدة عمار سمية في فرجها حتى قضى عليها، وعمار

يعذب بينهم وكذلك خباب بن الأرت ـ وكان رسول الله ﷺ مرّ على آل ياسر وهم يعذبون فقال لهم: **«صبراً آل ياسر، موعدكم الجنة»**[1].

وأما رسول الله ﷺ رغم ما يتعرض له دائماً من بذاءة القوم وتكذيبهم له، فإنه في ذمة قومه وخاصة عمه أبو طالب وذمة بني هاشم عموماً يحفزهم على ذلك ما جبلت عليه العرب من قوة العصبية مع أنهم لم ينعطفوا نحو الدين الذي دعاهم إليه.

واستمر الحال ورسول الله ﷺ ينتهز الفرصة ليعرض دين الإسلام على القبائل التي ترد أسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز وأيام الحج، وكان عمه أبو لهب يقف إثره صائحاً بأعلى صوته إنه مشعوذ يريد أن يصرفكم عن دين آبائكم إلى العقائد الكاذبة فتحاشوه ولا تسمعوا له. وكانت بعض تلك الوفود ترد عليه: (إن أهلك أحق الناس بمعرفتك).

وفد نصارى الحبشة:

وفي تلك الأثناء قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً من النصارى لما بلغهم خبره من الحبشة، فوجده في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ـ ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عز وجل، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا إلى الله وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتبهم من أمره ـ فلما قاموا عنه اعترضهم عدو الله أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم: خيّبكم الله من ربك بعثكم من ورائكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ـ فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال ما نعلم ركباً أحمق منكم، فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه. لم نأل أنفسنا خيراً، ونزل فيهم قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [القَصَص: الآيتان ٥٢، ٥٣] إلى قوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القَصَص: الآية ٥٥][2].

القرآن ينزل في حق المستهزئين من قريش:

فجعلت قريش حين منعه الله منها، وقام عمه وقومه من بني هاشم وبنو المطلب

---

(١) رواه أحمد والحاكم.

(٢) كونها نزلت في هذه القصة نقلها ابن كثير عن ابن هشام.

دونه ـ وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به ـ قاموا يهمزونه ويستهزئون به ويخاصمونه، وجعل القرآن ينزل في قريش بأحداثهم، وفيمن نصب العداوة منهم مثل أبي لهب وزوجة أم جميل، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، وأبي جهل بن هشام، والنضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار والوليد بن العزى والأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة، وأبي بن خلف، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى والأسود بن عبد يغوث فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المَسَد: الآية ١] في أبي لهب وزوجه ونزل في أمية بن خلف: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهُمَزة: الآية ١]. ونزل في العاص بن وائل: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾ [مريَم: الآية ٧٧]. ونزل في النضر بن الحارث بن كلدة: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفُرقان: الآية ٥]. ونزل في عقبة بن أبي معيط: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧﴾ [الفُرقان: الآية ٢٧]. ونزل في المستهزئين قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٩٦﴾ [الحِجر: الآيتان ٩٥ - ٩٦][1]. وهم الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب بن أسد، أبو زمعة، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن الطلاطلة.

ويقول الإمام البصيري:

وكفاه المستهزئين وكم	ساء نبياً من قومه استهزاء
ورماهم بدعوة من فنا البيت	فيها للظالمين فناء
خمسة ـ كلهم أصيبوا بداء	والردى من جنوده الأدواء
فدهى الأسود بن مطلب أي	عمى ميت به الأحياء
ودهى الأسود بن عبد يغوث	إن سقاه كأس الردى استسقاء
وأصاب الوليد خدشة سهم	قصرت عنها الحية الرقطاء
وقضت شوكة على مهجة	العاصي فلله النقعة الشوكاء
وعلا الحارث القيوح وقد	سال بها رأسه وساء الوعاء
خمسة طهرت بقطعهم الأرض	فكف الأذى بهم شلاء

اجتماع قريش الأخير بأبي طالب:

واجتمعت قريش إلى أبي طالب، حين ما علموا أنه في مرض الموت، وقالوا له:

---

(١) ينظر للأسباب كتب التفسير وسيرة ابن هشام.

يا أبا طالب إنك منّا حيث علمت، وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك... فأدعه فخذ له منّا وخذ لنا منه... ليكف عنا ونكف عنه ويدعنا وديننا وندعه ودينه، فقال أبو طالب لأخيه العباس: ادع محمداً ﷺ فجاء، فعرض عليه أبو طالب ما عرض عليه أشراف قومه فقال ﷺ: **«نعم يا عم: كلمة واحدة يعطونيها يملكون بها العرب وتدين لهم بها العجم»**، فقال أبو جهل: نعم وأبيك عشر كلمات... فقال عليه الصلاة والسلام: تقولوا لا إله إلاّ الله وتخلعون ما تعبدون من دونه ـ فصفق القوم استهزاءً واستنكاراً وقال زعيمهم أبو جهل: نجعل الآلهة إلَهاً واحداً إن أمرك عجيب.

فقال أبو سفيان بن حرب: والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم وأيّده العاص بن وائل، وقال: إنما هو رجل أبتر لا عقب له. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ [سورة الكَوثَر].

قال أبو طالب: والله يا ابن أخي ما رأيتك طلبتهم شططاً، فقال رسول الله ﷺ: فأنت يا عم قلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة ـ فقال أبو طالب: والله يا ابن أخي لولا مخافة السبّة عليك وعلى بني أبيك من بعدي وأن تظن قريش أني إنما قلتها جزعاً من الموت لقلتها ـ لا أقولها إلاّ لأسرّك بها، ومات أبو طالب ولم يقلها والعياذ بالله وكان قد قال:

ولقد علمت بأن دين محمد — من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبّة — لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

وهكذا حال العرف وعبادة السلف التي تجبر الإنسان على اتّباع أسلافه من آبائه وأجداده ولو كانوا ضلالاً عن اتّباع الحق والرشاد: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزّخرُف: الآية ٢٢]. ونزل في أبي طالب قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القَصَص: الآية ٥٦]. وبعد فترة قصيرة توفيت أمنا خديجة بنت خويلد رضي الله عنها التي كانت تعين رسول الله ﷺ وتخفف ما يلقاه من معانات وأذى قريش، وكان رسول الله ﷺ يسمي ذلك العام عام الحزن.

القبائل التي عرض عليها رسول الله ﷺ الدعوة:

وروى ابن سعد في طبقاته أن رسول الله ﷺ مكث بمكة ثلاث سنين من أول نبوته مستخفياً في الدعوة، ثم أعلنها في السنة الرابعة، فدعا الناس إلى الإسلام عشر سنين بعد ذلك يوافي المواسم كل عام، يتبع الحجاج في منازلهم، وفي مواسم أسواقهم بعكاظ

ومجنة وذي المجاز يدعوهم إلى توحيد الله أن يقولوا لا إله إلاّ الله، وأن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة... فلا يجد أحداً ينصره ولا يجيبه. فكان من القبائل التي عرض عليها ذلك بنو عامر بن صعصعة، ومحارب بن خصفة وفزارة، وغسان، ومرة، وسليم، وعبس، وبنو نضر، وبنو البكاء، وكندة، وكلب، والحارث بن كعب، وعذرة، والحضارمة. فلم يستجب منهم أحد.

وكان رجل من بني عامر بن صعصعة يقال له ابن فراس قد حضر موسم الحج مع قومه ولما رأى رسول الله ﷺ وسمع ما يقول ـ قال: إن هذا الفتى لا بد أن يكون له شأن، فقد تفرّس فيه العزم والقوة، وإن كلامه كلام المستوثق من نفسه، ولا بد أن يحدث حدثاً من العرب.

فقال والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، فتقدم إليه وقال: يا محمد ـ لو رأيت إن نحن تابعناك على أمرك، وأظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك... فقال ﷺ: **«الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء».**

فقال ابن فراس في غضب: حيث يشاء ـ أفنهدف نحورنا للعرب دونك ـ فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا. كلا لا حاجة لنا بك. ثم التقى ﷺ بوفد بني شيبان وكان يتألّف من أربعة أشخاص وهم هانىء بن قبيصة ومفرق بن عمر، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك، وكان مع رسول الله ﷺ أبو بكر وعلي رضي الله عنهما، فأبو بكر يعرّف رسول الله ﷺ بسادات القبائل لأنه نسابة، فأخبره أن هؤلاء الرهط غرر في قومهم... فلما دعاهم ﷺ كان كل منهم يحيل الكلام على صاحبه إلى أن بلغت النوبة إلى المثنى بن حارثة، وهو أصغرهم وله ذؤابة ـ فقالوا: هذا المثنى وهو فارسنا وصاحب حربنا، فقال المثنى لرسول الله ﷺ: نرى إن تركنا ديننا واتبعنا دينك لمجلس واحد جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر زلة في الرأي وقلة في النظر في العاقبة. وإنما الزلة مع العجلة ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقداً لم يؤخذ رأيهم فيه.

فإن أحببت أن ننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا، وقد أنزلنا قومنا بين صيري اليمامة والعراق، فقال ﷺ: **«ما هذان الصيران»**؟ قال: مياه ما يلي العراق لكسرى وما يلي اليمامة للعرب، أما ما يلي العرب فلا نبالي به... وأما ما يلي كسرى فلا طاقة لنا به. فقال ﷺ: **«ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق... وإن دين الله لن ينصره إلاّ من أحاط بجميع جوانبه أرأيتم إن لم تلبثوا إلاّ قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم ويفرشكم نساءهم، تسبّحون الله وتقدسونه»**، فقال له النعمان بن شريك: اللهم لك ذلك، فلما انصرفوا قال رسول الله ﷺ: **«يا أبا بكر ويا علي إن أخلاق في الجاهلية ما أشرفها، بها يدفع الله بأس بعضهم عن بعض وبها يتجاورون فيما بينهم، وأسلم القوم**

الأربعة في السنة التاسعة من الهجرة».

البحث عن قاعدة جديدة للدعوة خارج مكة:

وبعد موت عمه أبي طالب ووفاة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنهما، وما بينهما يسير، اشتد البلاء على رسول الله ﷺ من سفهاء قومه وتجرؤوا عليه ـ فكاشفوه بالأذى فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف رجاء أن يأووه وينصروه على قومه ويمنعوه منهم ودعاهم إلى الله عز وجل ـ فردوه أشد رد، وآذوه أشد الأذى، فأقام بينهم عشرة أيام لا يدع أحداً من أشرافها إلاّ جاءه وكلّمه ـ فقالوا له: اخرج من بلدنا، وأغروا به سفهاءهم وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أدموا قدميه ـ وكان قد خرج معه مولاه زيد بن حارثة، وجعل يقيه بنفسه من الحجارة حتى شجّ رأسه فانصرف راجعاً من الطائف إلى مكة محزوناً، وفي مرجعه ذلك دعا ربه بالدعاء المشهور (دعاء الطائف).

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل بي غضبك، أو ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلاّ بك»[1].

الفصل السابع

الإسراء والمعراج

قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: الآية ١].

فهذه الآية: دلت على رحلة الإسراء برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم جاءت آيات أخرى في سورة النجم توضح المعراج، وهي الرحلة الثانية من المسجد الأقصى، إلى رحاب الملأ الأعلى وهو قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ

---

(١) رواه ابن هشام.

نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: الآيات ١-١٨].

فالرحلة إلى المسجد الأقصى لها دلالة تعظيم ذلك المسجد وربط مهبط الرسالات بعضها ببعض - كما هي ربط الماضي بالحاضر، فالمسجد الأقصى وما حوله هو مهد النبوات السابقة، ومهاجر أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم ولوط عليهما السلام، وهو مبعث موسى وعيسى وجميع أنبياء بني إسرائيل، وهو ثالث المساجد التي تشد إليها الرحال في الإسلام. وقد جمع الله فيه الأنبياء والمرسلين السابقين ليلة الإسراء احتفاء بنبينا محمد ﷺ وصلى بهم ركعتين بتقديم جبريل عليهم - عليهم وعلى نبينا أزكى الصلاة والتسليم - وكانت هذه الإمامة إقراراً بفضله عليهم.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«أتيت بالبراق وهو أبيض طويل (فوق الحمار - ودون البغل) يضع حافره عند منتهى طرفه، قال فركبته حتى أتيت بيت المقدس قال: فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء - قال ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل عليه الصلاة والسلام بإناء من خمر وإناء من لبن - فاخترت اللبن. فقال جبريل عليه الصلاة والسلام: اخترت الفطرة»**[1].

(وروى الإمام البخاري أن رسول الله ﷺ قال: فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً فأفرغها في صدري ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا فلما جئنا السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء الدنيا: افتح، قال من هذا؟ قال: هذا جبريل، قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معي محمد، قال: أفأرسل إليه؟ قال: نعم، ففتح فلما علونا السماء الدنيا، فإذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة. قال: فإذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى. فقال: مرحباً بالنبي الصالح والإبن الصالح. قال، قلت: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا آدم وهذه الأسود التي عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فأهل اليمين أهل الجنة والأسودة التي عن شماله أهل النار فإذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى. قال: ثم عرج بي جبريل حتى أتى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح. قال، فقال له خازنها، مثل ما قال خازن السماء الدنيا ففتح، فقال أنس بن مالك رضي الله عنه فذكر أنه وجد في السموات آدم وإدريس وعيسى وموسى وإبراهيم ولم يثبت كيف منازلهم غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا وإبراهيم في السماء السادسة، قال: فلما مر جبريل ورسول الله ﷺ بإدريس. قال: مرحباً بالنبي

---

(١) رواه مسلم باب الإيمان.

الصالح والأخ الصالح، قال ثم مر، فقلت: من هذا؟ قال إدريس، قال ثم مررت بموسى. فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. قال، قلت من هذا؟ قال: هذا موسى، قال: ثم مررت بعيسى عليه السلام فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، قلت من هذا؟ قال عيسى ابن مريم، قال ثم مررت بإبراهيم. فقال: مرحباً بالنبي الصالح والإبن الصالح، قال، قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم، قال ابن شهاب. وأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري، كانا يقولان، قال رسول الله ﷺ: **«ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام»**، قال ابن حزم وأنس بن مالك، قال رسول الله ﷺ: **«ففرض الله على أمتي خمسين صلاة، قال: فرجعت بذلك حتى أمر بموسى، فقال موسى: ماذا فرض ربك على أمتك؟ قال، قلت: «فرض عليهم خمسين صلاة، قال لي موسى: فراجع ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، قال: فراجعت ربي فوضع شطرها، قال: فرجعت إلى موسى، فأخبرته، قال: راجع ربك. فإن أمتك لا تطيق ذلك، قال: فراجعت ربي، فقال: هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي، قال: فرجعت إلى موسى، فقال: راجع ربك، فقلت: قد استحيت من ربي، قال: ثم انطلق بي جبريل حتى نأتي سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي، قال: ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذ ترابها المسك»** رواه البخاري ومسلم واللفظ له عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ إلاّ قوله عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام فإنه عن ابن عباس وأبي حبة البدري رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ.

إنه إجتباء وتكريم من نوع خاص لم ينله أحد من البشرية إلاّ محمد ﷺ لم يرق فوق السموات السبع إلى ذلك المقام الذي أصبح يسمع فيه صريف الأقلام في اللوح المحفوظ أقلام القدر بما هو كائن إلى يوم القيامة إلاّ محمد ﷺ الذي وصف الله أنه كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى. إن ألفاظ آيات سورة النجم توصف رحلة الإسراء لنبينا محمد ﷺ وما تشتمل عليه من الإجمال والتفخيم والتهويل لقدر تلك الرحلة إلى الملأ الأعلى ليتلقى ﷺ من ربه مباشرة ويسمع ويرى، وقد عاين من آيات ربه الكبرى فهي رحلة واقعية لا مراء ولا جدال فيها، فقد اتصل قلبه بالحقيقة مباشرة، ما زاغ البصر وما طغى، إنها زيادة في توكيد الحقيقة. وكفى القسم من الله على صحة ذلك: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾**﴾ [النجم: الآيات ١-٤] .

الشق الثاني لصدره ﷺ:

يقول فضيلة الشيخ منير محمد غضبان في كتابه فقه السيرة أنه كان لافتتاح الإسراء

والمعراج بشق صدره ﷺ وغسله وملئه بالإيمان والحكمة دلالة عظمى، وإن ذلك من معجزاته ﷺ تقتضيه تلك الرحلة إلى الحضرة العلية، والاطلاع على عوالم الغيب التي لا يستطيعها بشر ولن يطيقها مخلوق، ومن هذا هيئ قلبه ﷺ لتحمل هذا المعراج، وأن هذا الأمر يعفينا من الخواطر حول إمكانية رؤية رسول الله ﷺ لربه، وأن الأمر أكبر من قياسه بالعقل البشري والطاقة البشرية. . . وأنه ليس من مخلوق أعد هذا الإعلاد لمثل هذه المواجهات غير رسول الله ﷺ الذي تفتح له السموات العلا واحدة إثر الأخرى بعد الإستئذان من جبريل عليه الصلاة والسلام وإعلامهم بمصاحبة النبي ﷺ له ثم لقائه ببعض الأنبياء المقرر لقاؤه بهم في كل سماء، وذلك إشعار له ﷺ أن حدوده ليست مكة والعرب، أي أنه نبي هذا الوجود كله الذي يستبشر بقدومه ملائكة السماء وحفظتها، وينتظرون بعثته، ويتهيئون لاستقباله، والأنبياء هم أيضاً مستبشرون به وعارفون لفضله، ومقرون بنبوته وفضله.

إنه العبد الذي يسير بصحبته جبريل عليه الصلاة والسلام إلى أماكن لم تخطر على قلب بشر. وكان جبريل عليه الصلاة والسلام هو الذي يجوب بمحمد ﷺ آفاق السموات والأرض ويقدمه للملائكة والنبيين وجبريل نفسه له حدود لا يتجاوزها ـ حيث يقف جبريل ويتقدم رسول الله ﷺ إلى المثول بين يدي الرب الأعلى، يتلقى منه مباشرة دون واسطة، ودون رسول يسمع من ربه ويحفل به الله تعالى، فيريه من الآيات ما لا يستطيع أحد وصفه وتتجلى أنوار الحضر الإلٓهية عليه. فأنى التفت وأنى سار يرى النور. ومن ذلك التلقي أمر الصلاة لعظم شأنها. انتهى باختصار وتصرف.

كما تواترت الأحاديث الصحيحة أنه أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وأنه عرج به من المسجد الأقصى حتى جاوز السموات السبع بجسمه وروحه(١) ـ حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام ـ أي أقلام القدر بما هو كائن. ورأى سدرة المنتهى وغشيتها من أمر الله تعالى وعظمته وغشيتها الملائكة، ورأى فراشاً من ذهب وألواناً متعددة، ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح، ورأى البيت المعمور وإبراهيم الخليل (باني الكعبة الأرضية)، مستنداً ظهره إليه لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلاّ يوم القيامة ورأى الجنة والنار.

---

(١) هذا هو الصحيح عند أهل العلم أن الإسراء بالجسم والروح معاً.

فرض الصلاة:

وقد فرض الله عليه هناك الصلوات خمسين ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفاً بعباده ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه وهذا ظاهر في شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام في ذلك ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس.

قال الإمام البصيري:

فطوى الأرض سائراً والسماوا	ت العلا فوقها له إسراء
فصف الليلة التي كان للمختار	فيها على البراق استواء
وترقى به إلى قاب قوسين	وتلك السيادة القعساء
رتب تسقط الأماني حسرى	دونها ما وراؤهن وراء
ثم وافى يحدث الناس شكراً	إذ أتته من ربه النعماء

كما قال أيضاً:

سريت من حرم ليلاً إلى حرم	كما سرى البدر في داج من الظلم
فبت ترقى إلى أن نلت منزلة	من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم
حتى إذا لم تدع شأواً لمستبق	من الدنو ولا مرقى لمستلم
خفضت كل مقام بالإضافة إذ	نوديت بالرفع مثل المفرد العلم

تصديق بطريق (إيليا) سادن بيت المقدس خبر الإسراء:

وجاء في تفسير ابن كثير أنه لما أرسل رسول الله ﷺ إلى هرقل كبير الروم بالشام يدعوه إلى الإسلام، أن هرقل استدعى مَنْ بالشام من تجار العرب، فجيء بأبي سفيان بن حرب وأصحابه من أهل مكة، فسألهم هرقل عن مسائل كثيرة تتعلق برسالة سيدنا محمد ﷺ ليطلع منها على صدقه. فقال أبو سفيان بن حرب: والله ما منعني من أن أتقول عليه قولاً أسقط به من عينه إلاّ أني خشيت أن أكذب عنده كذبة يأخذها عليَّ ولا يصدقني في شيء مما قلته قال: حتى ذكرت قوله ليلة أسري به قال، قلت: أيها الملك ألا أخبرك خبراً تعرف به أنه قد كذب، قال: وما هو؟ قال، قلت: إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا، أرض الحرم في ليلة، فجاء مسجدكم هذا، مسجد إيليا ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح، قال: وكان بطريق إيليا عند رأس قيصر، قال بطريق: إيليا قد علمت تلك الليلة. قال: فنظر إليه قيصر وقال: وما علمك بهذا؟ قال: إني كنت لا أنام كل ليلة حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كانت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها إلاّ باباً واحداً غلبني فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرني كلهم فغلبنا، فلم نستطع أن نحركه، كأنما نزل عليه جبل. فدعوت إليه النجاجرة، فنظروا إليه وقالوا: إن هذا الباب سقط عليه النجاف

والبنيان، ولا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى. قال: فرجعت فتركت الباب مفتوحاً فلما أصبحت غدوت عليه. فإذا المجر الذي في زاوية الباب منقوباً... وإذا فيه أثر مربط الدابة قال، قلت لأصحابي: ما حبس هذا الباب إلا على نبي. وقد صلى الليلة في مسجدنا هذا... انتهى.

قال ابن القيم: فلما أصبح رسول الله ﷺ في قومه أخبرهم بما أراه الله عز وجل من آياته الكبرى، فاشتد تكذيبهم لهم وأذاهم، وسألوه أن يصف بيت المقدس، فجلاه الله له حتى عاينه فطفق يخبرهم عن وصفه وأبوابه حتى بهتهم وما استطاعوا أن يردوا عليه شيئاً، وأخبرهم عن عيرهم في مسراه ورعه وأخبرهم عن وقت قدومها، وعن البعير الذي يقدمها، وكان الأمر كما قال فلم يزدهم ذلك إلاّ نفوراً، وأبى الظالمون إلاّ كفوراً، حتى يقال أن بعضاً من الذين كانوا أسلموا ارتدّوا بسبب حادثة الإسراء.

وذهب الناس إلى أبي بكر. فقالوا له: هل لك يا أبا بكر في صاحبك؟ يزعم ـ أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة ـ فقال أبو بكر: والله لإن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك. فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه. قال صاحب قرة الأبصار في سيرة المشفع المختار:

وبعد واحد مع الخمسينا وأشهر مضلت يقينا
شرفه الإله بالإسراء وبعروجه إلى السماء
حتى أراه أكبر الآيات وعاد بعد الفرض للصلاة

يشير العراقي في ألفيته إلى بعض تفاصيل الإسراء فيقول:

وبعد عام مع نصف أسريا به إلى السماء حتى حظيا
من مكة الغرا إلى القدس على ظهر البراق راكباً ثم علا
إلى السماء معه جبريل فأستفتح الباب له يقول
مجيباً إذ قيل له من ذا معك محمد معي فرحب الملك
ثم تلاقى مع الأنبياء وكل واحد لدى سماء
ثم علا لمستوى قد سمعا صريف الأقلام بما قد وقعا
ثم دنا حتى رأى الإلها بعينه مخاطباً شفاها
أوحى له سبحانه ما أوصى فلا تسل عما جرى تصريحا
وفرض الصلاة خمسين على أمته حتى لخمس نزلا
والأجر خمسون كما قد كانا وزاده من فضله إحسانا

فصدق الصديق ذو الوفاء ... وكذب الكفار بالإسراء
وسألوه عن صفات القدس ... رفعه إليه روح القدس
جبريل حتى حقق الأوصافا ... له فما طاقوا له خلافا
لكنهم قد كذبوا وجحدوا ... فأهلكوا وفي العذاب أخلدوا

والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى هي رابطة بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد الثلاثة وقد أشير إلى ذلك بقسم الله تعالى بقوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾ [التّين: الآيات ١-٣]. فالتين والزيتون إشارة إلى مكان مبعث عيسى عليه السلام وهي ساعور التي أرسل منها، والطور هو المكان الذي أرسل منه موسى عليه السلام. وهذا البلد الأمين وهو بلد الله الحرام مكة، والذي أرسل منه سيدنا محمد ﷺ.

وقد وصف الله نبيه محمداً ﷺ بالعبودية مرات في القرآن في مقام التكريم منها في سورة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسرَاء: الآية ١]. الثانية في سورة الكهف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ [الكهف: الآيتان ١، ٢]. والثالثة في سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفُرقان: الآية ١]. والرابعة في سورة الجن: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجنّ: الآية ١٩].

والتعبير بلفظ العبد في هذا المقام العظيم يدل دلالة واضحة على أن مقام العبودية هو أشرف صفات المخلوقين وأعظمها وأجلّها، إذ لو كان هناك وصف أعظم منه لعبّر به في هذا المقام العظيم الذي اخترق العبد فيه السبع الطباق، ورأى من آيات ربه الكبرى ما رأى. والذي يبيّن رفعة مقام نبينا محمد ﷺ هو أن كل نبي من الأنبياء قبله لم يرسل إلاّ إلى أمة واحدة من الأمم وأما محمد ﷺ فوردت آيات بأنه مرسل للناس كافة منها.

١ - ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعرَاف: الآية ١٥٨].

٢ - ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ [إبراهيم: الآية ٥٢].

٣ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سَبَإ: الآية ٢٨].

ثم جاءت آيات أخرى تبين أن رسالته عالمية وأنها غير مختصة ببني الإنسان بل تشمل الكون كله. من ذلك قوله تعالى.

١ - ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفُرقان: الآية ١].

٢ ـ ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: الآية ٩٠].

٣ ـ ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٤].

٤ ـ ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [القَلَم: الآية ٥٢].

٥ ـ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٤].

٦ ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبيَاء: الآية ١٠٧].

لأن العالم هو ما سوى الله من مخلوقاته، ولو تأملنا ما حبا الله به نبيه محمداً ﷺ من خصال وخاصيات لم يعطها غيره من الأنبياء والرسل، لعرفنا أن مكانته عند الله عظيمة، وعلاوة على ما ذكرنا آنفاً من خصوصيته بالإسراء والمعراج، وعمومية الرسالة للعالم كله، فإنه رفع ذكر اسمه مع اسم الله لا يعدله شيء في التعظيم والتقدير، كما أعطاه ﷺ حق التحريم والتحليل وجعل أمره من أمر الله وطاعته من طاعة الله تعالى فهو نهاية في التقدير والتعظيم.

وهناك خصلتان أُخريان من نوع آخر لهما مدلولهما في الرفعة والمكانة ليس لهما مثيل في عالم الوجود. الأولى: إعطاؤه شهادة من رب العالمين بعظم خلقه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القَلَم: الآية ٤]. فهذه الشهادة لا يعدلها شيء في الوجود، وكفى بالله شهيداً لأن الذي وهبها هو عالم الغيب والشهادة: الثانية: إقسام الله سبحانه وتعالى بعمر سيدنا محمد ﷺ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحِجر: الآية ٧٢]. فهذا أيضاً فيض من التكريم والتبجيل من الله لنبيه محمد ﷺ أن يقسم الله بحياة رسوله ﷺ إذ لم يقسم بحياة أحد إلاّ نبينا محمد ﷺ وهو ما ينبىء عن مكانته عنده سبحانه وتعالى.

تقول العلامة أم الخيرات بنت أحمد الشنقيطية في نظم الخصائص السابق ذكره:

وبحياة الهادي أقسم الحكم وفي اختصاصه بذي فصل حتم

وقال ﷺ: **«أنا سيد المؤمنين إذا بعثوا، وسائقهم إذا وردوا، ومبشرهم إذا أبلسوا، وإمامهم إذا سجدوا، وأقربهم مجلساً من الرب تعالى إذا اجتمعوا، أقول فأتكلم فيصدقني، وأشفع فيشفعني، وأسأل فيعطيني»**(١)، أو كما قال ﷺ.

وفي دلائل النبوة لأبي نعيم ما نصه: (ومن فضائله إخبار الله عز وجل عن إجلال قدر نبيه ﷺ وتبجيله وتعظيمه، وذلك أنه ما خاطبه في كتابه ولا أخبر عنه إلاّ بالكناية التي هي النبوة والرسالة التي لا أجل منها قدراً ولا أَعظم منها فخرا، وخاطب غيره من الأنبياء بأسمائهم ولم يذكرهم بالكناية التي هي غاية المرتبة إلاّ أن يكون الرسول محمد ﷺ

---

(١) رواه أبو نعيم.

في جملتهم بمشاركته معهم في الخطاب والخبر. فأما حال الإنفراد... فما ذكرهم إلاّ بأسمائهم، والكناية عن الإسم غاية التعظيم للمخاطب المجلل والمدعو العظيم لأن من يبلغ به غاية التعظيم كني عن اسمه إن كان ملكاً قيل له أيها الملك، وإن كان أميراً قيل له أيها الأمير، وإن كان خليفة قيل له أيها الخليفة، وإن كان من مراتب أهل الديانات قيل له أيها الحبر أو أيها القس أو أيها العالم، أو أيها الفقيه، أيها القاضي.

أكنيه حين أناديه لأكرّمه ولا ألقبه والسوأة اللقب

ففضل الله عز وجل نبيه ﷺ وبلغ به غاية الرتبة وأعالي الرفعة، فلم يسمه باسمه في النداء إلاّ بالكناية تعظيماً له، مثل قوله تعالى: (يا أيها الرسول، يا أيها النبي، يا أيها المزمل، يا أيها المدثر) وأما جميع الرسل سواه فقد نودوا بأسمائهم (يا نوح، يا هود، يا صالح، يا إبراهيم، يا شعيب، يا موسى، يا عيسى). تقول العلامة أم الخيرات بنت أحمد الشنقيطية في نظمها للخصائص السابق ذكره.

وإنه في الذكر لم يخاطب إلاّ بأيها الرسول والنبي
أو المدثر أو المزمل صلى عليه النور ما النور تلى

وأما اسمه ﷺ فلم يرد في القرآن إلاّ في الخبر عنه، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٤٤]، وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزَاب: الآية ٤٠]. فجاء اسمه مضافاً للرسالة. والله سبحانه وتعالى نهى المؤمنين أن ينادوا نبيهم باسمه أو يلقبوه، ووصف الذين ينادونه بذلك بأنهم قوم لا يعقلون: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ﴾ [النُّور: الآية ٦٣]. و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الحُجرَات: الآية ٤].

كما أن الله سبحانه وتعالى أمرهم بالأدب بين يدي الرسول ﷺ، في المخاطبة وفي إبداء الاقتراحات منهم، وأن لا يقولوا في أمر حتى يستأذنوا، ولا يقضوا في أمر إلى أن يرجعوا فيه إليه، وألزمهم سبحانه وتعالى بالأدب مع نبيه في الحديث والخطاب وتوقيرهم له في قلوبهم، توقيراً ينعكس على نبرات أصواتهم وجوارحهم ويميز شخص رسول الله ﷺ بينهم ويميز مجلسه فيهم وجعل ذلك الإلزام في نداء تحذيري: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحُجرَات: الآية ١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحُجرَات: الآية ٢].

الباب الثاني

محور الدعوة الإسلامية

مبحث لما دار بين قريش ودعوة الإسلام

وقبل أن ننتقل إلى حادث الهجرة من مكة إلى المدينة والدوافع التي أدت إلى ذلك بسبب الاستبداد والطغيان الذي مارسته قريش في وجه الدعوة الإسلامية لمنع نموها بمكة وتحالفهم على حربها بشتّى الوسائل ـ وخاصة بعد ما بيتوا لقتل رسول الله ﷺ ـ حامل رسالة الإسلام وتجنيدهم لتلك العملية إثني عشر فتى جلداً من فرسانهم الأشدّاء الحانقين على الدعوة وعلى صاحبها (عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم)، ووقوفهم عى بابه مدججين بالسلاح لينقضوا عليه، ويضربوه ضربة رجل واحد كما يقولون، ويتفرق دمه في قبائل قريش، فلا يجد بنو عبد مناف طريقة للثأر لقتله ووقوف بقية القبائل العربية الأخرى من الدعوة موقف التحرز والانتظار في ارتقاب نتيجة المعركة بين رسول الله ﷺ وعشيرته الأقربين وعلى رأسهم أبو لهب وأبو جهل وأبو سفيان وغيرهم ممن ينتمون بصلة القرابة القوية لصاحب الدعوة ﷺ.

وكما قلت: قبل أن ننتقل إلى حادث الهجرة الذي غيّر مجرى أسلوب الدعوة من وسائل الإقناع بالحجة فقط والموعظة الحسنة التي دامت في مكة ثلاث عشرة سنة ولم تأتِ ثمارها ببسط الدعوة بمكة حتى تكون لها الكلمة لعدم وجود قوة تحميها من الإضطهاد، بل كان الإسلام بمكة مستهدفاً، والدعوة مطاردة، وكان الذين يغامرون بالإنضمام إلى صفوف المسلمين هم المخلصون في عقيدتهم والقادرون على تحمل المحن والأذى في سبيلها. وأما بعد الهجرة فأصبح الإسلام له دولة تحمي حماه وقوة تخشى وشوكة ترهب الأعداء، وأخذ الإسلام بعد الهجرة منعطفاً سياسياً مهما تحوّل بعده من مركز للمقاومة إلى مركز للهجوم، وأصبحت الدعوة بالحجة أولاً ثم بالجهاد ثانياً.
وقبل أن نصل إلى عرض تلك المرحلة من مراحل السيرة.

فإننا نهدف قبل ذلك إلى أن نتعرض لما دار بين دعوة الإسلام وكفار قريش حول محور الدعوة الذي جاءهم بها رسول الله ﷺ وهو عقيدة التوحيد، ومقاومتهم لها، وتصلّبهم بالبقاء على الشرك الذي ورثوه عن آبائهم وأجدادهم، وهو ما عنيناه في مضمون إسم كتابنا هذا (محور رسالة الإسلام في سيرة سيد الأنام ﷺ) لنقف على حقيقة دعوة

الإسلام، ووجهة نظر المشركين فيها، ومعالجة القرآن الكريم للعقائد المنحرفة الباطلة والتصورات الفاسدة سواء لدى العرب المشركين بالجزيرة أو كفار أهل الكتاب الذين حرفوا وبدلوا في الكتب التي جاءتهم بها رسلهم عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

الفصل الأول

الأسباب الموجبة إلى إرسال الرسل

السبب الأول: تسلط إبليس على بني آدم:

ولنعد بالبحث إلى أول الأمر ومنشئه وهو الكفر، وسببه هو تسلط إبليس على آدم وذريته، وحسده لآدم باصطفاء الله له وإسجاد ملائكته له: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء: الآيات ٦١-٦٤].

وكان آدم قد أدخله الله جنته هو وزوجه ـ وأمرهما أن يأكلا منها حيث شاءا، باستثناء شجرة واحدة فقال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طٰه: الآيتان ١١٨ - ١١٩]. وأنذرهما بأن إبليس عدو لهما فقال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طٰه: الآية ١١٧].

وإبليس منذ عصى ربه بعدم امتثال أمر السجود أقسم بين يدي ربه إن هو أخّره إلى يوم القيامة ليغوين آدم وذريته إلا قليلاً من عباده المخلصين. فقال سبحانه وتعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص: الآية ٨٢] ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحِجر: الآية ٤٠].

فوسوس الشيطان لآدم وحواء بأن تحذير الله لهما من أكل الشجرة هو خشية أن يكونا ملكين أو يكونا من الخالدين، وأقسم لهما على ذلك، فأكلا من المحظور عليهما. قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف:

الآيتان ٢٠ - ٢١]. فتاب الله سبحانه وتعالى على آدم وزوجه بعد الإعتراف بالذنب والندم والإستغفار وهذا هو مقتضى التوبة.

ثم أمر الله الخصمين آدم وحواء وإبليس أن يهبطا إلى الأرض للابتلاء: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: الآية ١٢٣] ليمارس الشيطان عدوانه على آدم وذريته إلى يوم القيامة، ولكن الله سبحانه وتعالى شاءت رحمته بعباده أن ينقذهم من غواية الشيطان بأن يبعث إليهم رسله بالهداية: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ أي أصبح في حصن من الله وليس للشيطان عليه سبيل، وهذا هو سبب إرسال الرسل فقال تعالى: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: الآيتان ١٢٣ - ١٢٤]. أي أنه آتيهم بهدى منه ـ فمجاز كلاً منهم بعد ذلك حسبما ضل أو اهتدى. وكان رد إبليس لما طرده الله من الرحمة، وما لحقه من اللعنة هو الإصرار أن ينتقم من آدم وذريته، لأن آدم كان السبب فيما أصابه ـ وقام يتوعد: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعـراف: الآيـتـان ١٦ - ١٧]. وذلك ليبعدهم عن الإيمان بالله وعمل الطاعات وتزيين الكفر والفسوق والعصيان لهم.

وقال الله سبحانه وتعالى حكاية عنه: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النِّساء: الآيتان ١١٨، ١١٩]. وأذن الله لإبليس في الذين يتبعونه من بني آدم فقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحِجر: الآية ٤٢]. وقال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسرَاء: الآيتان ٦٣ - ٦٤].

والله سبحانه وتعالى لما خلق الإنسان ركّب فيه عقلاً، وهو مناط التكليف، فالذي لا يعقل من بني آدم ليس مخاطباً بالتكليف ولذلك أشاد بالعقل وعوّل عليه في أمر العقيدة.

فالإنسان المزود بالعقل والإرادة يمكنه أن يتبع الشيطان أو يعرض عنه، بسبب وجود العقل الذي يميز بين البدائل بافعل أو لا تفعل، وذلك موجب التكليف الذي يعصم صاحبه من الزلل، ويدرك به الحقائق، ولذا كانت حاجة الناس إلى معرفة الرسل وما جاؤوا به من عند الله وتصديقهم فيما أخبروا عنه وطاعتهم فيما أمروا به لازم، فإنه

لا سبيل إلى النجاة من إغواء الشيطان إلاّ باتباع ما جاؤوا به من عند الله، ولا ينال رضا الله إلاّ على أيديهم. ولذلك جاء في القرآن الكريم الذي أنزله الله على نبينا محمد ﷺ تحذيرات كثيرة من إبليس وقبله، منها قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: الآية ٢٧] . ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: الآيات ٦٠ - ٦٢]. ومثل هذا كثير في القرآن الكريم.

وإبليس أوصى ذريته بأن يفسدوا فطرة بني آدم التي خلقهم الله عليها، ويغوهم عنها والتي جاءت في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوم: الآية ٣٠] .

روى مسلم في صحيحه الحديث القدسي: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً»[(١)] . فالإيمان هو الأصل الذي فطر الله عليه خلقه عند خلقه لهم، والشرك هو الذي جاء في الحديث أن سببه إضلال الشيطان. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٧٢ - ١٧٣].

وهذا الميثاق هو الذي أخذ عليهم في عالم الذر. يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة «لو أن لك ما في الأرض من شيء كنت تفتدي به ـ فيقول نعم ـ فيقول أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلاّ أن تشرك بي»[(٢)] . وقال ﷺ: **«كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»**[(٣)] . وهذه النصوص قاطعة بأن كل مخلوق يخلقه الله حنيفاً على فطرة الإسلام.

والله سبحانه وتعالى بيّن خصائص الشيطان، بأنه يحمل بني آدم على أن يشركوا

---

(١) صحيح مسلم. (٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.

بالله وأنه يأمرهم بالسوء والفحشاء وأن يقولوا على الله ما لا يعلمون وهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة: الآيتان ١٦٨ - ١٦٩] . فجاءت الرسل تترى من آدم إلى نبينا محمد ﷺ أو من نوح لأنه أول رسول - وآدم نبي - والنبي هو الذي يوحى إليه أو هو الذي لم يرسل برسالة مستقلة.

فالله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: الآية ١٣] . وهذا ينبىء عن وحدة المصدر، ووحدة المنهج، وأن ما جاء به نبينا محمد ﷺ في عمومه هو ما وصى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى وهو أن يقيموا الدين الواحد ولا يتفرقوا فيه. وشاءت إرادة الله أن يكون نبينا محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والرسل وتكون رسالته خاتمة الرسالات، وكانت بعثته إيذاناً ببزوغ فجر جديد يضيء بنوره الخافقين - وكانت البشرية قبل ذلك على شفا حفرة من نار - فأنقذنا الله به من حفر النار إن شاء الله تعالى.

السبب الثاني: إقامة دين الله في الأرض:

نعم إن ملاك الأمر في الرسالة التي جاء بها نبينا محمد ﷺ هو إقامة دين الله سبحانه وتعالى في أرضه، المبني على إعلان الألوهية لله وحده لا شريك له، وإعلان ألوهيته للعالمين وإزالة جميع الطواغيت التي تعبد من دونه. وعلى هذا الأساس قدّم رسول الله ﷺ نفسه لقومه وللناس كافة أنه نبي مرسل من رب العالمين: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٨] . وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ: الآية ٢٨] . وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾ [فصّلت: الآية ٦] . موضحاً أنه آخر نبي مرسل من سلسلة الرسل الذي سبقوه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: الآية ٤٠] . وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأحقاف: الآية ٩] .

ثم زاد نفسه تعريفاً أنه ليس إلاّ بشراً من الناس، ولكن الله ائتمنه على وحيه، الذي أنزل عليه أن يبلغه للناس كافة: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا

بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المَائدة: الآية ٦٧]. وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعَام: الآية ٥٠]. ثم أكد أنه لا يملك أن يزيد أو ينقص أو يبدل من مضمون هذه الرسالة التي حمله الله مسؤولية تبليغها شيئاً: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [يُونس: الآية ١٥] . وأن الله أنزل عليه كتابه وهو القرآن لينذر به كافة الخلق.

وقوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعَام: الآية ١٩] . والقرآن جامع لما أودع في صحف الرسالات السابقة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المَائدة: الآية ٤٨] . ومتضمناً أسباب الرشد للناس حتى قيام الساعة وهو معجزة الرسالة المحمدية الخالدة التي تحدى الله بها الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، وأخبر أنهم: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسرَاء: الآية ٨٨] . وقريش كانت هي الطاغوت المباشر الذي يحول بين الناس في جزيرة العرب وبين التوجه إلى عبادة الله وحده والدخول في سلطانه، وقد رأت قريش في دين الإسلام خطراً عليها وواجهته بكل قوة، وكان هذا في بيت الله الحرام الذي يأمن فيه القاتل منهم على دمه وماله. حتى كان الواحد منهم يلقى قاتل أبيه أو أخيه في الحرم فلا يمسه بسوء.

أما محمد رسول الله ﷺ الداعي إلى الهدى والإيمان وعبادة الله وحده فلم يراعوا معه هذه الخصلة حيث تآمروا على حياته وبيتوا على قتله في بيت الله الحرام بلا تحرج ولا تذمم كما كان يتحرجون ويتذممون مع أصحاب الثأرات. بينما لم يزعجهم من قبل اتباع أهل الملة الحنيفية الذين يزاولون شعائرهم الدينية المبنية على وحدانية الله، والذين هم يسالمونهم والذين يعتزلون معتقدات المشركين وعبادتهم للأصنام، فهؤلاء لا يجدون فيهم خطراً عليهم، لأنه لا خطر على الطواغيت من هؤلاء الحنفاء مثل ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل ابن عم عمر بن الخطاب، وقس بن ساعدة وأضرابهم.

وأما الرسالة الجديدة المتمثلة في القرآن الكريم ورسول الله ﷺ فهي تواجه قريشاً وطواغيتها وما يترتب على تصورهم للألوهية، وما يترتب على تكذيبهم بالبعث والآخرة وما يترتب على تكذيبهم بالوحي والنذارة في انطلاقهم في واقع الحياة العلمية يزاولون خصائص الألوهية في التشريع لحياتهم، والتحليل والتحريم في أرزاقهم ومعاملاتهم وفق ما تصوره لهم وثنيتهم واعتقادهم بالشركاء الذين يجعلون لهم نصيباً مما رزقهم الله،

يأخذه السدنة والكهنة ليحلوا لهم ما يشاؤون ويحرموا عليهم ما يشاؤون.

وحقيقة الرسالة، هي إخراج الناس من ظلمات الشرك إلى ضياء الإيمان، ذلك الشرك الذي خيم على الأرض وأصبح هو طابع أهلها سواء في ذلك عبادة الأوثان أو الإدعاء على الله أن له بنين وبنات أو أن بينه وبين الجنة نسباً، أو اتخاذهم جزءاً من مخلوقاته أرباباً: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: الآية ٣١]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: الآية ١٧]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: الآية ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ۚ﴾ [الشورى: الآية ٢١]. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۚ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [الزخرف: الآية ١٥]. وقوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الزخرف: الآية ١٦]. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ١٠٠ ـ ١٠١]. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: الآية ١٣٦] ﴿فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٦].

وهذه الآيات كلها تدل على أنواع من الشرك مارسها العرب قبل الإسلام.

السبب الثالث: إقامة الحجة على الناس بإرسال الرسل:

ولما كان من عدل الله سبحانه وتعالى في خلقه أن لا يعذبهم حتى يبين لهم ما يتقون وأن يقيم عليهم الحجة بإرسال الرسل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥] . وقوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ﴾ [النساء: الآية ١٦٥]. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣١]. وقوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا

وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعَام: الآية ١٣٠].

وهذا إقرار بأن الرسل قد جاءتهم تقص عليهم آيات ربهم وتنذرهم لقاء يومهم هذا - وهو يوم الحساب ليعقب على المشهد بأن عذاب الله لا ينال أحداً إلاّ بعد الإنذار، وأن الله لا يأخذ العباد إلاّ بعد أن ينبهوا من غفلتهم: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعَام: الآية ١٣١]. فجعل سبحانه العقاب مرهوناً بالتكذيب والكفر بعد البلاغ والإنذار.

الفصل الثاني

أنواع العبادات الشركية التي كان يزاولها العرب

وقريش والعرب عموماً الذين أرسل الله إليهم نبينا محمد ﷺ كانوا يزاولون أنواعاً كثيرة من الشرك مثل عبادة الأصنام سواء حجارة أو أشجاراً - وكانوا يعتقدون أن هناك كائنات من خلق الله لها مشاركة عن طريق الشفاعة الملزمة عند الله في تسيير الأحداث والأقدار كالملائكة أو عن طريق قدرتها على الأذى كالجن بذواتهم أو باستخدام الكهان والسحرة - وكل كانوا يرمزون لهم بالأصنام التي تعمرها أرواح الشياطين ويستنطقها الكهان فتحدثهم عن بعض المغيبات ويسمون ذلك رئى الجن، وتستخدم في الأنصاب والأزلام وغير ذلك.

وكان يزاولون الشرك في تقديم الشعائر لهذه الأصنام وتقديم القرابين والنذور لها. وقد ذكر الله أنواعاً أخرى يزاولها العرب منها. ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ﴾ والله سبحانه وتعالى عقب على هذا الشريك الذي جعلوه له بأنه خلقه، فكيف خلقه وهو شريكه سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً. كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعَام: الآيتان ١٠٠، ١٠١].

بنين عند اليهود عزيز، وعند النصارى المسيح، وخرقوا له بنات عند المشركين الملائكة.

إن الذي يبدع هذا الوجود إبداعاً من العدم ليس له حاجة في الأولاد، لأن مزيتهم أن يخلقوا من يزول، والله سبحانه وتعالى باق لا يزول حي، صمد، لم يلد، ولم يولد. وأنواع أخرى من أنواع الشرك يزاولها العرب: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْۗ سَآءَ مَا

يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ
وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ
أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا
يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى
بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ
شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾
[الأنعام: الآيات ١٣٦ - ١٤٠].

هذا عرض لمجموعة من التصورات والمزاعم التي كان الجاهليون يزاولونها في شأن الثمار والأنعام والأولاد. تقسيم ما رزقهم الله من ثمار وأنعام إلى قسمين: قسم يجعلونه لله، وقسم يجعلونه لشركائهم وهي الآلهة المدعاة التي يشركونها في أنفسهم وأموالهم وأولادهم من دون الله وهو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٦] . أي أنهم يجورون على النصيب الذي قسموه لله فيأخذون جانباً منه ويضمونه إلى ما قسموه لشركائهم ولا يفعلون ذلك فيما قسموه للشركاء.

ثم هم كذلك يقتلون أولادهم بتزيين من الشركاء، وهم في هذه الحالة إنما هم الكهان أو الرؤساء الذين يرسمون لهم التقاليد الفاسدة، فيقتلون الإناث مخافة العار ويقتلون الإناث والذكور مخافة الفاقة: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٧] . وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ﴾ [الإسراء: الآية ٣١] .

وعن ابن عباس قال: كانوا إذا دخل الطعام فجعلوه حزما ـ جعلوا منه لله سهماً، وسهماً لآلهتهم وكانت إذا هبت الريح من نحو الذي جعلوه لآلهتهم إلى الذي جعلوه لله ردوه إلى الذي جعلوه لآلهتهم وإذا هبت الريح من نحو الذي جعلوه لله إلى الذي جعلوه لآلهتهم أقروه ولم يردوه، فذلك قوله تعالى: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٦] .

وعن مجاهد قال: يسمون لله جزءاً من الحرث ولشركائهم وأوثانهم جزءاً فما هبت به الريح مما سموه لله إلى جزء أوثانهم تركوه، وما ذهب من جزء أوثانهم إلى جزء الله

ردوه وقالوا: الله عن هذا غني، ويفسر شيخ المفسرين الطبري فيقول: إن الله يقول لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء الذين جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ولشركائهم من الآلهة والأنداد مثله، والقائلين هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلاّ من نشاء، والمحرمين بعض ما في بطون بعض أنعامهم على إناثهم وأزواجهم، ومحليه لذكورهم المحرمين ما رزقهم الله، افتراء على الله وإضافة ما يحرمون منَ ذلك إلى أن الله هو الذي حرمه عليهم. أجاءكم من الله رسول بتحريمه، فأنبؤنا به. أم وصاكم الله بتحريمه مشاهدة منكم له: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعَام: الآية ١٤٤].

وبهذا كشف الله لهم عما في معتقداتهم وتصوراتهم وتصرفاتهم من الضلال، سواء في عبادتهم للأوثان مثل اللات والعزى ومناة، وغير ذلك من الأصنام أو تحكيمهم وتشريعهم فيما يحلونه ويحرمونه من تلقاء أنفسهم. ثم يقولون إن الله هو الذي أمرهم بهذا إفتراء عليه، ولما قيل لهم - إنكم تعبدون أصناماً وأحجاراً وأشجاراً، وأنكم وما تعبدون من دون الله حطب جهنم - وقيل لهم: إن كل معبود من دون الله هو وعابدوه في النار.

حرفوا الكلام الواضح المبين، واتخذوا من دونه مادة، وقالوا: فما بال عيسى وقد عبده قومه؟ أهو في النار؟ ثم قالوا: إن الأصنام تماثيل الملائكة، والملائكة بنات الله، فنحن في عبادتنا لهم خير من عبادة النصارى لعيسى، وهو بشر له طبيعة الناس، فرد الله عليهم: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزّخرُف: الآيات ٥٧-٥٩] . وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزّخرُف: الآية ١٩]. فأمر الله نبيه ﷺ أن يستفتيهم بقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الصَّافات: الآية ١٤٩] ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الصَّافات: الآيات ١٤٩،١٥٢]. وفي ساحة المحشر يواجههم الله بدعواهم على الملائكة بعبادتهم لهم: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سَبَإ: الآيتان ٤٠ - ٤١].

وهناك أنواع أُخرى من الشرك يدّعي مشركو العرب أن الله شرعها لهم والله سبحانه وتعالى ينفي ذلك الادعاء ويبين سبحانه أن الذين قالوا ذلك يفترون على الله الكذب، وأن أكثرهم لا يعقلون وهو قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة: الآية ١٠٣].
البحيرة من الإبل يمنع لبنها ويخصص للآلهة فلا يطعمها للناس، وكهنة الآلهة هم ممثلوها في أخذ ذلك اللبن - والسائبة ينسبونها للطواغيت - والحام هو الفحل الذي يحمي ظهره فيترك بعد أن يقوم بعدد من الضراب هذا في العرف الجاهلي. وكما ذكرت سابقاً بأن حقيقة الرسالة والرسول ومهمتها هو إخراج الناس من ظلمات الخرافة والضلال وعبادة الهوى وعبادة العرف المنحرف والسلف الضال الذي كان عليه آباؤهم وأجدادهم وذلك بقوله تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: الآية ١ - ٣]. وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: الآيتان ٦٩- ٧٠].

عندما أعلن ذلك رسول الله ﷺ على الملأ من كفار قريش وقع عليهم ذلك القول كصاعقة من السماء، واندهشوا وتفاجؤوا بأمر هذه الدعوة التي تدعوهم إلى توحيد الله سبحانه وتعالى ونبذ آلهتهم التي درجوا على عبادتها وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: الآية ٥].

قال الشاعر:

أيا عجباً كيف يعصي الإله ... أم كيف يجحده جاحد
وفي كل شيء له شاهد ... دليل على أنه واحد

وقال آخر:

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... إلى أحداقها الذهب السبيك
على قضيب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

والعرب مع إشراكهم بالله سبحانه وتعالى يقرون بأنه هو الخالق الرازق، المحيي المميت كما أخبرنا سبحانه بقوله: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ٨٤ - ٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: الآية ٢٥]. ومثال هذا في القرآن كثير، وهم لم يكونوا يعتقدون في الأصنام أنها مشاركة لله في خلق العالم. وإنما يتخذون شفعاء، ويتوسلون بهم إلى الله، وهذا أصل شرك العرب، كما قال تعالى حكاية عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: الآيتان ٢٢ - ٢٣].

وقد ثبت في صحيح البخاري، وكتب التفسير أن هذه أسماء قوم صالحين في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم ثم أطال عليهم الأمد، فعبدوهم. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُمَر: الآية ٣]. وقوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يُونس: الآية ١٨].

وبهذا يتحقق أن توحيد الأُلوهية هو محل النزاع وهو استحقاق الله سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له، وهو الذي دعت إليه الرسل، ونزلت به الكتب، وهو يتضمن توحيد الربوبية الذي سبق أن سقنا أدلته، وأن المشركين يسلمون به، وهو إعترافهم بأن الله هو الخالق. فكان لازم ذلك في المتفرد بالخلق وحده أن يعبد وحده. فقال تعالى: ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١﴾ [الأعراف: الآية ١٩١]. فمن لا يقدر على أن يخلق يكون عاجزاً والعاجز لا يصلح أن يكون إلّهاً. وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ٣٧﴾ [فُصّلَت: الآية ٣٧].

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٣٢﴾ [الرُوم: الآيات ٣٠-٣٢].

والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد وبيانه وضرب الأمثال له ومن ذلك أنه يقرر توحيد الربوبية ويبين أنه لا خالق إلاّ الله وأن ذلك مستلزم أن لا يعبد إلاّ الله فيجعل الأول وهو توحيد الربوبية دليلاً على الثاني وهو توحيد الأُلوهية ـ إذ كانوا يسلمون في الأول وينازعون في الثاني. فبين لهم سبحانه أنكم إذا كنتم تعلمون أنه خالق إلاّ الله وحده وأنه هو الذي يأتي العباد بما ينفعهم ويدفع عنهم ما يضرهم لا شريك له، فلم تعبدون غيره وتجعلون معه آلهة أخرى؟ ولما تعترضون على وحدانية كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦﴾ [ص: الآيتان ٥، ٦]. ونستوضح بعض ذلك عند قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ﴾ [النَّمل: الآية ٥٩]. في فصل (الله خير أما يشركون).

الفصل الثالث

جدال قريش للرسول ﷺ ووصفه بالساحر

والمشركون عندما يفحمهم القرآن بالأدلة والبراهين بحقيقة الدين، ينقلون جدلهم إلى شخص الرسول ﷺ بقولهم: مجنون أو ساحر أو شاعر إلى غير ذلك: كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ [الحِجر: الآية ٦]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤﴾ [الدّخان: الآية ١٤]. وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٣٩﴾ [الذاريَات: الآية ٣٩].

ثم يتعجبون أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤﴾ [ص: الآية ٤]. ثم استنكروا أن يكون الموحى إليه محمد رسول الله ﷺ وقالوا: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ [ص: الآية ٨]. استنكروا أن يختار الله نبيه محمد ﷺ فحسدوه على أن يكون هو الرسول من بينهم، فقال الوليد بن المغيرة: لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك لأني أكبر منك سناً، وأكثر منك مالاً!! وقال أبو جهل: والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلاّ أن يأتينا وحي كما يأتيه، وهذا في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝١٢٣ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعَام: الآيتان ١٢٣ - ١٢٤]. فأجابهم الله سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعَام: الآية ١٢٤]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفُرقان: الآية ٤١]. وقولهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: الآية ٨]. ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ۝٣٠﴾ [الطُور: الآية ٣٠]. والله يرد عليهم ويطمئن نبيه ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩﴾ [الطُور: الآية ٢٩]. وقوله تعالى: ﴿ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ [القلَم: الآيتان ١ - ٢].

ثم إنه من حسدهم لرسول الله ﷺ واعتراضهم على اختيار الله له قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزّخرُف: الآية ٣١]. يعنون الوليد بن المغيرة وابن مسعود الثقفي. والقريتان هما مكة والطائف، وفيهما كان كبراء المشركين وعظماؤهم المسودون، الذين كانوا يتطلعون إلى السيادة عن طريق الرسالة الذين يسمعون من أهل الكتاب أن نبياً قد أظل زمانه قد يبعث ولكنهم صدموا صدمة الحسد والكبرياء حينما اختار الله نبيه محمداً ﷺ وفتح له أبواب رحمته وأفاض عليه من خزائنه ما علم أنه يستحقه دون العالمين... وكبراء المشركين كبر عليهم اتباع الحق فهم يطلبون امتيازاً ذاتياً يحفظ

لهم خصوصتهم بين أتباعهم فقد تعودوا أن يكونوا في مقام الربوبية للأتباع، وأن يشرعوا لهم فيقبلوا منهم التشريع، وأن يأمروهم فيجدوا منهم الطاعة والخضوع، من أجل ذلك يقولون: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٤] . وهم مع اعتراضهم على اختيار الرسول يشكون في القرآن كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ [ص: الآية ٨] . فهم في شك من الذكر ذاته. ولم تستيقن نفوسهم أنه من عند الله وإن كانوا يمارون في حقيقته. وهو فوق المألوف من قول البشر.

والحق الذي لا مراء فيه أن كبراء قريش لم يصدقوا أنفسهم لحظة، وهم يقولون عن رسول الله ﷺ الذي يعرفونه حق المعرفة أنه ساحر وأنه كذاب. وإنما كان هذا سلاحاً من أسلحة التهويش والتضليل وحرب الخداع التي يتقنها الكبراء ويتخذونها لحماية أنفسهم ومراكزهم من خطر الحق الذي يتمثل في هذه العقيدة، ويزلزل القيم الزائفة والأوضاع الباطلة التي يستند إليها أولئك الكبراء. والله سبحانه وتعالى يخفف عن نبيه ﷺ ما يلاقيه من تكذيب قومه له وأنه ليس هو المقصود، بل مقصودهم البقاء على الكفر، وإصرارهم على جحود آيات الله.

كما يواسيه بما وقع لإخوانه الرسل قبله من التكذيب والأذى، وما كان منهم من الصبر والإحتمال حتى أتاهم النصر: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ٣٣، ٣٤].

اجتماع قريش برآسة الوليد بن المغيرة ـ أن يقولوا إن محمداً ساحر:

قال ابن إسحاق: إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سن فيهم وقد حضر الموسم فقال لهم: يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم، وأن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويرد بعضه بعضاً، قالوا فأنت يا أبا عبد شمس قل وأقم لنا رأياً نقل به. قال: بل أنتم، فقولوا: أسمع. قالوا، نقول: كاهن. قال: لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهّان . فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه.

قالوا، نقول: مجنون. قال: ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه. فما هو بخُنقه ولا بخالجته ولا وسوسته. قالوا، نقول: شاعر. قال: ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر. قالوا، نقول: ساحر. قال: ما هو بساحر لقد رأينا السحّار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم. قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال:

والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق وإن فرعه لمجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلاّ عرف أنه باطل وإن أقرب القول فيه أن تقولوا هو ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته... فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلاّ حذروه إياه وذكروا له أمره. وكان عتبة بن ربيعة يعترض على ذلك ويقول: يا معشر قريش قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد. لقد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أكرمكم خلقاً، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم كاذب، وساحر، ومجنون.

فهذا كان شأن الملأ من قريش في قولهم ساحر كذاب وهم يعلمون أنهم يكذبون فيما يقولون. ويعرفون أنه لم يكن ﷺ بساحر ولا كذاب. وبيّن القرآن حالهم بعد قولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [ص: الآيات ٥ - ٧]. والقرآن يصور طريقتهم في مقاومة الدعوة في نفوس الجماهير وتثبيتهم على ما هم الكبراء أعلم ببواطن الأمور... ويقولون لأتباعهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾. ما سمعنا بهذا التوحيد المطلق لله رب العالمين، الذي جاء به محمد ﷺ لأن الملل الأخرى التي يعرفها كفار قريش في ذلك الحين هي ملة النصرانية بالتثليث، أو ملة اليهود والتي تقول إن عزير ابن الله ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [ص: الآية ٧].

والقرآن يدحض أقوالهم ويكذب دعاويهم الباطلة: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٤٣﴾ [سَبَإ: الآية ٤٣]. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٥﴾ [الأنعام: الآية ٢٥].

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ۝٤٤ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٤٥﴾ [سَبَإ: الآيتان ٤٤، ٤٥]. لقد قابلوا الحق الواضح المبين الذي جاءهم به رسول الله ﷺ برواسب غامضة من آثار الماضي وترهات وتقاليد لا تقوم على أساس صحيح... ولقد أحسوا خطورة ما يواجههم به القرآن الكريم من الحق المستقيم.

فكونه مجرداً أنه يخالف ما كان عليه الآباء والأجداد ليس مطعناً مقنعاً لجميع القول، وإنما هي سلسلة من الاتهامات، حلقة بعد حلقة، يواجهون بها الآيات البينات، كي يحولوا بينها وبين القلوب، ولا دليل لهم على دعواهم، وقد كشف القرآن أمرهم وهو يقرر أنهم أميون، لم يؤتوا من قبل كتاباً يقيسون به الكتب ويعرفون به الوحي، فيفتوا بأن ما جاءهم اليوم ليس كتاباً، وليس وحياً، وليس من عند الله، ولم يرسل إليهم من قبل رسول، وهم يدعون ما ليس لهم به علم: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾ [سَبَإ: الآية ٤٤].

تصديق الجن بالرسالة:

والله سبحانه وتعالى ذكر لكفار قريش إيمان الجن: عندما سمعوا القرآن الكريم: ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجنّ: الآيتان ١، ٢]. وهذه شهادة من عالم الجن تثبت ما جاء به محمد ﷺ في قضايا العقيدة التي كان المشركون يجحدونها ويجادلون فيها أشد الجدل، ويرجمون في أمرها رجماً لا يستندون فيه إلى دليل أو حجة ويزعمون أحياناً أن محمداً ﷺ يتلقى من الجن ما يقول عنهم، فتجيء الشهادة من الجن أنفسهم بالقضايا التي يجحدونها ويجادلون فيها وبتكذيب دعواهم في تلقي محمد ﷺ من الجن شيئاً والجن لم يعلموا بهذا القرآن إلاّ حين سمعوه من رسول الله ﷺ فهالهم وراعهم ومسهم فيه ما يذهل ويدهش وملأ نفوسهم حتى لم يتمالكوا السكوت على ما سمعوا. فانطلقوا يحدثون في روعة المأخوذ عن هذا الحادث العظيم الذي شغل السماء والأرض، والإنس والجن، والملائكة والكواكب، وترك آثاره ونتائجه على الكون كله، وهي شهادة لها قيمتها في النفس البشرية حتماً. ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: الآيات ٢٩-٣١]. ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجنّ: الآيتان ١، ٢].

فإن هذه الآيات تنبىء عن وهلة المفاجأة بهذا القرآن للجن، مفاجأة أطارت قلوبهم، وزلزلت تماسكهم وهزت مشاعرهم، فانطلقوا إلى قومهم، بنفوس محتشدة مملوءة بما لا تملك له دفعاً بأسلوب متدفق نابض بالحرارة والانفعال: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجنّ: الآية ١]. عجب غير مألوف ذو جاذبية: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجنّ: الآية ٢]. يهدي إلى الهدى والحق والصواب، والقرآن يهدي إلى الرشد بما

ينشئه في القلوب من تفتح وإدراك، ومعرفة وإتصال بمصدر النور الصادر منه، يهدي إلى الرشد في تحقيق العقيدة وتنظيم تشريع الحياة على المنهج الذي يصلح كل من آمن به سواء من الجن أو الإنس: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: الآية ١٣]. وهذا هو المنطق السليم لكل من يسمع الهدى وليس ككفار قريش الذين قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: الآية ٣٢]. بدلاً من أن يقولوا إن هذا هو الحق فأرشدنا إليه. وقريش كانوا يواجهون حملة القرآن على عقائدهم الفاسدة وجاهليتهم المتناقضة بأن يكذبوا رسول الله ﷺ في نبوته بقوله فيه: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد: الآية ٤٣]. وكذلك تكذيبهم للوحي الذي أنزله الله، ويطلبون منه الخوارق التي تدل على أن الله أوحى إليه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾ [طه: الآية ١٣٣]. ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: الآيات ٩٠ - ٩٣]. وراحوا يطلبون الخوارق المادية، وقصر إدراكهم عن المعجزة الخالدة وهي إعجاز القرآن، وعلقوا إيمانهم على إيجاد هذه الخوارق، فالخوارق لا تعجز الله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ [الأنعام: الآية ٣٧].

والله لا يعجزه شيء، وقد كانت الخوارق تصاحب الرسالات السابقة لتصديق الرسل. ولكن في حالة مجيء الآيات الخارقة وعدم الإيمان بما دلت علي، أو التكذيب يصيب الذين طلبوا عذاب الاستئصال كما حصل للأمة السابقة، وأمة محمد ﷺ رحمة من الله بهم لم يجبهم إلى الخوارق التي طلبوها وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: الآية ٥٩]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام: الآية ٣٧]. وقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٠٩]. وكذلك كانوا يطلبون من رسول الله ﷺ أن يأتيهم بقرآن غير هذا لا يتعرض لآلهتهم وعقائدهم وجاهليتهم كي يستجيبوا له ويؤمنوا به، كما قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ﴾ [يونس: الآية ١٥]. وكان الرد على مثل هذا التعنت: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا

﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس: الآيتان ١٦ - ١٧].

أساليب شتى من السخرية والاستهزاء وهي وسائل المكابرة والجحود:

قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ﴿١١﴾ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الصَّافات: الآيات ١١ - ١٤].

ثم إن تكذيبهم أخذ مراحل متتابعة، بدأ بالإعراض، ثم بالتكذيب المتجهم، ثم بالاستهزاء المتواصل ثم بالعدوان والإثم، والاستهزاء والسخرية هما أكثر وقاحة وأطول رحلة: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفُرقان: الآيـة ٤١]، ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٦] ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ﴾ [المؤمنون: الآيتان ٦٩، ٧٠].

وقد اعترضوا على بشرية الرسول ﷺ في كسبه للرزق أن يمشي في الأسواق وقالوا: هلاَّ كفاه الله مؤنة كسب الرزق وحباه بالمال الكثير من غير كدّ ولا عمل بدلاً من أن يمشي في الأسواق يكتسب الرزق: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الفُرقان: الآيـة ٧] ﴿أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٨﴾﴾ [الفرقان: الآية ٨].

وقد كان ﷺ ملء السمع والبصر بين قومه قبل بعثته، فقد كان عندهم ذا مكانة سامية في شرف من بيته، وهو من ذروة بني هاشم، وهم ذروة قريش، وكان عندهم ذا مكانة من خلقه، وهم الذين علموا فيه رجاحة العقل، حتى حكموه بينهم في رفع الحجر الأسود وهم الذين لقبوه بالأمين، وظلوا يستودعونه أماناتهم حتى يوم هجرته عنهم في عدائهم العنيف له.

فقد ثبت أن علياً رضي الله عنه تخلف عن رسول الله ﷺ أياماً في مكة ليرد إليهم ودائعهم التي كانت عند رسول الله ﷺ حتى وهم يحادونه ويعادونه ذلك العداء البغيض، وهم الذين لم يعرفوا عليه كذبة واحدة قبل البعثة، ويؤيد ذلك لما أن دعاهم على الصفا ـ فسألهم أيصدقونه لو أخبرهم أن خيلاً بسفح هذا الجبل سوف تغير عليهم ـ قالوا: نعم، أنت عندنا غير متهم، ولم نجرب عليك كذبة قط، وكذلك لما سأل هرقل

أبا سفيان بن حرب: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل نبوّته؟ قال أبو سفيان وهو عدوه اللدود قبل إسلامه: لا. فقال هرقل: ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، ولكنهم بعد البعثة وبعد أن جاءهم بهذا القرآن العظيم يهزؤون به، ويقولون (هذا الذي بعث الله رسولاً)، وهي قولة ساخرة مستنكرة، أكان ذلك عن اقتناع منهم بأن شخصه الكريم يستحق منهم هذه السخرية؟ أو أن ما جاءهم به يستحق منهم هذا الاستهزاء؟ كلا.. ولكنها مظهر من مظاهر جحودهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣﴾ [الأنعام: الآية ٣٣].

إنما كانت خطة مدبرة من كبراء قريش للتصغير من أثر شخصيته العظيمة، ومن أثر هذا القرآن الكريم الذي لا يقاوم.

فكانت وسيلة من وسائل المقاومة ضد الدعوة الجديدة التي تهدد مراكزهم الاجتماعية ومصالحهم الاقتصادية وتحررهم من الأوهام والخرافات الاعتقادية التي تقوم عليها تلك المراكز وهذه الأوضاع.

الفصل الرابع

أدلة إثبات البعث

ثم انتقل إعراض قريش عن الدعوة التي تركز على توحيد الله سبحانه وتعالى، وأنه لا شريك له في ألوهيته وربوبيته، وإثبات البعث، وهما من أهم ركائز العقيدة التي جاء بها القرآن الكريم، وكلتاهما مرفوضة من قبل المشركين: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: الآية ٥]. وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝٦٧﴾ [مريم: الآيتان ٦٦،٦٧]. وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس: الآيتان ٧٨ - ٧٩] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ۝٣٤ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ۝٣٥ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٦﴾ [الدخان: الآيات ٣٤-٣٦]. ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٢٤﴾ [الجاثية: الآية ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ﴾ [الحج: الآية ٥]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ

ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الجاثية: الآيتان ٢٥، ٢٦]. وقوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن: الآية ٧] ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: الآيات ٤٥-٥٠]. والمشركون يبنون حياتهم أن لا جزاء بعد الموت، وهذا هو الحنث العظيم الذي عناه القرآن الكريم: ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: الآيات ٤٧-٥٠] . . وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٤]. وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٩] .

والواقع أن القرآن الكريم بنى الإيمان الصحيح على الوحدانية النقية التي تجعل ما عدا الله ملكاً خالصاً له. والعرب لا ينكرون وجود الله، ولكن لا يعرفونه حق معرفته أنه أحد ـ صمد وهذا ما جعلهم يشركون به وينكرون البعث لأنهم لا يقدرون الله حق قدره فهم يعترفون له بخلق السموات والأرض وأنه المحيي والمميت، الخالق الرازق، ومع ذلك ينكرون وحدانيته كما ينكرون البعث بعد الموت.

إلزام من ينكر البعث بأن ينكر النشأة الأولى:

فالقرآن ساق الأدلة والبراهين على الوحدانية، بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت ـ وأنه لو كان معه آلهة ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ [المؤمنون: الآية ٩١] أو ﴿لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٤٢]. وهذا مستحيل في حقه سبحانه وتعالى، وأما البعث فأكد أدلته من واقع النشأة على غير مثال سابق فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الروم: الآية ٢٧] . ويقول سبحانه: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الواقعة: الآية ٥٧] .

من ينكر أن الله لم يخلقه، فلا أحد حتى الآن لم يدع أنه خلق شيئاً. ففرعون وأمثاله من الطغاة الجبابرة الذين أضلهم العتو والبطر، والذين ادعوا الألوهية، لم يدع أحد منهم أنه خلق شيئاً، لأن المخلوق من صفته العجز، ولأنها كذبة مفضوحة فهو لا يعرف ما في نفسه، فكيف يعرف ما في غيره من مستلزمات حياته!!

ومن الأمثلة التي ساقها القرآن في حقيقة الخالق المبدع وحقيقة الانفراد بالرزق والإحياء والإماتة ـ هو أنه منشىء هذه الخلائق الهائلة، وهذا الكون الفسيح الذي نرى

بعضه، والبعض الآخر لا نراه ولا نعرف عنه شيئاً: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩﴾ [الحَاقَّة: الآيتان ٣٨، ٣٩] . ليربط بينهما وبين العقول والقلوب بمشاهدة هذا الكون لينبّه الحس الخامد والذهن المتحجر البليد والقلب المغلق إلى بدائع صنع الله المبثوثة حول الإنسان في كل مكان والذي يعرض فيه القرآن دلائل الإيمان، ويتخذ من مشاهده المعروضة للبصائر والأبصار أدلته وبراهينه بأسلوب منطقي لا يمكن أن تنكره العقول، أو تحاول فيه آخذاً ببساطة وسهولة الأدلة لأنه يقع بين أيديهم في كل حين، وهو من البديهيات المألوفة في حياتهم اليومية ليقرب إليهم ذلك لأنه دليل واقعي ملموس، لا سبيل إلى المكابرة في إنكاره، ولأنه من جانب آخر يهز القلوب فتستيقظ ويلمس المشاعر لمساً موحياً حين تتجه إلى تأمله.

وهو بذلك يخاطب الفطرة البشرية، ليجعل من مألوف حياتها وحوادثها المتكررة قضايا كونية كبرى، يكشف فيها عن النواميس الإلهية في الوجود، مستهدفاً بناء عقيدة شاملة وتصوراً كاملاً لهذا الوجود كما يجعل منها منهجاً للنظر والتفكير ويقظة للمشاعر والحواس، وهو مع ذلك لا يكلفهم أن يبحثوا عن الخوارق والمعجزات والآيات والدلائل بعيداً عن أنفسهم، بل برهان ذلك من مألوف حياتهم: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذّاريَات: الآية ٢١] إنه لا يوغلهم في فلسفات معقدة أو مشكلات عقلية عويصة أو تجارب علمية لا يملكها كل أحد لكي ينشئ في نفوسهم عقيدة وتصوراً للكون والحياة قائماً على هذه العقيدة، ليريهم قدرة الله في أنفسهم وفي ظواهر الكون من حولهم كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [فُصّلَت: الآية ٥٣] .

وهذه المعجزات الكامنة في أنفسهم والمبثوثة في الكون من حولهم، والتي يرونها ولا يرون حقيقة الإعجاز فيها لأنهم لطول إلفتهم لها غفلوا عن مواضع الإعجاز فيها. ولو تفكروا فيها لاطلعوا على السر الهائل المكنون فيها، سر القدرة المبدعة الذي يعمل في كيانهم هم، كما يعمل في الكون من حولهم والذي يحمل دلائل الإيمان وبراهين العقيدة التي تنطق بألوهية وربوبية رب واحد لا إله إلاّ هو سبحانه عما يشركون.

بحث (آلله خير أما يشركون):

فالقرآن بهذه الآيات يتخذ من أبسط المشاهدات المألوفة للبشر مادة بناء أضخم برهان لإتيان العقيدة من خلال اختصاصه بخلق المخلوقات، وما قدر لها من معايش وآجال. وهذه المشاهدات لا تحصى ولا تعد، وجاءت في القرآن متكررة بأسلوب بديع تهز القلوب هزاً، وترجها رجاً، لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ٥٩ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ

بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٦٥﴾ [النمل: الآيات ٥٩ - ٦٥].

ويتولى عرض هذه المشاهد في صفحة الكون وفي أطوار النفس البشرية فلا يملكون إنكار وجودها ولا يملكون تعليلها بغير التسليم بوجود الخالق الواحد المدبر القدير في إيقاعات مؤثرة تأخذ عليهم أقطار الحجة وأقطار المشاعر وهو يسألهم أسئلة متلاحقة. من خلق السماوات والأرض؟ من أنزل من السماء ماء فأنبت به حدائق ذات بهجة؟ من جعل الأرض قراراً؟ وجعل خلالها أنهاراً؟ وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء؟ من يجعلكم خلفاء الأرض؟ من يهديكم في ظلمات البر والبحر؟ من يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته؟ من يبدأ الخلق ثم يعيده؟ من يرزقكم من السماء والأرض؟ وفي كل مرة يقرعهم (أإله مع الله) وهم لا يملكون أن يدعوا هذه الدعوى، لا يملكون أن يقولوا إن إلهاً مع الله يفعل من هذا كله شيئاً.

ولم يكن أحد من المشركين يزعم أن الكون قائم بنفسه مخلوق بذاته، فكان مجرد الذكر بوجود هذا الحشد من مخلوقات الله جديراً بالتوجه إلى التفكير فيمن خلقها كفيلاً بإلزام الحجة ودحض الشرك وإفحام المشركين.

وما يزال هذا السؤال قائماً، فإن خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة ونبات وجماد على هذا النحو الذي يبدو فيه القصد ويتضح فيه التدبر، ويظهر فيه التناسق المطلق الذي لا يمكن أن يكون فلتة ولا مصادفة، ملجىء بذاته إلى الإقرار بوجود الخالق الواحد الذي لا تصادم ولا تضاد في خلقه والذي تنضح وحدانيته من خلال آثاره في خلقه سبحانه وتعالى عما يشركون.

وهذا الكون ناطق بأنه صادر عن إرادة واحدة غير متعددة... إرادة قاصدة لا يفوتها القصد في الكبر ولا في الصغر ـ تصميماً واحداً متناسقاً لا تعدد في اتجاهاته. والمشركون مع اعترافهم بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت ـ فهم مع هذا يعبدون أرباباً من دونه ولذلك بدأهم بالسؤال الذي لا يحتمل إلاّ إجابة واحدة. آلله خير أما يشركون؟!! وهم يشركون أصناماً وأوثاناً وجنًا وإنساً والكل خلق من خلق الله على أية

حال، لا يرتضي أن يكون شبيهاً بالله سبحانه وتعالى فضلاً أن يكون خيراً منه، ولا يخطر على قلب عاقل أن يعقد مقارنة أو موازنة، ومن ثم يبدو هذا السؤال بهذه الصيغة وكأنه تهكم محض وتوبيخ، لأنه غير قابل أن يوجه أساساً أو أن يطلب عنه جواب، ولا مجال لمثل هذا الإدعاء، ولا مفر من الإقرار والإذعان للخالق الرازق المحيي المميت، فعندئذ يبدو موقف المشركين عجيب وهم يسوون آلهتهم المدعاة بالله، فيعبدونها من دون الله وهو قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النَّمل: الآية ٦٠] . ويعدلون إما أن يكون معناها يسوون. . . أي يسوون آلهتهم بالله، وإما أن يكون معناها يحيدون عن الحق الواضح المبين بإشراك أحد مع الله في العبادة وهو حده الخالق الذي لم يشاركه أحد في الخلق وكلا الأمرين وضع للشيء في غير محله.

والله سبحانه وتعالى أخبر عن حال الذين يسوونه سبحانه وتعالى بالمشركين يوم القيامة ـ عندما تبرز لهم نار جهنم ويقال لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله ـ فيقولون لخصومهم: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات ٩٧-٩٩] .

البراهين الناطقة بقدرة الخالق على إنشاء خلقه:

ومن الأدلة والبراهين التي يعرضها القرآن بأسلوب منطقي لا تنكره العقول والتي أشرنا إليها سابقاً وهي من البديهيات المألوفة التي لا جدال فيها لواقعها الملموس وهي تدخل تحت حس كل إنسان ويتعامل معها في حياته اليومية عشرات المرات قضايا (النسل ـ والماء ـ والزرع ـ والنار ـ والموت) فأي إنسان على ظهر هذه الأرض لا بد أن تكون هذه العناصر المشاهدة قد دخلت تحت حسه وتعامل معها.

المشهد الأول:

في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الواقِعَة: الآيتان ٥٨ ـ ٥٩] . إنها أسئلة تعجيزية تبكيتية، تعالج إنكار المشركين لقضية البعث بأساليب متنوعة، تبدأ بأمر النشأة الأولى ونهايتها أمر الخلق وأمر الموت، إنه أمر منظور ومألوف وواقع في حياة الناس، إن دور المخلوق في أمر هذا الخلق لا يزيد أن يودع الرجل ما يمنى في رحم المرأة بشهوة، من الذي خلق تلك الغريزة وبعد إيداع المني في الرحم ينقطع عمل الرجل وعمل المرأة. وتأخذ يد القدرة في العمل وحدها في هذا الماء المهين تعمل وحدها في خلقه وتنسيقه وبناء هيكله: ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦] . ظلمة المشيمة وظلمة الرحم وظلمة البطن، والمرأة التي يقع فيها ذلك

الخلق لا تحس العمليات الجارية وهي لاهية، إما راقصة وإما نائمة وإما تسير في شؤونها لا تعلم شيئاً عما يجري في أحشائها.

وكما بيّنا سابقاً فإن هذه الآيات نسوقها، لإثبات وحدانية الله سبحانه وتعالى من خلال مشاهدة الظواهر الكونية التي خلقها الله والتي يوجه عباده إليها سبحانه وتعالى إلى التأمل فيها ليدرك ما تقع عليه أعينهم، وما تلتقطه أسماعهم، وما تلمسه حواسهم ليتخذوا من ذلك مادة للتدبر والتفكر ليأخذوا من تلك المشاهد في حياتهم دليلاً على البعث والنشور.

ومن ذلك يضرب الأمثال للناس في خلقهم إن كانوا يشكون في إعادة الحياة بعد الموت، ليتدبروا كيف نشأت الحياة، ولينظروا في أنفسهم وفي الأرض من حولهم، حيث تنطق لهم الدلالة بأن الأمر مألوف، ولكنهم هم الذين يمرون على الدلائل في أنفسهم وفي الأرض غافلين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥﴾ [الحجّ: الآية ٥].

والإشارة إلى النشأة الأولى للإنسان من التراب تتردد كثيراً في القرآن. وكذلك إشارته إلى أول مراحل الحمل (النطفة) والتراب عنصر لا تظهر فيه الحياة بينما النطفة تظهر فيها الحياة.

والمعجزة الأولى هي معجزة هذه الحياة التي لا يعلم أحد كيف جاءت، ولا كيف تلبست بالعنصر الأول الذي هو التراب، ولا يزال هذا سراً مغلقاً عن البشر وهو حقيقة قائمة مشهودة. ودلالتها على الخالق المحيي القدير دلالة لا يمكن دفعها ولا المماحكة فيها.

وهذه النقلة من غير العنصر الذي لا تظهر فيه الحياة إلى العنصر الحي الذي تظهر فيه الحياة، هي نقلة بعيدة حيث تمثل مرحلة الخلية الواحدة إلى الخلقة الكاملة السوية للجنين حين يتميز الذكر من الأنثى. ثم تتابع هذه الخلايا حتى تصير أزواجاً، قادرة على إعادة النشأة بنطف جديدة تسير في ذات المراحل دون انحراف. إن هذا عجب لا ينقضي منه العجب، ثم يأتي بعد ذلك سر تحول النطفة إلى علقة وتحول العلقة إلى مضغة وتحول المضغة إلى إنسان!!.

فمن يتصور أو يصدق أن ذلك كله كامن في النطفة الصغيرة العالقة بجدار الرحم، بقدرة القادر وبالقوة المودعة بها من لدنه سبحانه وتعالى، والتي تكمن فيها خصائص الإنسان المقبل، صفاته الجسدية، وسماته من طول وقصر وضخامة وضآلة وقبح ووسامة وآفة وصحة، كما تكمن صفاته العصبية والعقلية والنفسية من ميول ونزعات وطباع واتجاهات وانحرافات واستبدادات. إن هذه النطفة وهي العلقة الصغيرة التي يتكون منها ذلك الإنسان المعقد التركيب، الذي كل فرد فيه يختلف عن الآخر فلا يتماثل إثنان في الأرض في جميع الأزمان كما يقول أهل العلم البيولوجي.

والمني يأخذ مادته من الدم، والدم يجيء من الغذاء، والغذاء يجيء من الطين، والطين هو أصل الإنسان، والله سبحانه وتعالى هو الخالق لهذه العناصر وهذه الأطوار: ﴿الَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧﴾ [السَّجدَة: الآية ٧] . وما من عنصر في جسم الإنسان إلاّ له نظيره في عناصر أمه الأرض والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ [فصلت: الآية ٤٧] .

والنص يتجاوز إناث الإنسان إلى إناث الحيوانات والطيور والأسماك والزواحف والحشرات، وسواهما مما نعلمه ومما لا نعلمه، وكلها تحمل وتضع حتى ما يبيض منها.

فالبيضة حمل من نوع خاص، جنين لا يتم نموه في داخل جسم الأم بل ينزل بيضة ثم يتابع نموه خارج جسم الأم بحضانتها هي أو بحضانة اصطناعية، حتى يصبح جنيناً كاملاً، ثم يفقس ويتابع نموه العادي.

يقول العلامة الشيخ المختار بن بونا الشنقيطي في وسيلة السعادة:

وربما وقع أمر مدرك ... من أمره وكنهه لا يدرك

أما ترى النمو في الشخص وقع ... ولا يرى متى ولا كيف وقع

من الصبوة إلى أن بلغا ... كالنقص بعد ما الأشد بلغا

سبحان من صنعته دقيقة ... ولا يرى لكيفها حقيقة

والشيخ فاته نمو الحيوان ونمو النبات وحتى نمو الشعر الذي يتجدد، والأظفار، ونبت الأسنان[1] ولا يحس بحركتها في جسمه وفيما حوله. صنع الله الذي اتقن كل شيء والأرض هي أم البشر: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ۝٢٤﴾ [الأعراف: الآية ٢٤]. وقال تعالى: ﴿فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٥]. وقال تعالى: ﴿۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ

(١) وهذه فاتت الشيخ لتأخر اكتشافها عن وفاته.

تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: الآية ٥٥]. وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح: الآيتان ١٧ ـ ١٨]. وهذا القدر من التأمل لو يدركه كل إنسان يكفي لتقدير هذه المعجزة والتأثر بها لو وعاها المتدبر.

المشهد الثاني:

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الواقِعَة: الآيات ٦٣ - ٦٥] . ومرة أخرى في بساطة ويسر يأخذهم بأمر مألوف لهم متكرر في مشاهداتهم، ليريهم يد الله فيه، ويطلعهم على المعجزة التي تقع بين أيديهم وعلى مرأى من عيونهم وهم عنها غافلون، هذا الزرع الذي ينبت بين أيديهم وينمو ويأتي ثماره، ما دورهم فيه؟ إنهم يحرثون وهو قلب باطن الأرض ووضع الحب والبذور التي خلقها الله، ثم ينتهي دورهم، وتأخذ القدرة في عملها المعجز الخارق العجيب.

وكما قلنا: فإن الغرض من سياق هذه الآيات هو إثبات النشأة ونهايتها وإعادتها مرة أخرى لإثبات الموت والحياة. إن الفلاّح يضع حبة واحدة في الطين فتخرج له ألف حبة من حول الحمأة الكريهة الطعم والرائحة إلى قمح أو أرز أو ذرة يستحلي طعمها ورائحتها من حول المخلفات العضوية، إلى قصب سكر وإلى أزهار وورود ترف عليه ألوان الطيف، وتفوح منها أنواع العطور.

ألا يستدعي التأمل أن في قطعة واحدة من الأرض شجرة عنب وشجرة ليمون وشجرة حنظل وشجرة تفاح تسقى بماء واحد ويختلف الجني والمذاق واللون والأثر!!؟

ألا يستدعي في التأمل أن ترى الدودة تأكل من ورقة شجرة التوت فتصنع حريراً؟ وتأكل منه النحلة فتصنع عسلاً وتأكل منه الشاة فتحلب لبناً؟

المشهد الثالث:

من مشاهد هذا الكون الكبير الذي يمر به الإنسان ويتعامل معه كل يوم ولا يتدبر الإعجاز فيه لأنه ألفه في حياته دون أن يفكر في ماهيته: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقِعَة: الآيات ٦٨ ـ ٧٠] هذا الماء النازل من السماء حقيقة مشهودة يستحيل إنكارها، ويتعذر تعليلها بغير الإقرار بخالق مدبر ينزل المطر بهذا القدر الذي هو وفق حاجة العباد والبلاد، وبهذا التقدير المضبوط، والقرآن يوجه القلوب والأبصار إلى الآثار التي تنتج عن هذا الماء. إن الماء النازل من السماء هو مادة الحياة للإنسان والحيوان والنبات، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ [الفُرقان: الآيتان ٤٨، ٤٩]. فما دور الإنسان في هذه الظاهرة الكونية؟ أليس له

أي دور سوى الانتفاع بذلك الماء الضروري لحياته؟ ومع ذلك لا يذكر من أنزل الماء ولا يشكره عليه بل يكفر به ويجحد فضله عليه وينسب إنزال الماء إلى كوكب كذا أو للطبيعة كما يقول البعض.

المشهد الرابع:

مشهد آخر يتعامل معه الإنسان يومياً ولا يعرف مصدره، ولا من أي شيء خلق ألا وهو النار: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الواقِعَة: الآيات ٧١ ـ ٧٣].

هذا الخطاب يتوجه للإنسان ليتعرف من خلال الأدلة الكونية المتنوعة التي سخرها الله سبحانه وتعالى للإنسان على النشأة الأولى ليأخذ منها درساً على أن البعث حق.

من الذي أنشأ الشجر الذي توقد به النار؟ من الذي أودع فيها وفي غيرها هذه الخاصية؟ من الذي جعل في زناد الحديد إذا احتك بأنواع من الصخور جعله يتطاير منه شرر؟ من جعله من معدن الكبريت؟ من الذي أنشأ وقود البترول وجعله مادة احتراق هائلة مكتنزة في باطن الأرض؟ من جعل الكهرباء تتولد من قطع المجال المغناطيسي وهي طاقة هائلة لا تدرك إلاّ آثارها؟ من خلق الطاقة الذرية التي تتولد منها الكهرباء وتنطلق منها الإشعاعات المهلكة إذا استخدمت استخداماً سيئاً؟

إن القصد من حشد هذه الظواهر الكونية التي نتعامل معها يومياً في حياتنا، وهي من مخلوقات الله التي سخرها لعباده وجعلها متاعاً لهم في حلهم وترحالهم، ليذكروا من أوجد لهم هذه الأشياء اللازمة لهم في حياتهم.

والقرآن يسوق تلك الآيات الناطقة بدلائل الإيمان التي تنبه الغافل إلى حقيقة وجود الله وعظمته وربوبيته وهي حقائق تواجه الفطرة مواجهة ذات قوة وسلطان.

إن التأمل في هذه الظواهر التي عرضها القرآن بأسلوب منطقي قريب من إدراك كل إنسان لفيه من الموعظة والتفكر ما يجعل المخلوق يقر بخالقه ورازقه ومحييه ومميته سبحانه وتعالى.

المشهد الخامس:

ثم يأتي بعد تلك المشاهد، مشهد آخر من نوع آخر وهو مشهد الموت بعد الحياة الأولى، والقرآن يرد على المشركين الذين يبنون حياتهم على أن لا بعث بعد الموت: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ

﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقِعَة: الآيات ٨١ - ٨٧] . إذا كنتم شاكون في الآخرة ومكذبون بالقرآن وما يقصّه عليكم في شأن النشأة الآخرة، وما يقرره لكم في أمر العقيدة، وإذا كان التكذيب هو رزقكم الذي تحصلون عليه في حياتكم وتدّخرونه لآخرتكم، فما هو شعوركم وفعلكم إذا بلغت الروح الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون؟ إنه لون من التحدي تعجز عنه الخلائق. - هل يستطيع البشر مهما سند بعضه بعضا أن يدفعوا الموت عن أحدهم - إنه تعبير مجلل لرهبة الموقف ويصور ما فيه من عجز ورهبة وانقطاع الآمال.

فهم يتظرون حيارى، ولا يملكون من الأمر شيئاً، إنه شيء لا يصدق، فلو كان الأمر كما تقولون أنه لا حساب ولا جزاء بعد الموت، فأنتم إذاً طلقاء غير مدينين ولا محاسبين... فدونكم إذاً فلتردوها عما هي ذاهبة إليه، هنا تقف قدرة البشر، وهناك تنفرد القدرة الإلّهية، ويبقى الأمر كله لله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقِعَة: الآية ٨٥] . ولا جواب بعد ذلك.

وفي القرآن صور مشاهد مماثلة كثيرة، يعرض فيها مشاهد مشابهة لما أسلفنا بأسلوب بديع تثير في النفس رعشة الخوف وروعة الإعجاب، ورجفة الصحوة من الغفلة على الأمر المهول الرهيب الذي ينتظر الإنسان. صورة للحياة وصور لحقائق الكون متجلية في السماء والأرض، وفي الماء والنبات والنار وفي الثمرات،وصور للموت وصور لبلى الأجسام في الأرض وصور للبعث والنشور، وصور للحشر، وصور للحساب، وصور للجنة والنار.

وهذه طريقة القرآن في الجدل عن العقيدة يستخدم مشاهد الكون وحقائق النفس فيجعل الكون كله إطاراً للمنطق الذي يأخذ به القلوب ويوقظ به النظرة ويجلوها لتحكم منطقها الواضح، وتستجيش به المشاعر والوجدانات بما هو مركوز فيها من الحقائق التي تفشيها الغفلة والنسيان ويحجبها الجحود والنكران. ويصل بهذا المنطق إلى تقرير الحقائق العميقة الثابتة في تصميم الكون وأغوار النفس.

الفصل الخامس

مناقشة الموانع والأعذار التي يحجب بها الملأ من قريش عن قبول الدعوة

لقد كان الملأ من قريش يعرفون طبيعة هذه الدعوة - يعرفون أن شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله معناه الإقرار والتسليم بألوهية الله وحده وحاكميته - ثم التلقي في هذه العبودية لله عن محمد رسول الله ﷺ، وكانوا يرون الذين يشهدون هذه

الشهادة أنهم يخرجون على سلطان قريش وقيادتها وحاكميتها وينضمون إلى المسلمين الذين آمنوا بمحمد ﷺ وينتزعون ولاءهم للأسرة والعشيرة والقبيلة والمشيخة والقيادة الجاهلية.

كان هذا كله هو مدلول شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ـ وكان هذا واقعاً يشهده الملأ من قريش ويحسون خطره على كيانهم.

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي ـ حليف بني زهرة ـ خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فتلاوموا ـ وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفوسهم شيئاً ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق. فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألاّ نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق، أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد، فقال: يا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأَعرف ما يراد بها وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها.

قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به كذلك، قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه في بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبني عبد مناف الشريف: أطعموا فأطعمنا وحملوا وحملنا وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن أبداً ولا نصدقه. فقام عنه الأخنس وتركه. فهذا هو الحسد، الذي أقعد أبا جهل عن الاعتراف بالحق الذي غالب نفسه عليه فغلبته ثلاث ليال، هو الحسد أن يكون محمد ﷺ قد بلغ إلى ما لا مطمع فيه لطامع وهو السر من قوله أبي جهل كما في قوله تعالى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: الآية ٨].
وهذا الحسد هو الذي أقعد رؤساء الشرك في قريش، وأعرضوا عن الدخول في الإسلام بحجة أنهم لا يستطيعون ترك دين آبائهم وأجدادهم، ويدخلون في دين الإسلام

ووصف الله حالهم بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المَائدة: الآية ١٠٤]. وقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الزّخرُف: الآية ٢٤] . وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٠].

والرسول ﷺ نبّه كفار قريش إلى أن آلهتهم التي يعكفون على عبادتها لا تنفع ولا تضر، وأن توارث آبائهم وأجدادهم على عبادتها ليس عذراً في اتباعهم بدون دافع إلاّ دافع التقليد إنها مجرد المحاكاة ومحض التقليد دون تدبر ولا تفكر ولا حجة ولا دليل، إنهم ألفوا آباءهم ضالين، فهم على آثارهم يهرعون والقرآن يأخذ عليهم إحالة أعذارهم على آبائهم وأجدادهم بدون أن يحكّموا عقولهم فيما عرض عليهم من أمر التكليف، لأن القرآن جعل التكليف منوطاً بالعقل، ولذلك أشاد بالعقل وعوَّل عليه في أمر العقيدة وأمر التبعة والتكليف.

والله الذي خلق الإنسان وجعله عاقلاً خاطبه على أساس أنه يميز بين البدائل بافعل أو لا تفعل. وذلك هو موجب التكليف وهو الذي يعصم صاحبه من الزلل ويدرك به الحقائق ويميز به الأضداد ويتبصر به الأمور.

تعطيلهم وسائل الإدراك عن قبول الحق:

فإذا كان الإنسان يتسلط على عقله ويعطله بمؤثر مثل السكر أو الجمود والعنت والضلال، وذلك بحكم العادة أو العرف أو عبادة السلف مرضاة لمخلوق مثله، ولو كان هذا المخلوق جمهرة من الخلق ليمنع عقله أن يتبصر أو ينظر فيما يعصمه من الخطأ في جانب أمر خالقه سبحانه وتعالى ـ فإن هذا الإنسان حجر على عقله، وعطل وسائل الإدراك التي زوده الله بها، وسد باب الفهم. يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٧٩] .

وهو بهذا العمل لا يعذر لأنه عطل عقله الذي وهبه الله ـ كما يعذر المجنون لأن السكر والجمود والعنت والضلال غير مسقطة للتكليف، ولا تدفع الملامة ولا تمنع التقصير، ومعلوم أن عبادة السلف والعرف في الجاهلية بلغا ما بلغا في المهابة والرعاية وتسخير النفوس لحكمها بما تفرضه عليها من العادات، رغم ما في ذلك من استبداد

وقهر للعقل بعدم إعطائه حق الاختيار بين البديلات.

وما أنا إلاّ من غزية إن غوت غويت   وإن ترشد غزية أرشدي

وإن القرآن ليأبى على المرء أن يحي أعذاره على آبائه وأجداده، كما يأبى له أن تحال عليه الذنوب والخطايا من أولئك الآباء والأجداد، وأنه لينعى على الذين يستمعون الخطاب أن يعفوا أنفسهم من مؤنة العقل، لأنهم ورثوا من آبائهم وأجدادهم عقيدة لا عقل فيها.

ولو أحصينا ما في القرآن من التأنيب والذم للذين لا يتدبرون ولا يعقلون ولا يتفكرون. وما يقع في معنى هذه العبارات والكلمات الذهنية التي تتفق أحياناً في المدلول الواحد، لوجدناها لا تحصى مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي﴾ إلى قوله تعالى ﴿بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٤]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٨٠]. وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرُّوم: الآية ٢٨]. وقوله تعالى: ﴿أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبيَاء: الآية ٦٧]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٩]. واللب هو مركز العقل. وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المَائدة: الآية ١٠٠]. وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٩]. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩١]. وقوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعَام: الآية ٦٥]. وقوله تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يُونس: الآية ١٠١]. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٨٥]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: الآية ٤٤].

والقرآن الكريم يلح في طلب النظر واستقصاء الفكر في هذا الوجود حتى يقف المخاطب على حقيقة ما يدعي إليه، والقرآن ربط العمل بالجزاء أي أن كل فرد مُجْزيٌّ بعمله، ولا يؤاخذه بكسب غيره ففردية التبعة حقيقة، والجزاء الفردي الذي لا يغني فيه أحد عن أحد شيئاً لازم: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [النور: الآية ٧٠].

فالله سبحانه وتعالى لا يحاسب الناس جملة بالقائمة، إنما يحاسبهم فرداً فرداً، كل

على عمله وفي حدود واجبه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فاطر: الآية ١٨]. وقوله تعالى: ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [النحل: الآية ١١١].

إندراس الدين في أمة الإسلام في عصورهم الأخيرة:

والمسلمون في عصورهم الأخيرة سرت فيهم لوثة التخلف والانحراف والتعلق بالخرافات، لما بعدوا عن نور القرآن، واندراس الدين الحقيقي، وشاع في سلوكهم مظاهر الوثنية، وأصبحوا أقرب في تصوراتهم إلى مشابهة الشرك في تقديس الأولياء وخدمتهم واللجوء إليهم في طلب الخوارق وكشف الضر والمصائب والكربات التي لا يقدر على تحصيلها أو كشفها إلاّ الله وهي من خصائص الألوهية.

ومن أسباب ذلك إعراضهم عن كتاب الله، وتفهم معانيه والعمل بأحكامه، والاكتفاء عنه بفقه المذاهب المدونة، وتوقف الاجتهاد والجهاد وكان من نتيجة ذلك ما حل بالمسلمين من التخلف والانحطاط، وما نشأ عن ذلك من التردي في الأخلاق والاختلاف وتشتيت الأهواء، حتى ضعف الدين. وحلّ محل العلم الصحيح المبني على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ـ الترهات والدجل والخرافات ـ وسرق أهل الأهواء طباع الرهبانية عند النصارى والمجوس والبوذيين وأصبحت هي السائدة، واسترقوا بها الدهماء من الناس، وأخضعوهم لإرادتهم، وخدعوهم بأوهام كاذبة وضلالات مزيفة، بأن طريقتهم هي الطريقة الوحيدة الموصلة إلى الجنة!! حتى إنك تجد في تعريفاتهم في الكلام على آداب مريديهم قولهم: (إن المريد لا ينبغي له أن ينكر على شيخه بقلبه ولو يراه يخالف ظاهر الشرع ويرتكب الموبقات لئلا يحبط عمله!!!. وهم بذلك يعطون العصمة لأوليائهم وأشياخهم.

وهذه المسائل تتنافى مع خصائص توحيد الألوهية وهي القضية التي ظل القرآن المكي ينزل بشأنها ثلاث عشر سنة على الرسول ﷺ من أجل تقريرها.

وكانت هي مدار الخلاف بين قريش - ورسول الله ﷺ حيث يقرون بتوحيد الربوبية، ويعترفون بأن الله هو الخالق، الرازق، المحيي، المميت ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ﴾ [الرعد: الآية ١٦].

وأما توحيد الإلوهية ينفونه، ويقولون ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: الآية ٥].

وتوحيد الألوهية أنك تكفر بكل معبود ما سوى الله.

كما قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٦].

والله سبحانه وتعالى لما أراد أن يقيم الحجة على قريش أمر رسول الله ﷺ أن يسأل قريشاً من رب السماوات والأرض ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ﴾ [الرعد: الآية ١٦] (قالوا الله) ليحدد موقفهم من توحيد الربوبية للّه - الذي هم يقرون به - فإن أقروا بأن الله هو الرب وحده الذي خلق السماوات والأرض فينتقل إلى نقطة الخلاف وهي نقطة توحيد الألوهية ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ﴾ [الرعد: الآية ١٦] وذلك ينقلهم من حقيقة يقرون بها إلى حقيقة أخرى لازمة لها لزوماً عقلياً لا يمكن إنكاره.

لأن من تفرد بأنه هو الرب أي الخالق المنعم القادر على كل شيء، والذي بيده النفع والضر والحياة والموت وكل ما عداه مخلوق له فهو المستحق للعبادة ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ [الرعد: الآية ١٤] كما قال تعالى وضرب سبحانه لذلك مثلاً أن حالة الذي يدعو من دون الله كحالة الذي اشتد به العطش وهو باسط كفيه إلى الماء من بعيد راجياً أن الماء يسعفه ويبلغ فاه دون أن يتخذ الوسيلة التي تحقق له ذلك ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ [الرعد: الآية ١٤] وهذا المثل لإرساء القاعدة التي يقوم عليها بناء العقيدة السليمة والتي تتمحض فيها الوحدانية بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) وتخلص العبادة من شوائب الشرك مثل قوله تعالى: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾ [الحج: الآيتان ١٢، ١٣] والمولى والعشير يخصان الإنسان دون الأوثان أو الشياطين كما يقول المفسرون. وهذا متكرر في القرآن ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٣٨﴾ [الزمر: آية ٣٨].

والذي يتدبر القرآن - يجد فيه التوجيهات والتحذيرات والأوامر المتتابعة لرسول الله ﷺ المتمثلة في قل - قل - قل وهي كلها للتحذير من الشرك - وما يتلبس به ومثال ذلك:

١ - قال أغير الله اتخذ ولياً - فاتخاذ الأولياء من دون الله شرك.

٢ - قل أغير الله أبغي رباً - اتخاذ الأرباب من دون الله كفر.

٣ - قل أغير الله ابتغي حكماً - اتخاذ من يحكم بغير ما أنزل الله مشرعاً كفر.

٤ ـ قل أني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله.

٥ ـ قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيء.

٦ ـ قل أي شيء أكبر شهادة.

٧ ـ قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى.

٨ ـ قل لا أشهد.

٩ ـ قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون.

١٠ ـ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سوء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله وأن لا نشرك به شيئاً.

١١ ـ قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً.

١٢ ـ قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً.

١٣ ـ قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً.

إلى غير ذلك وهذا الحشد من الأدلة نقصد منه تنقية عقائدنا من شوائب الشرك تنقية عقولنا من الخرافات والتقاليد السيئة، وتنقية مجتمعنا من عبودية العباد ونحصرها في عبودية الله خالقنا العزيز الجبار وهذا امتثال لقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف: الآية ٣].

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: الآية ٤٨].

ومن أمثلة تلك المزالق المتلفة أن يقول الشيخ لمريده أغمض عينيك واتبعني ولا تسألني عن شيء يستثيرك، ويبايعه المريد على هذا المبدأ ولو كان ذلك سوف يوقعه في النار والعياذ بالله!!. وهو بهذا الحال عطل وسائل الإدراك التي تجعله يميز بين الضار والنافع، وأصبح بهيمة تنقاد بخطام، وتجد الأتباع يستعينون ويستغيثون بأوليائهم وأشياخهم عند الفزع والكربات. كقوله تعالى: ﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

ومن أمثلة تلك المزالق التي أشرنا إليها ما هو واقع في عصرنا هذا لبعض طوائف المسلمين وهو يماثل ما وقع لقوم نوح، كما قص القرآن الكريم، أنه كان بينهم قوم

صالحون، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم، فلما طال عليهم الأمد عبدوهم كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: الآية ٢٣].

وهذا هو ما وقع في عصرنا هذا حيث وجدنا فئة من الناس يتعبدون بأسماء أولياء يزعمون أن من وفي عدداً من أسماء أولئك الأولياء صباحاً ومساءً ينجو من المصائب ومن جهنم. كما يقول صاحب نظمهم:

طيفور معروف أويس الجيلي ... أبو يعز والغزالي استعملي
ذكرهموا صبحاً ومساءً تسلمي ... من المصائب ومن جهنم

فهذا هو الضلال بعينه، فبدلاً أن تكون أذكارهم هي أسماء الله الحسنى (الله، الرحمن، السلام، المؤمن، المهيمن، الحي القيوم)، جعلوا أسماء مخلوقين: طيفور، معروف أويس إلخ.

إذاً ما هو الفرق بين عبادة قوم نوح لأوليائهم وداً وسواعاً، وبين عبادة هؤلاء القوم لأوليائهم، وعند مناقشتهم عن قصدهم، ومعتقدهم من التسبيح لأوليائهم بدلاً من الله سبحانه وتعالى. قالوا: لا نعتقد أن ذلك عبادة لغير الله، وإنما نفعله تقرباً إلى الله بأوليائه. لأن عند ذكر الصالحين تتنزل البركات.

وهذه حجة أهل الأهواء الذين يقلبون الحق باطلاً مثل أهل مسجد الضرار الذين قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [التوبة: الآية ١٠٧]. وكحجة أصحاب التحكيم وهم المنافقون الذين قال الله عنهم: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا أُو۟لَٰٓئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: الآيتان ٦٢، ٦٣].

فالقرآن الكريم ضرب أمثلة لأمثال هؤلاء الذين يقدسون أولياءهم بالتسبيح صباحاً ومساءً لينجّوهم من المصائب ومن جهنم على تقدير مصيرهم يوم القيامة الذي سيقع فيه هذا النوع من أصحاب الوثنية لأنه لم يعرف بين العرب في وثنيتهم الجاهلية أنهم كانوا يشركون آلهة من البشر.

فمحاورة القرآن لهؤلاء على أساس أنهم عقلاء. حيث يعبر عنهم بضمير العقل بالواو والنون وهذا يدل على أن هؤلاء تدحرجوا من قمة التوحيد إلى درك الوثنية بعد أن طال عليهم الأمد وبعدوا عن كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ والدليل القاطع تخاصمهم في

النار وهو ما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص: الآية ٦٤].

وقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الشعراء: الآيات ٩١ ـ ٩٩].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر: الآيتان ٤٧، ٤٨].

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: الآيتان ١٦٦، ١٦٧].

﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأعراف: الآية ٣٨].

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [يونس: الآية ٢٨].

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم: الآية ٢١].

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [النحل: الآيتان ٨٦، ٨٧].

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: الآيتان ٨١، ٨٢].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ: الآيات ٣١ ـ ٣٣].

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [سبأ: الآيتان ٤١، ٤٢].

﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: الآيات ٦٦ ـ ٦٨].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: الآيتان ١٣، ١٤].

﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ [غافر: الآيتان ٤٦، ٤٧].

﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: الآيتان ٥، ٦].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ﴾ [الأعراف: الآيتان ١٩٤ ـ ١٩٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: الآية ٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: الآية ١٨].

فالذي يقول: لا إله إلا الله، ويقر باليوم الآخر ويشرك مع الله غيره في العبادة، فهو كمن أنكر وجود الله وأنكر وجود اليوم الآخر، لأن الكافر إذا كفر بالله من وجه لا ينفعه الإيمان به من وجه آخر وخاصة أن عمل هؤلاء الذين يقدسون أولياءهم بالتسبيح والتعظيم فإن ذلك يناقض إقرارهم أمام ربهم كل يوم سبعة عشر مرة على أقل تقدير بأنهم لا يعبدون ولا يستعينون إلا بالله وهو ما جاء في فاتحة الكتاب ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: الآية ٥] أي لا نعبد إلا إياك ولا نستعين بغيرك.

والله سبحانه وتعالى حظر على من يريد لقاءه من عباده أن يأتيه متلبساً بشرك، فقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: الآية ١١٠].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: الآية ٨٢] فالظلم هنا فسره رسول الله ﷺ أنه الشرك.

والله سبحانه وتعالى حكى أن كثيراً من الناس لا يؤمنون به سبحانه وحده إلا ويضعون معه شريكاً، فقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: الآية ١٠٦].

فقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٦]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزُمَر: الآية ٤٥]. وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ﴾ [غافر: الآية ١٢]. فالله وحده عند أهل الأهواء غير مقبول إلا أن يشركوا معه أولياء وصالحين حتى يؤمنوا به.

وقد أشار القرآن إلى حالة هؤلاء بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعَام: الآية ٧١]. هذا استنكار الشرك والعودة إليه بعد الهدى ـ ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ـ فهو ارتداد على الأعقاب، ونكوص إلى الوراء بعد التقدم والارتقاء، وهو تحذير من دعوة غير الله أو دعوة معه أو من دونه أو تسليم المقاليد لهؤلاء الذين لا يملكون نفعاً ولا ضراً، سواء كان المدعوون أوثاناً أو إنساً أو جناً أو ملائكة. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٧٩] ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨٠]. وكما نزل في أهل الكتاب: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٦٤].

وأما من تعلّم كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ على أحد أو جماعة من علماء المسلمين على طريق السلف الصالح ورسموا له خط الصراط المستقيم الذي جاء في قوله تعالى:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعَام: الآية ١٥٣] ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعَام: الآية ١٥٣] . ودربوه على العمل بما علم، مبينين له الحلال والحرام، ومحذرين له من مواطن الخطر والشبهات، شارحين له ما ينجيه في دنياه وآخرته على ضوء كتاب الله وسنَّة رسوله، فهو في هذه الحالة رائد نفسه ويستطيع بعلمه واستبصاره أن يفرق بين الحق والباطل، وبين ما ينفع وما يضر، فالمنهج الشرعي واضح المعالم لما يحويه من لوحات إرشادية وإرشادات توضح الطريق المستقيم.

وخاصة أن الله سبحانه وتعالى ضمن لمن تمسك بهديه وهو كتابه وسنَّة رسوله ﷺ أن لا يخاف ولا يحزن، وأن لا يضل ولا يشقى، فقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٨] . وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: الآية ١٢٣] . وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعَام: الآية ٨٢] . وهذا ضمان من اللَّه: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبَة: الآية ١١١] . حقاً لا أحد.

والمؤمن العاقل لا يسمح لنفسه في أمور الاعتقاد أن يتتبع الأوهام والظنون الضعيفة فيجعلها في مراكز عقائده الثابتة الراسخة، ولا يجعلها أيضاً فريسة للتقليد الأعمى والضلالات الشائعة، أو فريسة لما تمليه الأهواء والشهوات من أفكار ومذاهب. أو فريسة لما يمليه القادة المضلون والشياطين الموسوسون من الإنس والجن.

روى الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إنها ستكون فتنة، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله. فيه نبأ ما قبلكم وخير ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسن ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم». خذها إليك يا أعور. وهذا نص صريح بأن من أراد الهدى في غير القرآن أضلّه الله. فماذا بعد الحق إلاّ الضلال!!

وأغرب من أولئك الذين كنا نتحدث عنهم قوم وجدناهم في بعض بلاد المسلمين وهم يعبدون الشيطان مباشرة ـ يقال لهم اليزيدون.

وهؤلاء يعتقدون في اليزيد بن معاوية ويغالون فيه كما أن عقيدتهم تقوم على تقدير الشيطان ويعادون من يلعنه.

وهم موجودون في شمال العراق في اقليم الأكراد ـ في سنجار، وشيخان ـ ولهم امتداد في حلب ـ وأرمينيا والقوقاز.

وتعود جذور اليزيدية الباطنية إلى القرن الثاني عشر الميلادي ويصل عددهم إلى (٧٠٠) سبعمائة ألف نسمة تقريباً.

ومؤسس هذه الطائفة هو الشيخ عدي بن مصطفى المولود بدمشق عام ١١٦٢ ميلادي.

وهذا من أعظم أدلة نبوة سيدنا محمد ﷺ الوارد في اختلاف هذه الأمة إلى ثلاثة وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهذه الطائفة لم ينهاهم قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: الآيتان ٦٠، ٦١] وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: الآية ٢٧] ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف: الآيتان ١٠٣ ـ ١٠٦].

فنعوذ بالله من طمس البصيرة.

كما سبق أن وضحت في مقدمة الكتاب بأني سوف أقوم بالرد على بعض الشبه التي أمر بها أثناء تأليف الكتاب ومنها موضوعنا التالي المتعلق بأصحاب الإلحاد الذين ظهروا في القرون الماضية في أوروبا.

تبنى كل من ديكارت وباكون، ومن والاهم من الملاحدة في القرون الأخيرة الماضية فكرة إنكار وجود الخالق ومدبر لهذا الكون الهائل الشامل سماواته وأراضيه، شمسه وقمره ـ نجومه وكواكبه ـ بحاره ومحيطاته ـ ليله ونهاره ـ نباته وحيوانه ـ وخلقه من إنس وجن، وطير، وأسماك، ودواب، وحشرات. إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله.

وقرروا بجهلهم وعماهم أن الكون ليس سوى مادة لا تعي ولا تفقه ولا تستطيع أن تقصد هدفاً أو ترسم خطة ـ بل تتصرف بضرورة ميكانيكية فقط.

وأن هذه المشاهد الهائلة كلها لا تغني شيئاً في الوصول إلى معرفة الله سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وإن بحث ذلك الأمر لا قيمة له - بل هو مفسد للعلم على حد قولهم[1].

ويقصرون إدراكهم ومعرفتهم على المحسوسات فقط وينفون ما وراء الحس من حقائق وخلائق وموجودات. فتأسست على ضوء ذلك الفلسفة الغربية الحديثة في مجملها على منطق أن العقل وفكر الإنسان هما المقياس وأن العقل أهلاً للحكم على الأشياء بحسب ما يتوصل إليه من بحوث ونظريات واكتشافات بدلالات الحفريات لتقدير أعمار الصخور وأعمار النجوم التي تعتمد عيها نظرية النشوء والإرتقاء.

وأن الأمور الغيبية لا مكان لها في مفهوم التعريفات والنظريات التي سموها (علمية) فأعطوا أولاً: العقل كل خصائص الله سبحانه وتعالى وصفاته.

ثم عدلوا عن ذلك. واختاروا كلمة (الطبيعة) فأعطوها تلك الخصائص والصفات، لأنه لم يكن لهم من مفر من فرض شيء فوق الطاقة البشرية يوكلون إليه تفسير هذا الوجود.

وقصدهم أن يعدلوا بذلك عن الله سبحانه وتعالى الذي خلقهم ورزقهم. المدبر المحي المميت - جل جلاله وهذا تصديقاً لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: الآية ٦٠] ويعدلون أي يسوّون آلهتهم أو العقل أو الطبيعة مساوتهم بالله سبحانه وتعالى ورغم كبر مقولتهم وفريتهم الضالة لم يقدموا دليلاً واحداً ولا مستنداً يقبله عقل واعي، ولم يصوغوا منطقاً جدلياً تقوم عليه فلسفتهم، وإنما هو استبداد - واستكبار وعتو في الضلال وطمس في البصيرة والعياذ بالله قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: الآية ١٧].

هذا مجمل فكرتهم.

فلو كان الذين جاءوا بهذه المقولة عقلاء ومفكرين على حد قولهم وعلمهم كما يزعمون لما قالوا هذه المقولة ولما نسخوا ما درجت عليه الإنسانية منذ بدء الخليقة ولكن

---

(١) فالله جل جلاله كما يقول أرسطو حرك العالم حركته الأولى ثم تركه يتحرك وحده دون تدبير مباشر منه - وهو لا يعلم ما يجري فيه من أحداث.

الطغيان والتمرد وهوى الضلال ـ وحب أن يأتوا بما لم تأت به الأوائل ـ وهو المثل القائل ـ خالف تعرف ـ ولكن هذه المخالفة ـ تخالف الفطرة التي لم يخرجوا هم عن سننها ـ لم يخلقوا شيئاً ولم يزيدوا شيئاً. ولم ينقصوا شيئاً في خلق الله الذي نكروا وجوده لا في أنفسهم ولا في آيات الله الكونية المبثوثة حولهم حتى لم يدرؤوا عن أنفسهم الموت الذي حل بهم والشيطان الذي لا يعترفون بوجوده لأنه ليس من المحسوسات التي هي حد إدراكهم والذي قادهم إلى هذه المقولة لم ينكر وجود الله سبحانه وتعالى ولا أنه هو الخالق فالشيطان يدعو الله ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٦] ويعترف بخلق الله له وخلق البشر فيقول ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٢].

ولا يوجد أحد منذ نشأت البشرية أنه أنزل من السماء ماء ولا أنبت نباتاً ـ ولا أنه خلق نفسه أو خلق السموات والأرض وما بينهما ـ ولا أن هذا الكون قائم بنفسه مخلوق بذاته قبل هذه الفئة الضالة.

قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ [عبس: الآيات ١٧ ـ ١٩] أي ما أشد كفره وجحوده ـ ونكرانه ـ لمقتضيات نشأته وخلقته.

فالله سبحانه وتعالى رد على هذه الفئة الضالة وأمثالهم منذ خمسة عشر قرناً منذ أنزل القرآن الكريم على رسوله ﷺ وعلى غيرهم من المتنطعين المكابرين مبيناً لهم أولوهيته ووحدانيته في خلقه لهم ـ وأنه هو الخالق الرازق المدبر المحيي المميت موضحاً ذلك في نشأة الحياة سواء في الإنسان أو الحيوان أو النبات قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنعام: ٩٥].

أنها معجزة لا يدري سرها أحد ـ معجزة الحياة نشأة وحركة ولا يحسها أحد.

تنفلق الحبة الجامدة الساكنة عن نبتة نامية، وتنفلق النواة الهامدة عن نخلة، أو شجرة باسقة ـ والحياة الكامنة في الحبة والنواة ـ سر مكنون لا يعلم حقيقته إلا الله.

فخروج فرخ الطير من البيضة، والبيضة من الفرخ إلى آخر هذه المشاهدات.

أين كانت تكمن السنبلة في الحبة. وأين كان يكمن الجذع واللحاء والأوراق.

وأين كان يكمن الطعم والرائحة، واللون والنكهة، والرطب والبسر وأين كان الفرخ أثناء خروج البيضة من الدجاجة وكيف دخل العظم والريش في البيضة وأين كان الإنسان عند قذف النطفة وامتزاجها بالبويضة وأين خصائصه الوراثية.

ومن أعجب العجب سر الحياة سواء في الإنسان أو في الحيوان والنبات. فما يملك أحد أن يقول كيف جاءت هذه الحياة ولا كيف تلبست بذلك الجرم وهما عنصران مختلفان. نشأ من بينهما ذلك النمو وتلك الحركة. أحد العنصرين ظاهر لأنه بدن للآخر، والثاني خفي ولكن آثاره تدل عليه ولا يقوم البدن بدونه. فالبدن لا يتحرك إلا بإرادة الروح، والروح إذا فارقت البدن يكون جثة هامدة. ونقل عن الإمام السيوطي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: ٢١]، أن الله علق مستحيلاً على مستحيل، لأن الإنسان مستحيل أن يعرف نفسه التي بين جنبيه لما فيها من الأسرار التي لا يدركها. ومن تلك الأسرار إذ غلب النوم على الإنسان أين يكون العقل والفهم منه.

ويعرّف الإمام القاضي ابن العربي عجز الإنسان عن معرفة كنه خلقه.. فيقول: (انظر إلى موجود في أهابك لا تقدر على إنكاره لظهور آثاره ولا تحيط بمقداره لقصورك عنه). وننقل ذلك التعريف بالحرف كما هو ليدل على نقض أقوال تلك الفئة الضالة.

فيقول: الروح مثلاً خلق من خلق الله تعالى جعله الله في الأجسام فأحياها به وعلمها، وأقدرها، وبنى عليها الصفات الشريفة والأخلاق الكريمة. وقابلها بأضدادها لنقصان الآدمية.

فإذا أراد العبد إنكارها لم يقدر لظهور آثارها. وإذا أراد معرفتها وهي بين جنبيه لم يستطع لأنه قصر عنها وقصر به دونها.

وقال أكثر العلماء ـ أنه سبحانه وتعالى ركب ذلك ليكون عبرة ـ كما قال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: الآية ٢١].

ليرى أن الباري تعالى لا يقدر على جحده أحد لظهور آياته في أفعاله.

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد ولا يحيط به لكبريائه وعظمته أحد

فإذا وقف الإنسان متفكراً ناداه الاعتبار (لا ترتب) ففيك من ذلك آثار.

أنظر إلى موجود في (أهابك لا تقدر على إنكاره لظهور آثاره، ولا تحيط بمقداره لقصورك عنه فيأخذه الدليل، وتقوم لله الحجة البالغة).

﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر: ٤٩].

الباب الثالث

الهجرة

مقدمات الهجرة:

وبعد هذا العرض المستفيض من مراحل الدعوة في مكة، والتي انتهت إلى طريق مسدود تقريباً، بسبب موقف قريش العنيد منها وخاصة بعد وفاة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وموت أبي طالب كافل النبي ﷺ وحاميه، وبعد ما ظل القرآن ينزل على رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاماً كاملة في قضية العقيدة ممثلة في قاعدتها الرئيسة الألوهية والربوبية وما بينهما من علاقة تعرف الإنسان بخالقه ورازقه ومحييه ومميته، وسر وجوده وسر وجود هذا الكون من حوله، كأن يقول له من هو، ومن أين جاء وكيف جاء ولماذا جاء وإلى أين يذهب في نهاية المطاف، من الذي خلقه من عدم ومن الذي يذهب به وما مصيره هناك، وكأن يقول له ما هذا الوجود الذي يحسه ويراه، وهكذا انقضت ثلاث عشرة سنة كاملة في تقرير هذه القضية الكبرى، القضية التي ليس وراءها شيء في حياة الإنسان.

ولم يتجاوز القرآن المكي هذه القضية الأساسية إلى شيء مما يقوم عليها من المقتضيات والتعريفات المتعلقة بنظام الحياة إلاّ بعد أن علم الله أنّها قد استوفت ما تستحقه من البيان وأنها استقرت استقراراً مكيناً ثابتاً في قلوب العصبة المؤمنة التي اختارها الله لحمل دينه.

وبدأ البحث عن قاعدة أمنية آمنة تحمي العقيدة والمعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة، وتكفل للدعوة حرية الحركة لتبليغ الرسالة الجديدة. بعد أن تجمدت بمكة. فسخَّر الله سبحانه وتعالى لنشر تلك الدعوة قبيلتي الأوس والخزرج وهما من سكان يثرب، وقد سماهم الله الأنصار في كتابه بعد اعتناقهم الإسلام ونصرتهم لرسوله ﷺ.

سبب إسلام ـ الأوس والخزرج:

الأوس والخزرج هم سكان يثرب من العرب، فقد وجد فيهم رسول الله ﷺ استعداداً لقبول دعوة الإسلام. كانت أحوالهم الاجتماعية حينئذ مهيأة لقبول الدعوة، لما كانوا يسمعون من اليهود المقيمين معهم أن هناك نبياً قد أظل زمانه، وكانت اليهود

تستفتح به على العرب أي تطلب أن يفتح لهم على يديه، وأن يكون معهم على كل من عاداهم.

فالأوس والخزرج كان أسهل عليهم التصديق ببعثة ذلك الرسول والإيمان به من أهل مكة الوثنيين الذين كانت فكرة الإسلام لهم غير مألوفة ولا منتظرة، بل كانت منبوذة من القرشيين خاصة لما يتمتعون به من سلطان على القبائل الأخرى وغناهم المادي وما ورثوه من شرف سدانتهم الكعبة وقيامهم على أصنام العرب التي تدين لهم في ذلك بالولاء. وأما الأوس والخزرج فرأوا في اعتناق الإسلام جمع كلمتهم وهو العلاج الوحيد للاضطراب القائم بينهم.

وكان من فتح الله على رسوله ﷺ وعلى الدعوة أن يلتقي بنفر من الخزرج عند العقبة يحلقون رؤوسهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: **«أأنتم من موالي يهود»**؟ قالوا: نعم، فقال لهم رسول الله ﷺ: **«أفلا تجلسون أكلمكم»**؟ قالوا: بلى. فجلسوا فقال رسول الله ﷺ: **«أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وأنزل علي الكتاب، فهل تبايعونني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء عذب وإن شاء غفر»**.

فنهض أسعد بن زرارة، وقال: يا قوم، تعلمون والله إنه النبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه. قال القوم: صدقت. فقال أسعد بن زرارة: أيها النبي إنا نقبل منك ما عرضت علينا من هذا الدين. فقال القوم: نعم نقبل منك ونصدقك. فقال رسول الله ﷺ: **«الله أكبر»**. فقال أسعد بن زرارة: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر مثل ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك. فسوف نقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك. فافترقوا ولما ولوا إلى قومهم ذكروا رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ.

ذكر العقبة الأولى:

ولما كان من العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، منهم الستة السابق لقاؤهم برسول الله ﷺ بالعقبة وهي العقبة الأولى. وبايعوا على الطريقة التي بايع بها أصحابهم السابقون إلاّ أنهم طلبوا من يعلمهم ويقرئهم القرآن. فأرسل معهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير وعبد الله ابن أم مكتوم.

العقبة الثانية:

ولما كان من العام المقبل بعد العقبة الأولى، خرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك، حتى قدموا مكة فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق حين ما أراد من الكرامة والنصر لنبيّه وإعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وأهله، ولما قضى ثلث الليل تسللوا من رحالهم حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة وهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان. فجاء رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلاّ أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويوثق له، وكان هو أول من تكلم فقال: يا معشر الخزرج إن محمداً منا حيث قد علمتم. وقد منعناه من قومنا ممن هو على رأينا فيه فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه أبى إلاّ أن ينحاز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه له ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخزرج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده. فقالوا (أي الأنصار) وهم الأوس والخزرج: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت، فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغّب في الإسلام ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، فقام البراء بن معرور، وأخذ بيد رسول الله ﷺ وقال: والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر.

فقام أبو الهيثم بن التيهان فقال يا رسول الله: إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها (يعني اليهود) فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: **«بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم، فصرخ الشيطان من رأس العقبة... يا أهل المنازل إن محمداً والصباة معه قد اجتمعوا على حربكم»**. فقال رسول الله ﷺ: **«هذا أزب العقبة»**. وقال ﷺ: **«ارفضوا إلى رحالكم»**(١).

ولما كان من الغد وشاع الخبر غدت عليهم جلة قريش وأشرافهم، حتى دخلوا شعب الأنصار. فقالوا: يا معشر الخزرج بلغنا أنكم لقيتم صاحبنا البارحة، وواعدتموه أن تبايعوه على حربنا. فانبعث من كان من مشركي الأوس والخزرج يحلفون بالله ما كان من ذلك من شيء، وقال كبيرهم عبد الله بن أبي إبن سلول: ما كان قومي ليفتاتوا عليَّ بأمر

---

(١) رواه أحمد وابن إسحاق.

مثل هذا حتى يعلموني، ويقول هذا باطل وما كان هذا، فرجعت قريش من عندهم، فأذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة، فبادر أصحابه إلى ذلك.

وقبل أن ندخل في حادث الهجرة نحب أن نبيّن أنها وقعت تحت ظروف حتمتها وجعلتها أمراً ضرورياً لسير هذه الدعوة في الخط المرسوم الذي قدره الله لها بتدبيره سبحانه وتعالى.

لقد كان موقف قريش العنيد من الدعوة في مكة وبخاصة بعد وفاة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها وموت أبي طالب كافل النبي ﷺ وحاميه، هذا الموقف قد أنتهى إلى تجميد الدعوة تقريباً في مكة، ومن ثم كان رسول الله ﷺ يبحث عن قاعدة أُخرى غير مكة، قاعدة تحمي الدعوة وتكفل لها الحرية وتحمي المعتنقين لها من الاضهاد والفتنة، وهذا هو السبب الأهم للهجرة.

ولقد سبق الاتجاه إلى يثرب لتكون قاعدة للدعوة عدة اتجاهات، سبقها الاتجاه إلى الحبشة حيث هاجر إليها كثير من المؤمنين الأوائل.

ثم اتجاه الرسول ﷺ إلى الطائف محاولة أخرى لإيجاد قاعدة حرة آمنة عى الأقل لنشر الدعوة ـ وهي لم تكلل بالنجاح لأن كبراء ثقيف استقبلوا رسول الله ﷺ أسوأ استقبال ـ وسلطوا عليه سفهاءهم وصبيانهم يرمونه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين.

وهناك انطلق لسانه ﷺ بذلك الدعاء الخالص العميق:

«اللهم أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى عدو ملكته أمري أو إلى بعيد يتجهمني، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك أو يحل عليَّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلاّ بك»[١].

لقد تمت الهجرة إلى المدينة بعد تمهيد ثابت وإعداد محكم، فحادث بيعة العقبة الثانية يعتبر منعطفاً تاريخياً في أمر دعوة نبينا محمد ﷺ له ما بعده، فقد تحول شعور كفار قريش من الاستهانة بأمر ما جاءهم به رسول الله ﷺ من الهداية والإرشاد وما دعاهم إليه من الموعظة والحكمة مدة ثلاث عشرة سنة مستعملاً كل وسائل الإقناع، مداوماً على الوتيرة الصادقة من غير أن يظن بتهمة أو يعثر منه على موقع غميزة، صابراً على ما أصابه من الأذى والمحن، مستمسكاً بقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠

---

(١) ابن هشام.

وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٨].

قريش رأت خطر بيعة الأنصار ـ وهمّها إجهاض الهجرة:

ولما وقعت بيعة العقبة الثانية أحس كفار قريش بخطر الدعوة الذي أصبح يهدد سلامتهم وسلامة مصالحهم وخاصة لما رأوا أصحاب رسول الله ﷺ تجهزوا وخرجوا وساقوا الذراري والنساء إلى الأوس والخزرج، وعرفوا أن الدار دار منعة، وأن أهلها أهل حلقة وشوكة وبأس. فخافوا خروج رسول الله ﷺ إليهم ولحوقه بهم فيشق عليهم أمره.

اجتماع قريش على قتل رسول الله ﷺ:

اجتمعت قريش في دار الندوة ـ ولم يتخلف أحد من أهل الرأي والجاه منهم ليتشاوروا في أمره وحضر وليهم وشيخهم إبليس عليه لعنة الله في صورة شيخ كبير من أهل نجد مشتملاً في كسائه ـ فتذاكروا أمر رسول الله ﷺ وما ينبغي أن يقاوموا به وما تعاهد عليه هو والأوس والخزرج قبل أن يفلت زمام الأمر من أيديهم.

فأشار كل واحد منهم برأي والشيخ النجدي يرده، إلى أن قال أبو جهل رأيه المشؤوم، فقال عليه لعنة الله: لقد فرق لي فيه رأي، ما أراكم قد وقعتم عليه. قالوا: ما هو؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش فتى نهداً جلداً ثم نعطيه سيفاً صارماً، فيضربونه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل فلا تدري بنو عبد مناف بعد ذلك كيف تصنع ولا يمكنها معادات القبائل كلها، ونسوق إليهم ديته. فقال الشيخ النجدي لله در الفتى: هذا والله الرأي، فتفرقوا على ذلك وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾ [الأنفَال: الآية ٣٠] . وهو اقتراح أمية بن خلف أو وائل بن العاص أو (يقتلوك) وهو رأي أبي جهل بن هشام أو (يخرجوك) وهو رأي أبي سفيان بن حرب.

ولما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه ﷺ يرصدونه، متى ما نام فيثبون عليه ويضربونه ضربة رجل واحد، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي بن أبي طالب: نم على فراشي وتسج ببردي هذا... فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم.

وهمَّ أبو جهل، والحكم بن أبي العاص، وعقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف، وابن الغبطلة، وزمعة بن الأسود، وطعيمة بن عدي، وأبو لهب، وأبي بن خلف، ونبيه، ومنبه ابنا الحجاج.

ومكث القوم يتطلعون من حيز الباب ويرصدونه ـ فخرج رسول الله ﷺ وهم جلوس على الباب ـ فأخذ حفنة من التراب فجعل يذرها على رؤوسهم ويتلو: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ

﴿تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ [يس: الآيتان ٩، ١٠].

ومضى رسول الله ﷺ فقال لهم قائل: ما تنظرون؟ قالوا محمداً، قال: خبتم وخسرتم، قد والله مر بكم وذر على رؤوسكم التراب. قالوا: والله وما أبصرناه. وقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم، فلما أصبحوا قام علي رضي الله عنه عن الفراش الذي كان رسول الله ينام عليه، فسألوه عن رسول الله ﷺ فقال: لا علم لي به، وسار رسول الله ﷺ إلى منزل أبي بكر ومن ثم إلى غار ثور. وأبلغ وصف لتآمر قريش هو ما جاء في القرآن: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال: الآية ٣٠].

لقد كانوا يمكرون ليوثقوه ويحبسوه حتى يموت، أو ليقتلوه ويتخلصوا منه، أو ليخرجوه من مكة منفياً مطروداً، لقد ائتمروا بهذا كله، ثم اختاروا قتله، على أن يتولى ذلك المنكر فتية من القبائل جميعاً ليتفرق دمه في القبائل ويعجز بنو عبد مناف عن قتال العرب كلها فيرضوا بالدية وينتهي الأمر.

رسول الله ﷺ في غار ثور:

ثم سار رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى غار ثور، وذكر الحاكم في مستدركه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ إلى الغار ومعه أبو بكر فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه، حتى فطن له رسول الله ﷺ فسأله، فقال: له يا رسول الله أذكر الطلب فأمشي خلفك ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك.

فقال يا أبا بكر لو كان شيء أحببت أن يكون لك دوني؟ فقال: نعم، والذي بعثك بالحق ـ لما انتهيا إلى الغار ـ قال: مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ لك الغار فدخله فاستبرأه حتى إذا كان في أعلاه ـ ذكر أنه لم يستبرئ الحجرة فقال مكانك حتى أستبرئ الحجرة ـ ثم قال: انزل يا رسول الله، فنزل ﷺ وصاحبه فمكثا في الغار ثلاث ليال حتى خمدت عنهما نار الطلب.

يقول صاحب الشمقمقية:

فالزرد يوم الغار لم يثبت له ... فضل وكان الفضل للخدرنق

الزرد: هو الدرع المزودة، والخدرنق: العنكبوت.

ويقول الآخر:

والعنكبوت بنت بيتاً عليه لكي ... ترد قافة كفر ضل مسعاها

ومعنى ذلك أن بيت العنكبوت الذي هو أوهن البيوت، استطاع أن يرد جيش كفار

قريش المطاردين لرسول الله ﷺ وهو من الجند الذي قال الله عنه: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ٤٠].

ويقول الإمام البصيري:

وما حوى الغار من خير ومن كرم ... وكل طرف من الكفار عنه عمي
فالصدق في الغار والصديق لم يرما ... وهم يقولون ما بالغار من أرم
ظنوا الحمام وظن العنكبوت على ... خير البرية لم تنسج ولم تحم
وقاية الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عال من الأطم

وقال أيضاً:

رب إن الهدى هداك وآيا ... تك نور تهدي بها من تشاء
كم رأينا ما ليس بعقل قد ... ألهم ما ليس يلهم العقلاء
إذ أبي الفيل ما أتى صاحب الفيل ... ولم ينفع الحجا والذكاء
والجمادات أفصحت بالذي أخر ... س عنه لأحمد الفصحاء
ويح قوم جفوا نبياً بأرض ... ألقته ضبابها والظباء
وسلوه وحن جذع إليه ... وقلوه ووده الغرباء
أخرجوه منها وآواه غار ... وحمته حمامة ورقاء
وكفته بنسجها عنكبوت ... ما كفته الحمامة الحصداء
واختفى منهم على قرب مرآه ... ومن شدة الظهور الخفاء

وضرب العنكبوت على باب الغار وفرخت حمامتان وحشيتان - وجدت قريش في طلبهما وأخذوا معهم أصحاب قافة الأثر حتى انتهوا إلى باب الغار - فلما رأوا بيض الحمامتين وبيت العنكبوت، قالوا: لا أحد بالغار لنسج العنكبوت وبيض الحمامتين، حتى إن واحداً من قوم قريش اتجه إلى باب الغار بسوأته وهو يتبول. فقال أبو بكر: لو نظر أحدهم إلى قدميه لأبصرنا. ولكن الله أعماهم.

فقال رسول الله ﷺ: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ لا تحزن إن الله معنا[١].

---

(١) متفق عليه ورواه أحمد والترمذي.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ٤٠].

ونام رسول الله ﷺ على فخذ أبي بكر، فلدغ أبو بكر، ولم يتحرك خشية أن يوقظ رسول الله ﷺ فسقطت دموعه على رسول الله ﷺ من شدة الألم، فاستيقظ رسول الله ﷺ فقال: مالك يا أبا بكر؟ فقال: لدغت فداك أبي وأمي، فتفل رسول الله ﷺ على مكان اللدغة، فأذهب الله ما به.

القوة الغاشمة دائماً تضيق بكلمة الحق، لا تملك لها دفعاً فتتجه لإخمادها بالقوة. فقريش ضاقت بمحمد ﷺ ذرعاً، فقررت التخلص منه. فخرج وحيداً إلاّ من صاحبه الصديق لا جيش ولا عدة...

إذاً كيف يقول المستشرقون وأتباعهم إن الإسلام انتشر بالسيف؟!!!

وكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نهاره، يسمع ما يأتمرون به، وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ ثم يأتيهما في الغار إذا أمسى فيخبرهما الخبر، وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرعى في رعيان أهل مكة حلوبة لأبي بكر فإذا أمسى أراح عليهما ، فيحتلبان ويذبحان؟؟ فإذا غدا عبد الله بن أبي بكر من عندهما إلى مكة، اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يُعَفِّي عليه. حتى إذا مضت ثلاث الليالي، وسكن عنهما نار الطلب، أتاهما صاحبهما[1] الذي استأجراه براحلتيهما وراحلة أخرى له هو. وأتتهما أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما بسفرتهما، ونسيت أن تجعل لها عصاماً. فشقت نطاقها فجعلته نطاقين ـ وكان ذلك سبب تسميتها ذات النطاقين.

ولو استعرضنا ما مر برسول الله ﷺ وصاحبه أبي بكر في غار ثور الذي نشر الموت ظله عليه وأطل برأسه على من فيه، فالسيوف الطائشة تترصده والوحشة والظلمة والهوام القاتلة حتى إن أبا بكر لدغته حية فيه وهو لا يستطيع التحرك عن موقع الحية لأن رأس رسول الله ﷺ على فخذه وهو نائم مخافة أن يستيقظ. ثلاث ليال تنقطع في كل ساعة منها نياط القلوب. والرسول ﷺ أثبت قلباً من ذلك الجبل الذي يضم ذلك الغار وتلك الليالي الثلاثة تتمم ثلاث عشرة سنة التي قام بها رسول الله ﷺ يدعو أهل مكة لينقذهم من النار ويدخلهم الجنة. ولم يكن يوماً في الأيام الثلاثة أخف عبئاً ولا أقل اقتحاماً للأهوال من الأيام الثلاثة.

---

(١) وهو عبد الله بن الأريقظ الدؤلي، ولا يعرف له إسلام فسبحان من أنقذهما به ولم ينقذه بهما.

ومن يعرف وعورة الجبل الذي به غار ثور وشموخه، لا يتصور أن الأشخاص الذين يروحون على رسول الله ﷺ وصاحبه بالغنم، والزاد. والخبر كل ليلة إذ لا بد أن هناك عناية من الله خارقة تمكنهم من ذلك، وإلاّ فلا يصح ذلك في الحالة المعتادة.

وأنا ممن طلع ذلك الجبل ودخلت الغار مع رفاق واستغرق ذلك منّا يوماً كاملاً!!

الرحلة إلى دار الهجرة وقصة سراقة ـ رضي الله عنه:

ولما ارتحلا من الغار أردف أبو بكر عامر بن فهيرة، والرسول ﷺ على ناقته القصواء وسار الدليل أمامهما، وعناية الله تكلؤهما، وتأييده يصحبهما، ولما يئس المشركون من الظفر بهما، وجعلوا ديات جوائز لمن يجيء بهما حيّين أو ميّتين فجدّ الناس في الطلب، والله غالب على أمره، وسار بهما الدليل على طريق الساحل حتى بعد عن أماكن الرصد، ثم تحول بهما إلى جهة قديد شرقاً عن الطريق الذي يمر بعسفان وهو الطريق المعروف، وفي أثناء الطريق تعرض لهما سراقة بن مالك، فأراد أن يظفر بجائزة قريش التي أعلنت لمن يرد إليها محمداً ﷺ فدعا عليه رسول الله ﷺ فساخت يدا فرسه في الأرض، وسقط عنها في حالة ذعر، فصاح قد علمت أن الذي أصابني بدعائكما فادعوا الله لي ولكما على أن أرد الناس عنكما فدعا له رسول الله ﷺ فأطلق فسأل رسول الله ﷺ أن يكتب له كتاب أمان. فكتب له الكتاب وبقى معه إلى يوم فتح مكة فجاء بالكتاب فقال له رسول الله ﷺ: هذا يوم وفاء وبر(١).

ويحكى أن أبا جهل لام سراقة على تركه رسول الله ﷺ، فقال سراقة في ذلك:

أبا حكم والله لو كنت شاهداً ... لأمر جوادي إذ تسيخ قوائمه
علمت ولم تشكك بأن محمداً ... رسول ببرهان فمن ذا يقاومه
عليك بكف القوم عنه فإنني ... أرى أمره يوماً ستبدو معالمه
بأمر يود الناس فيه بأسرهم ... بأن جميع الناس طراً تسالمه

خيمة أم معبد في طريق الهجرة:

ثم مر رسول الله ﷺ في مسيرة على خيمة أم معبد الخزاعية، وكانت امرأة برزة جلدة، تحتبى بفناء الخيمة، ثم تطعم وتسقي من مر بها، فسألاها هل عندها شيء؟ فقالت: والله لو كان عندنا شيء ما أوعزكم القرى، والشاء عازب وكانت سنة شهباء، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة، فقال: ما هذه الشاة يا أم معبد.

---

(١) رواه ابن هشام.

قالت شاة خلفها الجهد عن الغنم، فقال: هل بها من لبن. قالت: هي أجهد من ذلك.

فقال ﷺ: **«أتأذنين لي أن أحلبها»**، قالت: نعم، بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حلباً ـ فاحلبها!! فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها وسمى الله ودعا وجرت ودرت فدعا بإناء يتربض الرهط(١)، فحلب فيه حتى علته الرغوة، فسقاها فشربت حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب وحلب فيه ثانياً، حتى امتلأ الإناء ثم غادروا فما لبثت أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً يتساوكن هزالاً، فلما رأى اللبن عجب فقال: من أين لك هذا والشاة عازب ولا حلوبة بالبيت؟! قالت: لا والله إلاّ أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت ومن حاله كذا وكذا. قال أبو معبد: والله إني لأراه صاحب قريش الذي تطلبه ـ صفيه لي أم معبد.

وصف أم معبد لرسول الله ﷺ(*):

فقالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه، حسن الخلق، لم تعبه ثجلة ولم تزر به صعلة وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته ضحل، وفي عنقه سطع أحور أكحل أزج أقرن، شديد سواد الشعر، إذا صمت علاه الوقار، وإن تكلم علاه البهاء. أجمل الناس وأبهاهم من بعيد وأحسنهم وأحلاهم من قريب ـ حلو المنطق ـ فصل لا نزر ولا هذر، كأن منطقة خرزات نظم يتحدرن ربعة لا تقحمه عين من قصر ولا تشنئوه من طول، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفون به، إذا قال استمعوا لقوله وإذا أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود لا عابس ولا مقتر. فقال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش الذي ذكروا من أمره ما ذكروا، لقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً، وأصبح صوت بمكة عالياً يسمعونه ولا يرون القائل:

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتي أم معبد

هما نزلا بالبر وارتحلا به ... وأفلح من أمسى رفيق محمد

فيا لقصى ما زوى الله عنكم ... به من فعال لا تجازى وسؤدد

ليهن بني كعب مقام فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد

سلوا أختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد

إلى آخر الأبيات.

---

(١) أي يشبع الرهط سيرة بن هشام.

(*) سيأتي تفسير هذا الوصف ص (٢٨٠، ٢٨١).

قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ما درينا أين توجه رسول الله ﷺ إذا أقبل رجل من الجن يسمع صوته، ولا يرى شخصه من أسفل مكة فأنشد هذه الأبيات والناس يتبعونه حتى خرج من أعلاها. قالت أسماء: لما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله ﷺ أن وجهته المدينة.

وعد الله لنبيّه ﷺ بالرجوع إلى مكة المكرمة:

قال ابن عباس كان رسول الله ﷺ بمكة فأمر بالهجرة وأنزل عليه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء: الآية ٨٠] قال قتادة: أخرجه الله من مكة إلى المدينة، مخرج صدق، ونبي الله يعلم أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلاّ بسلطان نصيرا.

وأراه الله عز وجل دار الهجرة وهو بمكة فقال: (رأيت دار هجرتكم بسبخة ذات نخل بين لابتين)[1] وذكر الحاكم في مستدركه عن علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ قال لجبريل: من يهاجر معي. قال أبو بكر الصديق. وبعد خروجه وهو مطارد من قومه في طريقه إلى المدينة لم يبلغها بعد يقال في مكان قريش من الجحفة بين مكة والمدينة ـ جاءه الوعد الأكيد من الله ـ بأن نصر الله سوف يحالفه ويرده إلى بلده معززاً منصوراً وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القَصص: الآية ٨٥].

ومما غاظ قريشاً ما يسمعونه من هتوف الجن عن رحيل رسول الله ﷺ إلى الأنصار بالمدينة وأنه أصبح في متعة وأمان، وأن ذلك سوف يمكّنه من القضاء على من يخالفه بمكة. قال: أبو عيسى سمعت قريش في الليل هاتفاً على أبي قبيس يقول:

فإن يسلم السعدان يصبح محمد ... بمكة لا يخشى خلاف المخالف

فلما أصبحوا قال أبو سفيان من السعدان؟ سعد بكر وسعد تميم؟ فلما كان من الليلة الثانية سمعوه يقول:

أبا سعد سعد الأوس كن أنت ناصرا ... ويا سعد سعد الخزرجين الغطارف
أجيبا إلى داعي الهدى وتَمَنيا ... على الله في الفردوس منية عارف
فإن ثواب الله للطالب الهدى ... جنان من الفردوس ذات زخارف

---

(١) رواه البخاري.

تعريف بنسب الأنصار أصحاب دار الهجرة:

من الأوس والخزرج الذين استجابوا لله وللرسول لما دعاهم الرسول ﷺ لما يحبه؟ وقبلوا الإسلام وتحدوا كفار قريش في عقر دارهم بأن بايعوا رسول الله ﷺ على قتال من يعترض سبيل تلك الدعوة من جميع العرب وجميع المشركين ووفوا بذلك؟!

وهم أبناء حارثة بن ثعلبة العنقاء بن مزيقيا عمرو بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف ابن امرؤ القيس البهلول بن ثعلبة الصنم بن مازن الهداج بن الأزد بن الغوث بن سبأ. وكل هذه الألقاب تنبىء عن المكانة والمجد والرفعة التي تنتمي إليها قبيلتهم وقد نزح أبوهم عامر من اليمن حينما أخبرته الكاهنة بقرب ما ينتظرهم من الغضب، وهو ما نتج عنه سيل العرم.

وعلم أن قومه لن يرضوا بمفارقته لهم إلاّ بحيلة، فأمر ابنه عمراً أن يكذبه ويحقر به أمام الملك. وبهذه المكيدة استطاع أن يأبى الإقامة في دار الهوان والعقوق. وقرر الرحيل عن اليمن ثم استقر به الحال مع أبنائه في المدينة وهي (يثرب) في ذلك الوقت، وضايقوهم اليهود الذين سبقوهم إلى المدينة، ولكن لم يذعنوا لهم، وفي أثناء ذلك غزا تبع الأصفر الشام، ودان له ملوك غسان، ومرّ في رجوعه على يثرب، وفيها بنو حارثة فأعانهم على اليهود، واستبق ابناً له لديهم فقتل غدراً، فرجع تبع عليهم وحاربهم فكانوا يكرمونه بالليل ويقاتلونه بالنهار، فأعجب بشجاعتهم وكرمهم فتركهم. ويروى أن كبير أحبار اليهود بيثرب خرج إلى تبع وقال له إنك لن تقهر هذا الرهط من الأوس والخزرج، لأنهم أنصار نبيّ سيبعث بمكة وقد حان أوانه وأن يثرب هي مهاجرة فكف عنهم.

ولم يعرف عن قبيلة من قبائل العرب من الشجاعة والبأس والكرم والنبوغ بالشعر ما عرف عن الأنصار، فكانوا أهل كرم وعفة وإباء، وأكبر دليل على ذلك أنه لم تتجرأ قبيلة من قبائل العرب على نصرة نبينا محمد ﷺ خوفاً من قريش إلاّ الأنصار، فقد حالفوا محمدًا ﷺ في عقر دارهم، ولم يهابوا قريشاً، وليس قريش وحدهم، بل كافة من هو على وجه الأرض من المشركين.

ولما أراد رسول الله ﷺ أن يختبر صدق الأنصار على نصرته فإنهم بايعوه على أن يحموه مما يحموا من نساءهم وذراريهم إذا داهمهم عدو في مكانهم، ولكن غزوة بدر كانت خارج المدينة فهي لم تكن ضمن ما تمّت عليه، فأراد أن يتأكد من موقفهم بالنسبة لذلك فقال ﷺ: **«أشيروا عليّ أيها الناس»** وكرر ذلك مراراً بعد أن تكلم أبو بكر وعمر والمقداد فقام سعد بن معاذ الأشهلي وقال: كأنك تعنينا معشر الأنصار يا رسول الله. قال رسول الله ﷺ: **«أجل»**. فقال سعد: أنا أجيب عن الأنصار.

«والله لقد صدقناك وشهدنا بأن الذي جئت به الحق، وأعطيناك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فصل منا من شئت، واقطع منا من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، واترك منها ما شئت فوالله لما تأخذه من أموالنا أحب إلينا مما تركته، وإنا لا نكره أن تلقي بنا عدوك لترى منا ما تقر به عينك. فإننا لقوم صدق عند اللقاء، صبر لدى الهيجاء فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد. ولقد تخلف عنك منا أقوام لو يعلمون أنك تلقى كيداً ما تخلفوا عنك لهم رغبة في الخير ونية في الجهاد».

فسّر رسول الله ﷺ لذلك الجواب وقال: **«أبشروا بالنصر»**[1]، ومعلوم أن رسول الله ﷺ خرج لأخذ عير قريش ولم يخرج لقتال.

ويكفي الأنصار من الفخر ثناء الله عليهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: الآية ٩] . ثم ثناء رسول الله ﷺ: **«إنكم لتقلون عند الطمع، وتكثرون عند الجزع، ولا بعد هذا فخر في الدنيا أبدا»** وقول رسول الله ﷺ: **«إن محبة الأنصار آية الإيمان، وإن بغض الأنصار آية النفاق»** فهم نصروا رسول الله ﷺ بأموالهم وأنفسهم، وألسنتهم وشعرائهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة. ثم آووا المهاجرين وقاسموهم أموالهم، وحتى قاسموهم نسائهم بعد أن آخى رسول الله ﷺ بينهم وبين المهاجرين ودعا لهم رسول الله ﷺ: **«اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار إلى يوم القيامة!!»**.

فرح الأنصار بقدوم رسول الله ﷺ:

ولما بلغ الأنصار خروج رسول الله ﷺ من مكة وقصده المدينة، وكانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة لاستقباله، حتى إذا كان يوم الاثنين ثاني عشر من ربيع الأول على رأس ثلاث عشرة سنة من النبوة، صاح يهودي كان يصعد على أطم من آطام المدينة لبعض حلجة، فرأى رسول الله ﷺ وصاح بأعلى صوته: ...يا بني قيلة هذا صاحبكم

---

(١) سيرة ابن هشام.

الذي كنتم تنتظرونه قد جاء، فبادر الأنصار لاستقباله يحملون السلاح، وسمع التكبير، وخرج أهل المدينة فرحاً بقدوم رسول الله ﷺ فتلقوه وحيّوه بتحية النبوة، فأحدقوا به من كل جانب يهللون ويكبرون والنساء ينشدن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وتنافست قبائل الأنصار على ضيافة رسول الله ﷺ ونزوله وهو ﷺ يشفق أن يقدح بين نفوسهم الغيرة، بتميز أناس عن آخرين فترك لناقته خطامها، وقال: دعوها، فإنها مأمورة(١). حتى بركت حيث طاب لها أن تبرك، فبادر أبو أيوب خالد بن زيد إلى رحله ﷺ فأدخله بيته فجعل رسول الله ﷺ يقول: «المرء مع رحله»(٢).

وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بخطام ناقته ـ فكانت عنده.

وقد أجمل أبو قيس بن حرمة الأنصاري ما لقيه رسول الله ﷺ في مدة الدعوة التي قضاها يدعو إلى الله في مكة حتى قدم المدينة بقوله:

ثوى في قريش بضع عشرة حجة يذكر لو يلقى حبيباً مواتيا
ويعرض في أهل المواسم نفسه فلم ير من يؤوى ولم ير داعيا
فلما أتانا واستقر به النوى وأصبح مسروراً بطيبة راضيا
وإصبح لا يخشى ظلامة ظالم بعيد ولا يخشى من الناس باغيا
بذلنا له الأموال من حل مالنا وأنفسنا عند الوغى والتآسيا
فعادى الذي عادى من الناس كلهم جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا
ونعلم أن الله لا رب غيره وأن كتاب الله أصبح هاديا

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

قومي الذين همو آووا نبيهم وصدقوه وأهل الأرض كفار
أهلاً وسهلاً ففي أمن وفي سعة نعم النبي ونعم القسم والجار
فأنزلوه بدار لا يخاف بها من كان جارهمو دار هي الدار
وقاسموه بها الأموال إذ قدموا مهاجرين وقسم إلى حد النار
وكما قال: نصرنا وآوينا النبي محمداً على أنف راض من مضر راغم

الحياة في المدينة:

شرع رسول الله ﷺ في بناء المسجد، وشارك بنفسه بحمل اللبن والحجارة وهو يقول:

---

(١) رواه الحاكم.
(٢) رواه ابن سعد.

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

وكان بعض الصحابة لا يشارك في العمل، فلما رأوا رسول الله ﷺ بنفسه حفزهم ذلك وجعلوا يرتجزون:

لإن قعدنا والرسول يعمل لذاك منا العمل المضلل

فلما استقر رسول الله ﷺ وأيّده الله بنصره بعباده الأنصار، وألّف بين قلوبهم بعد أن كانت العداوة العميقة التي كانت بينهم، ومنعته أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلوا نفوسهم دونه، وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج والأوطان.

ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وبدأت معالم الدولة الإسلامية تظهر، وصفة المجتمع الجديد تبرز، وولى السلوك الفردي وحل محله الولاء المشترك، شرع الدين يضع طابعه في كل نواحي الحياة.

بدأ نداء الأذان بإعلام الجميع للحضور، وبدأ المسجد يكتظ بالمصلين، وبدأت مطاردة المحرمات في البيت والسوق على السواء إعمالاً لقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكانت الصلاة هي الوحيدة التي فرضت بمكة من العبادات، حيث فرضت ليلة الإسراء ولم يفرض ما سواها من العبادات حتى هاجر إلى المدينة، ففرض صوم رمضان في السنة الثانية للهجرة، وحولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وفرضت الزكاة بعد ظهور القوة وسد الخلة، ثم زكاة الفطر وصلاة العيدين ثم الحج والعمرة.

وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم ليقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ورقية وسودة بنت زمعة زوجة، وأسامة بن زيد وأمه أم أيمن وأما ابنته زينب فأمسكها زوجها أبو العاص بن الربيع، وخرج معهم من مكة عبد الله بن أبي بكر مع عيال أبي بكر ومنهم عائشة.

كما بدأت السرايا تتكون لحماية الإيمان في موطنه الجديد لقمع من تحدثه نفسه بالعدوان، وأمست المدينة عاصمة لنشر الإسلام وتشريع الأحكام، وهي أوّل أرض طبق فيها الإسلام ـ البيت مسلم والسوق مسلم ـ والنشاط العام على هدى الإسلام والاتجار والزرع وشؤون الأخلاق والتشريع كان ذلك كله يسري وفق الوحي النازل من السماء والقيادة الهادية من صاحب الرسالة الخاتمة ﷺ.

وروى ابن هشام أن النبي ﷺ لم تمضِ له سوى مدة قليلة في المدينة حتى اجتمع له إسلام عامة أهل المدينة من العرب، ولم يبق دار من دور الأنصار إلاّ أسلم أهلها عدا أفراداً من قبيلة الأوس.

فكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين الأنصار وادّع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم ومن جملة بنود الكتاب ما يلي:

١ ـ المسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس.

٢ ـ أن المؤمنين لا يتركون مفرحاً (المثقل بالديون الكثير العيال) بينهم أن يعطوه في فداء أو عقل.

٣ ـ أن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم.

٤ ـ ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، والمؤمنون بعضهم موالي بعض دون الناس.

٥ ـ اليهود ينفقون مع اليهود ما داموا محاربين.

٦ ـ يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.

وكتاب المعاهدة طويل وقد ذكره ابن هشام وهذا جزء من بنوده، وهو يحوي أسس النظام الذي على أساسه قامت دولة الإسلام بالمدينة المنورة، وخاصة في علاقتها مع اليهود المتواجدين في عاصمة الإسلام الجديدة. وقد قال ﷺ: **«أمرت بقرية تأكل القرى وهي المدينة»**[(١)].

العقيدة وحّدت بين المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان:

وبدأت دائرة الإسلام تنزاح، ففي كل يوم يسلم أناس وتقوى بهم شوكة الإسلام، وكان مبدأ التآخي بين المهاجرين والأنصار ووحدة الهدف والعقيدة جعلت الجميع ينصهرون في بوتقة الإسلام.

وحقيقة التآخي التي جعلها رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار هي معجزة من الله تعالى الذي ألّف بين قلوبهم وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: الآيتان ٦٢،٦٣] . وكانوا تسعين رجلاً، نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار.

هذا التآخي جعل منهم جبهة واحدة بعد أن كانت قلوبهم شتى وعداوتهم جاهرة

---

(١) رواه البخاري.

وبأسهم بينهم شديد سواء كان المقصود الأوس والخزرج وهم الأنصار، فقد كان بينهم في الجاهلية من الحروب والثأرات والدماء والمنازعات ما يستحيل معه الإلتئام فضلاً عن هذا الإخاء الذي لم تعرف الأرض نظيراً له ولا شبيهاً.

فالمجتمع المسلم الجديد تنظم في المدينة على قاعدة جديدة ليست علاقة الدم ولا علاقة الأرض، ولا علاقة الجنس ولا علاقة التاريخ ولا علاقة اللغة ولا علاقة الإقتصاد، ليست هي القرابة وليست هي الوطنية وليست هي القومية إنما هي علاقة العقيدة وعلاقة القيادة وعلاقة التنظيم الواقعي، فالذين آمنوا وهاجروا إلى دار الهجرة والإسلام متجردين من كل ما يمسكهم بأرضهم وديارهم وقومهم ومصالحهم وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ـ والذين آووهم ونصروهم ودانوا معهم لعقيدتهم وقيادتهم في مجتمع واحد متساو متكافىء، أولئك بعضهم أولياء بعض.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ [الأنفال: الآية ٧٢]. ثم بين تعالى بأنهم المؤمنون حقاً وأن من يلحق بهم من المؤمنين المهاجرين فهم منهم فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ﴾ [الأنفال: الآية ٧٤]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ﴾ [الأنفَال: الآية ٧٥].

فالإخاء والولاية بين المسلمين في بدء نشأة المجتمع بالمدينة إلى وقعة بدر ـ كانت ولاية توارث وتكافل في الديات والمواريث وولاية نصرة وأخوة قامت مقام علاقات الدم والنسب والقرابة حتى تقوت دولة الإسلام في المدينة، ومكّن الله لها بيوم الفرقان في بدر وبقية الولاية والنصرة، ورد الله الميراث والتكافل في الديات إلى قرابة الدم والنسب داخل المجتمع المسلم. ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبَة: الآية ١٠٠].

كما أن رسول الله ﷺ عاهد عند قدومه المدينة مع اليهود والمشركين عهداً على المسألة والموادعة والدفاع المشترك عن المدينة ـ مع التسليم بأن السلطة العليا في المدينة هي سلطة رسول الله ﷺ والتعهد منهم بالدفاع عن المدينة معه ضد قريش، والكف عن مناصرة أي مهاجر للمدينة أو عقد أي حلف مع المشركين المحاربين دون إذن من رسول الله ﷺ.

قبل أن ندخل في مرحلة ما بعد الهجرة والإذن من الله بقتال المشركين نحب أن

نوجز بعض المراحل التي مر بها رسول الله ﷺ في الدعوة وأصحابه لنربط المواضيع بعضها ببعض.

أول عهد الدعوة بالمدينة وتأسيس دولة الإسلام:

لقد ولدت الحركة الإسلامية في مكة المكرمة - على محك الشدة فلم تكن الجاهلية ممثلة في قريش تحس بالخطر الحقيقي الذي يهددها من دعوة (أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله) ﷺ وإنما تمثلت في الخروج على كل سلطان أرضي لا يستمد من سلطان الله وفي المحاربة لكل طاغوت في الأرض والفرار منه إلى الله. ثم ظهر الخطر الجدي في التجمع العضوي الذي أنشأته هذه الدعوة تحت قيادة رسول الله ﷺ.

لقد وقف المجتمع الجاهلي ليدفع عن نفسه الخطر الذي يهدد وجوده بكل ما يدفع به الكائن العضوي خطر الموت عن نفسه.

وعندئذ تعرض كل فرد في التجمع الإسلامي الجديد للأذى والفتنة بكل صنوفها، إلى حد إهدار الدم في كثير من الأحيان، ويومئذ لم يكن يقدم على شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله والانضمام إلى التجمع الإسلامي الوليد والدينونة لقيادته الجديدة، إلاّ كلّ من نذر نفسه وتهيأ لاحتمال الأذى والفتنة والجوع والغربة والعذاب والموت في أبشع الصور في بعض الأحيان.

بذلك تكون للإسلام قاعدة صلبة من أصلب العناصر عوداً في المجتمع العربي. فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام وقطع الطريق الشائك والخط المرهوب إلاّ العناصر المختارة الفريدة التكوين المضحية بنفسها.

وهكذا اختار الله السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة النادرة ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين في مكة ثم ليكونوا هم القاعدة لهذا الدين، بعد ذلك بالمدينة مع إخوانهم الذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم وهم الأنصار والذين دلت بيعتهم لرسول الله ﷺ عند العقبة الثانية أنهم لا يقلون في الصلابة عن إخوانهم المهاجرين، وأن عنصرهم ذو طبيعة أصيلة مكافئة لطبيعة هذا الدين.

وصف حقيقة بيعة الأنصار التي لا يرتقبون من ورائها إلاّ الجنة وقالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل:

قال ابن كثير في تفسيره: قال محمد بن كعب القرظي وغيره، قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ ليلة العقبة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال:

أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم. قال: فما لنا إذاً نحن فعلنا ذلك؟ قال ﷺ: **«قالوا ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل»**.

ولقد كان هؤلاء الذين يبايعون رسول الله ﷺ هذه البيعة ولا يرتقبون من ورائها شيئاً إلاّ الجنة، ويوثقون هذا البيع فيعلنون أنهم لا يقبلون أن يرجعوا فيه، ولا أن يرجع فيه رسول الله ﷺ - يعلمون أنهم لا يبايعون إلاّ على أمر هام. بل كانوا يعلمون أن قريشاً وراءهم، وأن العرب كلها سترميهم بسهم واحد، وأنهم لن يعيشوا بعدها في سلام مع الجاهلية الضاربة الأطناب من حولهم في الجزيرة العربية وبين ظهرانيهم في المدينة.

وفي رواية ابن كثير في (البداية والنهاية) قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر بن خيثم عن أبي الزبير، عن جابر قال: مكث رسول الله ﷺ في مكة عشر سنين، يتبع الناس في منازلهم عكاظ وذي المجاز ومجنة، وفي المواسم يقول من يؤويني من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة، فلا يجد أحداً يؤويه ولا ينصره حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر - كذا قال فيه - فيأتيه قومه وذوو رحمة فيقولون احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمضي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله إليه من يثرب فأويناه وصدقناه فيخرج الرجل منّا فيؤمن به ويقرأه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلاّ وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام ثم ائتمروا جميعاً فقلنا حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف؟ فرحل إليه منّا سبعون رجلاً، حتى قدموا عليه في الموسم فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين حتى توافينا، فقلنا يا رسول الله: علام نبايعك؟ قال: تبايعوني على السمع والطاعة في المنشط والمكره، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة، فقمنا إليه وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو من أصغرهم وفي رواية البيهقي وهو من أصغر السبعين إلاّ أنا فقال: رويداً يا أهل يثرب - فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلاّ ونحن نعلم أنه رسول الله وإن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة وقتل خياركم وتعضكم السيوف - فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه.

فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله. قالوا: امط عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة ولا نسلبها أبداً. قال: فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ علينا وشرط ويعطينا على ذلك

الجنة، وقد رواه الإمام أحمد أيضاً والبيهقي عن طريق داود بن عبد الرحمن العطار.

فقد كان الأنصار إذاً يعلمون عن يقين واضح - تكاليف هذه البيعة، وأنهم لم يوعدوا على هذه التكاليف شيئاً في هذه الحياة الدنيا - حتى ولا النصر ولا الغلبة، وأنهم لم يوعدوا عليها إلاّ الجنة. ثم كان هذا مدى علمهم ووعيهم بها ومدى حرصهم عليها، فلا جرم أن يكونوا مع السابقين من المهاجرين الذين بنوا هذا البناء وأعدوا هذا الإعداد، هم على القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم أول العهد بالمدينة. إن هذه العقيدة عجيبة حين تخالط القلوب تحولها إلى مزاج من القوة في الله والمحبة والإلفة بين المؤمنين وتربطهما برباط وثيق.

ومن نتيجة بيعة العقبة الثانية التي تنص على حماية رسول الله ﷺ إذا قدم المدينة حتى يبلغ رسالة ربه. أصبح حال أهل المدينة ومن معهم من المهاجرين وحال مشركي مكة وغيرهم من العرب حال حرب بالطبع، كما هو مقتضى العرف في ذلك العصر.

والمدينة بقدوم رسول الله ﷺ وأصحابه إليها بدأت معالم الدولة الإسلامية تظهر فيها، وولى السلوك الفردي وحل محله الولاء المشترك. الشرع يضع طابعه على كل نواحي الحياة، بدأ المسجد يكتظ بالمصلين، وبدأت مطاردة المحرمات، وبدأت الشرائع تتوزع على قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأصبحت المدينة تحوي ديناً ودولة، وهذه الدولة وهذه الشرائع وهذه العبادات أصبحت لابدّ لها من حماية تدفع عنها الأعداء الذين يصدون عن سبيل الله ويمنعون من ممارسة الشعائر الدينية.

نزول الإذن بالجهاد:

من ثم أذن الله للمسلمين بعد الهجرة في قتال المشركين، ليدفعوا عن أنفسهم وعن عقيدتهم اعتداء المعتدين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحجّ: الآيات ٣٨ - ٤١].

والجهاد ضرورة للعمران البشري على وجه الأرض، وأساس العالم لا يحتمل تركه، وذلك لأن التغالب والعدوان هما من طبيعة البشر في هذا العالم، والعدوان لا يرد بالتسليم والخضوع وإنما يرد بمقاومته، أي بالجهاد، ومن ثم فإن الجهاد ضرورة لحماية

الحياة الإنسانية بوجه عام، وللحفاظ على الدين وقيمه ومؤسساته بوجه خاص، فهو في الإسلام فريضة ماضية إلى يوم القيامة.

فالجهاد شرع لحراسة الملة، ولولا قيام أهل الدين بالمحاماة عن دينهم بالسيف لاجتاحهم أعداؤهم ولظهر الفساد في البر والبحر، ولهدمت صوامع وبيَع وصلوات ومساجد يذكر فيها إسم الله كثيراً. وهو أمر لا يجوز تركه ولهذا قيل: لا يصدق الحرب إلا ثلاثة مستبصر في دينه أو غيران على حريمه أو كريم ممتعض من ذل أصابه. والله يقول: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٦].

واليهود والذين أشركوا هم أشد الناس عداوة لدين الإسلام: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ﴾ [المَائدة: الآية ٨٢]. ولذلك تحالفوا على حربه، وقاوموا نمو حركته، وقد بيّن القرآن في عدة مواضع عداوتهم وحسدهم للمسلمين، وهذه نماذج منها:

١ - ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠٥].

٢ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النِّساء: الآية ٥١].

٣ - ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠٩].

٤ - ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٧].

٥ - ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ﴾ [النِّساء: الآية ١٠٢].

٦ - ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [المُمتَحنَة: الآية ٢].

٧ - ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ﴾ [التّوبَة: الآية ٨].

٨ - ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ﴾ [التّوبَة: الآية ١٠].

وهذه هي أهداف كفار أهل الكتاب والمشركين من قريش والعرب عموماً تجاه الإسلام والمسلمين والله سبحانه وتعالى كتب على أمة محمد ﷺ الجهاد وهو القتال في

سبيله تعالى لإعلاء كلمة الله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٦].

وقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبَة: الآية ١١١].

والله سبحانه وتعالى رد على كفار قريش حينما قالوا: إن محمداً استحل القتال في الشهر الحرام وفي الحرم وسفك فيه الدم وأخذ الأموال واسترق فيه الرجال إلخ.

وهي واقعة سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه فنزل قول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٧].

فأولاً تقرر حرمة الشهر الحرام وتقرر أن القتال فيه كبرة، ولكن الصد عن سبيل الله والكفر بالله والمسجد الحرام وإخراج أهله منه وهم المؤمنون المتقون أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام، وفتنة الناس عن دينهم أكبر من القتل، وقد ارتكب المشركون هاتين الكبيرتين فسقطت حجتهم في التحرز بحرمة البيت الحرام وحرمة الشهر الحرام، وبهذا فإن واقع الحال أن المسلمين لم يبدأوا القتال ولم يبدأوا العدوان. وإنما قريش هم البغاة وهم بدأوا بالشر والعدوان قال تعالى: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبَة: الآية ١٣].

والآية نزلت في وقعة سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إلى وادي نخلة بين مكة والطائف، يترصد أخبار قريش، وفي أثناء ذلك مرت عير لقريش تحمل تجارة فيها عمر بن الحضرمي وثلاثة نفر آخرين اشتبكت معهم السرية تحسب أنها في اليوم الأخير من جمادي الثانية، وإذا هي في اليوم الأول من رجب(١) فقتلت السرية عمرو بن الحضرمي وأسرت اثنين وفرّ الرابع، وغنمت العير، فقالت قريش: استحل محمد القتال في الشهر الحرام، فرد الله عليهم بأن صدهم عن سبيل الله وإخراج أهل الحرم منه

---

(١) هذه الرواية في الطبري وابن كثير والذي في ابن هشام وكان ذلك في آخر يوم من رجب والله أعلم.

وهم المؤمنون، وفتنتهم في دينهم أعظم عند الله مما ارتكبته السرية.

والرسول ﷺ بدأ جهاده بقريش التي كانت هي الطاغوت المباشر الذي يحول بين الناس في الجزيرة العربية وبين التوجه إلى عبادة الله وحده، فلم يكن بد من أن يناجز الإسلام هذا الطاغوت الذي هو حجر عثرة في وجه القبائل الأخرى الواقفة في حالة انتظار لما ينتهي إليه الأمر بين قريش وبعض بنيها، ولذلك بادر رسول الله ﷺ بإرسال السرايا وكان أول لواء عقده لعمه حمزة بن عبد المطلب في شهر رمضان على رأسه سبعة أشهر من الهجرة.

ثم توالت هذه السرايا على رأس تسعة أشهر، ثم على رأس ثلاثة عشر، ثم على رأس ستة عشر، ثم كانت سرية عبد الله بن جحش وهي أول وقعة وقع فيها قتال.

الرد على من يقول إن الإسلام انتشر بالسيف:

وكنا قد نبهنا في الفقرة (١) من مقدمة الكتاب بأننا سوف نتعرض إلى الشبهة التي يروّجها المستشرقون حملة الفكر الصليبي وأتباعهم من المنافقين بأن دين الإسلام انتشر بالسيف بقصد الإساءة والتشويه، فقالوا: إن الإسلام لو كان دين حق لكان دين الرحمة ولما استوجب سل السيف على الخلق، ولما سلب أملاكهم واسترق ذراريهم بالسبي، ولكن الدعاء إليه باللسان والإرشاد إليه بقوة البيان وكما قلنا سابقاً إن المستشرقين عماهم الحقد عن تتبع مراحل الدعوة.

فأول ما أولى إلى رسول الله ﷺ من ربه تبارك وتعالى أن يقرأ باسم ربه الذي خلق وذلك، أول نبوته ـ فأمره أن يقرأ في نفسه، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ، ثم أمره أن يبلّغ رسالة ربه بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدَّثِّر: الآيتان ١، ٢]. ثم أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أن ينذر قومه، ثم من حولهم من العرب، ثم العرب قاطبة، ثم ينذر العالم قاطبة، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا تعنيف والقرآن ينزل عليه: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النّحل: الآية ١٢٥].

فهذا هو المبدأ الذي قامت على أساسه دعوة الإسلام فإن رسول الله ﷺ لم يألوا جهداً في بذل النصيحة بالترغيب والترهيب وفي الإنذار بالعاقبة الوخيمة التي سوف تحل بالمكذبين وبالغ في ذلك بالقول اللطيف ملازماً قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٨]. مدة ثلاث عشرة سنة على تلك الوتيرة وخلال تلك المدة أوذي في نفسه وفي أصحابه، وقد فتنوا في دينهم وعذبوا بالنار وقتل البعض منهم والبعض هاجر فاراً بدينه من دياره وأهله خشية على دينه، فما زاد ذلك كفار قريش إلا نفوراً واستكباراً في الأرض، وعتواً

عن الحق حتى انتهى بهم الأمر إلى التآمر على قتله ﷺ وجندوا لذلك اثني عشر فتى جلداً من فرسانهم الأشدّاء الحانقين على الدعوة وصاحبها ووقفوا على بابه مدججين بالسلاح لينقضوا عليه ويضربوه ضربة رجل واحد كما يقولون ليتفرق دمه بين القبائل.

وقد كان المئات من أصحابه ﷺ، الذين دخلوا في دين الله عن طريق الدعوة طواعية في أول أمر الدعوة، هل أسلموا على حد السيف خوفاً من النبي ﷺ الأعزل المفرد بين قومه الغاصبين عليه، أو بالعكس هم الذين تعرضوا لسيوف المشركين، وكانوا يلقون عنتاً ولا يصيبون أحداً بعنت، وكانوا يخرجون من ديارهم لواذاً بأنفسهم من كيد الكائدين ونقمة الناقمين، وهم لا يخرجون أحداً من داره، بل أسلموا على الرغم من سيوف أعدائهم المشركين الأقوياء المتحكمين.

وبعد هذا أتراه هو البادىء بسل السيف؟ أم هم أعداء الدعوة الذين وقفوا في وجه نشر الإسلام؟ وإنما هو قلب الحقائق والغرض تشويه سمعة الإسلام.

ونرد على مقالة أولئك المستشرقين بما قاله أبو الحسن العامري رحمه الله في رده على هذه الشبهة قال: (لما يئس رسول الله ﷺ من ارعواء قريش والعرب عموماً وقبولهم للحق، وأيقن أن الوعظ والإرشاد لم ينجح معهم ذهب في علاجهم مذهب الطبيب المتحدب الذي خاف إتيان الداء العضال على نفس العليل، وعلم أن استبقائه غير ممكن إلاّ بقطع العضو الفاسد من جسمه فأوقع في مغازيه قدراً يسيراً من القتل تدرجاً إلى استنقاذ الجمهور من الهلاك والردي لتيقنه بأن المحمولين على شرف الدين في مبدأ أمرهم كرهاً حتى يقفوا على فضائل دعوة الحق أخيراً بعد الاستضاءة بنوره سيعتدون له بجسيم المنة وجزيل النعمة، ويقبلون على طاعة مولاهم ليتلافوا ما بدر منهم، فتصير أحوالهم فيه شبيهة بحال المأخوذ في صغره بالتأديب وهو يبغض مؤدبه حتى إذا عقل وانتبه أيقن موقع النعمة العظيمة فالتزم شكره). انتهى[1].

وهذا مثال لما وقع لقبائل قريش وهوازان وثقيف بعد دخولها الإسلام عنوة، فإن أكثر قواد جيوش المسلمين في بلاد فارس والروم بعد وفاة رسول الله ﷺ كانوا من أشد صناديد قريش الذين وقفوا في وجه نشر الدعوة مثل عكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان وغيرهم، وأما من قبل الحق واستجاب للدعوة وأقر بوحدانية الخالق سبحانه وتعالى، أغمد عنه رسول الله ﷺ سيفه وأوجب حمايته وأبقاه على ما كان عليه، ولم يكشف له غطاء، وهذه الطريقة هي التي انتشر بها الإسلام وهي مقرونة بالهداية والإرشاد والرسول ﷺ بجهاده بالسيف لم

---

(١) من كتاب مناقب الإسلام.

يكن بدعاً من الرسل ولا أول من أثخن في أعداء الله، بل سبقه لذلك عدد من أنبياء بني إسرائيل، منهم يوشع بن نون قتل نيفاً وثلاثين من ملوك الشام، وأباد مدنها، ولم يبق أثر ولا من أهلها صافر من غير أن يدعوهم إلى دين أو يطلب منهم إتاوة، وساق الغنائم التي كانت تنزل عليها نارٌ تحرقها، وكذلك طالوت، وكذلك داود، أما الذي وقع بين رسول الله ﷺ وكفار قريش هو رد على ما فعله كفار قريش بالمسلمين بمكة، وقد ورد ذكره في كتاب الله العزيز: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحَج: الآيتان ٣٩، ٤٠].

وأما أهل الكتاب من يهود ونصارى ومن في حكمهم، فلم يجبروا على اعتناق الإسلام بالقهر إلاّ بعد عرض ثلاث خصال عليهم.

١ ـ الإسلام فإن قبلوه فلهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم.

٢ ـ فإن لم يستجيبوا فعليهم الجزية وهي عبارة عن إعطاء حرية دعوة الإسلام في الانتشار وعدم التعرض إليها، وأيضاً هي مقابل حماية دافع الجزية والدفاع عنه ثانياً تأمين لفقره حالة عجزه. وهذا ما جرى مع وفد نصارى نجران بعد رفضهم المباهلة ورفضهم دعوة الله لهم في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٦٤] .

٣ ـ فإن لم يستجيبوا لإحدى الخصلتين السابقتين فالقتال بعد الإنذار والإعذار، ولذا فإن الإسلام لم يستعمل القهر لضمائر الناس على اعتناقهم عقيدة الإسلام، والله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٦] . والجهاد الذي كتب على أهل الإسلام لم يكن لحمل الناس على الإيمان، وإنما كان لإزالة العقبات من وجه الدعوة، حتى تبلغ إلى الناس، فلا يمنعوا من سماعها ولا يفتنوا عن دينهم إذا سمعوها.

ومبررات الجهاد في سبيل الله يوضحها الحوار الذي دار بين قائد الفرس في القادسية (رستم) وبين بعض قواد المسلمين المحاصرين لجيشه وهم ربعي بن عامر ، وحذيفة بن محصن، والمغيرة بن شعبة وهو يسألهم واحداً بعد واحد في ثلاثة أيام متتالية قبل المعركة.

«ما الذي جاء بكم؟ فكان الجواب: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسل

رسوله بدينه إلى خلقه فمن قبله منا قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر»[1]. ولو كان رسول الله ﷺ قادراً على استصلاح من وقفوا في وجه الدعوة من غير حاجة إلى سفك دماء بعضهم، لكان ذلك هو الأقدم عنده والأحب إليه، فهو كما قال عنه الصحابي الجليل العلاء بن الحضرامي عند مقابلته لحاكم البحرين ليعرض عليه الإسلام: «هذا هو النبي الأميّ والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول أن ليت ما أمر به نهى عنه أو ما نهى عنه أمر به أوليته زاد في عفوه أو نقص من عقابه». وهذا الكلام الذي قاله هذا الصحابي الجليل قليل في حق رسول الله ﷺ المسدد من الله فيما يفعل ويأمر وينهى.

---

(١) رواه الطبري.

الباب الرابع

غزوات الرسول ﷺ

الفصل الأول

غزوة بدر الكبرى

وكانت في شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة، وقد سمى الله يومها (يوم الفرقان ـ يوم التقى الجمعان)[1] لعظم أثرها في تاريخ الحركة الإسلامية.

لقد كانت هذه الغزوة هي أول وقعة كبيرة لقي فيها المسلمون أعداءهم من المشركين، فهزموهم تلك الهزيمة الكبيرة، ولكن المسلمين لم يكونوا قد خرجوا لهذه الغاية فقد كان خروجهم لأخذ الطريق على قافلة قريش الذين أخرجوا المهاجرين من ديارهم وأموالهم، فأراد الله للعصبة المسلمة غير ما أرادت لنفسها من الغنيمة، أراد أن تفلت منها القافلة وأن تلقي عدوها من عتاة قريش الذين جمدوا الدعوة في مكة ـ ومكروا مكرهم لقتل رسول الله ﷺ، بعدما بلغوا بأصحابه الذين تابعوه على الهدى غاية التعذيب والتنكيل والأذى.

لقد أراد الله أن تكون هذه الوقعة فرقاناً بين الحق والباطل، وفرقاناً في خط سير التاريخ الإسلامي، وتاريخ البشرية جمعاء، كما أراد سبحانه وتعالى أن يظهر في تلك الموقعة للعصبة المسلمة الفرق بين تدبيرهم لأنفسهم وتدبير الله لهم ولو كرهوه في أول الأمر، كما أراد لهم أن يتعلموا عوامل النصر وعوامل الهزيمة ويتلقونها مباشرة من ربهم العزيز الحكيم وهو في ميدان المعركة.

روى الحافظ أبو بكر بن مردوية في تفسيره ـ بإسناده عن أبي أيوب الأنصاري قال، قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: **«إني أخبرت عن عير أبي سفيان بأنها مقبلة فهل لكم أن تخرجوا قبلها، لعلّ الله أن يغنماها؟»** فقلنا: نعم فخرج وخرجنا، فلما سرنا يوماً أو يومين قال لنا: ما ترون في قتال القوم؟ إنهم قد أخبروا بخروجكم. فقلنا: لا والله ما لنا طاقة بقتال العدو، ولكنا أردنا العير، ثم قال: ما ترون في قتال القوم؟ فقلنا: مثل

---

(١) من الآية ٤١ الأنفال.

ذلك، فقال المقداد بن عمرو: إذاً لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، بل اذهب أنت وربك فإنا معكما مقاتلون، فتمنينا معشر الأنصار أن لو قلنا كما قال المقداد، فأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفَال: الآيات ٥ ـ ٨].

هذه الآيات واضحة في أمر هذه الغزوة، وهي أن الله وعد المؤمنين بإحدى الطائفتين، إما العير وإما النفير، وأن فريقاً من المؤمنين لا يحبون ملاقاة ذات الشوكة وهو العدو المدجج بالسلاح، ووصفهم بأنهم كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون وذلك بعد ما تبين الحق ـ وعلموا أن الله وعدهم إحدى الطائفتين... وأنه لم يبق خيار بعدما أفلتت إحدى الطائفتين وهي العير وأن عليهم أن يلقوا الطائفة الأخرى وهي ذات الشوكة، وقد قدر الله لهم لقاءها، وقدر أنها ستكون لهم مع أنهم يودون أن غير ذات الشوكة تكون لهم. ولكن الله يريد أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين، وذلك بأن جعلها ملحمة لا غنيمة، وأن تكون موقعة بين الحق والباطل، وأراد أن يقطع دابر الكافرين فيقتل منهم من حق عليه العذاب، ويؤسر من يريد إذلاله وتضحد شوكة كفار قريش، وتعلو راية الإسلام وتعلو معها كلمة الله وتتحطم الطواغيت.

نعم، وأراد للأمة الإسلامية أن تصبح أمة ودولة، لها قوة سلطان فترجح قوتها على قوة أعدائها، وأن تعلم أن النصر ليس بالعدد والعدة، وإنما هو بقوة الله التي لا تقف لها قوة. وما كانت هذه الحقيقة لتستقر في القلوب إلاّ بعد هذه المعركة الفاصلة بين قوة الإيمان وقوة الطغيان وكان هذا النصر في الوقعة الأولى التي يلتقي فيها جند الله بجند الشرك قدراً من قدر الله، ولعله كان لتثبيت الدعوة الناشئة وتمكينها، بل لإثبات وجودها الفعلي على محك المعركة فأين ما أرادته العصبة المسلمة لنفسها مما أراد الله لها؟ فكيف كانت تمضي لو كانت لهم غير ذات الشوكة قصة غنيمة، قصة قوم أغاروا على قافلة فغنموها، وأما بدر فقد مضت في التاريخ بأنها وقعة عقيدة بين الحق والباطل، وهي ربط بين جند الله في السماء وجنده في الأرض: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفَال: الآية ٩]. هذا المقطع من الآية يكفي وحده أن الله استجاب لاستغاثتهم ورحمهم بمدهم بألف من الملائكة مردفين: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ۝١١ إِذْ يُوحِى

رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الأنفَال: الآيات ٩ ـ ١٤].

لقد استجاب لهم ربهم وهم يستغيثون، ومدهم بألف من الملائكة مردفين، فكان جبريل في خمسمائة مجنبة وميكائيل في خمسمائة مجنبة. لعظمة هذا الأمر ودلالته على قيمة هذه العصبة وهذا الدين. إن المعركة كلها تدار بأمر الله ومشيئته وتدبيره وقدره، والله سبحانه وتعالى أرى رسوله في منامه أن الكافرين قليل لا قوة لهم ولا وزن، فأنبأ أصحابه برؤياه ليستبشروا بها ويتشجعوا على خوض المعركة وبيّن أنه لو أراهم له كثيراً لفت ذلك في قلوب القلة التي معه، وقد خرجت على غير استعداد ولا توقع لقتال ولضعفوا عند لقاء عدوهم وتنازعوا فيما بينهم.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنفال: الآية ٤٣] وكذلك تلاقوا في الميدان ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ﴾ [الأنفال: الآية ٤٤].

وقد بين الله لهم عوامل النصر الحقيقية ـ الثبات عند اللقاء والاتصال بالله بالذكر والطاعة لله ولرسوله وتجنب النزاع والشقاق والصبر عند اللقاء والحذر من البطر والرياء والبغي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٤٥-٤٧]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال: الآيتان ١٥، ١٦]. هذا كله توجيه في إدارة المعركة ـ والحيطة في أخذ أسباب النصر وهو الطاعة لله ولرسوله، لأن النصر هو من عند الله حتى لا يتعلق قلب مسلم بسبب من الأسباب: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنفَال: الآية ١٧]. ومن دعائه ﷺ في ذلك اليوم: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض**»(١) وتلك العصابة كان تحتها سادة المسلمين يومئذ، وسادة الملائكة حتى

---

(١) رواه مسلم.

جبريل، كما قال حسان رضي الله عنه.

وببئر بدر إذ يرد وجوهم جبريل تحت لوائنا ومحمد

روى ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ قال حين رأى جيش قريش وهو منصب من العدو. قال: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادك، وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم الغداة».

وقد جاء أيضاً أن رسول الله ﷺ عندما شاهد جيش المشركين أخذ حفنة من التراب ورمى بها في وجوه الكفار وهو يقول: «شاهت الوجوه، شاهت الوجوه»[1]، فأصابت وجوه المشركين ممن كتب عليهم القتل في علم الله في تلك الموقعة وأسر من كتب الله عليه الذل وجاء فيها قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ [الأنفال: الآية ١٧].

ولما انتهت المعركة وقف رسول الله ﷺ على القتلى فقال: «بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم كذبتموني وصدقني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، فأمر بهم فسحبوا إلى القليب فطرحوا فيه ثم وقف عليهم وقال: يا عتبة بن ربيعة ويا شيبة بن ربيعة ويا أبا جهل بن هشام ويا فلان ويا فلان هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ إني وجدت ما وعدني ربي حقاً».

يقول صاحب نظم الغزوات أحمد البدوي الشنقيطي:

وعاين الناس المصارع التي أخبرهم بها مقيم الملة
فحقق الله له ما وعدا وأوهن الكفر وأيد الهدى
له من الله كتاب سابق لذاك ما شهدنا منافق
يوم له ما بعده في الكفر وقد أتى منوهاً في الذكر
بأنه العذاب واللزام وأنه البطش والانتقام
وأنه الفرقان بين الكفر والحق والنصر سجيس الدهر

وكان ﷺ أخبر أصحابه بمواضع مصارع الكفار قبل التحام المعركة، ويوم بدر أذل الله فيه الشرك، وأعز الإسلام.

ثم ارتحل مؤيداً منصوراً قرير العين بنصر الله ومع الأسارى والمغانم، فلما كان بالصفراء قسَّم الغنائم وضرب عنق النضر بن الحارث بن كلدة، ثم نزل بعرق الظبية وضرب عنق عقبة بن أبي معيط وكان أرسل إلى المدينة زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة مبشرين بنصر الله وسلامة رسول الله ومبشرين بهزيمة المشركين، فتلقى الناس رسول الله ﷺ

---

(١) سيرة ابن إسحاق.

بالروحاء مهنئين بالفتح والنصر وقد خافه كل عدو له بالمدينة ومن حولها، واضطر أفراد كثيرون من المنافقين ومعظمهم من ذوي المكانة في قومهم أن يجاروا قومهم بإظهار الإسلام نفاقاً وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول الذي كتم غيظه وحسده وقال: هذا أمر قد توجه ولا مطمع في إزالته.

أثر غزوة بدر على كفار قريش وعلى اليهود والمنافقين:

كانت غزوة بدر قد وقعت وكتب الله فيها النصر للمسلمين على قريش، ذلك النصر الكامل الباهر بأيسر جهد وأقل خسائر، حيث خرج ذلك العدد القليل من المسلمين وهمهم الوحيد التعرض لعير قريش القادم من الشام والمحمل بالتجارة غير مزودين بعدة ولا عتاد إلاّ اليسير، فلاقوا ذلك الجحفل الجرار بن قريش في عدتهم وعتادهم متأهبين للقتال، ثم لم تلبث المعركة أن انجلت عن ذلك النصر المؤزر، مما اضطر رجل كعبد الله بن أبي بن سلول من عظماء الخزرج أن ينزل عن كبريائه وكراهيته لهذا الدين ونبيه محمد ﷺ وأن يكبت حقده وحسده للرسول، وأن ينضم منافقاً للجماعة المسلمة، وأصبح هو وأمثاله من المنافقين بالمدينة يصانعون قومهم الذين اعتنقوا الإسلام عن قناعة وإيمان لكي يحتفظوا بمقامهم الموروث في قومهم وخاصة عبد الله بن أبي سلول الذي كان قومه ينظمون له الخرز ليتوجوه ملكاً عليهم قبيل قدوم رسول الله ﷺ المدينة، ولما سمع بهزيمة قريش وانتصار المسلمين قال: هذا أمر قد توجه فلا يرده راد.

كما أن يهود المدينة غصوا وشرقوا من انتصار المسلمين ببدر، وفي حادث بني قينقاع ارتفع غليان حقدهم على الجماعة المسلمة مسفراً عن وجهه ومكشراً عن أنيابه، وانطلقوا بكل ما يملكون من دسّ وكيد وتآمر يحاولون تفتيت الصف الإسلامي على الرغم مما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من مواثيق أبرمها معهم عقب قدومه المدينة، وكذلك كان المشركون بمكة موتورين من هزيمتهم ببدر يحسبون ألفي حساب لانتصار محمد ﷺ وللخطر الذي أحدق بهم ويهدد سلامة تجارتهم وعلى مكانتهم ووجودهم.

وأهل مكة استنكروا أول ما جاءهم خبر الهزيمة وحسبوه هذيان مجنون كما قال صفوان بن أمية عندما سمع الحيسبان بن عبد الله الخزاعي وهو أول من قدم مكة يقول: قتل عتبة بن ربيعة وسيبة بن ربيعة وأبو الحكم بن هشام وأمية بن خلف وزمعة بن الأسود ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأبو البختري بن هشام، فلما جعل يعدد من قتل من أشراف قريش قال صفوان هذا مجنون، اسألوه عني، فقالوا: وما فعل صفوان بن أمية. قال: ها هو قاعد في الحجر، وقد رأيت والله أباه وأخاه حين قتلا.

فاستبعد أهل مكة الهزيمة في أول وهلة: وخرجوا يطلبون الخبر، وكان ممن خرج

أبو لهب، وكان قد تخلف عن بدر فبعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة مقابل دين يطلبه منه، فقدم يستطلع الخبر حتى جلس على طنب حجرة بئر زمزم وبها أبو رافع مولى للعباس بن عبد المطلب وكان ينحت الأقداح ومعه زوجة العباس بن عبد المطلب أم الفضل، وإذ الناس يقولون هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم فقال أبو لهب: هلم إلي يا ابن أخي، فعندك الخبر. قال: فجلس إليه والناس قيام عليه قال: والله ما هو إلاّ لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقودوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا، وأيم والله مع ذلك ما لمت الناس، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض، والله ما تبقى شيئاً ولا يقوم لها شيء. قال أبو رافع وكان يكتم إسلامه: الله أكبر تلك والله الملائكة، قال: فرفع أبو لهب يده فضرب بها وجهي ضربة شديدة. قال وثاورته فاحتملني وضرب بي الأرض ثم برك علي يضربني وكنت رجلاً ضعيفاً فقامت أم الفضل إلى عمود فضربت به رأس عدو الله أبي لهب فشجته شجة منكرة. وقالت: استضعفته إن غاب عنه سيده.

فقام مولياً ذليلاً، فوالله ما عاش بعدها إلاّ سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة فقتلته.

ثم كان الأمر أن فلول جيش المشركين لما رجعوا من بدر إلى مكة انضووا على أنفسهم يداوون جرحاهم، ويستعيدون قواهم، ويستعدون لنيل ثأرهم، ويعلنون أن الانتقام قريب ولم تزدهم الهزيمة إلاّ كرهاً للإسلام ونقمة على رسول الله ﷺ وأصحابه.

أبو سفيان يتفرد بزعامة قريش:

فأبو سفيان ينذر ألاّ يمس طيباً ولا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً ﷺ وينال من المسلمين ما يشفي غليله وأرسل الرسل في بطحاء مكة ونواحيها على مؤازرته ونصرته.

وكان من نتائج هزيمة قريش ببدر انفراد أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بالزعامة حيث تسلم مكان عتبة بن ربيعة وأبي جهل بن هشام وأمية بن خلف وسهيل بن عمرو الذي اقتيد ضمن الأسرى إلى المدينة. مما سبب فراغاً في مجال القيادة.

وقد دلت الأحداث أن أبا سفيان عنده من التمرس والتجربة بما يمنحه خصائص الزعامة من ذلك أنه نهى قريشاً عن بكاء قتلى بدر والنياحة عليهم وقول الشعر في رثائهم لئلا يشمت المسلمون بهم ولئلا يذهب الغيظ الذي يحفزهم على طلب الثأر. كما طلب من قريش أن لا تستعجل في إرسال فداء أسراها حتى لا يشتد عليهم محمد ﷺ وأصحابه في الفداء وهو أول من نفذ ذلك حينما قالوا له: افد عمراً ابنك، فقال: أيجمع على دمي

ومالي؟ قتلوا حنظلة وأفدي عمراً، دعوه في أيديهم يمسكوه ما بدالهم، وكان من قضاء الله أن يخرج سعد بن النعمان بن أكّال الأوسي معتمراً وهو شيخ كبير، فانتهز أبو سفيان الفرصة فحبسه حتى أفدى به ولده عمراً.

ولما تولى أبو سفيان الزعامة استعان ببعض أبناء القواد الذين سقطوا في معركة بدر مثل صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وعبد الله بن أبي ربيعة وغيرهم مثل عمرو بن العاص وضرار بن الخطاب وقاموا بحملة في قبائل قريش يقولون لهم: يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه (يعنون عير أبي سفيان أو من كانت له في تلك العير تجارة وكانت موقوفة في دار الندوة) لعلنا ندرك منه ثأرنا فأجابوا لذلك فباعوها وكانت ألف بعير والمال خمسون ألف دينار.

وأمضت قريش سنة كاملة تعد خيلها ورجالها وقضها وقضيضها، وحدها وحديدها ومن يتبعها من بني كنانة وتهامة وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ﴾ [الأنفال: الآية ٣٦].

قريش تخطط لمعركة الثأر من وقعة بدر:

وبدا التخطيط لمعركة الثأر حيث تناول القوم في مجالسهم النقاط السلبية والأخطاء التي ارتكبتها القيادة التي جرّت قريشاً إلى الحرب مما دفعها إلى الهزيمة رغم نجاة عيرها، وأخذت تدبر أمر الحرب بعيداً عن الثقة المفرطة، مع الأخذ في الاعتبار عدم الاستهتار بالطرف المقابل وهو رسول الله ﷺ وأصحابه وأخذت تستعين بالقبائل الحليفة مثل بعض كنانة والأحابيش واستخدمت في ذلك كل الوسائل من ذلك الاستفادة من مواهب الشعراء وخاصة أبو عزة الجمحي والشعر في ذلك العصر هو أهم وسائل الإعلام ليلهب الحماس ويستنهض الهمم، وأبو عزة كان من فقراء قريش وهو ذو عيال، وكانت قريش قبل ذلك قد أخرجته من مكة مخافة العدوى لإصابته بالبرص ولكنه خرج في جيش قريش إلى بدر وكان من جملة الأسرى. فطلب من النبي ﷺ أن يمنّ عليه لكونه فقيراً ذا بنات، ويعاني من قلة ذات اليد. فمنّ عليه رسول الله ﷺ وأطلقه وأخذ عليه عهداً أن لا يظاهر على حرب المسلمين، ولكن الزعامة الجديدة رأت أنها محتاجة إلى شعره فأغراه صفوان بن أمية ووعده بأن يجعل بناته مع بناته وأن يغنيه إذا رجع من المعركة فخرج ونقض العهد مع رسول الله ﷺ وجعل يقرض الشعر يستمنح به قبائل تهامة ضد المسلمين ويستحثهم على الخروج مع قريش وبعدها قتل في غزوة حمراء الأسد بعد أحد بيوم واحد.

ومن بين الخطط التي استعملتها قريش لتستعين بها على قتال محمد ﷺ وأصحابه الاستفادة من عبيدها الأحباش الذين يحسنون قذف الحربة التي يستخدمها الحبشة في حروبهم ومن بين أولئك العبيد. وحشي غلام جبير بن مطعم فقال له سيده: أخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة بن عبد المطلب عمّ رسول الله ﷺ بعمي طعيمة بن عدي فأنت عتيق كما أن هند بنت عتبة نذرت لوحشي على قتل حمزة نذراً وجعلت تقول له كلما مرّ بها أو مرت به: (ويهاً أبا دسمة اشفي واستشفي) وكان وحشي يكنى بأبي دسمة.

ومن أولئك العبيد صؤاب الحبشي غلام أبي طلحة العبدري الذي حمل لواء قريش بعد قتل تسعة من حملة اللواء من بني عبد الدار وبقي اللواء ملقى فحمله صؤاب وقتل، ومن العبيد أيضاً نسطاس غلام صفوان بن أمية وغيرهم، كما استعانت قريش بأبي عامر الفاسق الأوسي الذي أعد الحفر المغطاة ليوقع فيها جيش المسلمين في أحد وهي مكيدة، وكان معه خمسون رجلاً من أبناء عمومته وكان يقول لقريش: أن لو قد لقي قومه لم يختلف منهم رجلان عليه لسيادته فيهم. فلما التقى الناس، فنادى: يا معشر الأوس أنا أبو عامر . قالوا: لا، أنعم الله بك عيناً يا فاسق فلما سمع ردهم عليه. قال: لقد أصاب قومي بعدي شر.

بقي أن نقول، إنه خلال السنة التي مكثت قريش تعد العدة لحرب الثأر من المسلمين أرادت قيادتها الجديدة خلال تلك السنة أن تقوم بعمليات انتقامية تكون لها ردود فعل سريعة ترفع من معنوياتها ومن مكانتها وتحافظ على تماسك الجبهة الداخلية.

أول تلك الخطط: غارة قام بها أبو سفيان بن حرب ومعه مائتا مقاتل خرج بهم إلى مكان يسمى العرض من ضواحي المدينة فبات ليلة واحدة عند سلام بن مشكم اليهودي فسقاه الخمر وأعلمه خبر الناس وفي ذلك يقول:

سقاني فرواني بكأس مدامة   على ظمإ مني سلام بن مشكم

فلما أصبح قطع أصواراً من النخيل وقتل رجلاً من الأنصار وحليفاً له ثم كرّ راجعاً إلى مكة واضطر في فراره إلى تخفيف زاد جيشه حتى لا يدركهم الطلب ونذر به رسول الله ﷺ فخرج في طلبه حتى بلغ موضعاً يقال له قرقرة الكدر فوجد أن أبا سفيان قد فاته ووجد رسول الله ﷺ وأصحابه سويقاً كثيراً نبذه أبو سفيان وقومه يتخففون به فأخذه المسلمون فسميت غزوة السويق.

كما قامت قيادة قريش الجديدة بتدبير اغتيال رسول الله ﷺ على يد عميرة بن وهب الجمحي بإغراء من صفوان بن أمية، ولم يفلح عمير بن وهب وكشف رسول الله ﷺ كيده ثم أسلم ولم يعد لقريش.

ومن العمليات التي أراد أبو سفيان أن يرفع بها معنويات قومه محاولته تسيير قوافل

قريش عن طريق جديد لا يمر بالقرب من المدينة إلاّ أن تلك المحاولة كشفت من جانب المسلمين.

فأرسلت قريش عيراً بزعامة صفوان بن أمية وعبد الله بن أبي ربيعة وحويطب بن عبد العزى وقوم آخرين عن طريق نجد والموقعة تسمى القردة وهي بين الربذة والغمرة شرق المدينة والعير تحمل أموالاً كثيرة فعلم بذلك رسول الله ﷺ فوجه زيد بن حارثة إليها في مائة من أصحاب رسول الله ﷺ فأصابوا العير وأفلت القوم وأخذها المسلمون غنائم، وأدى كشف هذه المحاولة إلى فشل قريش في إيجاد منفذ لتجارتهم مع الشام، وهكذا خسرت قريش أسواق ذلك الإقليم الهام والحيوي في تجارتهم وأصبحت محاصرة اقتصادياً من ذلك الجانب جزاء على حصارها للمسلمين في غابر الزمن في شعب بني هاشم بمكة في أوائل الدعوة، وبفشل هذه المحاولات التي كانت قريش تسعى من ورائها إلى التعويض عن هزيمتهم ببدر وإيجاد تأمين طريق للتجارة مع الشام. لقد جاءت نتائج تلك المحاولات فاشلة لتسرع بساعة المواجهة المرتقبة والتي تعد لها قريشاً العدة وهي غزوة أحد.

ومما زاد في لهيب الثأر الذي تطلبه قريش من أجل مسح عار الهزيمة، قدوم كعب بن الأشرف اليهودي الذي حرض قريشاً على الإسراع في أخذ ثأرها، وكان يبكي قتلى قريش مما أجج مشاعر العامة.

الفصل الثاني

غزوة أحد

يقول صاحب الغزوات أحمد البدوي الشنقيطي:

فـأحـد بـربـح عـيـر صـخـر   تـأهـبـوا لـيـنـزوا مـن بـدر

فأجمعت قريش ومن حالفها على حرب محمد ﷺ في شوال من السنة الثالثة للهجرة وكان العباس بن عبد المطلب قد كتب كتاباً يخبر قريش إلى رسول الله ﷺ وخرجت قريش بأحابيشها ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة وعددهم ثلاثة آلاف مقاتل فيهم مئتا دارع ومائتا فرس، وخرجوا معهم بالنساء وعددهن خمس عشرة امرأة التماس الحفيظة أن لا يفروا فأقبلوا حتى نزلوا بملقى السيول في خشم أحد على شفير الوادي مقابل المدينة.

ولما سمع بهم رسول الله ﷺ والمسلمون، قال للمسلمين: **«إني قد رأيت والله خيراً رأيت بقراً يذبح، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة»**. وروى ابن إسحاق انه أول الرؤيا فقال ﷺ: **«فأما البقر فهي ناس من**

أصحابي يقتلون، وأما الثلمة التي رأيت في ذباب سيفي فهي رجل من أهل بيتي يقتل، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشر مقام وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها» وكان رأي عبد الله بن سلول موافق لرأي رسول الله ﷺ.

فقال رجل من المسلمين ممن أكرمهم الله بالشهادة يوم أحد وغيره ممن فاتهم بدر، يا رسول الله أخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا. فقال عبد الله بن أبي بن سلول: يا رسول الله، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدونا قط إلاّ أصاب منا ولا دخلها علينا إلاّ أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورموهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا، رجعوا خائبين كما جاؤوا، فلم يزل الناس برسول الله ﷺ الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم حتى دخل رسول الله ﷺ بيته فلبس لامته وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة. فلما خرج عليهم وجد الناس قد انثنى عزمهم وقالوا: أكرهنا رسول الله ﷺ على الخروج فقالوا: يا رسول الله إن أحببت أن تمكث في المدينة فافعل.

ذكر إكراه رسول الله ﷺ للخروج لملاقاة قريش:

قال رسول الله ﷺ: **«ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه»**، فخرج رسول الله ﷺ في ألف من الصحابة، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقي بالمدينة. فلما صار بالشوص بين المدينة وأحد انخزل عبد الله بن أبي بن سلول بنحو ثلث العسكر وقال تخالفني وتسمع من غيري، فتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر بن عبد الله يوبخهم ويحضهم على الرجوع، ويقول: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا. قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع، فرجع عنهم وسبّهم، وقال: أبعدكم الله، لا فسيغني الله عنكم نبيه ﷺ.

وقال قوم من الأنصار: يا رسول الله ألا نستعين بحلفائنا من يهود فقال عليه الصلاة والسلام: لا حاجة لنا فيهم.

ثم قال رسول الله ﷺ: **«من رجل يخرج بنا على القوم من كثب ولا يمر بنا عليهم»**؟ فقال أبو خيثمة: أخو بني حارثة، أنا يا رسول الله، فنفذ بهم في حرة بني حارثة حتى سلك في حائط لمنافق يقال له مربع بن قيظي، وكان رجلاً منافقاً ضرير البصر، فقام يحثو التراب في وجوه المسلمين ويقول: لا أحل لك أن تدخل في حائطي إن كنت رسول الله، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال رسول الله ﷺ: **«لا تقتلوه فهذا أعمى القلب، أعمى البصر»**.

الاستعداد للمواجهة:

ونفذ رسول الله ﷺ حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي وجعل ظهره إلى أحد، ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم، فلما أصبح يوم السبت تعبأ للقتال وهو في سبعمائة واستعمل على الرماة وكانوا خمسين عبد الله بن جبير، وأمره وأصحابه أن يلزموا مركزهم وأن ينضحوا عنهم خيل المشركين بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم. وقال لهم رسول الله ﷺ: «**إن رأيتمونا تتخطفنا الطير فلا تبرحوا من مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطناهم فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم**».

فظاهر رسول الله ﷺ بين درعين يومئذ وأعطى اللواء مصعب بن عمير، وجعل على إحدى المجنبتين الزبير بن العوام، وعلى الأخرى المنذر بن عمرو، واستعرض الشباب يومئذ فرد من استصغر عن القتال وكان منهم عبد الله بن عمر وأسامة بن زيد وأسيد بن ظهير والبراء بن عازب وزيد بن ثابت وعرابة بن أوس وأجاز من رآهما مطيقاً، وكان منهم سمرة بن جندب ورافع بن خديج ولهما خمس عشرة سنة.

ولما كان عدد المسلمين على الربع من عدد المشركين رأى رسول الله ﷺ أن يعوض هذا التفاوت بالأشخاص الذين يوزنون بالألوف وهم آحاد ـ على أن يقاتلوا في المقدمة.

ودفع رسول الله ﷺ سيفه إلى أبي دجانة سماك بن خرشة، وكان ممن يقدر بألف وهو رجل شجاع ووضع عصابة حمراء عليه يدعوها عصابة الموت وقام يرتجز ويتبختر بالسيف:

أنا الذي عاهدني خليلي ... ونحن بالسفح لدى النخيل
أن لا أقوم الدهر في الكيول ... أضرب بسيف الله والرسول

فقال رسول الله ﷺ: إنها مشية يبغضها الله إلاّ في هذا الموضع.

وتعبأت قريش للقتال وهم في ثلاثة آلاف، وفيهم مائتا فارس ومائتا دارع، وجعلوا بيمينهم خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وقام الزعيم أبو سفيان بن حرب يحرض على القتال وهو أشد الخوف على نفسه وأولاده حيث لم يقدم نفسه ولا أحد من أولاده للمبارزة كما فعل عتبة بن ربيعة، وقام يعرض بني عبد الدار فقال: يا بني عبد الدار إنكم وليتم لواءنا يوم بدر فأصبنا ما قد رأيتم وإنما يؤتي الناس من قبل راياتهم إذا زلت زالوا، ليثير فيهم الحمية والحماس، وكان من جراء ذلك أنهم فقدوا في تلك الموقعة أفضل رجالاتهم.

وقامت زوجته هند بنت عتبة بن ربيعة هي الأخرى تحرض بني عبد الدار وتقول:

ويـهـا بـنـي عـبـد الـدار ويـهـا حـمـاة الأدبـار ضـربـاً بـكـل بـتـار

ثم قالت:

إن تـقـبـلـوا نـعـانـق ونـفـرض الـنـمـارق
أو تـدبـروا نـفـارق فـراق غـيـر وامـق

وأبو سفيان قائد المشركين يوم أحد لم يكن مغروراً ولا متهوراً في تلك الوقعة كما فعلت القيادة التي كانت قبله يوم بدر، والتي قالت: والله لن نرجع حتى نرد بدراً فنقيم ثلاثاً، ننحر الجزور ونطعم الطعام ونشرب الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبد الدهر، كما أعرضوا عن قبول العرض الذي تقدم به إليهم زعيم بني غفار بأن يمدهم بالسلاح والرجال وأبو سفيان بالعكس قبل بل ألحّ في طلب العون، كما سبق أن مر بنا وكان خائفاً أشد الخوف وأبدى تخوفه لأحد خاصته وهو صفوان بن أمية وهما بالأبواء بعدما بلغهما أن نفراً من خزاعة قدم إلى مكة قافلاً من المدينة حيث قال: (ما أرانا نصيب منهم شيئاً في وجهتنا هذه).

قتل أهل اللواء من المشركين:

فاقتتل الناس وحميت الحرب والرماة يرشقون خيل المشركين بالنبل كما أمرهم رسول الله ﷺ يردونها هوارب فصاح طلحة بن أبي طلحة حامل لواء المشركين من يبارز فقام إليه علي بن أبي طالب فقتله. وهو كبش الكتيبة (أي رئيسها) ثم حمل اللواء أخوه عثمان فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب فقطع جناحه حتى انتهى إلى مئزره وبدا من جنبه سحره، ثم حمل اللواء أخوهما أبو سعد فقتله سعد بن أبي وقاص، ثم حمله مسافع بن طلحة بن أبي طلحة فقتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ثم حمله الحارث أخوه فقتله عاصم أيضاً فحمله كلاب أخوهما فقتله الزبير بن العوام، ثم حمله الجلاس أخوهم فقتله طلحة بن عبد الله ثم حمله أرطأة بن شرحبيل بن هاشم فقتله علي بن أبي طالب ثم حمله شريح بن قارط فقتله قزمان، ثم حمله غلام طلحة بن أبي طلحة حبشي يقال له صؤاب فقتل قزمان ثم بقى ملقى على الأرض حتى حملته عمرة بنت علقمة الحارثية فتجمعوا عليها وفي ذلك يعيرهم حسان بن ثابت:

ولـى الـبـأس مـنـكـم إذ رحـلـتـم أسـرة مـن بـنـي قـصـي صـمـيـم
عـمـرة تـحـمـل الـلـواء وطـارت فـي رعـاع مـن الـقـنـا مـخـزوم
لـم تـطـق حـمـلـة الـعـواتـق مـنـكـم إنـمـا يـحـمـل الـلـواء الـنـجـومُ

ويقول العلاّمة أحمد البدوي الشنقيطي:

واستأصلوا أهل اللوا فانهزموا وشمرت عن سوقهن الحرم

مولولات إثرهم ورغباً في المغنم الرماة حين استلبا

وكانت الدائرة أول النهار للمسلمين على الكفار، فانهزموا وولوا مدبرين حتى انتهوا إلى نسائهم فلما رأى الرماة هزيمتهم تركوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه وقالوا: (الغنيمة ـ الغنيمة) فذكّرهم أميرهم عهد رسول الله ﷺ أن لا يبرحوا مكانهم حتى يرسل إليهم ولكنهم لم يسمعوا وأُلوا مركزهم والثغرة التي كانوا يسدونها، واغتنم فرسان المشركين الفرصة على عجل فقتلوا من بقي من الرماة، وأحاطوا بالمسلمين من خلفهم وجالت الريح ودارت الرحى ووقع المسلمون بين شقى الرحى.

ولا أبلغ ولا أروع مما وصف الله به الفشل الذي أصاب المسلمين في إدارة المعركة بعد ترك الرماة موقعهم: ولا أبلغ ولا أروع مما وصف الله وعده: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عِمرَان: الآيتان ١٥٢، ١٥٣] .

ساعة نزق بددت النصر الذي أحرزه المسلمون في الجولة الأولى:

فما هي إلاّ لحظة يسيرة من لحظات الضعف الإنساني عرضت لفريق من الجند فأوقعت الارتباك في صفوف الجيش كله فضاعت في ساعة نزق كل المكاسب التي أحرزتها الشجاعة النادرة والتضحية البالغة، رغم ما أوصى به الرسول الرماة وشدد عليهم أن يلزموا أماكنهم صيانة لمؤخرة جيش المسلمين، غير أن أثارة من حب الدنيا عصفت بتلك الوصية في ساعة غفلة، وتحول النصر إلى هزيمة حيث رأى الفارُّون من قريش بوادر هذا التغيير الطارئ الذي أحدثه كرة خيلهم التي لم تجد الرماة الذين كانوا يقاومونها فتراجعوا وثابوا إلى رايتهم التي رفعتها عمرة بنت الحارث ومما زاد الارتباك بين أصحاب رسول الله ﷺ ما أعلنه عمرو بن قميئة بأنه قتل رسول الله ﷺ.

إشاعة مقتل رسول الله ﷺ:

وشاع ذلك بين أصحاب رسول الله ﷺ. وأكرم الله من أكرم منهم بالشهادة وهم يحاولون شق طريقهم، ووقع الهرج والمرج واستولى الاضطراب والذعر لهول المفاجأة التي لم يتوقعها أحد وتفرق جيش المسلمين ودخل بعضهم المدينة والبعض الآخر انطلق فوق الجبل واختلطت على الصحابة أحوالهم، فما يدرون كيف يفعلون، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، واستطاع المشركون أن يخلصوا قريباً من النبي ﷺ فشجوا وجهه وكسروا

رباعيته، وهشموا البيضة على رأسه ورموه بالحجارة حتى وقع لشقه وسقط في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق يكيد بها المسلمين، فأخذ علي رضي الله عنه بيده ﷺ واحتضنه طلحة بن عبيد الله، وكان الذي تولى إيذاءه ﷺ عمرو بن قميئة وعتبة بن أبي وقاص وقيل أن عبد الله بن شهاب الزهري هو الذي شجه ونشبت حلقتان من حلق المغفر في وجنتيه فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح وعض عليهما حتى سقطت ثنيتاه من شدة غوصهما في وجهه ﷺ وامتص مالك بن سفيان والد أبي سعد الخدري الدم من وجنتيه وأدركه المشركون يريدون ما الله حائل بينهم وبينه فحال دونه نفر من المسلمين نحو عشرة حتى قتلوا جميعاً، سبعة من الأنصار وثلاثة من المهاجرين، قيل إثنان من المهاجرين ثم جالدهم طلحة بن عبيد الله حتى أجهضهم عنه ﷺ وترس أبو دجانة عليه بظهره والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك.

شجاعة رسول الله ﷺ وبسالته وثباته وسط المعركة أنقذ الموقف:

روى مسلم أن رسول الله ﷺ انفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من المهاجرين، فلما أرهقوه المشركون قال: من يردهم عني وله الجنة؟ فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، ثم أرهقوه فقال: من يردهم عني وله الجنة؟ فلم يزل كذلك حتى قتل سبعة، فقال رسول الله ﷺ: **«ما أنصفنا أصحابنا يعني الأنصار»**.

وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان فأتى بها النبي ﷺ فردها عليه بيده وكانت أصح عينيه وأحسنهما.

ومر أنس بن النضر بقوم من المسلمين قد ألقوا بأيديهم فقال: ما تنتظرون؟ قتل رسول الله ﷺ. قال: ما تصنعون في الحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ثم استقبل الناس، ولقي سعد بن معاذ فقال: يا سعد إني لأجد ريح الجنة من دون أحد. فقاتل حتى قتل ووجد به سبعون ضربة وجرح يومئذ عبد الرحمن بن عوف نحواً من عشرين جراحة.

وشد حنظلة بن أبي عامر على أبي سفيان بن حرب فلما تمكن منه حمل على حنظلة شداد بن الأسود من خلفه فقتله، وكان جنباً فإنه لما سمع الصيحة وهو على امرأته قام من فوره إلى الجهاد، فأخبر رسول الله ﷺ أصحابه أن الملائكة تغسله، ثم قال: **«سلوا أهله؟ ما شأنه»** فأخبرتهم الخبر.

وتركت هذه الاستماتة من الرجال القلائل من أصحاب رسول الله ﷺ الذين انحازوا عليه بعد إشاعة موته أثرها في الدفاع عنه ﷺ وأخذوا يجالدون بحرارة منقطعة النظير ومرت ساعة عصيبة من أحرج الساعات في تاريخ الدنيا.

يقول العلامة الشيخ أحمد البدوي في نظمه للغزوات:

وخالف الرماة أمر المصطفى ... بالصبر والثبات خلف الحنفا
فتركوا ظهورهم لخالد ... فكر راجعاً بكل حارد
وحالت الريح ودارت الرحى ... وذاق من خالفه ما اجترحا
وصرخ الصارخ أن مات النبي ... فارتهبوا لذلك كل الرهب

إلى أن يقول:

وثبتت مع النبي إثنا عشر ... بين مهاجر وبين من نصر
وثبتت نسيبة المبايعة ... قبل وعن خير الورى مدافعة
(وجرحت فيه وشلت يدها ... وللتبرك الورى يقصدها)[1]
في حفرة وقع خير مرسل ... فناشه طلحة والصهر علي
وشجه بن قمئة وابن شهاب ... صلى عليه الله ما سح السحاب
فعاودوه وتساقطوا عليه ... ونهضوا للشعب إذ أووا إليه
فبايعوا على الممات المجتبى ... صلى عليه الله ما هب الصبا
وبعد ما اطمأن في الشعب علت ... عالية من فوقهم فأنزلت
صلى بهم وقعدوا وقعدا ... ظهراً لما من الجراح أجهدا
واستبدلت هند من اللآلىء ... قلائداً من آنف الرجال
وطوقت وحشيها الفريدا ... وأدبرت تردد النشيدا
نحن جزيناكم بيوم بدر ... والحرب بعد الحرب ذات سعر

وأقبل رسول الله ﷺ نحو المسلمين وكان أول من عرفه تحت المغفر كعب بن مالك فصاح بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أبشروا هذا رسول الله ﷺ فأشار إليه أن اسكت واجتمع إليه المسلمون ونهضوا معه إلى الشعب الذي نزل فيه ومنهم أبو بكر وعمر وعلي والحارث بن الصمة الأنصاري وغيرهم، فلما استندوا إلى الجبل أدرك رسول الله ﷺ أبي بن خلف على جواد له يقال له العوذ وهو مقنع في الحديد يقول: لا نجوت إن نجا محمد، وهو عدو الله يزعم أنه سوف يقتل رسول الله ﷺ، فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة فطعنه بها فجأة في ترقوته فكرّ عدو الله منهزماً. فقال له المشركون: والله ما بك من بأس، فقال: والله لو كان ما بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعين.

---

(١) هذا البيت في بعض نسخ هذا النظم والمعنى وأنه من نظم عمود النسب وكلا النظمين للشيخ أحمد البدوي.

وأمر النبي ﷺ أن ينزلوا قريشاً من القمة التي اعتلوها في الجبل قائلاً ليس لهم أن يعلونا.

وفي مغازي الآمدي أن المشركين صعدوا على الجبل فقال رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص (أجنبهم)، يقول: أرددهم، فقال: كيف أجنبهم وحدي، فقال: ذلك ثلاثاً.

فأخذ سعد سهماً من كنانته فرمى به رجلاً من المشركين فقتله، قال: ثم أخذت سهماً آخر أعرفه فرميت به آخر فقتلته، فهبطوا من مكانهم، فقلت: هذا سهم مبارك فجعلته في كنانتي. فكان عند سعد حتى مات ثم كان عند بنيه.

عجز قريش عن حسم المعركة:

ولما عجزت قريش عن حسم المعركة وفشلت محاولاتها لقتل رسول الله ﷺ وفترت حدة قتالها لما أصابها من إرهاق وهزيمة في الجولة الأولى من المعركة، ورأت أن رسول الله ﷺ ثاب إليه أصحابه من كل ناحية، وأخذوا يلمون شملهم وهم يقاتلون بشراسة وكأنما خرجوا من عماية وهم يتلمظون غيظاً، وخشيت أن ينقلب سير الحوادث من جديد عليها بعدما نالت من الظفر بقتل عدد من جيش المسلمين، ورأت أن تكتفي بهذا القدر من النصر الذي لم تكن تتوقعه، وتكتفي من الغنيمة بالإياب قتل حمزة سيد الشهداء وانتقلت من القتال إلى التمثيل بشهداء المسلمين مثل حمزة بن عبد المطلب الذي بقرت بطنه هند بنت عتبة، وأخذت من كبده فلاكتها فلم تصغها للغيظ والحنق عليه لقتل أباها عتبة وأخاها الوليد وعمها شيبة وبكرها ببدر ولأنه قتل طعيمة بن عدي عمّ مطعم بن جبير وقتل خلقاً كثيراً يوم بدر، وهو الذي روت عنه فلول جيش المشركين بمكة بأنه فعل بهم الأفاعيل. وكما مرّ بنا فإنه كان مستهدفاً بالقتل حتى قبل خروج جيش المشركين من مكة، وعندما قتل رضي الله عنه وانتهت المعركة علت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان على صخرة عالية وأنشأت تقول:

نحن جزيناكم بيوم بدر ... والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان عن عتبة لي من صبر ... ولا أخي وعمه وبكر
شفيت نفسي وقضيت نذري ... شفيت وحشي غليل صدري
فشكر وحشي على عمري ... حتى تضم أعظمي في قبري

وروي عن قاتله (وحشي الحبشي) غلام مطعم بن جبير، والذي أغراه سيده بالعتق إن هو قتل عمّ محمد ﷺ قال:

رأيته كالجمل الأورق يهد الناس بسيفه هداً، ما يقوم له شيء، فجعلته هدفي وكمنت له في صخرة حتى دنا مني فقذفته بحربتي الحبشية والتي يقول عنها قلما تخطىء فوضعتها في ثنته (يعني عانته) حتى خرجت من بين وركيه.

كما أن عمرو بن ثابت المعروف بالأصيرم من بني عبد الأشهل كان يأبى الإسلام فلما كان يوم أحد قذف الله في قلبه الإسلام وأخذ سيفه ولحق بالنبي ﷺ فقاتل فأثخن بالجراح، ولم يعلم أحد أمره، فلما انجلت الحرب طاف بنو عبد الأشهل فقالوا: والله إن هذا الأصيرم ما جاء به؟ وقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الأمر ثم سألوه ما الذي جاء بك؟ أحدب على قومك أم رغبة في الإسلام؟ فقال: بل رغبة في الإسلام، آمنت بالله ورسوله ثم قاتلت مع رسول الله ﷺ حتى أصابني ما ترون ومات من وقته، فذكروه لرسول الله ﷺ فقال هو من أهل الجنة. وأنزل الله على المسلمين النعاس أمنة منه في غزاة بدر وأحد.

والنعاس في الحرب وعند الخوف دليل على الأمن وهو من الله، وفي الصلاة ومجالس الذكر والعلم من الشيطان.

وقاتلت الملائكة يوم أحد عن رسول الله ﷺ ففي الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه عليهما ثياب بيض كأشد القتال ما رأيتهما قبل ولا بعد.

أسباب الفشل في غزوة أحد:

ويعود الفشل الذي وقع للمسلمين في غزوة أحد لعدة أسباب منها:

أولاً: الابتلاء الذي أصاب جيش المسلمين بسبب عصيانهم ومخالفة بعضهم أمر قائدهم رسول الله ﷺ وهم الرماة الذين تركوا موقعهم في المعركة وقد قال الله فيهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٢] . وهو تقرير حال الرماة عندما ضعف بعضهم أمام إغراء الغنيمة.

ثانياً: بيّن الله سبحانه وتعالى أن جيش المسلمين في أحد لم يكونوا على قلب واحد وأنه ابتلاهم ليميز الخبيث من الطيب، وهو قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧٩] . وأن ذلك من أسباب ما أصابهم لتميز الصحيح من السقيم، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ﴾ [آل عِمرَان: الآيتان ١٦٦، ١٦٧].

ثالثاً: أن المسلمين خيّروا في فداء أسرى بدر إن شاؤوا القتل وإن شاؤوا الفداء على أن يقتل منهم عاماً مقبلاً مثلهم قالوا: الفداء، ويقتل منّا.

روى الترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم وإسناد صحيح عن علي بن أبي طالب

رضي الله عنه قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ يوم بدر فقال: خير أصحابك في الأسرى. إن شاؤوا الفداء على أن يقتل منهم عاماً مقبلاً مثلهم، قالوا: الفداء ويقتل منا ويدخل قابلاً منّا الجنة سبعون.

وهذا ما ذكره البدوي الشنقيطي في نظم الغزوات.

والمسلمون خيروا بين الفدا   وقدرهم في قابل يستشهدا
وبين قتلهم فمالوا للفدا   لأنه على القتال عضدا
وأنه أدى إلى الشهادة   وهي قصارى الفوز والسعادة

وهذا ما أشار إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ [آل عمران: الآية ١٦٥].

وهي إشارة إلى العوامل مجتمعة، فالتخيير في الفداء يوم بدر والمخالفة الواقعة في نفس معركة أحد واتخاذ الشهادة الذي أنعم الله عليهم وبإكرامهم به كأنه سبحانه خاطبهم على ذلك الاستنكار، قتلتم ببدر سبعين وأسرتم سبعين والآن تعترضون وتقولون كيف يدان منّا ونحن مسلمون وأعداؤنا كفار ونحن على الحق وهم على الباطل وفينا رسول الله ﷺ والله يقول: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصَّافات: الآيات ١٧١ -١٧٣] . ويقول تعالى: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٢٢﴾ [الفَتْح: الآية ٢٢] ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ [الفَتْح: الآية ٢٣] . وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [المجَادلة: الآية ٢١] .

قال ابن القيم رحمه الله: فإن قيل فقد قاتلوهم يوم أحد وانتصروا عليهم ولم يولوا الأدبار فأجاب عن ذلك بقوله هذا وعد معلق بشرط وهو الصبر والتقوى وفات هذا الشرط يوم أحد بفشلهم المنافي للصبر وتنازعهم وعصيانهم المنافي للتقوى ـ فصرفهم عن عدوهم ولم يحصل الوعد لانتفاء شرطه.

نتائج غزوة أحد:

وكما مرّ بنا آنفاً بأن قريشاً لما عجزت عن حسم المعركة في أحد بعد النصر الذي حققته باختراق فرسانها صفوف جيش المسلمين، وقتل عدد منهم في الجولة الثانية من المعركة وفشلت كل محاولاتها في قتل رسول الله ﷺ أو الخلوص إليه، ورأت التفاف أصحابه وتجمعهم من جديد للدفاع عنه في حماس منقطع النظير، ففضلت أن تكتفي بهذا القدر من النصر الذي لم تكن تتوقعه وأن تطير به إلى مكة حتى لا يتحول مرة أخرى إلى

هزيمة، فأوقفت الحرب وأشرف زعيمها أبو سفيان بن حرب بجانب الجبل الذي فيه رسول الله ﷺ وأصحابه فقام ينادي أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه، أفيكم ابن قحافة؟ فلم يجيبوه، أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه، ولم يسأل إلاّ عن هؤلاء لعلمه أن قوام الإسلام بهم، ثم قال: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فلم يملك عمر بن الخطاب نفسه أن قال: كذبت يا عدو الله، إن الذين ذكرتم أحياء وقد أبقى الله لك ما يسوؤك ثم صرخ مرة أخرى (أي أبو سفيان) الحرب سجال يوم بيوم بدر، وقام يعظم صنمه فيقول أعل هبل فقال رسول الله ﷺ: **«قولوا الله أعلى وأجل ثم نادى أبو سفيان أنه كان في قتلاكم مثلة والله ما رضيت ولا سخطت ولا نهيت ولا أمرت ثم نادى أن موعدكم بدر العام المقبل»**، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب: **«قل نعم هو بيننا وبينك موعد»**.

وانطلق المشركون إلى مكة، وخشي المسلمون أن يكون لانسحابهم نية لمهاجمة المدينة الخالية من المقاتلين لسبي الذراري وإحراز الأموال، وشق ذلك عليهم فأمر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب أن يخرج في أثر جيش قريش فإذا رآهم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فهم يريدون مكة وإن ركبوا الخيل ساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، ثم قال ﷺ: **«والذي نفسي بيده لإن أرادوها (أي المدينة) لأسيرن إليهم ثم لأناجزنهم فيها»**، وعاد علي رضي الله عنه قائلاً: رأيتهم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل واتجهوا إلى مكة، وقام رسول الله ﷺ يتفقد أصحابه ويخفف ما نزل بهم، ويسكب من إيمانه على نفوسهم ما ملأها عزائم ورضاً واستكانةً لقضاء الله وقدره.

أهم موجبات النصر: ذكر الله والثناء عليه.

قال الإمام أحمد (رحمه الله) لما كان يوم أحد وانكفأ المشركين، قال رسول الله ﷺ: استووا حتى أثنى عليَّ ربي عز وجل، فصاروا خلفه صفوفاً فقال: اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت ولا هادي لمن أضللت ولا مضل لمن هديت ولا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت ولا مقرب لما باعدت ولا مبعد لما قربت، اللهم أبسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك العون يوم العيلة والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتو الكتاب إله الحق.

مكاسب قريش في وقعة أحد:

وكانت نتيجة المعركة أن قريشاً حققت إنجازاً في الموقعة لم تكن تتوقعه، منه قتل سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وهو من أبرز أبطال المسلمين وقتلت أيضاً حامل اللواء مصعب بن عمير، وأيضاً عبد الله بن جبير قائد الرماة وعدداً من أبطال المسلمين يزيدون على السبعين.

وأشد من ذلك كله ما وقع من انصراف أصحاب رسول الله ﷺ عنه حتى انفرد في عدد قليل ماتوا دفاعاً عنه واحداً تلو الآخر، مما جعله يتعرض لهجمات الأعداء ويثخن بالجراح وهو صامد يدعو أصحابه في أُخراهم وهم كما قال القرآن العظيم: ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٣] .

ولكن ثبات رسول الله ﷺ والقلة التي انحازت إليه بعد الارتباك الذي حصل في صفوف المسلمين وما أظهرته من شجاعة وبأس أفقد المشركين حلاوة النصر، مما اضطرهم إلى الانسحاب مسرعين قبل غروب شمس ذلك اليوم تاركين قتلاهم وراءهم، ونستنتج من سرعة هروبهم أنهم كانوا في خوف ورعب شديدين حيث لم يأسروا أحداً من المسلمين رغم تضاعف أعدادهم أربع مرات وحتى لم يجرؤوا على دخول المدينة التي كانت في اتجاه وجهتهم وهي خاوية من مقاتليها.

قريش يتلاومون بعد معرفة حصيلة المعركة وأنها لم تحقق لهم شيئاً:

وكان أول اجتماع يضمهم في الفضاء الرحب بعد هروبهم من المعركة (بالروحاء) على بعد أربعين ميلاً من المدينة ليعاودوا النظر فيما حدث، وهذا يدل على الذعر الذي أصابهم، وبعد مداولات أخذوا يتلاومون: يقول بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئاً أصبتم شوكة القوم، ثم تركتموهم ولم تبتروهم، وهموا بالرجوع لملاقاة المسلمين ليستأصلوا شأفتهم على حد زعمهم ولكن رسول الله ﷺ كان أخذ الحيطة في ذلك الأمر فخرج بأصحابه في إثر جيش قريش تحسباً لما يبدر منهم.

مكيدة معبد الخزاعي في تخذيل قريش:

وفي أثناء ذلك التقى رسول الله ﷺ بمعبد بن أبي معبد الخزاعي عند حمراء الأسد التي عسكر فيها وكان لا يزال مشركاً فأسلم معبد، وقال (أي معبد): يا رسول الله أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك في نفسك وفي أصحابك ولوددنا أن الله عافاك فيهم وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح لرسول الله ﷺ وبعد إسلام معبد أمره رسول الله ﷺ أن يلحق بأبي سفيان فيخذله، ولحقه بالروحاء وكان أبو سفيان لا يعلم بإسلام معبد،

فقال أبو سفيان: ما وراءك يا معبد؟ قال محمد وأصحابه: قد تحرقوا عليكم وخرجوا في جمع لم يخرجوا في مثله، وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابه، فقال أبو سفيان ويلك يا معبد ما تقول؟ فقال: ما أرى، أن ترتحل حتى لا يطلع عليك أول الجيش من وراء هذه الأكمة. وعند ذلك رأى أبو سفيان أن يغتنم الأوبة الرابحة ويعود بجيشه إلى مكة.

ولقد كانت الهزيمة في أحد هي أول هزيمة يصطدم بها المسلمون الذين نصرهم الله ببدر، وهم ضعاف قليلون فكأنما وقر في نفوسهم أن النصر في كل موقعة سيكون حليفهم، فلما أن صدمتهم الهزيمة في أحد، فوجؤا بالإبتلاء وكأنهم كانوا لا ينتظرونه، وقالوا: كيف يدان منّا ونحن مسلمون وأعداؤنا مشركون ونحن على الحق وهم على الباطل وفينا رسول الله ﷺ وهذا هو الذي رد عليه القرآن الكريم: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦٥].

ولهذا طال الحديث عن هذه الواقعة في القرآن الكريم حيث افتتح سبحانه وتعالى واقعة المعركة بقوله: ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١ إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٢٢﴾ [آل عِمرَان: الآيتان ١٢١، ١٢٢]. إلى قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧٩]. وهي تمام ستين آية من سورة آل عمران.

ويقول السيد قطب رحمه الله في تحليله لمعركة أحد: إن القرآن لا يتتبع أحداث المعركة للرواية والعرض، ولكنه يتتبع دخائل النفوس وخوالج القلوب ويتخذ من الأحداث تنبيهاً وتنويراً وتوجيهاً، وهو لا يعرض الأحداث عرضاً تاريخياً مسلسلاً بقصد التسجيل وإنما يعرضها للعبرة والتربية واستخلاص القيم الكامنة وراء الأحداث وسوف نعرض بعضاً من تحليل السيد قطب رحمه الله لمعركة أحد فيما بعد.

جرت حكمة الله أن للأنبياء وأتباعهم أن يدالوا مرة في حروبهم ويدال عليهم أخرى، ولكن تكون العاقبة لهم كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصَّافات: الآيات ١٧١-١٧٣]. ويقال من سعد بصلاح العواقب، فقد اغتفر له سوالف المكاره.

وكما قال هرقل عظيم الروم عند استجوابه لأبي سفيان بن حرب عن تعاملهم مع رسول الله ﷺ ومناجزتهم له فقال هرقل:

هل قاتلتموه؟ قال أبو سفيان: نعم، قال: كيف الحرب بينكم وبينه. قال سجال: يدال علينا المرة ونذال عليه الأخرى. قال هرقل: كذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة[1].

تحليل السيد قطب لأحداث المعركة:

قال السيد قطب رحمه الله في تحليله، إن القرآن استطرد أحداث الواقعة مرة بأخذ المسلمين بالتأسية وتارة بالاستنكار وتارة بالتوبيخ وبالتعزيز تارة، وبالمثل تارة تربية لنفوسهم وتصحيحاً لتصورهم، وإعداداً لهم، وضرب لهم المثل بمن سبقهم من المؤمنين: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٤٦] . فما ضعفت نفوسهم لما أصابهم من البلاء والكرب والشدة والجراح، وما ضعفت قواهم عن الاستمرار في الكفاح وما استسلموا للجزع.

والقرآن أطال الحوار في عرض وقعة أحد ليسلط الأضواء على جميع الجوانب التي دارت فيها المعركة فلم يبق جانب منها إلاّ سجله تسجيلاً دقيقاً أشد من كل تصور آخر ورد في روايات السيرة النبوية على طولها وتشعبها.

وصوّر مشهداً كاملاً لمسرح المعركة لم يترك فيه حركة في الميدان ولا خاطرة في النفوس ولا سمة في الوجوه ولا خالجة في الضمائر إلاّ ويثبتها وكأن العبارات شريط مصور يمر بالبصر وخاصة حين يصور حركة الاضطراب والاصعاد في الجبل والهروب في دهش وذعر ودعاء الرسول ﷺ لأصحابه الفارين عن المعركة: ﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٣] . والله سبحانه وتعالى ينعي على المؤمنين فرارهم عن نبيهم ﷺ وهم كانوا يتمنون الموت وهي الشهادة قبل أن يلقوا عدوهم.

والكلام موجه للذين استنهضوا رسول الله ﷺ للخروج للعدو وهو بخلاف رأيه ﷺ فقد رأيتم الموت وهي الشهادة التي كنتم تطلبون وأنتم تنظرون فما بال فراركم عنها.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ . من الحق ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧٩] . أي ما كان الله ليدع الصف المؤمن مختلطاً غير مميز يتوارى فيه المنافقون وراء دعوى الإيمان وكل هذا يقتضي أن ينصهر الصف المؤمن ليخرج منه الخبث أو ينضغط لتتهاوى منه اللبنات الضعيفة وأن تسلط عليه الأضواء

---

(١) صحيح البخاري.

لينكشف الزيف.

وهذا ما أراد الله سبحانه وتعالى أن يعلمه للأمة الإسلامية وهو يكشف لها أخطاءها وعفى عنها ويربطها بسنته الكونية.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٧] . ليقول للمؤمنين، إن انتصار المشركين في هذه المعركة ليس هو السنَّة الثابتة، إنما هو حادث عابر وراء حكمة خاصة، ثم يدعوهم إلى الصبر والاستعلاء بالإيمان وأن يكن إصابتهم جراح وألم ـ فقد أصاب المشركين مثلها ـ وإن هناك حكمة وراء ما وقع يكشف لهم عنها. حكمة تميز الصفوف، وتمحيص القلوب، واتخاذ الشهداء الذين يموتون دون عقيدتهم ووقف المسلمون أمام الموت وجهاً لوجه وقد كانوا يتمنونه ليزنوا وجودهم وأمانيهم بميزان واقعي ثم في النهاية يمحق الكافرين ثم إعداد الجماعة المسلمة ذلك الإعداد المتين... وإذن كانت هي الحكمة العليا من وراء الأحداث كلها سواء كانت هي النص أو هي الهزيمة.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عِمرَان: الآيات ١٣٧ - ١٤٣] .

لقد أصاب المسلمين القرح في هذه المعركة، وأصابهم القتل والهزيمة، والقرآن الكريم رد المسلمين إلى سنن الله في الأرض، يردهم إلى الأصول التي تجري وفق الأمور، ولا يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين لينالوا النصر والتمكين بدون الأخذ بالأسباب، وأولها طاعة الله ورسوله ـ فإذا هم درسوا التجربة التي استفادوا من معركة أحد وأدركوا مغزى الهزيمة، تكشفت لهم الحكمة من وراء الوقائع ـ وأن الابتلاء لتمحيص السرائر وامتحان قوة الصبر على الشدائد، وأن الشدة بعد الرخاء والرخاء بعد الشدة هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس، ثم بدأ القرآن يذكرهم بالمعركة التي انتهت بالنصر وهي معركة بدر لتكون هذه أمام تلك مجالاً للموازنة وتأمل الأسباب والنتائج ومعرفة مواطن الضعف ومواطن القوة وأسباب النصر وأسباب الهزيمة.

فإنهم لو انتصروا دائماً دخل معهم المؤمنون وغيرهم، ولم يتميز الصادق من غيره ولقد كان الله قادراً على أن يمنح النصر لنبيه ودعوته ودينه ومنهجه منذ اللحظة الأولى بلا

كرب يصيب المؤمنين ولا بلاء ـ وقادراً على أن ينزل الملائكة كما فعل في وقعة بدر. ولكن المسألة إنما هي تربية الجماعة المسلمة التي تعد لتتسلم قيادة البشرية فيذيقها بعض البأس بالكرب والشدة، فتلجأ إليه وتعرف أن الذي أصابها بسبب انحرافها وعصيانها عن طاعة رسول الله ﷺ وذلك لتخرج من المعركة بالتجربة والرصيد.

لقد كان هناك قدر الله وراء أفعال العباد، فلما أن ضعفوا وتنازعوا وعصوا صرف الله قوتهم وبأسهم وانتباههم عن عدوهم وصرف الرماة عن ثغرة الجبل وصرف المقاتلين عن الميدان فلاذوا بالفرار ووقع كل هذا مترتباً على ما صدر منهم ومدبراً من الله ليبتليهم...

ولقد رحمهم وعفا عنهم وبيّن لهم أنه كان النصر أولاً وكانت الهزيمة ثانياً ثم كان الانتصار الكبير بعد النصر والهزيمة، انتصار المعرفة الواضحة لأسباب الفشل والهزيمة والرؤية المستنيرة للحقائق التي جلاها القرآن الذي بيّن تمحيص النفوس وتميز الصفوف وذلك بتمييز المنافقين إلى حد كبير ووضوح سمات النفاق وسمات الصدق في القول والعمل وإلزام الطاعة والاتباع والتوكل على الله وحده ورد الأمر لله وحده في النصر والهزيمة وفي الموت والحياة.

وكانت هذه الحصيلة الضخمة التي استقرت في الجماعات المسلمة من وراء الأحداث، ومن وراء التوجيهات القرآنية أكبر وأخطر بما لا يقاس من حصيلة النصر والهزيمة والغنيمة، لو عاد المسلمون من الغزوة بالنصر والغنيمة لم تكن لديهم هذه الحصيلة الضخمة من العبرة والتجربة والتربية والوعي والنضج والتمحيص فهم أحوج إلى ذلك من النصر والغنيمة.

زيادة أن يبقى للأمة الإسلامية وأجيالها المتعاقبة هذا الرصيد من التجارب والحقائق والتوجيهات والتي لا تقدر بثمن ولو كان هذا الثمن هو النصر وأهم من ذلك أن المسلمين عرفوا أن لهم عدواً متلبساً بهم في نفس دورهم.

فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر ـ دخل معهم في الإسلام ظاهراً من ليس معهم باطناً ـ ولما جاءت المحنة في هذه الغزوة أطلق المنافقون ألسنتهم وتكلموا بما كانوا يكتمونه، وعاد تلويحهم تصريحاً، بل راحوا يثيرون الزلزلة والبلبلة والحسرة في قلوب أهل الشهداء بعد المعركة، ويقولون لهم: (لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا) وخاصة أن عبد الله بن أبي سلول كان ما يزال سيداً في قومه ولم يكشف لهم نفاقه بعد.

لقد انتهز المنافقون والكفار واليهود بالمدينة ما أصاب المسلمين من الهزيمة والقتل والقرح ليثبطوا عزائم المسلمين ويخوفوهم عاقبة السير مع رسول الله ﷺ ويصوروا لهم مخاوف القتال وعواقب الاشتباك مع مشركي قريش وحلفائهم.

وجو الهزيمة هو أصلح الأجواء للبلبلة وخلخلة الصفوف وإشاعة عدم الثقة في القيادة والتشكيك في جدوى الإصرار على المعركة مع الأقوياء وإثارة المواجع الشخصية والآلام الفردية وتحويلها لهدم كيان العقيدة ثم للاستسلام للأقوياء الغالبين، وهذا هو هدف اليهود والمنافقين والمشركين وهكذا تلقى الصحابة ما أصابهم في سبيل الله بالفرح والسرور بعد أن عرفوا أن الذين قتلوا منهم ليسوا أمواتاً وإن حجبوا عنهم (بل أحياء عند ربهم يرزقون). وأن الله اختارهم هم أهل هذه الموقعة ليتخذ منهم شهداء.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ [آل عِمرَان: الآيات ١٦٩ - ١٧٢].

وهم جيش غزوة أحد وهي العصبة المؤمنة التي استجابت لله والرسول بعد كل ما أصابها من القرح والألم في الأجسام والنفوس، فلم يعقبها ذلك أن تخرج في اليوم الثاني من المعركة لتتعقب قريشاً وجيشها، بعد ذهابها خوفاً من كرّها بالعودة على المدينة، وهو ما يعرف بغزوة حمراء الأسد والذين ورد فيهم قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ في معركة أحد ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عِمرَان: الآيات ١٧٢ - ١٧٤]. وهي غزوة حمراء الأسد. إنهم أولئك الذين دعاهم الرسول ﷺ إلى الخروج معه كرة أخرى غدوة المعركة المريرة، وهم مثخنون بالجراح، وهم ناجون بشق الأنفس من الموت الذي رأوه أمس رأى العين في المعركة التي دارت في أحد، وهم لم ينسوا هول ما أصابهم وقد فقدوا من أعزائهم ما فقدوا، ومع هذا لم يتخلفوا بل استجابوا كما قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧٢] هذا هو الإيمان الصادق. (انتهى من الظلال بتصرف).

غزوة حمراء الأسد:

روى ابن إسحاق أن غزوة أحد وقعت يوم السبت في النصف من شوال، فلما كان من الغد أذن مؤذن الرسول ﷺ في الناس بطلب العدو، وأن لا يخرج إلاّ من حضر معنا في وقعة أحد أمس.

وروى ابن إسحاق أن رجلين أخوين من بني الأشهل من الأنصار كانا شهدا أحداً فرجعا مثخنين بالجراح، ولما أذن رسول الله ﷺ بالخروج قال أحدهما للآخر: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ والله ما لنا من دابة نركبها وما منّا إلاّ جريح ثقيل، قال الآخر: وهو الذي روى الحديث وأنت أيسر جراحاً مني، فخرجنا فكان إذا غلب حملته عقبة حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون.

هذا نموذج وفق المفهوم الجديد الذي أقامته وقعة أحد للمؤمنين الذين استجابوا لله والرسول لما دعاهم لما يحييهم وهم الذين قال الله عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: الآيتان ١٧٣، ١٧٤].

بهذا يسجل الله لهم في كتابه الخالد صورتهم هذه وموقفهم هذا، وهي صورة رفيعة وموقف كريم.

ومن يعيد النظر في استجابة هذه العصبة وموقفها، يحس أن كيان الجماعة الذي لم يكن منسجماً في وقعة أحد التي مرت أمس قد تبدل كلمة ما بين يوم وليلة. فقد التحمت مع الحقيقة وانجلت صورة التخاذل وخلصت من تلك الأرجحة والتي حدثت بالأمس فما كانت سوى ليلة واحدة تفرق بين الجماعة اليوم وموقفها الأمس.

والفارق هائل، فقد فعلت التجربة المريرة فعلها في النفوس، وقد هزّتها الحادثة هزاً عنيفاً ونالت رضوان الله وعادت بالنجاة والرضى ولله عاقبة الأمور.

فصل

وقد تعرض القرآن الكريم إلى الطوائف التي كان لها دور في الهزيمة ومنهم:

١ - **الطائفة الأولى:** طائفة عبد الله بن أبي بن سلول وهم المنافقون عندما انخزل بثلث الجيش قبل الخروج إلى المعركة، وقالوا في اعتذارهم لما وبّخهم عبد الله بن عمرو بن حرام الذي قال لهم تعالوا في سبيل الله أو ادفعوا، وكان اعتذارهم أن قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم، وهم الذين قالوا لإخوانهم بعد المعركة: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦٨].

٢ - **الطائفة الثانية:** وهي التي كادت أن تنزلق وراء الأولى وتفضل الله عليهم وثبتهم فأنزل الله فيهم قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٢٢]. وهم بنو حارثة وبني سلمة.

٣ ـ **الطائفة الثالثة:** وهم الذين نهى الله المؤمنين عما يقولون، وورد فيهم قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٦].

٤ ـ **الطائفة الرابعة:** وهم الرماة فقد غلَّبوا المصالح الشخصية على امتثال أمر رسول الله وهو القائد مما مكن لفرسان قريش أن يلتفوا على جيش المسلمين، وذلك بإغراء الطمع في الغنيمة، وقد ورد فيهم قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٢].

٥ ـ **الطائفة الخامسة:** بعض الجيش الذين تركوا القتال أثناء المعركة لما سمعوا أن رسول الله ﷺ قتل وانهزموا ونزل فيهم قول الله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٣].

وهم تركوا رسول الله ومن معه في المعركة حتى أرهقهم العدو.

بعض الأحداث بين أحد والأحزاب:

كان قد مر بنا ونحن نتحدث عن نتائج معركة أحد أن المنافقين واليهود ومن شايعهم من المشركين حول المدينة الذين كانوا يداهنون الإسلام أو يهادونه، أخذوا من وقع الهزيمة التي أصابت المسلمين مادة إثارة يبثون من خلالها سمومهم ويجعلون منها فتنة في قلوب أهل المصابين في إظهار المواجع والتحسر وخاصة أن جو الهزيمة ملائم لنشر الاضطراب والبلبلة في صفوف المسلمين ليثبطوهم عن مواصلة الجهاد وخاصة بعد انكسار جيشهم وما أصابهم من قتل وقرح في معركة أحد وهي فرصة لإظهار الشماتة والحنق والغيظ الممتلئة به قلوب أعداء الإسلام.

ولكن الذي حصل هو عكس ذلك فقد التأم الصف رغم الجراح، واطمأن المسلمون على الثقة والثبات على نصر دينهم وهم كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧٢].

فقد صمدوا أمام كل الهزات التي مرت بهم، ورغم الخسائر التي تلاحقت عليهم من جراء قتل الدعاة الذين خرجوا لنشر الإسلام في ربوع نجد وما حولها.

فقد غدرت بنو لحيان بقوم الرجيع وعددهم عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ قتلت منهم ثمانية وباعت اثنين لقريش ليقتلوهم مقابل من قتل منهم يوم بدر وهما زيد بن

الدثنة وخبيب بن عدي. كما غدرت قبائل عصية ورعل والعضل وهم من بني سليم على بعث بئر معونة وهم القرّاء وعددهم سبعون الذين أرسلهم رسول الله ﷺ لنشر الإسلام في ربوع نجد بناء على طلب أبي براء، وهو عامر بن مالك سيد بني عامر الملقب بملاعب الأسنة.

والذي قام بالغدر هو عامر بن الطفيل العامري ابن أخ أبي براء، وكان قد هدد رسول الله ﷺ ـ قائلاً: لأملأنها عليك (يعني المدينة) خيلاً جرداً وشباناً مرداً ـ فدعا عليه رسول الله ﷺ فقال: اللهم أكفنيه بما شئت فأصابته الغدة ـ وهو مرض قاتل ـ فقال كلمته المشهورة (أغدة كغدة البعير وموت في بيت امرأة من سلول) فمات لا رحمه الله. ولكن تلك الأحداث رغم فظاعتها وقسوتها لم توهن المؤمنين.

ويقول العلامة أحمد البدوي الشنقيطي في نظمه للغزوات:

ثم غزا لحيان جراء الرجيع ... فاحتضنوا بكل باذخ منيع

بعث الرجيع ستة أو عشرة ... لحيان حي من هذيل غدرة

والعضل والقارة نجلا الهون ... نجل خزيمة سعوا في الهون

وأربعو بئر معونة الغرر ... ابن الطفيل عامر فيهم خفر

أبا براء وكلا البعثين ... قد أرسلا ليرشدا في الدين

فرسول الله ﷺ غزا بني لحيان في ديارهم ولكنهم لم يقاوموا وتفرقوا على رؤوس الجبال. ومكث رسول الله ﷺ شهراً يدعو في صلاة الصبح على أحياء العرب الذين غدروا بأصحابه، وهم رعل وذكوان وعصية وبني لحيان، وتتابعت الأحداث إلى أن أقدم يهود بني النضير بالتآمر على قتل رسول الله ﷺ وتفصيل ذلك، أن رسول الله ﷺ خرج إليهم يطلب مشاركتهم في دية قتيلين حسب المعاهدة التي كانت بينه وبينهم، فلما أتاهم، قالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض، وكان في نفر قليل من أصحابه فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حالة هذه، ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد فقالوا: من رجل يعلو هذا البيت فيلقي عليه هذا الرحى فيرحنا منه. فندبوا لذلك أشقاهم وهو عمر بن جحاش، فقال سلام بن مشكم اليهودي: لا تفعلوا فوالله ليخبرن بما هممتم به وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه. فجاء الخبر من السماء ـ فقام رسول الله ﷺ وخرج راجعاً إلى المدينة، وأمر بالتهيؤ لحربهم، فتحصنوا في الحصون، وأرسل إليهم عبد الله بن أبي بن سلول رئيس المنافقين أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، ولكن المنافقين لم يوفوا بعهدهم، وقذف الله الرعب في قلوب بني النضير

فاستسلموا بلا حرب ولا قتال وسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت إبلهم من أموالهم إلاّ السلاح، ففعل، فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام.

ومن أشرافهم الذين بقوا في خيبر، والذين كان لهم دور في تأليف جيش الأحزاب سلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب.

ويقول الشيخ أحمد البدوي صاحب الغزوات في غدر بني النضير:

ثم النضير هاجها أن جاءهم ... مستوهباً من دية ما نابها
فأصعدوا أحدهم ليلقيا ... عليه صخرة تريح الأغبيا
وأخبر ابن مشكم أن يخبرا ... وزجر الرهط فلم نزجرا
وجاءه الخبر من رب السما ... وفي حصارها العقار حرما
والحشر أنزلت بها ونقضا ... نجل أبي عهدهم ورفضا

وأنزل الله سبحانه وتعالى فيهم قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحَشر: الآية ٢] . إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحَشر: الآيات ١١-١٤] .

الفصل الثالث

غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق

كانت غزوة الخندق في شهر شوال من السنة الخامسة وكان أبو سفيان بن حرب لما أراد أن ينصرف يوم أحد نادى الموعد بيننا وبينكم بدر الصفراء رأس الحول، نلتقي بها فنقتتل فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب: قل نعم، إن شاء الله. فافترق الناس على ذلك الموعد خرج رسول الله ﷺ في أصحابه إلى بدر، ولكن قريشاً أخلفوه الموعد واعتذروا بأن السنة جدب، وأنه لا يصح لهم إلاّ عام خصب غيداق.

سبب غزوة الأحزاب:

كان بنو النضير الذين أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة يعلمون بنية قريش ورغبتها في قتال رسول الله ﷺ وخاصة لما رأوا انتصارها (أي قريش) في وقعة أحد فشجعهم ذلك أن يحزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ فخرج أشرافهم، منهم سلام بن أبي الحقيق النضري وحيي بن أخطب النضري وكنانة بن أبي الحقيق النضري وهوذة بن قيس الوائلي وأبو عمار الوائلي في نفر من قومهم، خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب، ولديكم العلم بما أصبحنا فيه نحن ومحمد، أفيدونا ديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه، فسرت قريش لذلك ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ وهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النِّساء: الآية ٥١] . ثم خرج ذلك النفر إلى غطفان، من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشاً استجابت لدعوتهم، فاجتمعوا معهم على ذلك. وأغروا غطفان بإعطائهم نصف تمر خيبر.

ثم طافوا بقبائل العرب يدعونهم إلى ذلك فاستجاب لهم من استجاب فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب في أربعة آلاف ووافتهم بنو سليم بمر الظهران وخرجت بنو أسد وفزارة وأشجع وبنو مرّة وجاءت غطفان عيينة بن حصن واجتمعت على المسلمين بالمدينة عشرة آلاف مقاتل بعدتهم وخيلهم التي قالوا إنها بلغت سبعمائة فرس.

حفر الخندق:

ولما سمع رسول الله ﷺ ما أجمعوا له من الأمر. ضرب بالخندق على المدينة فعمل فيه رسول الله ﷺ بنفسه ترغيباً للمسلمين في الأجر، وجدّوا في إنجاز حفر الخندق قبل أن يصل العدو ولكن بعض المنافقين كانوا يتسللون لواذاً من غير أن يعلموا رسول الله ﷺ فأنزل الله فيهم: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور: الآية ٦٣] .

روى ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ لما فرغ من حفر الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجمع الأسيال، بين الجرف والغابة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب إلى جانب أحد وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين والخندق بينهم وبين القوم.

غدر بني قريظة ونقضهم المعاهدة مع رسول الله ﷺ:

وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضري إلى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان قد أودع رسول الله ﷺ على قومه وعاقده على ذلك وعاهده. فلما سمع كعب بحيي بن أخطب أغلق دونه باب حصنه فاستأذن عليه حيي فأبى أن يفتح له، فناداه ويحك يا كعب افتح لي، فرد عليه ويحك يا حيي إنك أمرؤ مشؤوم، وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلاّ وفاء وصدقاً، قال: ويحك افتح لي أكلمك، قال: ما أنا بفاعل فلم يزل يكلمه حتى فتح له، فلما دخل عليه قال له: لقد جئتك بعز الدهر، جئتك بقريش وغطفان وأسد وغزارة وأشجع وبني مرّة وسليم، لحرب محمد وقد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه.

قال كعب جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هرق ماءه... فهو يرعد ويبرق وليس فيه شيء، فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب (أي يخاتله) حتى وافق على نقض العهد مع محمد والدخول مع الأحزاب في الحرب.

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ خبر بني قريظة ونقضهم للعهد بعث إليهم رسول الله ﷺ السعدين ـ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ـ وهما سيدا الأنصار ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير. فوجدوا القوم على أخبث ما يكون فرجعوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: عضل والقارة (أي كغدر عضل والقارة)، فقال رسول ﷺ: الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين.

وعظم عند ذلك الابتلاء واشتد الخوف وأصبح عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل الظن.

الخوف يظهر بواطن النفاق الذي كان مستتراً:

ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال معتب بن قشير: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، وحتى قال أوس بن قيظي أحد بني حارثة: يا رسول الله: إن بيوتنا عورة من العدو وذلك على ملأ من رجال قومه.

ولا يوجد وصف في كتب السير أبلغ ولا أشمل مما جاء في القرآن الكريم عن وصف حال المسلمين في وقعة الأحزاب، والقرآن كما قلنا لا يسجل الأحداث

بالتسلسل، وقد بدأ بتذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم أن رد عنهم هذه الجيوش الجرارة التي أرادت أن تستأصلهم، والتي لا قبل لهم بها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الأحزَاب: الآية ٩] . ثم يأخذ بعد هذا الإجمال بالتفصيل: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزَاب: الآيات ١٠-١٣] .

إنها صورة للهول الذي روع المدينة، والكرب الذي شملها، والذي لم ينج منه أحد من أهلها، وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان وأحلافهم من الأعراب واليهود من كل جانب، ثم كان الابتلاء كاملاً والامتحان دقيقاً لتميز المؤمنين من المنافقين والهول الذي يزلزل المؤمنين لا بد أن يكون هولاً مروعاً.

مناوشات فوق الخندق:

قال محمد بن سلمة: كان ليلنا بالخندق نهاراً، وكان المشركون يتناوبون بينهم فيغدو أبو سفيان في أصحابه يوماً، ويغدو خالد بن الوليد يوماً، ويغدوا عمرو بن العاص يوماً، ويغدوا هبيرة بن أبي وهب يوماً، ويغدوا عكرمة بن أبي جهل يوماً، ويغدوا ضرار بن الخطاب حتى عظم البلاء وخاف الناس خوفاً شديداً.

وقام أسيد بن حضير في مائتين على شفير الخندق، فكرت خيل المشركين يطلبون غرة وعليها خالد بن الوليد فناوشهم فزرق وحشي الحبشي الطفيل بن النعمان الأنصاري السلمي بمزراق فقتله بنفس الطريقة التي قتل بها حمزة رضي الله عنه يوم أحد وقال رسول الله ﷺ يومئذ: شغلنا المشركون عن صلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله أجوافهم وقلوبهم ناراً[1]، وبقي المشركون محاصرين رسول الله ﷺ وأصحابه قرابة شهر ولم يكن بينهم قتال التحام إلاّ النبل لأجل ما حال الله به من الخندق بينهم وبين المسلمين، إلاّ أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود جماعة معه منهم عكرمة بن أبي جهل أقبلوا نحو الخندق فلما وقفوا عليه قالوا: إن هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها، ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه، وجالت بهم في السبخة بين الخندق

(١) رواه مسلم.

وسلع، وكان عمرو بن عبد ود من أبطال قريش المعدودين وقاتل يوم بدر حتى أثخنته الجراح فلم يشهد يوم أحد.

فلما كان يوم الخندق خرج معلماً ليرى مكانه، فلما وقف وخيله قال: من يبارز؟ فقام علي رضي الله عنه وقال: أنا له. فقال له رسول الله ﷺ: **«اجلس إنه عمرو»**، ثم كرر عمرو النداء وجعل يؤنبهم ويقول: أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها، فقام علي وقال: أنا يا رسول الله وقام عدو الله يرتجز.

ولقد بححت من النداء لجمعكم هل من مبارز

فقال علي رضي الله عنه: أنا له يا رسول الله، ثم أذن له رسول الله ﷺ، وأعطاه سيفه ودعمه وقال: اللهم أعنه عليه، فبرز له علي وقال له: يا عمرو إنك قد كنت عاهدت الله ألاّ يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلاّ أخذتها منه، قال له: أجل. قال علي: فإني أدعوك إلى الله ورسوله وإلى الإسلام، قال: لا حاجة لي بذلك، قال: فإني أدعوك إلى النزال. فقال له: لم يا ابن أخي؟ والله ما أحب أن أقتلك، فقال له علي: لكني والله أحب أن أقتلك، فحمي عَمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل يشتد على علي فتنازلا وتجادلا وثار العجاج وسمع رسول الله ﷺ تكبيرة علي، فعلم أن علياً قتله. وألقى عكرمة بن أبي جهل رمحه وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت الخندق هاربة، ويقول في ذلك حسان أشعاراً كثيرة.

ورمى سعد بن معاذ بسهم فقطع منه الأكحل، رماه به عاصم بن عمرو بن قتادة وقيل حبان بن العرقة.

ثم إن نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي أراد هو الآخر أن يظهر مكانه فأراد أن يقتحم الخندق بفرسه فسقط هو وفرسه فيه فاندقت عنقه وقتله الله هو وفرسه فأرسل إخوانه في طلب جثته ليدفنوه وقالوا: نعطي الدية.

فقال رسول الله ﷺ: **«هو خبيث الجثة، خبيث الدية، فردها إليهم وقال: لا نمنعكم أن تدفنوه ولا أرب لنا في ديته»**، وكان أشد الكرب على المسلمين وهم محصورون بالمشركين من وراء الخندق، وما كان يبلغهم من نقض بني قريظة للعهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ وانضمامهم للأحزاب خشية أن يميلوا عليهم من خلف وهم قلة بين هذه الجموع التي جاءت لتستأصل المسلمين في معركة حاسمة، وما يبثه المنافقون والذين في قلوبهم مرض في المدينة وبين الصفوف: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: الآية ١٢] . فقد وجد هؤلاء الفرصة للكشف عما في

نفوسهم وهم آمنون أن يلومهم أحد، فالواقع في ظاهره يصدقهم ولكن الله له الأمر كله: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [الأحزاب: الآية ١٣] . وهنا يكشف القرآن عن الحقيقة ويجردهم من العذر والحجة، ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ ويضبطهم متلبسين بالكذب والاحتيال والجبن والفرار ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣﴾ وذلك بضعف إيمانهم وقلة وفائهم، ثم ذكر تعالى أنهم وقع منهم ذلك والأعداء بعد خارج المدينة ولم تقتحم عليهم بعد، فكيف إذا اقتحمت عليهم المدينة من أطرافها ثم سئلوا الفتنة وطلبت إليهم الردة عن دينهم لأتوها سراعاً، وما لبثوا عن ذلك إلاّ يسيراً حتى يرتدوا عن دينهم، ثم يفضحهم القرآن بنقض العهد بأنهم سبق أن عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبـار: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ۝١٤ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ۝١٥﴾ [الأحزاب: الآيتان ١٤، ١٥] .

قال ابن هشام من رواية ابن إسحاق: هم بنو الحارثة وهم الذين هموا أن يفشلوا يوم أحد مع بني سلمة حين همتا بالفشل يومها ثم عاهدوا الله ألاّ يعودوا لمثلها أبداً فذكر لهم العهد الذي أعطوا من أنفسهم، فأما يوم أحد فقد تداركهما الله برحمته ورعايته وثبتهم وعصمهم من عواقب الفشل، وأما في وقعة الخندق فالقرآن واجههم هذه المواجهة العنيفة وبعد ذلك يقرر لهم أن الفرار من المعركة لا ينجي من الموت كما سبق أن قررها لهم في أحد: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٤] .

وهنا أيضاً يقرر ذلك: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٦﴾ [الأحزاب: الآية ١٦] .

إن قدر الله هو المسيطر على الأحداث والمصائر، ومقابل هذه الفئة التي قالت: يا أهل يثرب لا مقام لكم، وقالت أيضاً: ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غروراً، هناك المؤمنون الواثقون بربهم وبنصر الله، والذين أنزل الله تبارك وتعالى فيهم قوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ۝٢٢﴾ [الأحزاب: الآية ٢٢] . بعدما ابتلاهم واختبرهم: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ [الأحزاب: الآية ١١] .

حذيفة يرصد أخبار قريش:

ومما يصور هذه الحالة والشدة خبر حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ لما وقف على أصحابه وقال: من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع، فشرط له رسول الله ﷺ الرجعة. أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة ومع هذا الشرط

بالرجعة ومع الدعاء المضمون بالرفقة مع رسول الله ﷺ في الجنة وكررها ولا أحد من القوم يلبي النداء ولولا أنه قال: قم يا حذيفة بالتعين بالإسم، قال: ما قمت إلاّ أن هذا لا يقع إلاّ في أقصى درجات الزلزلة.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٢٣]. هؤلاء مقابل الذين: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾. ثم لم يوفوا بعهد الله ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الأحزاب: الآية ١٥]

مراوضة رسول الله ﷺ لرؤساء غطفان بإعطائهم ثلث تمر المدينة، وينصرفوا بقومهم:

ولما كانت غزوة الخندق وتجمع المشركون على المدينة ونقضت بنو قريظة العهد ووالوا الأحزاب لاستئصال شأفة الإسلام وخاف رسول الله ﷺ على المسلمين عرض على عيينة بن حصن الفزاري والحارث بن عوف رئيس غطفان بثلثي ثمار المدينة وأن ينصرفا بقومهما ويدعا قريشاً وحدها وكانت هذه العملية مراوضة من رسول الله ﷺ ولم تكن عقداً. فلما رأى رسول الله ﷺ منهما أنهما قد رضيا استشار السعدين سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج، فقالا يا رسول الله هذا أمر تحبه فتصنعه لك، أو شيء أمرك الله فنسمع له ونطيع أوامر تصنعه لنا؟

فقال: بل أصنعه لكم، فإن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وما طمعوا قط أن ينالوا منا تمرة إلاّ شراء أو قرى، فحين كرمنا الله بالإسلام وهدانا إليه وأعزنا بك نعطيهم أموالنا، والله لا نعطيهم إلاّ السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

فسر بذلك رسول الله ﷺ، فقال: أنتم وذاك، وقال لعيينة والحرث: انصرفا فليس لكما عندي إلاّ السيف. فهذا الذي فكر فيه رسول الله ﷺ هو إجراء لمواجهة الضرورة وليس حكماً نهائياً.

ومع هذا الخضم الهائل من الجيوش الجرارة التي وردت من كل جهة لاستئصال شأفة الإسلام ورسوله وكتابه والمسلمين، والتي مكثت تحاصر المدينة أربعة وعشرين يوماً. لم تنل خيراً والذين يقول الله عنهم: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: الآية ١٠].

تخذيل نعيم بن مسعود الأشجعي لجنود الأحزاب وإفساد جمعهم:

ولما أراد الله سبحانه وتعالى أن يهيىء أسباب النصر من عنده جاء ذلك على يد رجل من غطفان التي جاءت مع الأحزاب لقتال رسول الله ﷺ يقال له نعيم، فقام يعلن إسلامه ويقول: يا رسول الله إني قد أسلمت فمرني بما شئت، فقال له رسول الله ﷺ: إنما أنت رجل واحد. فخذل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة، وأذن له في القول فذهب من فوره إلى بني قريظة التي نقضت عهدها مع رسول الله ﷺ وكان عشيراً لهم في الجاهلية فدخل عليهم وهم لا يعلمون بإسلامه، وقال: يا بني قريظة إنكم قد حاربتم محمداً، وإن قريشاً إن أصابوا فرصة انتهزوها، وإلاّ انشمروا إلى بلادهم راجعين وتركوكم ومحمداً فانتقم منكم. قالوا: فما العمل يا نعيم؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن، قالوا: قد أشرت بالرأي، ثم مضى على وجهه إلى قريش فقال لهم: تعلمون ودي لكم ونصحي لكم. قالوا: نعم. قال: إن يهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه. ثم يمالئونه عليكم فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم، ثم ذهب إلى غطفان، فقال لهم مثل ذلك، وأبلغ هؤلاء عن هؤلاء كلاماً، وهؤلاء عن هؤلاء كلاماً، حتى استوحش كل حزب من صاحبه.

فأرسل أبو سفيان ليلة السبت إلى يهود بني قريظة: إنا لسنا بأرض مقام وقد هلك الكراع والخف، فانهضوا بنا نناجز محمداً، فأرسل اليهود إليهم أن غداً يوم السبت فلا نقاتل فيه ومع هذا فإننا لا نقاتل محمداً معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن، فقالت قريش: صدق والله نعيم، فأرسلت قريش أنها لا تبعث رهائن. فقالت قريظة: صدق والله نعيم، فتخاذل الفريقان، وأرسل الله على المشركين جنداً من الريح فجعلت تقوض خيامهم، ولا تدع لهم قدراً إلاّ أكفأتها ولا طنباً إلاّ أقلعته، ولا يقر لهم قرار وجند الله من الملائكة يزلزلونهم، ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف وأرسل رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان بأن يأتيه بخبرهم فوجدهم على هذه الحال قال: ودخلت في القوم والريح وجند الله تفعل بهم ما تفعل.

فشل تحزب الأحزاب: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ﴾ [الأحزاب: الآية ٢٥] .

ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراح والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني

مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول، فجلس عليه ثم ضربه فوثب على ثلاث. فوالله ما أطلق عقاله إلاّ وهو قائم: قال حذيفة: ولولا عهد رسول الله ﷺ إلي بقوله: «لا تحدث شيئاً حتى تأتيني ثم شئت لقتلته بسهم».

قال حذيفة: فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مرط لبعض نسائه، فلما رآني أدخلني إلى رجليه وطرح علي طرف المرط من شدة البرد ثم ركع وسجد وإني لفيه، فلما سلم أخبرته الخبر، وسمعت غطفان بما فعلت قريش، فانشمروا راجعين إلى بلادهم فأصبح رسول الله ﷺ وقد رد الله عدوه بغيظه لم ينالوا خيراً وكفاه الله قتالهم. فصدق الله وعده وأعزّ جنده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده. ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الأحزاب: الآية ٢٦] . وهم بنو قريظة لأنهم من الأحزاب التي تحزبت على رسول الله ﷺ وظاهروا قريشاً، ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾ أي قتل الرجال وسبي الذراري والنساء: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب: الآية ٢٧] . ويقال إنها بشرى من الله لرسوله والمؤمنين بمنحهم خيبر مستقبلاً.

وقد جاء في نظم العلامة الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي تلخيص غزوة الخندق فقال:

ثـمـت لـمـا أجـلـيـت يـهـود ... وأوغـرت صـدورهـا الـحـقـود

يعني بني النضير الذين حزبوا الأحزاب:

وحـزبـت عـسـاكـراً عـنـاجـهـا ... إلـى ابـن حـرب وقـريـش تـاجـهـا
وجـعـلـوا كـي يـتـروا خـيـر الـورى ... لـغـطـفـان نـصـف تـمـر خـيـبـرا
خـنـدق خـيـر مـرسـل بـأمـر ... سـلـمـان والـحـروب ذات مـكـر
كـم آيـة فـي حـفـره كـالـشـبـع ... مـن حـفـنـة وسـخـلـة لـلـمـجـمـع
وكـم بـشـارة لـخـيـر مـرسـل ... مـن الـفـتـوح تـحـت ضـرب الـمـعـول
وكـعـب بـن أسـد إذ فـتـنـه ... عـن عـهـد حـيـي أعـطـى رسـنـه
فـغـدرت قـريـظـة لـغـدره ... يـومـئـذ إذ هـو اس نـجـره
فـأرسـل الـسـعـديـن خـيـر مـرسـل ... وابـن رواحـة لـهـم لـيـنـجـلـي
مـا هـم عـلـيـه فـإذا هـم عـضـل ... وسـر خـيـر الـخـلـق ذاك الـخـذل
وغـطـفـان رام أن يـخـولـوا ... ثـلـث تـمـر طـيـبـة لـيـعـدلـوا
وأنـف الـسـعـدان مـن صـلـح الـنـبـي ... وحـكـمـاً حـد شـفـار الـقـضـب

ومـعـتـب نـجـل قـشـيـر قـالا وعـدنـا الـنـبـي أن نـنـالا
وكـنـوز قـيـصـر وكـسـرى ونـرى أحـدنـا الـيـوم يـخـاف الـمـخـتـرى
وفـض جـمـعـهـم نـعـيـم الأشـجـعـي إذ نـم بـيـنـهـم بـكـل مـجـمـع
وعـنـدمـا إلـى الـتـشـتـت الـزمـر أجـمـع أمـرهـم دعـا خـيـر الـبـشـر
لـمـن يـأتـي بـالـخـبـر عـنـهـم يـكـن غـداً رفـيـقـنـا ومـنـهـم يـأمـن
فـلـم يـقـم إلـيـه غـيـر ابـن الـيـمـان مـن شـدة الـذعـر ومـن بـرد الـزمـان
وقـال خـيـر الـخـلـق لـن تـغـزوكـم قـريـش بـعـد الـيـوم الـغـزو لـكـم

ما حصدته قريظة من نقض العهد:

ولو تأمل بنو قريظة نصيحة نعيم بن مسعود الأشجعي رضي الله عنه لهم بأن قريشاً وغطفان ينتهزون فرصة في قتال محمد ﷺ إن أصابوها دركوا مرادهم وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينهم وبين محمد ﷺ، وهذا ما وقع.

ونتيجة بني قريظة هي كما قال والله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: الآيتان ٢٦، ٢٧].

وهو قتل رجالهم وسبي نسائهم وذراريهم، وتقسيم أموالهم.

وبهذا يكون بنو قريظة آخر اليهود الذين كانوا بالمدينة، لأن بنو قينقاع أجلوا بعد بدر وبني النضير أجلوا بعد أحد، ولم تبق شوكة لليهود بالمدينة، واليهود لهم يقاتلوا رسول الله ﷺ لأن الله ضرب عليهم الذلة وقذف في قلوبهم الرعب ولكن مهمتهم الدس والتآمر والتحريض والمكر والكيد والخداع وتحزيب الأحزاب وتأليب الأعراب.

وقد ورى البخاري أن رسول الله ﷺ قال بعد أن انجلت حشود الأحزاب وعادت من حيث أتت حاملة الفشل والخيبة قال (عليه الصلاة والسلام): **«الآن نغزوهم ولا يغزونا ثم قام يهلل ويكبّر ويقول: لا إله إلاّ الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده فلا شيء بعده»**.

الفصل الرابع

غزوة الحديبية

مدخل لصلح الحديبية:

إن الذي يتأمل الخطة التي رسمها رسول الله ﷺ للثأر من الطوائف التي تجمعت في غزوة الأحزاب وأحاطت بدار الهجرة ليجتاحوها من أقطارها ويستأصلوا المسلمين فيها، لا يجد عملاً واحداً أجمع لضروب السياسة والدهاء مما فعله رسول الله ﷺ ضد أولئك الطوائفُ، كل واحدة على حدة، حيث بدأ بالسلم والعهد مع قريش التي تحمل لواء التمرد والتحدي والتصدي للدين الجديد، حيث يحسنان ويصلحان في ذلك الوقت معها، حيث استجرها إلى صلح ما كانت تنتظره ولا تتوقعه كان من نتيجته فرط عقد تحالف الكفار في الجزيرة الذي قائماً على محاربة رسول الله ﷺ والدعوة التي جاء بها والذي حزبته اليهود بعد انكسار شوكتها بإجلاء بني قينقاع والنضير ودحر قريظة وأنزل الله فيهم هم وأشياعهم: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: الآيات ٢٥ - ٢٧] .

واليهود حزبت الأحزاب حينما أيقنت أنها لا تستطيع مغالبة الإسلام إذا حاربته كل طائفة على حدة. ولكن رسول الله ﷺ لما وقع الصلح مع قريش وأبعدها عن حلفائها من اليهود وغطفان وأتباعهم الذين هددوا دار الهجرة عاد وجعل الاعتماد على القوة والحرب حيث لا تحسن المسالمة ولا تصلح العهود ودحر كل طائفة على حدة بما فيها قريش بعد نقضها عهد الحديبية.

ولقد أثبتت الأحداث صدق إلهام رسول الله ﷺ فيما فعل وأيّده القرآن الكريم وأظهرت عظم الفوائد المادية والمعنوية والسياسية التي عادت نتائجها على المسلمين فيما بعد.

ونورد ما لخصه سيد قطب رحمه الله في الظلال من سيرة ابن هشام والإمام البخاري والإمام أحمد ومن جوامع السير، لابن حزم، رحمهم الله عن غزوة الحديبية.

سبب الغزوة:

لقد رأى رسول الله ﷺ في منامه أنه يدخل الكعبة هو والمسلمون محلقين رؤوسهم ومقصرين، وكان المشركون قد منعوهم منذ الهجرة منذ دخول مكة حتى في الأشهر الحرم

التي يعظمها العرب كلهم في الجاهلية، ويضعون السلام فيها ويستعظمون القتال في أيامها والصد عن المسجد الحرام حتى أصحاب الثأرات كانوا يتجمعون في ظلال هذه الحرمة ويلقي الرجل قاتل أبيه أو أخيه فلا يرفع في وجهه سيفاً ولا يصده عن البيت المحرم، ولكنهم خالفوا عن تقاليدهم الراسخة في هذا الشأن وصدوا رسول الله ﷺ والمسلمين معه طوال السنوات الست التي تلت الهجرة. حتى كان العام السادس الذي رأى فيه رسول الله ﷺ هذه الرؤيا وحدَّث بها أصحابه رضوان الله عليهم، فاستبشروا بها وفرحوا.

قال ابن إسحاق: ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة شهر رمضان وشوال (بعد غزوة بني المصطلق وما جاء في أعقابها من حديث الإفك) وخرج في ذي القعدة معتمراً لا يريد حرباً، واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه، وهو يخشى من قريش (الذي صنعوا) أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت. فأبطأ عليه كثير من الأعراب وخرج رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب وساق معه الهدي وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له.

قال: وكان جابر بن عبد الله، فيما بلغني يقول: كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة، قال الزهري: وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي، فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور وقد نزلوا بذي طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً. وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم، قال: فقال رسول الله ﷺ: **«يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش، فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة ثم قال: من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها»؟**

قال ابن إسحاق فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رجلاً من أسلم قال: أنا يا رسول الله قال: فسلك بهم طريقاً وعراً أجرل بين شعاب فلما خرجوا منه ، وقد شق ذلك على المسلمين وأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي، قال رسول الله ﷺ للناس: **«قولوا نستغفر الله ونتوب إليه»**. فقالوا ذلك. فقال: والله إنها للحطة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها.

مفاوضات الحديبية:

قال ابن شهاب الزهري: فأمر رسول الله ﷺ الناس فقال: **«اسلكوا ذات اليمين بين**

ظهري الحمض في طريق على ثنية المرار الحديبية من أسفل مكة»، قال: فسلك الجيش ذلك الطريق فلما رأت خيل قريش فترة الجيش، قد خالفوا عن طريقهم، ورجعوا راكضين إلى مكة وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا سلك في ثنية المرار بركت ناقته. فقال الناس: خلأت الناقة، فقال ﷺ: **«ما خلأت وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلاّ أعطيتهم أياها»**.

وفي رواية البخاري: **«والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله تعالى إلاّ أعطيتهم إياها، ثم قال للناس: انزلوا، قيل له: يا رسول الله ما بالوادي ماء ينزل عليه»**. فأخرج سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه(١) فنزل في قليب من تلك القلب فغرزه في جوفه فجاش بالرواء.

فلما اطمأن رسول الله ﷺ أتاه بديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة فكلموه وسألوه ما الذي جاء به؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمته ثم قال لهم: نحواً مما قال لبشر بن سفيان فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد. إن محمداً لم يأت لقتال وإنما جاء زائراً لهذا البيت، فاتهموهم وجبهوهم وقالوا: وإن كان جاء لا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ولا تحدث عنا العرب.

وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله ﷺ مسلمها ومشركها لا يخفون عنه شيئاً كان بمكة ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص بن الأضيف أخا بني عامر بن لؤي فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: **«هذا رجل غادر»**، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلّمه، قال له رسول الله ﷺ نحواً مما قال لبديل وأصحابه فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة أو ابن زبان وكان يومئذ سيد الأحابيش وهو أحد بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: **«إن هذا من قوم يتألهون، يعني يتعبدون فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى، فقال لهم ذلك، فقالوا له: اجلس فإنما أنت رجل أعرابي لا علم لك»**.

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن الحليس غضب عند ذلك،

---

(١) وهذا الرجل هو ناجية بن جندب على الصحيح وهو الذي سلك بهم الطريق الوعر قال بعضهم: وقد نجا ناجية بن جندب بالجيش والسهم به بعد حين.

وقال: يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيصد عن بيت الله من جاء معظماً له؟ والذي نفس الحليس بيده لتخلوا بين محمد وبين ما جاء له أو لا ننفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد، قال: فقالوا له: مه كف عنّا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به. قال الزهري: ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفي، فقال: يا معشر قريش إني قد رأيت ما يلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ وقد عرفتم أنكم والد وأني ولد (كان نسبه لأمه من بني عبد شمس) وقد سمعت بالذي نابكم فجمعت من أطاعني من قومي ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسي. قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم فخرج حتى جاء رسول الله ﷺ فجلس بين يديه ثم قال: يا محمد أجمعت أوباش الناس ثم جئت إلى بيضتك لتفضها بهم؟ إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً، قال وأبو بكر خلف رسول الله ﷺ: قاعد فزجره قائلاً: امصص بظر اللاّت، وقال: أنحن نكشف عنه؟ قال: من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أبي قحافة، قال أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها ولكن هذه بها ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ (وكانت من عادة العرب) وهو يكلمه قال والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد قال فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله ﷺ ويقول: اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك، قال: فيقول عروة ويحك ما أفظك وأغلظك، قال: فتبسم رسول الله ﷺ، فقال له عروة: من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة. قال: أي عذر وهل غسلت سوأتك بالأمس.

قال ابن هشام: أراد عروة بقوله هذا: إن المغيرة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك من ثقيف فتهايج الحيان من ثقيف بنو مالك رهط المقتولين والأحلاف رهط المغيرة فودى عروة المقتولين ثلاث عشرة دية وأصلح ذلك الأمر.

قال ابن إسحاق: قال الزهري: فكلمه رسول الله ﷺ بنحو مما كلم أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ إلاّ ابتدروا وضوءه ولا يبصق بصاقاً إلاّ ابتدروه ولا يسقط من شعره شيء إلاّ أخذوه، فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً. فروا رأيكم.

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعي فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على بعير له يقال له الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه

ما جاء له، فعقروا به جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله فمنعته الأحابيش فخلوا سبيله، حتى جاء رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض من لا أتهم عن عكرمة مولى ابن عباس عن ابن عباس أن قريشاً كانوا بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين رجلاً وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً فأخذوا أخذاً فأتي بهم رسول الله ﷺ فعفا عنهم وخلى سبيلهم وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل.

ثم دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها ولكني أدلك على رجل أعز بها مني عثمان بن عفان فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته.

بيعة الرضوان بسبب إشاعة قتل عثمان:

قال ابن إسحاق: فخرج عثمان إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاصي حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، واحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل.

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل قال ﷺ: **«لا نبرح حتى نناجز القوم»** فدعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة فكان الناس يقولون بايعهم رسول الله ﷺ على الموت. وكان جابر بن عبد الله يقول أن رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت ولكن بايعنا على ألاّ نفر، فبايع رسول الله ﷺ الناس ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلاّ الجد بن قيس أخو بني سلمة فكان جابر بن عبد الله يقول والله لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته قد ضبأ إليها يستتر بها من الناس. ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل. قال ابن هشام: وحدثني من أثق به عمن حدثه بإسناد له عن ابن أبي مليكة عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ بايع لعثمان فضرب بإحدى يديه على الأخرى.

صلح الحديبية:

قال ابن إسحاق: قال الزهري: ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو أخا بني عامر بن لؤي إلى رسول الله ﷺ وقالوا له: إيت محمداً فصالحه ولا يكون في صلحه إلاّ أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً. فأتاه سهيل بن عمر فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل، فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح.

فلما التأم الأمر ولم يبق إلاّ الكتاب وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا مسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال أبو بكر: الزم غرزه فإني أشهد أنه رسول الله ﷺ. قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: ألست برسول الله؟ قال: بلى، أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني، قال، فكان عمر يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به، حين رجوت أن يكون خيراً، قال: ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، قال: اكتب باسم الله الرحمن الرحيم، قال: فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن أكتب باسمك اللهم، فقال رسول الله ﷺ: اكتب باسمك اللهم، فكتبها ثم قال اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمر، قال، فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن أكتب اسمك واسم أبيك، قال، فقال رسول الله ﷺ: **«أكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهم الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليه، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه، وأن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا إسلال ولا إغلال، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه»** فتواثبت خزاعة، فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم. وإنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فتدخلها بأصحابك، وتقيم بها ثلاثاً معك سلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها.

فبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يوسف في الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ وقد كان أصحاب

رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رسول الله ﷺ فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع وما تحمل عليه رسول الله ﷺ دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون. فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه، ثم قال: يا محمد، قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال: صدقت فجعل ينتره بتلبيبه ويجره ليرده إلى قريش وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني فزاد الناس إلى ما بهم فقال رسول الله ﷺ: **«يا أبا جندل، اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم»**، قال: فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول: اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركون وإنما دم أحدهم دم كلب، قال: ويدني قائم السيف منه، قال، يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب أباه، قال: فضن الرجل بأبيه ونفذت القضية.

فلما فرغ من الكتاب أشهد على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقاص، ومود بن مسلمة، ومكرز بن حفص (وهو يومئذ مشرك)، وعلي بن أبي طالب وكان هو كاتب الصحيفة.

تلكأ أصحاب رسول الله ﷺ في امتثال أمره بالحلق والنحر:

قال الزهري: فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: **«قوموا فانحروا ثم احلقوا»**، قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ﷺ: **«ذلك ثلاث مرات»**، فلما لم يقم منهم أحد دخل ﷺ على أم سلمة رضي الله عنها فذكر لها ما لقي من الناس.

قالت أم سلمة رضي الله عنها: يا نبي الله أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بيدك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج رسول الله ﷺ فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك نحر بيده ودعا حالقه فحلقه.

فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً.

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال: حلق رجال يوم الحديبية وقصّر آخرون، فقال رسول الله ﷺ: **«يرحم الله المحلقين»**

قالوا: والمقصرين يا رسول الله، قال: «والمقصرين»، فقالوا: يا رسول الله فلم ظاهرت الترحيم للمحلقين دون المقصرين؟ قال: «لم يشكوا».

نزول سورة الفتح على رسول الله ﷺ:

روى الإمام أحمد بإسناده - عن مجمع بن حارثة الأنصاري رضي الله عنه وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن قال: شهدنا الحديبية، فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباعر، فقال الناس بعضهم لبعض ما للناس؟ قالوا أوحي إلى رسول الله ﷺ فخرجنا مع الناس نوجف، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: الآية ١] قال فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: «أي رسول الله أوفتح هو؟» قال ﷺ: «إي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح».

وروى الإمام أحمد بإسناده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر قال: فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يرد عليّ قال: فقلت: ثكلتك أمك يابن الخطاب ألححت كررت على رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك. قال: فركبت راحلتي فحركت بعيري فتقدمت مخافة أن يكون نزل في شيء قال: فإذا أنا بمناد يا عمر قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء قال: فقال النبي ﷺ: «نزل عليّ البارحة سورة هي أحب إليّ من الدنيا وما فيها» ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: الآيتان ١، ٢][1].

هذا هو الجو الذي نزلت فيه السورة، الجو الذي اطمأنت فيه نفس رسول الله ﷺ إلى إلهام ربه فتجرد من كل إرادة إلا ما يوحيه هذا الإلهام العلوي الصادق ومضى يستلهم هذا الإيحاء في كل خطوة وفي كل حركة لا يستنفزه عنه مستنفز سواء من المشركين أو من الصحابة الذين لم تطمئن نفوسهم في أول الأمر لقبول استفزاز المشركين وحميتهم الجاهلية. ثم أنزل الله السكينة في قلوبهم ففاؤا إلى الرضى واليقين والقبول الخالص العميق، كإخوانهم الذين كانوا على هذه الحال منذ أول الأمر، شأن الصديق أبي بكر الذي لم تفقد روحه لحظة واحدة صلتها الداخلية المباشرة بروح رسول الله ﷺ ومن ثم بقيت على اطمئنانها دائماً ولم تفارقها الطمأنينة أبداً.

ومن ثم جاء افتتاح السورة بشرى لرسول الله ﷺ فرح لها قلبه الكبير فرحاً عميقاً ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [الفتح: الآيات ١ - ٣].

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن مالك رحمه الله.

كما جاء في الافتتاح الامتنان على المؤمنين بالسكينة والاعتراف لهم بالإيمان السابق وتبشيرهم بالمغفرة والثواب وعون السماء بجنود الله ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾ [الفتح: الآيتان ٤،٥]. ذلك مع ما أعده لأعدائهم من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات من غضب وعذاب ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الفتح: الآية ٦] .

ثم التنويه ببيعة رسول الله ﷺ واعتبارها بيعة الله وربط قلوب المؤمنين مباشرة بربهم عن هذا الطريق بهذا الرباط المتصل مباشرة بالله الحي الباقي الذي لا يموت. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: الآيات ٨ ـ ١٠].

ملخص تفسير سورة الفتح في الظلال للسيد قطب عن أحداث صلح الحديبية:

وبمناسبة البيعة والنكث فيتطرق القرآن الكريم ـ قبل إكمال الحديث عن المؤمنين ومواقفهم في الحديبية إلى الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج فيفضح معاذيرهم ويكشف ما جال في خواطرهم من سوء الظن بالله ومن توقع السوء للرسول الله ﷺ ومن معه ويوجه الرسول ﷺ إلى ما ينبغي أن يكون موقفه منهم في المستقبل وذلك في أسلوب يوحي بقوة المسلمين وضعف المخلفين كما يوحي بأن هنالك غنائم وفتوحاً قريبة يسيل لها لعاب المخلفين المتباطئين.

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾

﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٧﴾﴾ [الفتح: الآيات ١١ ـ ١٧] .

وبعد هذه اللفتة يعود سياق السورة للحديث عن المؤمنين ومواقفهم وخوالج نفوسهم حديث كله رضى وشفافية ووضاءة وتكريم، وكله بشريات لهذه النفوس الخالصة القوية البائعة المتجردة حديث يتجلى فيه الله جل جلاله على هذه المجموعة المختارة من البشر. يتجلى عليهم برضوانه وبشرياته وامتنانه وتثبيته ويبلغهم بأشخاصهم وأعيانهم أنه عنهم راض، وأنه كان حاضرهم وهم يبايعون في مكان بعينه تحت الشجرة وأنه اطلع على ما في نفوسهم وأنه رضيهم ورضي عنهم وأنه كتب لهم النصر في المستقبل والغنائم والفتوح وربط هذا كله بناموس الوجود وسنة الوجود وهو أمر يقف له الوجود كله ويشهد ويراقب ويتأثر ويسجل في أطوانه ذلك الحادث العظيم الفريد ﴿۞ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٢٠﴾ وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴿٢١﴾ وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: الآيات ١٨ ـ ٢٣] .

ويتمن عليهم بأخذ عدوهم النفر الذين أرادوا بهم الأذى ويندد بأعدائهم الذين صدوهم عن المسجد الحرام وصدوا الهدي أن يبلغ محله، ويتلطف معهم فيكشف لهم عن حكمته في كفهم هذا العام عنهم، وفضله في ترضيتهم بما كان، وأنزل سكينته في قلوبهم، لأمر يراه وهو أعظم مما يرون وهو فتح مكة، ثم هيمنة هذا الدين على الدين كله بأمر الله وتدبيره ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٢٦﴾ لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٢٨﴾﴾

[الفتح: الآيات ٢٤ ـ ٢٨] .

وتختم الصورة بالصفة الكريمة الوضيئة التي تميز هذه المجموعة المختارة من البشر وتفردها بسمتها الخاصة وتنوه بها في الكتب السابقة التوراة والإنجيل وبوعد الله الكريم بالمغفرة والأجر العظيم ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: الآية ٢٩].

إنما صار الحديث عن السكينة التي أنزلها الله في قلوب المؤمنين، أو أنزلها عليهم والمقصود بها تهدئة فورتهم وتخفيض حميتهم وطمأنينة قلوبهم لحكم الله وحكمة رسوله ﷺ في المهادنة والملاينة وعن رضى الله عن المبايعين تحت الشجرة. وكانت هذه الصورة الوضيئة في نهاية السورة للرسول ومن معه. أما الحديث عن الوفاء بالبيعة والنكث فيها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: الآية ١٠] . فالإيحاء فيه أكثر إلى تكريم المبايعين وتعظيم شأن البيعة والإشارة إلى النكث جاءت بمناسبة الحديث عن الأعراب المتخلفين وكذلك الإشارة إلى المنافقين والمنافقات فهي إشارة عابرة تدل على ضعف موقف هذه الطائفة وعلى خلوص الجماعة المسلمة بالمدينة ونضوجها وتجانسها.

وواضح كذلك، قوة المسلمين بالقياس إلى قوة المشركين في جو السورة كلها وفي آيات بنصها، والإشارات إلى الفتوح المقبلة وإلى رغبة المخلفين في الغنائم السهلة واعتذارهم وإلى ظهور هذا الدين على الدين كله، كلها تشير بما بلغت إليه قوة المسلمين في هذه الفترة بين نزول السورتين.

ففي حقيقة النفوس وفي حال الجماعة وفي الظروف المحيطة بها حدث تطور واضح يدركه من يتلمس خط السيرة في النصوص القرآنية ولهذا التطور قيمته كما أن له دلالته على أثر المنهج القرآني والتربية المحمدية لهذه الجماعة السعيدة الفريدة في التاريخ. ثم إن لهذا التطور إيحائه للقائمين على الجماعات البشرية فلا تضيق صدورهم بالنقص فيها والضعف ورواسب الماضي ومخلفاته وآثار البيئة والوسط وجوانب الأرض وثقلة اللحم والدم وكلها تبدو في أول العهد قوية عميقة عنيفة ولكنها مع المثابرة والحكمة والصبر على العلاج، تأخذ في التحسن والتطور والتجارب والابتلاءات، تعين على التحسن والتطور حين تتخذ فرصة للتربية والتوجيه وشيئاً فشيئاً تخف ثقلة الطين وتشف كثافة اللحم والدم وتتوارى آثار البيئة وتصفو رواسب الماضي وتستشرف القلوب

آفاقاً أعلى فأعلى، حتى ترى النور هناك على الأفق الوضيء البعيد ولنا في رسول الله أسوة حسنة، ولنا في المنهج القرآني صراط مستقيم.

بل إنه ليصح أن يعد من الأحداث الحاسمة العظمى في السيرة النبوية وفي تاريخ الإسلام وقوته وتوطده أو بالأحرى من أعظمها فقد اعترفت قريش بالنبي والإسلام وقوتهما وكيانهما واعتبرت النبي والمسلمين أنداداً لها بل دفعتهم عنها بالتي هي أحسن في حين أنها غزت المدينة في سنتين مرتين وكانت الغزوة الأخيرة قبل سنة هذه الزيارة وبحشد عظيم مؤلف منها ومن أحزابها لتستأصل شأفتهم، وبعثت هذه الغزوة في نفوس المسلمين أشد الاضراب والهلع لضعفهم وقلتهم إزاء الغزاة، ولهذا شأن عظيم في نفوس العرب والذين كانوا متأثرين بموقفهم الجحودي كل التأثر وإذا لوحظ أن الأعراب كانوا يقدرون أن النبي والمسلمين لن يعودوا سالمين من هذه الرحلة وأن المنافقين كانوا يظنون أسوأ الظنون بدت لنا ناحية من نواحي خطورة هذا الفتح وبعد مداه.

ولقد أثبتت الأحداث صدق إلهام النبي ﷺ فيما فعل وأيده فيه القرآن وأظهرت عظيم الفوائد المادية والمعنوية والسياسية والحربية والدينية التي عادت على المسلمين منه. إذ قووا في عيون القبائل وبادر المتخلفون من الأعراب إلى الاعتذار، وازداد صوت المنافقين في المدينة خفوتاً وشأنهم ضآلة، وإذ صار العرب يفدون على النبي ﷺ من أنحاء قاصية، وإذ تمكن من حَصْد شوكة اليهود في خيبر وغيرها من قراهم المتناثرة على طريق الشام وإذ صار يستطيع أن يبعث بسراياه إلى أنحاء قاصية كنجد واليمن والبلقاء وإذ استطاع بعد سنتين أن يغزو مكة ويفتحها وكان في ذلك النهاية الحاسمة إذ جاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجاً ـ فهي قدر الله على يد رسوله والذي بعثه بالهداية ملهماً موفقاً بوحي من الله ـ فيصنع المعجزات التي لا تمهد لها أسبابها ودواعيها لأن أسبابها خفية ودواعيها كامنة في سريرة الإنسانية تفوت ذوي العقول ولا تدخل في الحسبان.

ولقد فرح رسول الله ﷺ بهذه السورة فرح قلبه الكبير بهذا الفيض الرباني عليه وعلى المؤمنين معه، فرح بالفتح المبين وفرح بالمغفرة الشاملة وفرح بالنعمة التامة وفرح بالهداية إلى صراط الله المستقيم وفرح بالنصر العزيز الكريم وفرح برضى الله عن المؤمنين ووصفهم ذلك الوصف الجميل وقال في رواية.

«نزل عليّ البارحة سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس»[1]. وفاضت نفسه الطيبة بالشكر لربه على ما أولاه من نعمته، فاضت بالشكر في صورة صلاة طويلة مديدة،

---

(١) رواه أحمد والبخاري.

تقول عنها عائشة رضي الله عنها يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال رسول الله ﷺ: يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً[1]؟!.

ذلك الافتتاح كان نصيب النبي ﷺ خاصة ثم مضى السياق يصف نعمة الله على المؤمنين بهذا الفتح الذي ملأ قلوبهم بالسكينة، وما أدخره لهم في الآخرة من غفران وفوز ونعيم. ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾ [الفتح: الآيتان ٤،٥]. والسكينة لفظ معبر مصور ذو ظلال والسكينة حين ينزلها الله في قلب تكون طمأنينة، وراحة ويقيناً وثقة ووقاراً وثباتاً واستسلاماً ورضى.

ولقد كانت قلوب المؤمنين في هذه الواقعة تجيش بمشاعر شتى، وتفور بانفعالات متنوعة، كان فيها الانتظار والتطلع إلى تصديق رؤيا رسول الله ﷺ بدخول المسجد الحرام ثم مواجهة موقف قريش وقبول الرسول ﷺ للرجوع عن البيت في هذا العام بعد الإحرام وبعد إشعار الهدى وتقليده كان هذا أمراً شاقاً على نفوسهم ما في ذلك ريب وقد روى عن عمر رضي الله عنه أنه جاء أبا بكر وهو مهتاج فكان مما قال له ـ غير ما أثبتناه في صلب رواية الحديث ـ أوَليس كان يحدثنا أنَّا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال أبو بكر الموصول القلب بقلب رسول الله ﷺ الذي ينبض قلبه على دقات قلب رسول الله ﷺ بلى أفأخبرك أنك تأتيه العام، قال: لا قال رسول الله ﷺ: إنك آتيه ومطيف به.

فهذه صورة مما كان يجيش في القلوب وكان المؤمنون ضيقي الصدور بشروط قريش الأخرى من رد من يسلم ويأتي محمداً بغير إذن وليه ومن حميتهم الجاهلية في رد اسم الرحمن الرحيم وفي رد صفة رسول الله ﷺ وقد روى[2] أن علياً رضي الله عنه ـ أبى أن يمحو هذه الصفة كما طلب سهيل بن عمرو بعد كتابتها فمحاها رسول الله بنفسه وهو يقول: «اللهم إنك تعلم أني رسولك».

وكانت حميتهم لدينهم وحماستهم للقاء المشركين بالغة يبدو هذا في بيعتهم الاجتماعية ثم انتهى الأمر إلى المصالحة والمهادنة والرجوع، فلم يكن هيناً على نفوسهم أن تنتهي الأمور إلى ما انتهت إليه، يبدو هذا في تباطئهم في النحر والحلق حتى قالها رسول الله ﷺ ثلاثاً وهم من هم طاعة لأمر رسول الله ﷺ وامتثالاً كالذي حكاه عنهم لقريش عروة بن مسعود الثقفي. ولم ينحروا ويحلقوا أو يقصروا إلا حين رأوا رسول الله

---

(١) متفق عليه.
(٢) هو في الصحيح.

ﷺ يفعل هذا بنفسه فهزتهم هذه الحركة العملية ما لم يهزهم القول وثابوا إلى الطاعة كالذي كان في دهشة المأخوذ.

وهم كانوا قد خرجوا من المدينة بنية العمرة لا ينوون قتالاً ولم يستعدوا له نفسياً ولا عملياً، ثم فوجؤا بموقف قريش وبما شاع من قتلها لعثمان وبإرسال النفر الذين رموا في عسكر المسلمين بالنبل والحجارة، فلما عزم رسول الله ﷺ على المناجزة وطلب البيعة أعطوها له عن بكرة أبيهم ولكن هذا لا ينفي موقف المفاجأة على غير ما كانت نفوسهم قد خرجت له وهو بعض ما كان يجيش في قلوبهم من انفعالات وتأثرات وهم ألف وأربعمائة وقريش في دارها ومن خلفهم الأعراب والمشركين.

وحين يسترجع الإنسان هذه الصور يدرك معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح: الآية ٤] . ويذوق طعم اللفظ وطعم العبارة ويتصور الموقف يومئذ ويعيش فيه مع هذه النصوص ويحس بَرْدَ السكينة وسلامها في تلك القلوب.

ولما كان الله يعلم من قلوب المؤمنين يومئذ أن ما جاش فيها جاش عن الإيمان والحمية الإيمانية لا لأنفسهم ولا لجاهلية فيهم فقد تفضل عليهم بهذه السكينة ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم والطمأنينة درجة بعد الحمية والحماسة فيها الثقة التي لا تقلق وفيها الرضى المطمئن باليقين، ومن ثم يلوح بأن النصر والغلب لم يكن عسيراً ولا بعيداً بل كان هيناً يسيراً على الله لو اقتضت حكمته يومئذ أن يكون الأمر كما أراده المؤمنون، فإن لله جنوداً لا تحصى ولا تغلب تدرك النصر وتحقق الغلب وقتماً يشاء ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح: الآية ٤] . فهي حكمته وهو علمه تسير الأمور وفقهما كما يريد - وعن العلم والحكمة ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ﴾ [الفتح: الآيتان ٣، ٤] ليحقق لهم ما قدره من فوز ونعيم.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾ [الفتح: الآية ٥] .

وإذا كان هذا في حساب الله فوزاً عظيماً فهو فوز عظيم في حقيقته وفوز عظيم في نفوس من ينالونه من عند الله مقدراً بتقديره موزوناً بميزانه، ولقد فرح المؤمنون يومها بما كتب الله لهم، وكانوا تطلعوا بعد ما سمعوا افتتاح السورة وعلموا منه ما أفاض الله على رسوله تطلعوا إلى نصيبهم هم وسألوا عنه فلما سمعوا وعلموا فاضت نفوسهم بالرضى والفرح واليقين.

ثم أنبأهم بجانب آخر من جوانب حكمته فيما قدر في هذا الحادث وهو مجازاة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات بما يصدر عنهم من عمل وتصرف. ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾ [الفتح: الآيتان ٦، ٧].

وقد جمع النص بين المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات في صفة ظن السوء بالله وعدم الثقة بنصرته للمؤمنين وفي أنهم جميعاً ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [التوبة: الآية ٩٨] فهم محصورون فيها وهي تدور عليهم وتقع بهم وفي غضب الله عليهم ولعنته لهم وفيما أعده لهم من سوء المصير.

ذلك أن النفاق صفة مرذولة لا تقل عن الشرك سوءاً بل إنها أحط، ولأن أذى المنافقين والمنافقات للجماعة المسلمة لا يقل عن أذى المشركين والمشركات وإن اختلف هذا الأذى وذلك في مظهره ونوعه.

وقد جعل الله صفة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات هي ظن السوء بالله فقلب المؤمن حسن الظن بربه يتوقع منه الخير دائماً يتوقع منه الخير في السراء والضراء ويؤمن بالله يريد به الخير في الحالتين.

وسر ذلك أن قلبه موصول بالله وفيض الخير من الله لا ينقطع أبداً، فمتى اتصل القلب به لمس هذه الحقيقة الأصلية وأحسها إحساس مباشرة وتذوقها فأما المنافقون والمشركون فهم مقطوعو الصلة بالله ومن ثم، لا يحسون تلك الحقيقة ولا يجدونها فيسوء ظنهم بالله وتتعلق قلوبهم بظواهر الأمور، ويبنون عليها أحكامهم ويتوقعون الشر والسوء لأنفسهم وللمؤمنين كلما كانت ظواهر الأمور توحي بهذا على غير ثقة بقدر الله وقدرته وتدبيره الخفي اللطيف. وقد جمع الله في الآية أعداء الإسلام والمسلمين من شتى الأنواع وبين حالهم عنده وما أعده لهم في النهاية ثم عقب على هذا بما يفيد قدرته وحكمته: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾ [الفَتْح: الآية ٧]. فلا يهيبه من أمرهم شيء، ولا يخفى عليه من أمرهم شيء وله جنود السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم.

ثم عاد بالخطاب إلى رسول الله ﷺ منوهاً بوظيفته مبيناً للغاية منها موجهاً المؤمنين إلى واجبهم مع ربهم بعد تبليغهم رسالته مع ردهم في بيعتهم إلى الله مباشرة وعقد العقدة معه جل جلاله وذلك حين يبايعون الرسول ﷺ ويتعاقدون معه وفي ذلك تشريف لبيعة الرسول وتكريم واضح لهذا التعاقد.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٠﴾ [الفتح: الآيات ٨-١٠] فالرسول ﷺ شاهد على هذه البشرية التي أرسل إليها يشهد أنه بلغها ما أمر به وأنها استقبلته، بما استقبلته، وأنه كان منها المؤمنون ومنها الكافرون ومنها المنافقون. وكان منها المصلحون ومنها المفسدون فيؤدي الشهادة كما أدى الرسالة.

وهو مبشر بالخير والمغفرة والرضى وحسن الجزاء للمؤمنين الطائعين ونذير بسوء المنقلب والغضب واللعنة والعقاب للكافرين والمنافقين والعصاة والمفسدين. هذه وظيفة الرسول ﷺ. ثم يلتفت بالخطاب إلى المؤمنين يكشف لهم عن الغاية إنها الإيمان بالله ورسوله ثم النهوض بتكاليف الإيمان فينصرون الله بنصرة منهجه وشريعته ويوقرونه في نفوسهم بالشعور بجلاله وينزهونه بالتسبيح والتحميد طرفي النهار في البكور والأصيل، وهي كناية عن اليوم كله لأن طرفي النهار يضمان ما بينهما من آونة، والغرض هو اتصال القلب بالله في كل آن. فهذه هي ثمرة الإيمان المرجوة للمؤمنين من إرسال الرسول شاهداً ومبشراً ونذيراً. وقد جاء ﷺ ليصلهم بالله ويعقد بينهم وبينه بيعة ماضية لا تنقطع بغيبة رسول الله ﷺ عنهم فهو حين يضع يده في أيديهم مبايعاً فإنما يبايع عن الله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ [الفتح: الآية ١٠] وهو تصوير رهيب جليل للبيعة بينهم وبين رسول الله ﷺ والواحد منهم يشعر وهو يضع يده في يده أن يد الله فوق أيديهم، فالله حاضر البيعة والله صاحبها والله آخذها ويده فوق أيدي المتبايعين... ومن؟ (الله) يا للهول ويا للروعة ويا للجلال.

وإن هذه الصور لتستأصل من النفس خاطر النكث بهذه البيعة مهما غاب شخص رسول الله ﷺ فالله حاضر لا يغيب والله آخذ في هذه البيعة ومعط وهو عليها رقيب ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ﴾ [الفتح: الآية ١٠] . فهو الخاسر في كل جانب، هو الخاسر في الرجوع عن الصفة الرابحة بينه وبين الله تعالى وما من بيعة بين الله وعبد من عباده إلا والعبد فيها هو الرابح من فضل الله والله هو الغني عن العالمين. والعبد هو الخاسر حين ينكث وينقض عهده مع الله فيتعرض لغضبه وعقابه على النكث الذي يكرهه ويمقته، فالله يحب الوفاء ويحب الأوفياء.

﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الفتح: الآية ١٠] هكذا على إطلاقه ﴿أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: الآية ٧٤] لا يفصله ولا يحدده فهو الأجر الذي يقول عنه الله إنه عظيم.

عظيم بحساب الله وميزانه ووصفه الذي لا يرتقي إلى تصوره أبناء الأرض المقلون المحدودون الفانون.

وعندما يصل إلى حقيقة البيعة وإلى خاطر النكث وخاطر الوفاء، يلتفت بالحديث إلى المخلفين من الأعراب الذين أبوا أن يخرجوا مع رسول الله ﷺ لسوء ظنهم بالله ولتوقعهم الشر والضر للمؤمنين الخارجين الذاهبين إلى قريش في عقر دارها وهي غزت المدينة قبل ذلك عامين متوالين، يلتفت إليهم لينبىء الرسول ﷺ عما سيعتذرون به إليه بعد عودته سالماً هو ومن معه وقد هادنته قريش ولم تقاتله وعقدت معه معاهدة يبدوا فيها مهما كانت شروطها التراجع من قريش واعتبار محمد ﷺ نداً لها تهادنه وتتقي خصومته، ويكشف له عن الأسباب الحقيقية لعدم خروجهم معه ويفضحهم ويوقفهم مكشوفين أمام رسول الله ﷺ وأمام المؤمنين كما ينبئه بما فيه البشرى له وللخارجين معه وهو أنهم سيخرجون إلى مغانم قريبة ميسورة وأن المخلفين من الأعراب سيطلبون الخروج معه لينالوا من هذه الغنائم السهلة ويلقنه طريقة معاملتهم حينئذ والرد عليهم. فلا يقبل منهم الخروج معه في هذا الوجه القريب الميسور الذي سيقتصر على من خرجوا من قبل وحضروا الحديبية إنما ينبئهم بأن هنالك وجهاً آخر فيه مشقة وفيه قتال مع قوم أولي بأس شديد فإن كانوا حقاً يريدون الخروج فليخرجوا يومئذ حيث يقسم الله لهم بما يريد فإن أطاعوا كان لهم الأجر الكبير، وإن عصوا كما عصوا من قبل كان لهم العذاب الشديد.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا
لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى
قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا
لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ
أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا
يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ
يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا
﴿١٦﴾﴾ [الفتح: الآيات ١١-١٦].

والقرآن لا يكتفي بحكاية أقوال المخلفين والرد عليها ولكنه يجعل من هذه المناسبة فرصة لعلاج أمراض النفوس وهواجس القلوب والتسلل إلى مواطن الضعف والانحراف لكشفها تمهيداً لعلاجها والطلب لها، ثم لإقرار الحقائق الباقية والقيم الثابتة وقواعد الشعور والتصور والسلوك.

فالمخلفون من الأعراب وكانوا من أعراب غفار ومزينة وأشجع وأسلم وغيرهم ممن حول المدينة - سيقولون اعتذاراً عن تخلفهم ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ [الفتح: الآية ١١] وليس هذا بعذر فللناس دائماً أهل وأموال، ولو كان مثل هذا يجوز أن يشغلهم عن تكاليف العقيدة وعن الوفاء بحقها ما نهض أحد قط بها. وسيقولون ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ [الفتح: الآية ١١] وهم ليسوا صادقين في طلب الاستغفار كما ينبئى الله رسوله ﷺ ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: الآية ١١]. هنا يرد عليهم بتقرير حقيقة القدر الذي لا يدفعه تخلف ولا يغيره إقدام، وبحقيقة القدرة التي تحيط بالناس وتنصرف في أقدارهم كما تشاء وبحقيقة العلم الكامل الذي يصرف الله قدره على وفقه.

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ [الفتح: الآية ١١].

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الفتح: الآية ١٢]. وهكذا يقفهم عرايا مكشوفين وجهاً لوجه أمام ما أضمروا من نية، وما ستروا من تقدير، وما ظنوا بالله من السوء، وقد ظنوا أن الرسول ومن معه من المؤمنين ذاهبون إلى حتفهم فلا يرجعون إلى أهليهم بالمدينة وقالوا: يذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة المنورة وقتلوا أصحابه فيقاتلهم يشيرون إلى أحد والأحزاب ولم يحسبوا حساباً لرعاية الله وحمايته للصادقين المجردين من عباده كما أنهم بطبيعة تصورهم للأمور وخلو قلوبهم من حرارة العقيدة - لم يقدروا أن الواجب هو الواجب بغض النظر عن تكاليفه كائنة ما كانت وأن طاعة رسول الله ﷺ يجب أن تكون بدون النظر إلى الربح الظاهري والخسارة الشكلية فهي واجب مفروض يودي دون نظر إلى عاقبة أخرى وراءه. لقد ظنوا ظنهم، وزين هذا الظن في قلوبهم، حتى لم يروا غيره ولم يفكروا في سواه. وكان هذا هو ظن السوء بالله الناشيء من أن قلوبهم بور. (انتهى من الظلال بطوله وجماله وحسن تحليله رحم الله السيد قطب)

وبعد هذا التكريم وهذا الثناء من الله على رسوله وعلى المؤمنين وهذا العطاء الذي لا حد له بشموله رضوان الله عليهم ووعدهم بالمغفرة والأجر العظيم والفتح المبين والخير العميم والنصر المبين، فإن صلح الحديبية له ما بعده - فهو تكتيك حربي وهو نوع من أساليب الحرب بالكر والفر كان مداه أبعد مما يتصور. إذ بدأ بالسلم والعهد حيث يحسنان ويصلحان في ذلك الوقت مع قريش التي هي رأس الحربة، والتي عليها تتجمع الأحلاف التي تتفرد بها المدينة وهي غزوة الأحزاب وكان من نتيجة ذلك أن العقد الذي

كان قائماً على محاربة الإسلام ونبيه محمد ﷺ قد انفرط بتحيد قريش حاملة لواء التمرد والتحدي للدين الجديد.

انفراط عقد الكفار في الجزيرة العربية بعد صلح الحديبية:

ولما سمعت القبائل التي كانت تتحالف مع قريش نبأ المعاهدة وخروج قريش من محاربة رسول الله ﷺ مدة عشر سنين انضوت على نفسها وخمدت نار الأحلاف ووجد رسول الله ﷺ الفرصة للتفرغ لمحاربة بقية القبائل واليهود الذين جاءوا مع قريش في غزوة الأحزاب (الخندق) فاجتاحهم واحدة بعد الأخرى وبدأ أولاً بيهود خيبر ومن استوطن معهم من يهود بني النضير الذين سبق أن أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ في غزوة الخندق فقتل بعض مقاتليهم عند مقاومتهم أولاً، ثم نزلوا على حكمه ﷺ بعد أن دك حصونهم، فغنم أموالهم وصالحهم على زراعة الأرض مناصفة، ثم اتجه إلى فدك ثم وادي القرى ثم تيما. فحرر أرض الجزيرة من النفوذ العسكري اليهودي فلم تقم لهم قائمة بعد ذلك، ثم اتجه بعد ذلك إلى تأديب الأعراب الذين كانوا يشنون الغارة بين الفينة والأخرى على المدينة وضواحيها من أجل النهب والسلب ويتحالفون مع كل ناعق لمحاربة رسول الله ﷺ بعد أن خلص من مشكلات اليهود.

وكنا أشرنا إلى أن مجمل هؤلاء الأحلاف قد انتكث بعد صلح الحديبية، حيث كانت قبائل الأعراب وهم غطفان وفزارة وسليم وغيرهم كانوا هم وقريش واليهود يحاصرون دار الإسلام أحزاباً متحدة، ولكن الأمر تغير بخروج قريش بمعاهدة الحديبية، واندحار اليهود وسحق قوتهم العسكرية وانفراد المسلمين بقبائل الأعراب قبيلة إثر قبيلة حتى حسموا شرورهم وأوقفوا فوضاهم في سرايا متعددة ومتتالية خضدت شوكتهم وسلبت كثيراً من أموالهم ووطدت الأمن والاستقرار حول المدينة وما جاورها وزادت هيبة الإسلام.

بدء الدعوة خارج جزيرة العرب:

وكان من نتيجة معاهدة صلح الحديبية أن اعترف المشركون من قريش بقوة الإسلام وحق المسلمين بأداء مناسكهم بالبيت العتيق[1]. كما أعطى لقريش حرية تسيير قوافلهم التجارية إلى الشام في أمان.

(١) ومن نتائجها إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن عفان بن أبي شيبة وعبد الرحمٰن ابن أبي بكر وغيرهم.

واتجه نظر رسول الله ﷺ إلى إبلاغ دعوة الإسلام إلى خارج الجزيرة العربية، فأرسل كتبه إلى ملك الروم هرقل وإلى كسرى ملك فارس وإلى المقوقس ملك مصر وإلى الحارث الغساني ملك الحيرة وإلى النجاشي ملك الحبشة وذلك قبل أن يثبت له الأمر في الجزيرة العربية وحتى قبل أن يفرغ من قريش التي لا تزال تستأثر بالبيت الحرام الذي هو مبعث دعوة الإسلام وهو شعار الملة الحنيفية وكانت كتب رسول الله ﷺ ورسله تعرض على أولئك الملوك الإسلام، وكان من بين أولئك الملوك هرقل ملك دولة الرومان. فبعث إليه رسول الله ﷺ كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام مع رسوله دحية بن خليفة الكلبي ويروى أن رسول الله ﷺ أمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر - المسمى هرقل ونصه.

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتيك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الاريسين» ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٦٤] (١) وقوله من محمد عبد الله ورسوله تعريضاً ببطلان قول النصارى في المسيح عليه السلام أنه ابن الله لأن جميع الرسل عباد الله.

وكان هرقل عظيم الروم حزاء ينظر في النجوم وعنده أوصاف رسول الله ﷺ في الكتب المقدسة من التوراة والإنجيل وفيهما وصف رسول الله ﷺ. ولما بلغه أمر الرسالة تشاءم وأصبح خبيث النفس - وقال إني رأيت أن ملك الأمة التي تختتن قد ظهر، فانظروا إلى حامل الرسالة هل هو مختتن. فنظروا فوجدوه مختتن وحدثوه أن العرب يختتون وهي من سنن سيدنا إبراهيم التي لا تزال باقية لديهم، وكان من قضاء الله أن أبا سفيان ابن حرب كان على رأس عير لقريش في أول رحلاتها التجارية إلى الشام بعد صلح الحديبية في المدة التي ماد فيها رسول الله ﷺ قريشاً في استئناف تجارتها مع الشام.

فأرسل هرقل يطلب من بلاد الشام من العرب وخاصة ممن يمت بصلة قرابة للنبي الذي بعث فيهم، فحضر أصحاب عير قريش فدعاهم هرقل في مجلسه، وقال أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل (الذي يزعم أنه نبي)؟ فقال أبو سفيان أنا أقربهم نسباً، فقال هرقل أدنوه

---

(١) رواه البخاري.

مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، وقال لهم إني سائل هذا الرجل فإن كذبني فكذبوه، وقال أبو سفيان والله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذباً لكذبت عنه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال ـ كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول: منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت بل ضعفاؤهم ـ قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: لا قال: فهل يرتد أحد منهم سخطاً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها ـ قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة. قال هرقل: هل قاتلتموه؟ قلت نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه، قال: ماذا يأمركم به قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. فرد هرقل.

قال: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله، وسألتك هل من آبائه ملك؟ فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا، فقلت: أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاءهم فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم اتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد سخطاً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بم يأمركم فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة و الصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين. وكنت أعلم أنه خارج ولكن لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال: وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا ـ فقلت لأصحابي حين أخرجنا ـ لقد أَمِرَ ابن أبي كبشة أنه يخافه ملك بني الأصفر فما زلت موقناً أنه سيظهر ـ حتى أدخل الله علي الإسلام (١).

---

(١) رواه البخاري بطوله في أول الكتاب في صحيحه.

الفصل الخامس

غزوة مؤتة

وبعد إرسال رسول الله ﷺ الكتب إلى ملوك الأمصار بالدعوة إلى الإسلام ولم يستجيبوا قام بإرسال كتب إلى ولاتهم في الأقاليم مثل الحارث بن أبي شمر الغساني عامل هرقل على دمشق وإلى هوذة بن علي صاحب اليمامة وإلى المنذر بن ساوى حاكم البحرين وإلى ملك عمان وإلى والي بصرى بالشام.

وكان من قضاء الله أن حامل كتاب رسول الله ﷺ وهو الحارث بن عمير الأزدي إلى حاكم بصرى تعرض له شرحبيل بن عمر الغساني وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر فأوثقه رباطاً ثم قدمه وضرب عنقه، ولم يقتل لرسول الله ﷺ غيره - فأشتد ذلك على رسول الله ﷺ. فندب الناس إلى قتال الروم، وعسكروا بالجرف وهم ثلاثة آلاف فأمر عليهم زيد بن حارثة - قال: فإن قتل فجعفر بن أبي طالب فإن قتل فعبد الله بن أبي رواحة فإن قتل فليرضى المسلمون بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم.

فلما فصلوا من المدينة، سمع العدو بمسيرهم، فجمعوا لهم، وقام فيهم شرحبيل ابن عمرو فجمع أكثر من مائة ألف، وقدم الطلائع أمامه، وقد نزل المسلمون معان من أرض الشام وبلغهم أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف أخرى من قبائل بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام. وتشاور المسلمون - وقالوا نكتب لرسول الله ﷺ فيمدنا بمدد ولكن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه حض الناس قائلاً - يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة أو النصر ونحن لا نقاتل الناس بعدد ولا قوة لا نقاتلهم إلا بهذا الدين - فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين.

قال أبو هريرة رضي الله عنه شهدت أول معركة في الإسلام مؤتة فلما دنا المشركون رأينا ما لا قبل لأحد به من العدة والسلاح والكراع والديباج والذهب.

قال فالتقى الجمعان، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى قتل - وتلقف الراية جعفر بن أبي طالب، فأقبل على الروم يجالدهم بعنف فقطعت يمينه فرمى اللواء، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل - وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فحمل الراية عبد الله بن رواحة فتقدم بها وهو على فرسه، فقاتل حتى قتل، ثم أخذ الراية بعده ثابت بن أقرم، فصاح يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، قالوا أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد. فشرع يقاتل ويحتال للخلوص بالجيش من هذا المأزق والانسحاب شاق وعويص وخاصة أنه لا يريد أن يشعر لعدو بهذه الخطة. روى البخاري عن خالد بن الوليد (اندقت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، وما ثبت في يدي إلا صحيفة يمانية) ودخل الليل على المحاربين فكان هدنة مؤقتة، فلما طلع

الصبح كان خالد قد نظم قواته القليلة مخالفاً بين المقدمة والميسرة، وجعل هدفه مناوشة الرومان بحيث يلحق بهم أفدح الخسائر دون أن يعرض كتلة الجيش للالتحام، وقد أفلحت خطته في إنقاذ الآلاف القليلة التي معه، وإنقاذ سمعة المسلمين في أول معركة لهم مع الروم، وقد أصيب الروم بخسائر جسيمة، وأعياهم هذا القتال، بل إن بعض فرقهم انكشف وولى مهزوماً ـ واكتفى خالد بهذه النتيجة وآثر الانصراف بمن معه.

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ رفعت له المعركة وهو على المنبر فنعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال: عليه الصلاة والسلام أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب، وعينا رسول الله ﷺ تذرفان بالدمع ثم قال فأخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم(١) ودلالة هذه المعركة أن شجاعة المسلمين وبسالتهم بلغتا حداً لم تعرف من قبل، ثلاثة آلاف تقاوم في ميدان مكشوف فيالق تزيد عليهم سبعين مرة، مجهزة بالخيل والدروع وكل أنواع الأسلحة.

وأخرج البخاري أن رسول الله ﷺ تحدث عن مقاتلة مؤتة فقال لأصحابه: «ما يسرهم أنهم عندنا أن الجوار الذي صاروا إليه أحب لنفوسهم وأقر لعيونهم من الدنيا وما فيها».

وأما أسراهم ففي كفالة الله وهو نعم المولى ونعم النصير، وما انتهى المسلمون من معركة مؤتة، حتى عادوا إلى مشارف الشام يلاحقون القبائل التي كانت توالي الروم وخاصة قبائل قضاعة التي اشتركت في معركة مؤتة، وكان قد لقي قائدهم مالك بن رافعة مصرعه، في تلك المعركة وكان ذلك الجيش بقيادة عمرو بن العاص، فتوغل في بلاد بلي وعذرة وبلقين وطيء، فقد طوع تلك القبائل الضاربة في تلك الأصقاع وشتت شملها، إلا أنه لم يلقهم في معركة حاسمة، وأعجزوه هرباً في البلاد، إلا أن سمعة المسلمين أصبحت هي العالية، وكانت السرية التي يقودها عمرو بن العاص تدعى غزوة ذات السلاسل.

الفصل السادس

غزوة الفتح

غزوة الفتح جاءت بشائرها في سورة الفتح، وفي الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ بأنه دخل البيت الحرام هو وأصحابه محلقين رؤسهم ومقصرين، وهو قوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح: الآية ٢٧].

فيقول بعض المفسرين إن قوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ [الفتح: الآية ٢٧] رداً على الذين استبطأوا دخول المسجد الحرام في غزوة الحديبية ذاتها، وقيل رداً على اعتراضهم على نصوص معاهدة الحديبية، على أن فيها هضماً وخيماً على المسلمين، ولكن الله سبحانه وتعالى طمأن المسلمين بالسكينة التي أنزلها عليهم بعد صلح الحديبية وزادهم إيماناً مع إيمانهم ووعدهم بالنصر والغلبة على عدوهم وبدخولهم المسجد الحرام كما وصف لهم. وبين الحكمة من وراء ما جرى من تأخير دخول البيت الحرام بسبب وجود تلبس المسلمين مع المشركين بمكة، وأنهم (أي الكفار) لو كانوا منعزلين عن المسلمين لعذب الذين كفروا عذاباً أليماً. ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح: الآية ٢٥].

أم القرى هي منطلق الدعوة الإسلامية:

وقبل أن ندخل في تفاصيل أحداث غزوة الفتح وأسبابها نود أن نعلق على علاقة دعوة الإسلام بالبيت الحرام لنربط بين بناء البيت أساساً ورسالة الإسلام وبين الملة الحنيفية، ملة إبراهيم عليه السلام ورسالة سيدنا محمد ﷺ. فالرسول ﷺ بعث بمكة من جناب هذا البيت بالملة الحنيفية ملة أبيه إبراهيم عليه السلام وشعارها هذا البيت استجابة لدعوة سيدنا إبراهيم ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: الآية ٣٧].

فجعل الصلاة رمزاً لكافة العبادات المتعلقة بالبيت، وجعل مكة منطلق دعوة الإسلام فكانت نقطة البداية ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: الآية ٧] . وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: الآية ٥٩].

فهذه البقعة هي التي اختارها الله لتكون مصدر النور الأخير والرسالة الخاتمة والنقطة التي يبدأ منها انطلاق الدعوة الإسلامية، وأما ميدان البلاغ فالعالم كله. وأما ربط

الملتين فقد جاء في قوله تعالى عن إبراهيم ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ [الحج: الآية ٧٨] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٣﴾ [النحل: الآية ١٢٣]. وقوله تعالى: ﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٥] . فإسكان سيدنا إبراهيم عليه السلام من ذريته تحت دوحة عند مكان البيت الذي لم يعهد الله بإنشائه بعد هي مقدمة لإقامة هذه الرسالة العظيمة في هذا البلد العظيم الذي حرمه الله منذ خلق السموات والأرض. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾ [الحَجّ: الآيات ٢٦-٢٩] . فهذه الشعائر وغيرها خص الله بها هذا البيت. فالتوحيد أقيم على هذا البيت من أول لحظة على أساس ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦﴾ [الحَجّ: الآية ٢٦] . والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٥] أي الحجاج الوافدين عليه ـ وأهله العاكفين الراكعين الساجدين فيه ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البَقَرَة: الآيات ١٢٧-١٢٩].

وهما بهذا وذاك يقرران وراثة الأمة الإسلامية لإمامة إبراهيم عليه السلام الذي عهد بها ربه سبحانه وتعالى إليه وراثة البيت العتيق الذي تحج إليه أمة محمد ﷺ وقبلتها التي إليها تتجه، وهم أولى به من المشركين والله يقول ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٤] . رداً على المشركين، فقريش التي ترجع بأصلها إلى إبراهيم عن طريق إسماعيل عليهما السلام وهي تعتز بنسبها إليه وتستمد من تلك النسبة القوامة على البيت وعمارته وسدانته، وتستمد كذلك سلطانها الديني على العرب وفضلها وشرفها ومكانتها لمجرد أنهم أبناء إبراهيم وحفدته، وهم بذلك ينازعون رسول الله ﷺ والأمة الإسلامية في وراثة إبراهيم عليه السلام والله سبحانه وتعالى لما وهب لسيدنا إبراهيم عليه السلام الخلة ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٤] ـ قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٤]. فأحب إبراهيم أن تكون الإمامة في عقبه فقال له ربه:

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٤] فالإمامة أولها القدوة في الإيمان بالله وحده لا شريك له، وأن وراثة الإمامة لا تقوم على قرابة الدم والجنس ولكن على قرابة الإيمان والعقيدة ـ فمن آمن بهذه العقيدة ورعاها حق رعايتها فهو أحق بها من أبناء الصلب وأقرباء العصب ـ فالدين دين الله والله ليس بينه وبين أحد نسب.

فقريش وإن كانوا أبناء سيدنا إبراهيم من ولده إسماعيل فقد سقطت دعواهم بالاستئثار بالبيت الحرام وشرف القيام عليه وعمارته، لأنهم فقدوا حقهم في وراثة باني البيت ورافع قواعده بإنحرافهم عن عقيدته التي وصى بها إبراهيم بنيه ألا يشركوا بالله وأن لا يموتوا إلا وهم مسلمون فقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البَقَرَة: الآيات ١٣٠-١٣٢]. ولكن قريشاً أشركوا بالله وأقاموا الأصنام على البيت الذي بناه إبراهيم لعبادة الله وحده لا شريك له.

فالله نفى ولايتهم على البيت فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٤] . وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ﴾ [الحَج: الآية ٢٥]. وبين سبحانه وتعالى أن هذا البيت أولى به رسول الله ﷺ والمؤمنون قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٧].

فقريش أخرجت رسول الله ﷺ وفتنت من آمن بالله من المؤمنين بمكة وصدت عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، فسقطت دعواهم في ولايتهم على البيت وانحرفت عن ملة إبراهيم ولم تؤمن برسالة محمد ﷺ.

وكما بيّنا سابقاً في فصول هذا الكتاب أن الرسول ﷺ والرسالة التي بعث بها مركزها مكة التي هي مكان دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام. وأن رسول الله ﷺ مكث يدعو قومه ومن جاورهم من العرب، ومن يرد إليهم في المواسم وفي الحج ثلاث عشرة سنة، ولم يتحقق له المطلوب بسبب عناد قريش ووقوفهم ضد الدعوة حتى تآمروا على قتله ﷺ مما حمل رسول الله ﷺ أن يبحث عن قاعدة تحمي الدعوة وتكفل لها الحرية وتحمي المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة، فقبل أن يهاجر إلى المدينة تطلع إلى الطائف ولكن أهلها لم يستجيبوا لدعوته بل كان ردهم شنيعاً كما سبق ذلك الاتجاه إلى الحبشة حيث هاجر إليها أوائل المسلمين خوفاً على دينهم.

أهم أهداف الهجرة استنقاذ بيت الله الحرام من يد المشركين:

وأخيراً وجد بالمدينة القاعدة الصلبة القوية التي تتوفر فيها الأسباب لنشر الدعوة وحمايتها والدفاع عنها فهاجر ﷺ إليها هو وأصحابه ومن ذلك التاريخ وهدفهم استنقاذ بيت الله الحرام، الذي جعله الله هدى للعالمين وأقامه لعبادته وحده لا شريك له وجعله منسكاً لأهل هذه الرسالة الخالدة ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ [الحج: الآية ٣٤].

فشرع الحج إليه وجعله قبلة الصلاة وأمر بالطواف به وشرع الاعتكاف فيه.

فكان الهدف الأول هو استخلاصه من يد المشركين، كما أن الجهاد شرع لرد ظلم قريش وطغيانهم الذي وقع على المسلمين باضطهادهم وفتنتهم في دينهم وإخراجهم من ديارهم بغير حق والذنب الوحيد الذي ارتكبوه بأن قالوا ربنا الله فقال تعالى ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: الآيات ٣٨-٤٠]. وهذا تعليل القرآن للجهاد ـ أنه لولا دفع الله بالجهاد لهدمت أماكن العبادة ولما أديت شعائرها ولما ذكر اسم الله كثيراً. وكنا ذكرنا أن رسول الله ﷺ أوحى الله إليه وهو في طريق الهجرة إلى المدينة أنه معيده إلى مكة منتصراً فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: الآية ٨٥].

وهذا عهد من الله والله لا يخلف الميعاد وسبق أن قلنا إن رسول الله ﷺ بدأ جهاده بقريش التي كانت حجر عثرة بين الناس في الجزيرة وبين دين الله لقوامتها على البيت الحرام الذي تعظمه كافة القبائل العربية التي بقيت تنتظر ما ينتهي إليه الأمر بين قريش وبعض بنيها حاملي الدعوة.

نقض قريش لصلح الحديبية:

قد عاهد رسول الله ﷺ مشركي قريش في الحديبية على السلم والأمان بشروط تساهل معهم فيها منتهى التساهل لا عن ضعف وذلة بل عن قوة وعزة، ولكن حباً في السلم رغم أن تلك المعاهدة لم يسترح إليها المسلمون بادىء ذي بدء، وذلك على وضع الحرب بينهم عشر سنين، وأن يأمن الناس بعضهم بعضاً وأن يرجع عنهم عامه ذلك حتى إذا كان العام المقبل قدمها ويخلوا بينه وبين البيت ثلاثة أيام، ودخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ كما دخلت بنو بكر في عهد قريش، ثم عدا بنو بكر على خزاعة وأعانتهم قريش بالرجال والسلاح خفية فنقضوا عهدهم ـ فكان ذلك سبب عودة الحرب بين

رسول الله ﷺ وقريش من جديد.

وكانت خزاعة فزعت لما حل بها فبعثت إلى رسول الله ﷺ تخبره.

فلما قدم رسولها عمرو بن سالم الخزاعي ووقف على النبي ﷺ وهو جالس في المسجد ـ فأنشده صرخته الشعرية الرجزية والتي يقول فيها:

يا رب إني أناشد محمدا حلف أبينا وأبيه الأتلدا

إلى أن يقول:

إن قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا

فانصر هداك الله نصرا أيدا وادع عباد الله يأتوا مددا

فقال رسول الله ﷺ: **«نصرت يا عمرو بن سالم»**(١)، وأحست قريش بعد فوات الأوان خطأها.

أبو سفيان يحاول رأب الصدع:

فخرج زعيمها أبو سفيان إلى المدينة ليصلح ما أفسده قومه ويحاول أن يعيد للعقد الذي نقضوه حرمته ويزيد المدة.

وبلغ المدينة فذهب إلى ابنته أم حبيبة، وأراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ فطوته دون، فقال: يا بنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش؟ أم رغبت به عني؟! فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس ـ قال والله لقد أصابك بعدي شر ـ قالت أم حبيبة بل هداني الله للإسلام ـ فأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها كيف يسقط عنك الدخول في الإسلام وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر ـ ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه فلم يرد عليه واستشفع أبو سفيان بأبي بكر فرفض أبو بكر فتركه، إلى عمر، فقال عمر: أنا أشفع لكم؟! والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به ـ فتركهما إلى علي ـ فرد عليه بأن رسول الله ﷺ قد عزم على أمر ولا نستطيع أن نكلمه فيه ـ ثم نصحه بأن يعود من حيث أتى(٢) فقفل أبو سفيان دون أن يحقق ما خرج في طلبه.

ولما قدم مكة وقد طالت غيبته حتى رمته قريش بأشد التهمة، وقالوا صبأ واتبع محمداً سراً. دخل على امرأته هند بنت عتبة ليلاً فقالت: لقد غبت حتى اتهمك قومك، فإن كنت مع طول الإقامة جئتهم بنجح فأنت الرجل، ثم جلس منها مجلس الرجل من امرأته ـ فقالت ما صنعت؟ فأخبرها الخبر، فضربت برجلها في صدره، وقالت قبحت من

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير.

(٢) بعد أن أمره أن يقول في المسجد «إلا إني أجس ذلك الجبين» ففعل ذلك.

رسول، قم فما جئت بخير. فلما أصبح حلق رأسه عند أساف ونائلة وهما صنمان عند الصفا وذبح لهما ومسح بالدم رؤوسهما وقال لا أفارق عبادتكما حتى أموت ـ وهذا إبراء لقريش مما اتهموه به.

ويقول الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي في نظمه للمغازي في غزوة الفتح.

ثم إلى الفتح الخزاعي ذمر	عشرة آلاف فعز وانتصر
وهو الذي تهللت لنصره	سحابة ومن بليغ شعره
يا رب إني ناشداً محمدا	حلف أبينا وأبيه الأتلدا
لدعوة النبي أخر الخبر	عن مكة فلم يور بل جهر
وخاب صخر إذ أتى يرأب ما	أتاه غدر قومه فأنفصما

خروج جيش الفتح:

وأمر النبي ﷺ أصحابه أن يتجهزوا، وأعلمهم أنه سائر إلى مكة وأوصاهم بالجد والبدار، وقال اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها، وسرى الخوف والقلق في ربوع مكة عقب أوبة أبي سفيان واجتمع الملأ من قريش على زعيمهم أبي سفيان، وقالوا له: ما وجدت عند محمد وأصحابه؟ قال: لم أجد شيئاً إلا أن علياً نصحني ـ وقال: أنت سيد بني كنانة فأجر بين الناس، فناديت بالجوار قالوا هل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا، قالوا رضيت بغير رضا وجئتنا بما لا يغني عنا ولا عنك شيئاً، ولعمر الله ما في جوارك بجائز ـ وإن خفارك عليهم لهين. وكان العباس بن عبد المطلب قد خرج إلى المدينة مهاجراً بعياله، والتقى مع رسول الله ﷺ بالجحفة وكذلك خرج أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبي أمية وكانا من أشد الناس إيذاء لرسول الله ﷺ بمكة فالتقيا مع رسول الله ﷺ بنيق العقاب فأعرض عنهما، فأشار عليهما علي بن أبي طالب أن يأتياه من قبل وجهه ويقولا له ما قال أخوة يوسف ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩١] . فقال لهما رسول الله ﷺ ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٢]. وسرع الجيش يطوي الوهاد والنجاد مسرعاً إلى مكة حتى بلغ مر الظهران فنزل ونصب الخيام وأوقد النيران في المعسكر الذي يضم عشرة آلاف مقاتل حتى أضاء منها الوادي وأهل مكة في عماية من أمرهم لا يدرون عما يصبحهم.

الجيش على مشارف مكة:

وعز على العباس بن عبد المطلب أن تجتاح مكة في أعقاب قتال تتفانى فيه ولا يغنيها فتيلا ـ فخرج يبحث عن وسيلة تفتح بمسالمة النبي ﷺ وتدخلها في أمانه وصادف

ذلك أن ثلاثة من كبراء مكة كانوا قد خرجوا يتعرفون الأخبار وهم أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء، وكانوا قريباً من وادي مر الظهران. فلما أوقدت النيران راعهم كثرتها واتساعها فقال أبو سفيان زعيم مكة - ما رأيت كالليلة نيراناً قط. فقال بديل هذه والله خزاعة حمشتها الحرب فرد أبو سفيان خزاعة أقل وأذل أن تكون هذه نيرانها.

وكان المسلمون على خطتهم يبثون العيون أمامهم حتى يأخذوا قريشاً على غرة فلا ترى من التسليم بداً فعثرت خيالتهم على الرجال الثلاثة وهم أبو سفيان بن حرب وبديل ابن ورقاء وحكيم بن حزام. فأخذتهم إلى المعسكر فلحق بهم العباس بن عبد المطلب وهو على بغلة رسول الله ﷺ وهو يعلن أن الأسرى الثلاثة في جواره.

فلما أدخلوا على رسول الله ﷺ حادثهم عامة الليل فانشرحت صدورهم للإسلام وإن كان أبو سفيان قد تأخر حتى طلع الصبح، فقال له العباس إما أن تسلم وإما أن تقدم للقتل فأسلم.

إسلام أبي سفيان:

ثم إن الرجال الثلاثة سألوا رسول الله ﷺ الأمان لقريش، فقال رسول الله ﷺ من دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن فقال العباس إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فميزه - فقال رسول الله ﷺ من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

وأراد رسول الله ﷺ أن يستوثق من سير الأمور بعيداً عن الحرب والضرب، فضم إلى ذلك المسلك مع أبي سفيان أن أوصى العباس باحتجازه في مضيق الوادي حتى يستعرض أمامه القوى الزاحفة كلها حتى لا تبقى في نفسه إثارة لمقاومة، وهو سيد مكة المتبوع. قال العباس فخرجت بأبي سفيان حتى حبسته في مضيق الوادي حيث أمرني رسول الله ومرت القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة - قال: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول سليم، فيقول: مالي ولسليم؟، ثم تمر به القبيلة فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول مزينة، فيقول: ما لي ولمزينة، فيقول: من هؤلاء؟ أقول جهينة فيقول ما لي ولجهينة حتى نفدت القبائل حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء وفيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد فقال سبحان الله يا عباس من هؤلاء؟

فقلت هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. فتعجب وقال ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح لك ملك ابن أخيك الغداة عظيماً. قال العباس: يا أبا سفيان - إنها النبوة - قال نعم إذاً.

ودخل أبو سفيان مكة مبهوراً مذعوراً، وهو يصيح بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمد جاءكم بما لا قبل لكم به، الحذار الحذار!! من دخل دار أبي سفيان فهو آمن! فقالوا قاتلك الله!! وما تعني دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد، وانطلق جيش الله في كل فج لا يقف أمامه شيء، واندهشت امرأة أبي سفيان مما سمعت من زوجها ـ وهي هند بنت عتبة فوثبت إليه وأخذت بشواربه تلويها، وصاحت اقتلوا الحميت الدسم الأحمش ـ اقتلوا الذق المنتفخ ـ قبحت من طليعة قوم. وهو لا يكترث لسبابها ويعاود التحذير ويلكم لا تغرنكم هذه الحمقى من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ـ ثم يعيد البلاغ مرة بعد مرة.

استسلام أهل مكة:

وأصبحت أم القرى التي قاومت دعوة الإسلام إحدى وعشرين سنة وقد قيد الرعب حركاتها، فاختفى الرجال وراء الأبواب الموصدة أو اجتمعوا في المسجد الحرام يرقبون وهم واجمون والجيش الزاحف يتقدم ورسول الله ﷺ على ناقته، قد انحنى على رحلها وقد بدا عليه التواضع حتى كاد عثنونه يلمس قادمة رحله. فلم يجر على خاطره ﷺ أن هذه الأرض التي طرد منها بالتآمر على قتله، أصبحت ملكه، وأن هؤلاء الناس الذين فعلوا به ما فعلوا هو وأصحابه من الأذى قد أصبحوا أسراه، وتحت قدميه، وإذا هو وأصحابه بعد ثمان سنين من خروجه من مكة يعودون إليها يجرون الحديد على النياق الكوم والخيل البلق ـ والرسول ﷺ في كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار لا يظهر منهم وراء الدروع غير الحدق، وهذا استجابة لدعائه ﷺ قبل خروجه من مكة الوارد في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء: الآية ٨٠] . فجعل الله له سلطاناً نصيراً وهم جنود الفتح، وإذا أبو سفيان زعيم قريش يشتري حياته بإسلامه وهو يقول: هذا والله لا طاقة لنا به ثم أصبحت مكة الساهدة فإذا رجالها بين قابع في منزله أو عائذ ببيت الله، أو لائذ بدار أبي سفيان، وإذا فرق جيش الله الظافرة تنحدر من كداء مكبرة مهللة إلى جهات مكة الأربع.

فلما ارفضت المخاوف خرج القائد الأعظم عليه الصلاة والسلام من قبته المضروبة بالخيف بأعلى مكة يؤم المسجد الحرام وعلى جوانب الطريق تهليل وتكبير المسلمين ومن وراء الحجرات عيون المشركين والرسول ﷺ يطأطأ رأسه تواضعاً لربه.

إن هذا لهو الفتح المبين الذي بشر به نبيه ﷺ بعد صلح الحديبية ـ والرسول ﷺ يتذكر خروجه من مكة مختفياً في غار ثور، والطلب عليه حياً أو ميتاً بأكبر إغراء ـ وكيف

يعود اليوم منصوراً مؤيداً وأي كرامة أعظم من هذا النصر المؤزر، وكلما ما استشعر ﷺ هذه النعماء إزداد على راحلته تواضعاً وانحناءً.

وسار رسول الله ﷺ فدخل مكة من أعلاها، وأمر قادة جيوشه ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم، فدخلت سائر الفرق من أنحاء مكة الأخرى. ودخل خالد بن الوليد من أسفل مكة ـ وكان هناك نفر من قريش غاظهم هذا التسليم، فتجمعوا عند الخندمة، يقودهم عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو، إلا أن الحقيقة بددت غرورهم ـ فتعرضوا لخالد بن الوليد وجيشه فحصدهم حصداً حتى لاذوا بالفرار.

ومن طريق ما وقع أن حماس بن خالد من قبيلة بني بكر كان قد أعد سلاحاً لمقاتلة المسلمين ـ وكانت امرأته إذا رأته يصلحه تسأله لماذا تعد ما أرى فيقول لمحمد وأصحابه وسوف أجلب لك من يخدمك منهم!! فقالت و الله ما أرى أنه يقوم لمحمد وأصحابه شيء، ولما جاء يوم الفتح كان مع أصحاب عكرمة الذني انهزموا أمام خالد ففر إلى منزله وهو يدق الباب: افتحي، ولما دخل قال اغلقي علي فقالت المرأة لفارسها المنهزم أين ما كنت تقول ـ فقال يعتذر:

إنك لو شهدت يوم الخندمة	إذ فر صفوان وفر عكرمه
وأبو يزيد قائم كالمؤتمه	وأستقبلتنا بالسيوف المسلمه
يقطعن كل ساعد وجمجمة	ضرباً فلا تسمعي إلا غمغمه
لهم نهيت خلفنا وهمهمة	لم تنطقي باللوم أدنى كلمه

وسكتت مكة واستسلم سادتها وأتباعهم وعلت كلمة الله في جنباتها ثم نهض رسول الله ﷺ إلى البيت العتيق وطاف به، وأخذ يكسر الأصنام المصفوفة حوله، ويضربها بقوسه فتقع على الأرض مهشمة ويقول ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: الآية ٨١].

سقوط الوثنية بمكة:

كانت هذه الحجارة قبل ساعات آلهة مقدسة... وإذا هي حصى وتراب وأنقاض يهدمها نبي التوحيد سيدنا محمد ﷺ ثم أمر بالكعبة ففتحت فرأى صوراً تملؤها، وفيها صور قالوا إنها لسيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يستقسمان بالأزلام. فقال ﷺ ساخطاً على المشركين قاتلهم الله والله ما استقسما بهذا قط[1].

ومحا ذلك كله، وأمر بلالاً أن يؤذن فوق سطح الكعبة وبعد الصلاة أقبل على

---

(١) رواه أحمد.

قريش وهم صفوف صفوف يرقبون قضاءه فيهم ـ فأمسك حلقات باب الكعبة وهو عال وهم تحته ـ فقال لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ثم قال يا معشر قريش ـ ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال إني أقول لكم ما قال أخي يوسف لإخوته ـ لا تثريب علكيم اليوم إذهبوا فأنتم الطلقاء.

ثم قام على الصفا يبايع الناس على الإسلام ـ فتمت البيعة على السمع والطاعة لله ولرسوله ـ وسنَّة رسول الله في مبايعة النساء أن يأخذ عليهن الميثاق كلاماً لا مصافحة.

وسقطت السلطة التي تحمي الوثنية وتقاتل دونها، فلم يبق بعد ذلك حاجز يمنع الناس من الدخول في الإسلام. إن فتح مكة جاء بعد ضربة خاطفة وقد أفلحت خطة رسول الله ﷺ في تعمية الأخبار على قريش، حتى بوغتوا في عقر دارهم، فلم يجدوا مناصاً من تقبل الإسلام الذي عاندوه وقاوموه واحداً وعشرين عاماً، وقد كلفهم ذلك غالياً ـ فما استطاعوا الجلاد ـ وما فتحوا أعينهم إلا وهم أمام الأمر الواقع. وهنا نحب أن نقف وقفة تأمل.

سياسته ﷺ في تدبير الأمور:

لقد أثبتت الأحداث صدق إلهام رسول الله ﷺ فيما فعل ويفعل فهو كما قال الصحابي الجليل العلاء بن الحضرمي عند مقابلته لحاكم البحرين (المنذر بن ساوى).

هذا هو النبي الأمي ـ والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول ليت ما أمر به نهى عنه أو ما نهى عنه أمر به، أوليته زاد في عفوه أم نقص من عقابه، وهذا الكلام الذي قاله هذا الصحابي الجليل قليل في حق رسول الله ﷺ المسدد من الله فيما يفعل، فما عرض له تدبير أمر من معضلات بعد الرسالة ولا قبلها إلا أشار فيه بأعدل الآراء وأقربها إلى السلم والإرضاء.

صنع ذلك حين اختلفت القبائل على أيها يستأثر بإقامة الحجر الأسود في الكعبة المشرفة وهو شرف لا تتنازل عنه قبيلة لقبيلة ـ فأشار سيدنا محمد ﷺ بالرأي الذي لا رأي غيره لحاضر الوقت ولمقبل الغيب المجهول فجاء بالثوب ووضع الحجر عليه، وأشرك كل زعيم قبيلة في طرف من أطرافه وكان من قسمته هو على غير خلاف بصفته الحكم في النزاع أن يقيم الحجر بيده الشريفة حيث كان، وأن يتسلف الدعوة وهي مكنونة في طوايا الزمان، ولو علموا بها يومئذ لما سلموا له الأمر ولا سلم من عداوتهم.

وصنع ذلك يوم هاجر إلى المدينة فاستقبلته الوفود تتنافس على ضيافته ونزوله وهو يشفق أن يقدح بين نفوسهم الغيرة بتميز أناس على آخرين ـ فترك لناقته خطامها وقال دعوها فإنها مأمورة، حتى بركت حيث طاب لها أن تبرك، فبادر أبو أيوب الأنصاري

فأخذ الرحل من فوقها وأدخله داره. فجعل رسول الله ﷺ يقول المرء مع رحله، وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته وكانت عنده.

وصنع ذلك يوم فضل بالغنائم من أهل مكة حديثي الإسلام يتألف قلوبهم وكانت هذه السياسة لم تفهم أول الأمر حتى وجد الأنصار على رسول الله ﷺ لما لم ينالوا من غنائم حنين فجمعهم ـ ثم حمد الله وأثنى عليه وقال يا معشر الأنصار ما مقالة بلغتني عنكم ووجدة وجدتموها عليّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا بلى ـ الله ورسوله أمن وأفضل. ثم قال ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل. قال ﷺ: **«أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فواسيناك»**. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.

فبكى القوم حتى اخضلوا لحاهم وقالوا رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا[1].

فكان ينبغي لنا أن نضع هذه المقالة في موضعها في تقسيم غنائم حنين ولكن سقناها استطراداً مع مثيلتها في تدبيره ﷺ للأمور وعلاج شؤون الجماعات والأفراد بطريقة لم يكن أسرع منها إلى إرضائهم بالحجة التي لا تغلب من يدين بها بل تريه أنه هو الغالب الكاسب وأنها تصيب منه المقنع.

ولكننا لا نعرف عملاً واحداً هو أجمع لضروب السياسة مما فعله ﷺ في صلح الحديبية في مراحله جميعها منذ ابتدأ بالدعوة إلى الاعتمار بالكعبة حيث بدأهم بالسلم والعهد لكونهما هما اللذان يصلحان لظروف ذلك الوقت في ظاهر الأمر. ليتفرغ لكسر شوكة اليهود والأعراب الذين تحالفوا مع قريش على غزوة الخندق لاستئصال شأفة الإسلام والمسلمين.

ثم عاد وجعل الاعتماد على القوة والحرب حيث لا تحسن المسالمة ولا تصلح العهود.

---

(١) سيرة ابن إسحاق.

قصيدة حسان في غزوة الفتح:

وكان حسان بن ثابت رضي الله عنه قد تنبأ عن غزوة الفتح في قصيدته الهمزية التي يحاكي فيها أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم بن عم رسول الله ﷺ الذي كان يهجوه في جاهليته قبل إسلامه وكان حسان يرد عن رسول الله ﷺ وقد تنبأ بغزوة الفتح قبل وقوعها بزمن. وكان رضي الله عنه يتخيل النصر الذي وعد الله به نبيه محمداً ﷺ في الفتح ويقول: النصر سوف يكون حليف جيش المسلمين لوجود روح القدس جبريل عليه السلام ضمن جيشهم، وأن المسلمين سوف يتم الفتح لهم وينكشف الغطاء وهذا من موافقات الغيب.

ألا أبلغ أبا سفيان عني ... فأنت مجوف نخب هواء
بأن سيوفنا تركتك عبدا ... وعبد الدار سادتها الإماء
عدمنا خيلنا إن لم تروها ... تثير النقع موعدها كداء
يبارين الأعنة مصعدات ... على أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطرات ... تلطمهن بالخمر النساء
فإما تعرضوا عنا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فأصبروا لجلاد يوم ... يعز اللَّه فيه من يشاء
وجبريل رسول اللَّه فينا ... وروح القدس ليس له كفاء
وقال اللَّه قد أرسلت عبداً ... يقول الحق إن نفع البلاء
شهدت به فقوموا صدقوه ... فقلتم لا نقوم ولا نشاء
وقال اللَّه قد سيرت جنداً ... هم الأنصار عرضتها اللقاء
لنا في كل يوم من معد ... سباب أو قتال أو هجاء
فنحكم بالقوافي من هجانا ... ونضرب حين تختلط الدماء
هجوت محمداً فأجبت عنه ... وعند اللَّه في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء
هجوت مباركاً براً حنيفاً ... أمين اللَّه شيمته الوفاء
فمن يهجو رسول اللَّه منكم ... ويمدحه وينصره سواء
فإن أبى ووالده وعرضى ... لعرض محمد منكم وقاء

الفصل السابع

غزوة حنين

خرج رسول الله ﷺ إلى حنين في اليوم السادس من شوال عام ٨ هجرية وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة وتمهدت أمورها وأسلم عامة أهلها.

سبب الغزوة:

وكان رسول الله ﷺ بلغه أن هوزان جمعوا له ليقاتلوه، وجمعت له القبائل لترد فتح مكة هزيمة، وكان أميرهم مالك بن عوف النضري ومعه ثقيف بكمالها بنو جشم وبنو سعد بن بكر وبنو عمرو بن عامر وجاؤوا بقضهم وقضيضهم وكان مالك بن عوف شجاعاً مقداماً إلا أنه سقيم الرأي، سيىء المشورة فأمر قومه وهم خارجون للغزو أن يأخذوا معهم نساءهم وأموالهم وذراريهم التماس الحفيظة أن لا يفروا ـ وقد اعترض عليه دريد ابن الصمة وهو فارس مجرب محنك وقال له هل يرد المنهزم شيء. إن كانت الدائرة لك لم ينفعك إلا رجل برمحه وسيفه وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك.

فسفه مالك رأيه، وأصر على خطته، وعندها قال دريد (هذا يوم لم أشهده ولم يفتنى) وكان دريد يسأل عن موقعهم فقالوا بأوطاس ـ قال نعم مجال الخيل لا حزن ضرس ولا سهل دهس.

وروى أبو داود أن رجلاً جاء النبي ﷺ وقال له: إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا فإذا أنا بهوزان عن بكرة أبيها بظعنهم وبنعمهم اجتمعوا إلى حنين. فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله».

وانتهى الجيش الإسلامي إلى حنين ليلة الأربعاء لعشر خلون من شوال، وكان مالك بن عوف قد سبقهم فأدخل جيشه في ذلك الوادي وفرق كمنائه في الطرق والمداخل والشعاب والمضائق وأصدر أمره أن يرشقوا المسلمين بالنبل ثم يشدوا عليهم شدة رجل واحد.

وأقبلت طلائع الجيش الإسلامي تتدافع نحو الوادي وهي غافلة ما يكمن فيه وكان وادياً أجوف عميق الهاوية منحدراً، ولم يشعر المسلمون إلا والنبال تنهال عليهم من كل جانب والمشركون مسلطي السيوف، وقد حملوا حملة رجل واحد كما أمرهم قائدهم وكان ذلك الوقت وقت غلس الصبح فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين.

انهزام جيش المسلمين أولاً:

قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ
﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ [التوبة: الآيات ٢٥-٢٧] . فهذا تذكير من الله للمؤمنين عندما قال بعضهم لبعض لن نغلب اليوم من قلة وكان قد شق ذلك على رسول الله ﷺ .

ثبات رسول الله ﷺ:

ولكن رسول الله ﷺ ثبت في وجه العدو والعباس آخذ بركاب بغلته الأيمن وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر يثقلانها ألا تسرع السير والرسول ﷺ ينوه باسمه ويقول: **«إليّ عباد الله إني أنا رسول الله ويقول في تلك الحال أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»** ، وثبت معه من أصحابه قريب من مائة منهم أبو بكر وعمر والعباس وعلي والفضل وأبو سفيان بن الحارث وأيمن بن أم أيمن وأسامة بن زيد وغيرهم رضي الله عنهم، وانتشرت موجة الفزع في صفوف المسلمين مهزومين لا يلوي أحد على أحد حتى إن بعض من أسلم حديثاً من الطلقاء نظر نظرة فرح وتشفي. فقال أبو سفيان بن حرب لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وقال كلدة بن الجنيد ألا بطل السحر اليوم فأجابه صفوان بن أمية ولمّا يزال مشركاً، أسكت فض الله فاك، فوالله لأن يربني رجل من قريش أحب إليّ من أن يربني رجل من هوزان.

وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين وأغضبه فرار أصحابه، فأمر عمه العباس (وكان جهير الصوت) بأن ينادي بأعلى صوته يا أصحاب الشجرة (يعني شجرة بيعة الرضوان التي بايع تحتها المهاجرون والأنصار) ألا يفروا عنه يا للمهاجرين والأنصار، يا أهل البقرة، وفي ضجة الفزع الذي ساد المعركة أولاً علت صيحات العباس ووصلت إلى آذان الرجال المنزعجين لما وقع فأخذوا يكافحون أباعرهم والزحام ليبلغوا مصدر الصوت.

انهزام الأعداء:

واجتمع على رسول الله ﷺ أصحابه الذين دعاهم وهم يصيحون لبيك لبيك، حتى قارب القوم المائة فاستقبل بهم النبي ﷺ المشركين وقد ملك زمام الموقف ثم أخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجه الكفار وقال: شاهت الوجوه ـ انهزموا ورب محمد ـ ثم نظر إلى أصحابه وهم يجالدون المشركين جلاداً شديداً فقال الآن حمي الوطيس. وقصد علي بن أبي طالب وأحد الأنصار رضي الله عنهما إلى حامل العلم في طليعة هوزان فضرب علي عرقوب جمله فوقع على عجزه ثم استمكن منه الأنصاري فقتله ولم يطل الوقت حتى كان رجال ثقيف وهوزان يوغلون مولين الأدبار والأسرى مكتفون.

واعتصم بعض المنهزمين بناحية يقال لها أوطاس ـ فأرسل رسول الله ﷺ في أعقابهم أبا عامر الأشعري فقاتلهم حتى قتل، فأخذ الراية بعده ابن أخته أبو موسى

الأشعري فما زال يناوش القوم حتى بدد شملهم وهزموا شر هزيمة وكانت الغنائم كالآتي:

أربعة وعشرون ألفاً من الإبل ـ أربعون ألفاً من الغنم ـ أربعة آلاف أوقية من الفضة ـ ستة آلاف من السبي.

والسبي تقال للنساء والذراري والموالي، لأن المقاتلة تقتل وقال الله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمَّد: الآية ٤].

تقسيم غنائم حنين:

وكره رسول الله ﷺ تقسيم تلك الغنائم حتى يؤب أهلها مسلمين فجمع الغنائم في الجعرانة، وانتظر أهلها بضع عشر ليلة، حتى فرغ من غزوة الطائف وعاد إلى الجعرانة التي حبس فيها الغنائم فلم يجيء منهم أحد فشرع يقسمها وقدم فيها المؤلفة قلوبهم، فأعطى الملأ من قريش كفاراً ومسلمين كل واحد مائة من الإبل وأربعين أوقية من الفضة، وكذلك رؤساء القبائل الأخرى والرجال البارزين من الأعيان وشاع في الناس أن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر. فقال أبو سفيان بن حرب لما أعطاه مائة من الإبل وأربعين أوقية من الفضة قال: وابني يزيد؟ قال ﷺ: «**أعطوه**» فأعطوه مائة من الإبل وأربعين أوقية من الفضة، ثم قال: وابني معاوية؟ قال: «**أعطوه**» فأعطوه مائة من الإبل وأربعين أوقية من الفضة. فقال أبو سفيان: إنك لكريم فداك أبي وأمي والله لقد حاربتك فنعم المحارب كنت ثم سالمتك فنعم المسالم أنت جزاك الله خيراً.

فازدحموا عليه يبغون المزيد من المال وخاصة الأعراب يقولون يا رسول الله اقسم علينا فقال ﷺ:

أيها الناس والله لو كان لكم عدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم وما ألفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً، ثم أخذ وبرة من سنام بعير فرفعها وقال: يا أيها الناس والله ما لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس والخمس مردود فيكم، فأدوا الخيط والمخيط فإن الغلول يكون على أهله عاراً وناراً وشناراً يوم القيامة[1].

يقول صاحب الغزوات الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي في العطايا:

أعطى عطايا شهدت بالكرم ... يومئذ له ولم تجمجم

(١) روى البخاري بعضه.

وكـيـف لا ومـسـتـمـد سـيـبـه من سـيـب رب ذي عـنـايـة بـه
أعطى عطايا أخجلت دلح الديم إذ ملأت رحب الفضا من النعم
زهـاء ألـفـي نـاقـة مـنـهـا ومـا مـلأ بـيـن جـبـلـيـن غـنـمـا
لـرجـل وبـلـه مـا لـحـلـقـه مـنـهـا ومـن رقـيـقـه وورقـه

موقف الأنصار من قسمة الغنائم:

ووجد الأنصار على رسول الله ﷺ وقالوا: يغفر الله لرسوله ﷺ. يمنعنا ويعطي قريشاً وسيوفنا تقطر من دمائهم.

لما لم ينالوا من غنائم حنين فجمعهم - ثم حمد الله وأثنى عليه وقال: يا معشر الأنصار، ما مقالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها عليّ في أنفسكم ألم آتكم ضلالاً فهداكم وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف بين قلوبكم قالوا بلى - الله ورسوله أمن وأفضل، ثم قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله - لله ولرسوله المن والفضل، قال ﷺ: **«أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقم ولصدقتكم أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك وعائلاً فواسيناك»**، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار[1].

ويقول أحمد البدوي الشنقيطي في نظمه للغزوات:

ووكـل الأنـصـار خـيـر الـعـالـمـيـن لـديـنـهـم إذ ألـف الـمـؤلـفـيـن
فـوجـدوا عـلـيـه أن مـنـعـهـم فـأرسـل الـنـبـي مـن جـمـعـهـم
وقـال قـولاً كـالـفـريـد الـمـونـق عـن نـظـمـه ضـعـف سـلـك مـنـطـقـي

قدوم وفد هوزان:

وقدم وفد هوزان على رسول الله ﷺ وهم أربعة عشر رجلاً ورأسهم زهير بن صدد وفيهم أبو يرقان عم رسول الله ﷺ من الرضاعة - فسألوه أن يمن عليهم بالسبي، فقال إن معي من ترون وإن أحب الحديث إليّ أصدقه فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم -

---

(١) رواه ابن هشام.

قالوا ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً. فقال إذا صليت الغداة فقوموا وقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المؤمنين ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله ﷺ أن يردوا علينا.

فلما صلى الغداة ـ قاموا فقالوا ذلك: فقال رسول الله ﷺ: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم»، وأسأل لكم الناس ـ فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ فقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا ـ وقال عيينه بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا ـ وقال العباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا، فقالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ فقال العباس بن مرداس: وهنتموني ـ فقال رسول الله ﷺ: إن هؤلاء القوم جاؤوا مسلمين وقد كنت استأنيت سبيهم وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئاً ـ فمن كان عنده منهن شيء فطابت نفسه بأن يرده فسبيل ذلك إليه ومن أحب أن يستمسك بحقه فليرد عليهم، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفيء الله علينا ـ فقال الناس قد طبنا لرسول الله ﷺ فقال: إنا لا نعرف من رضي منكم ممن لم يرض فأرجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم، ولم يتخلف منهم أحد إلا عيينة بن حصن فإنه أبى أن يرد عجوزاً صارت في يده، ثم ردها بعد ذلك وكسا رسول الله ﷺ السبي قبيطية قبيطية.

وجاء في كتاب الأنساب للشيخ حماد المجلسي الشنقيطي أن أبوي الرسول ﷺ من الرضاعة وهما الحارث بن عبد العزى وزوجه حليمة بنت أبي ذؤيب أنهما أسلما.

قصة الشيماء بنت الحارث:

وعزا لكتاب الشفاء للقاضي عياض أن حليمة كانت تأتي أبا بكر وعمر بعد النبي ﷺ فيبالغان في إكرامها، وأن ابنتها الشيماء سبيت يوم حنين فقالت للذين سبوها، أنا أخت صاحبكم، فأتوا بها إلى النبي ﷺ فذكرت له ذلك، فقال: وما علامة ذلك، قالت عضة بين كتفي عضضتنيها، وأنا متوركتك فعرف العلامة، فخيرها بين أن تقيم معه مكرمة وبين أن يكرمها، ويوصلها أهلها، فاختارت قومها، فأعطاها جارية وغلاماً اسمه مكحول، فزوجت أحدهما بالآخر وأعطاها أيضاً قطيع إبل وغنم.

ويقول الشاعر رحمه الله:

مـنّ فـضـلاً عـلـى هـوزان إذ كـا ... ن لـه قـبـل ذاك فـيـهـم ربـاء
وأتـى الـسـبـي فـيـه أخـت رضـاع ... وضـع الـكـفـر قـدرهـا والـسـبـاء
فـحـبـاهـا بـراً تـوهـمـت الـنـاس ... بـه إنـمـا الـسـبـا إهـداء
بـسـط الـمـصـطـفـى لـهـا مـن رداء ... أي فـضـل حـواه ذاك الـرداء
فـغـدت فـيـه وهـي سـيـدة ... الـنـسـوة والـسـيـدات فـيـه إمـاء

ومن فضل الله على رسوله وعلى المؤمنين نصره لهم في مواطن كثيرةٌ وهم قلة ولما صار يوم حنين قالوا لن نهزم اليوم من قلة ـ فأذاقهم الله أولاً مرارة الهزيمة مع كثرة عددهم ليبين الله سبحانه وتعالى أن النصر إنما هو من عنده، وأن كثرتهم لم تغن عنهم شيئاً بعد أن ولوا مدبرين ثم رحمة بهم أعاد عليهم النصر بجنود لم يروها، كما أنه سبحانه وتعالى قد وعد رسوله وهو صادق الوعد أنه إذا فتح مكة دخل الناس في دين الله أفواجاً كما وعده بالغنائم الكثيرة ـ فقد دانت له العرب بأسرها ثم رزقه الغنائم الكثيرة فجعل له خيبر وفدك ووادي القرى ـ ثم غنائم قبائل أعراب نجد في شماله ووسطه ثم رزقهم بعد الفتح غنائم هوزان وأحلافها ليظهر نصره وعزه لنبيه ﷺ بأن يقسم تلك الغنائم الكثيرة على المؤلفة قلوبهم من قريش وغيرها، ليعلو بذلك عز الإسلام والمسلمين بعد الفتح وكان من نتيجة ذلك إسلام المتربصين مثل صفوان بن أمية وأضرابه ولاستجلاب قلوب رؤساء القبائل لما في ذلك من تقوية الإسلام وشوكته واستجلاب عدوه إليه.

غزوة الطائف

كانت ثقيف قد غزت رسول الله ﷺ مع هوزان ولما انهزم الجميع في حنين وأوطاس دخلوا حصن الطائف.

وكانوا أدخلوا ما يكفيهم من المؤن لسنة وأغلقوه عليهم، وتهيأوا للمقاومة وسار رسول الله ﷺ إليهم فنزل قريباً من حصن الطائف وقام أهل الطائف يرمون النبل على جيش المسلمين حتى قتل منهم اثنا عشر رجلاً فارتفع رسول الله ﷺ إلى موضع آخر لا يصل إليه النبل وحاصرهم ثمانية عشر ليلة، و نصب عليهم المنجنيق ونثر الحسك، فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعنابهم وتحريقها كما رغَّب عبيدهم بالخروج من الحصن والانضمام إلى المسلمين بالعتق من الرق فخرج منهم بضعة عشر رجلاً منهم أبو بكرة فاعتقهم رسول الله ﷺ.

واستشار رسول الله ﷺ في أمر حصار الطائف نوفل بن معاوية الديلي فقال ما ترى ـ فقال: ثعلب في جحر، إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك. فأمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب أن يؤذن في الناس بالرحيل وكان بعض الصحابة اشتكوا إلى رسول الله ﷺ من نبل ثقيف وقالوا احرقتنا نبال ثقيف يا رسول الله ادعوا على ثقيف. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم أهد ثقيفاً وائتني بهم»[1].

وأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن يقولوا لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر

---

(١) رواه الترمذي وصححه.

عبده وهزم الأحزاب وحده ـ فلما ارتحلوا واستقلوا ـ قال ـ قولوا آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون.

الفصل الثامن

غزوة تبوك

وكانت في رجب من السنة التاسعة للهجرة النبوية وهي آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ وغزوة تبوك كانت موجهة إلى الروم التي تحتل شمال جزيرة العرب من قارة آسيا كما تحتل شمال إفريقيا، وهم يقال لهم في ذلك التاريخ بنو الأصفر ـ وهم أربيون والشعوب التي يحتلونها مختلفة كل الاختلاف عن شعوب قارتهم فهم غزاة لتلك البلاد.

سبب الغزوة الأول:

إن الله سبحانه وتعالى أمر بقتال أهل الكتاب بوجه عام بعد استسلام الوثنين المشركين من العرب، بعد أن دانت قريش وهوزان وثقيف وكذلك كافة القبائل العربية التي كانت مشركة في جزيرة العرب.

وأهل الكتاب شاملة اليهود ـ والنصارى ولكن اليهود سبق أن كسرت شوكة قبائلهم الثلاثة القوية نهائياً (بيثرب) وهي المدينة التي كانوا يستوطنونها حيث أجليت بنو قينقاع وبنو النضير إلى أطراف الشام وأبيدت بنو قريظة واستسلمت خيبر وما حولها من قرى ومستوطنات اليهود مثل فدك ووادي القرى وتيما ـ بسبب غدرهم ونقضهم مواثيقهم وبعد ذلك دخل الناس في دين الله أفواجاً. وانتشر الإسلام في شبه جزيرة العرب باستثناء الجزء الشمالي الذي تحتله دولة الرومان والفرس. فأمر الله سبحانه وتعالى بقتال أهل الكتاب فقال تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبَة: الآية ٢٩] .

نزول القرآن بقتال أهل الكتاب:

وقد تلقينا من فضيلة العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي صاحب كتاب «أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن» في دروسه التي كان يلقيها في الروضة الشريفة في المسجد النبوي الشريف في تفسير القرآن في رمضان. أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا ينتظرون نزول هذه الآية الكريمة بسبب آية نزلت على رسول الله ﷺ قبلها ـ وهي من آيات القرآن المنسأ ـ الوارد فيه قوله تعالى: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠٦] على

قراءة ننسأها[1] يعني نؤخرها لأن الله يؤخر بعض الآيات إلى أمر معلوم أي مغيبة بغاية وذلك أن الله أنزل آيات في أهل الكتاب تدل على عدم قتالهم وقت نزول الأمر بقتال الكفار عموماً كقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠٩] . فقوله سبحانه وتعالى فاعفوا واصفحوا أي عن قتال أهل الكتاب حتى يأتي الله بأمره، أي حتى يأتيكم الأمر الأخير من الله وكانت هذه الآية من سورة براءة فيها الأمر الأخير الذي كان ينتظره الصحابة في آية البقرة وهو قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبَة: الآية ٢٩] .

لأن أهل الكتاب من يهود ونصارى، وإن قالوا لا إله إلا الله وأقروا باليوم الآخر فهم كمن أنكر وجود الله وأنكر وجود اليوم الآخر، لأنهم لما اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله و المسيح ابن مريم، فهذا قول من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، لأن الكافر إذا كفر بالله من وجه لا ينفعه الإيمان به من وجه آخر. فمن قال لا إله إلا الله وادعى لله شريكاً أو ولداً أو رباً ودعا معه أو دعا من دونه غيره فهذا لا ينفعه إيمانه بالله ولا باليوم الآخر، وقد بيّن سبحانه أنهم انحرفوا عما أمروا به وهو عبادته وحده لا شريك لـــــه، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبَة: الآيتان ٣٠،٣١] .

وهذه الآية تحدد حقيقة ما عليه أهل الكتاب ونص على أنه شرك وكفر وباطل وقدم الوقائع التي يقوم عليها هذا الحكم سواء من واقع معتقدات أهل الكتاب والتوافق والتضاهي بينها وبين معتقدات الذين كفروا من قبل:

١ - إنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

٢ - إنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله.

٣ - إنهم لا يدينون دين الحق.

---

(١) وهي في قراءة المكي والبصري.

٤ ـ إن اليهود ـ تقول إن عزيز ابن الله وإن النصارى تقول إن المسيح ابن الله وأنهم في هذين القولين يضاهئون قول الذين كفروا من قبل سواء من الوثنين الإغريق أو الرومان أو الهنود أو العرب الذين كانوا يقولون بهذا القول من قبلهم.

٥ ـ إنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله كما اتخذوا المسيح ابن مريم رباً وأنهم بهذا خالفوا ما أمروا به من توحيد الله وأنهم بذلك مشركون.

٦ ـ إنهم محاربون لدين الله ـ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم وإنهم بذلك كافرون.

٧ ـ إنهم يجحدون رسالة نبينا محمد ﷺ وعدم إيمانهم به وهو دين الحق وقد بيّن لهم في القرآن أن﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨٥] و﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩] .

السبب الثاني ـ نزول الآية:

وعندما نزلت هذه الآية، تجهز رسول الله ﷺ لقتال النصارى في غزوة تبوك، وأمر بالنفير العام حين بلغه أن الروم قد جمعوا له على أطراف الجزيرة بالشام، وأن هرقل قد قدم أرزاق جنده سنة وانضمت إلى حشود الروم لخم وجذام وعاملة وغسان من قبائل العرب المنتصرة وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء من أعمال الشام فاستنصر النبي ﷺ الناس إلى قتال الروم وكان ﷺ قلما يخرج إلى غزوة إلا ورَّى بغيرها مكيدة في الحرب إلا ما كان من غزوة الفتح كما تقدم وهذه الغزوة. فقد صرح بها لبعد المشقة وشدة الزمان، إذ كان ذلك في شدة الحر حين طابت الظلال وأينعت الثمار، وحبب إلى الناس المقام وكانت السنة شهباء وقحط والسير إلى تبوك يتطلب جهداً مضنياً ونفقة كبيرة وقتال الروم ليس صداماً مع قبيلة محدودة العدد والعدة بل، هو كفاح مع دولة تبسط سلطانها على جملة قارات وتملك موارد كثيرة من الرجال والأموال وبتلك المبررات أرجف المنافقون وقالوا: ﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبَة: الآية ٨١] .

إرجاف المنافقين بأن قتال الروم ليس كقتال العرب فيما بينها:

وجد المنافقون فرصتهم للتخويف وبث الفرقة والتحذير من بأس الروم فقالوا لا تنفروا في الحر، فرد الله عليهم ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبَة: الآية ٨١] وقال بعضهم لبعض ـ (مستهزئين بجيش المسلمين) أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا، والله لكأنا بكم غداً مقرنين بالحبال. إرجافاً وترهيباً للمؤمنين ـ واستأذن بعضهم في التخلف مخافة الفتنة ببنات الروم، وهذا من سقوط الهمة وضعف العزيمة.

وبلغ رسول الله ﷺ أن ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يثبطون الناس عن غزوة تبوك فبعث إليهم رسول الله ﷺ طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ففعلوا. وأنزل الله فيهم كثيراً من القرآن يتلى إلى قيام الساعة بأنهم نجس ورجس ومأواهم جهنم، ولكن رسول الله ﷺ وأصحابه المخلصين لا ينكصون أمام الصعوبات والسكوت أمام تحدي النصارى لهذا الدين، والقرآن شدد النكير على من يتثاقل أو يتخلف عن الجهاد في سبيل الله في هذه الغزوة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٣٨،٣٩] .

وقد بدأت الآيات باستنهاض الهمم والتحذير من معية التقصير في أداء هذه الفريضة وأن الله لا يقبل ذرة من تفريط في حماية دينه ونصرة نبيه ﷺ.

حث الرسول الأغنياء على الإنفاق:

وحث رسول الله ﷺ على البذل في تجهيز الجيش وسد حاجته من الرواحل والسلاح والخيل والنفقة، فقدّم أبو بكر جميع ماله فقال له رسول الله ﷺ: «**ما تركت لأهلك؟**» قال: تركت لهم الله ورسوله، وقدم عمر نصف ماله، وقدم عبد الرحمن بن عوف نصف ماله، وجاء العباس بمال كثير، وجاء طلحة بمال كثير، وجاء سعد بن عبادة بمال، وجاء محمد بن مسلمة وجاء عاصم بن عدي بتسعين وسقاً من تمر، وجاء عثمان ابن عفان رضي الله عنه بألف دينار وبثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها ـ فقال رسول الله ﷺ: ما ضر عثمان ما عمل بعد هذا اليوم[(١)].

وبعثت النساء ببعض حليهن من خلاخل وأقراط وخواتم إلى غير ذلك، وبعث رسول الله ﷺ إلى قبائل العرب وخاصة أهل مكة، وحض على الجهاد، ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم البكاءون وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يحملهم على ركائب فأنزل الله فيهم: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: الآيات ٩١، ٩٢].

وُروى عن علية بن يزيد أنه قام ﷺ من الليل يصلي فتهجد ما شاء الله ثم بكى

---

(١) رواه أحمد والترمذي.

وقال اللهم إنك أمرت بالجهاد ورغبت فيه ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به، ولم تجعل في يد رسولك ﷺ ما يحملني عليه؟ فأتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها من مال أو حد أو عرض. وأصبح الرجل على عادته مع الناس، فقال رسول الله ﷺ أين المتصدق هذه الليلة؟ فلم يقم إليه أحد، ثم قال أين المتصدق فليقم، فقام إليه فأخبره - فقال رسول الله ﷺ: أبشر والذي نفسي بيده لقد كتب في الزكاة المتقبلة(١).

وكان من المنافقين أهل الريبة الذين يلتمسون الأعذار، الجد بن قيس أخو بني سلمة فقد قال له رسول الله ﷺ: وهو يتجهز لغزو تبوك «**هل لك يا جد في جلاد بني الأصفر؟**» يعني الروم - فقال يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني؟ فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر عنهن».

فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: قد أذنت لك(٢). إنها سقوط الهمة في دناءة الاعتذار، وفيه نزلت الآية ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة: الآية ٤٩].

وهي كناية عن مقارفتهم للخطيئة كاملة، وعن انتظار العقاب عليها حتماً جزاء الكذب والتخلف والهبوط المنحط إلى هذا المستوى من المعاذير.

صدق عزائم أصحاب رسول الله ﷺ:

وكان العكس يقع من المؤمنين الصادقين، مثل أبي خيثمة، عاد يوماً إلى أهله بعد مسير النبي ﷺ وصحبه، وكان يوماً قائظاً فوجد امرأتيه كلتاهما قد أعدتا طعاماً شهياً وأحضرتا الماء البارد ورشتا مسكنهما - وأحضرتا رطباً من بستانه، الذي أخذ بسره الأحمر والأصفر ينضج - فقال لما رأى ذلك وزها له الحال - رسول الله ﷺ في الشمس والحر والريح وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم. والله ما هذا بالمنصف.

ثم قال والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ (فهيئا لي زاداً ففعلتا) - فارتحل وجد السير حتى لحق برسول الله ﷺ حين نزل تبوك.

---

(١) الإصابة لابن حجر.

(٢) رواه ابن هشام.

ما واجهه جيش العسرة:

وعانى الجيش الذاهب إلى تبوك مصاعب ثقيلة، فروى الإمام أحمد في تفسير قوله تعالى ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [التّوبَة: الآية ١١٧] . قال: خرجوا في غزوة تبوك الرجلان والثلاثة على بعير واحد وفي حر شديد، وأصابهم عطش، حتى جعلوا ينحرون إبلهم ليعصروا فرثها ويشربوا ماءها، ثم يجعل ما بقي على كبده ـ فقال أبو بكر الصديق يا رسول الله إن الله عودك في الدعاء خيراً فادعُ الله لنا. فقال: أوَتحب ذلك قال: نعم.

فرفع رسول الله ﷺ يديه إلى السماء. فلم يرجعهما حتى أذنت تمطر ـ فأطلقا ثم سكبت فملؤوا ما معهم ـ ثم ذهبوا ينظرون فلم يجدوها تجاوزت العسكر!!. فكان ذلك عسرة في الماء وعسرة في النفقة وعسرة في الظهر والله سماها ساعة العسرة!!. وسار رسول الله ﷺ في ثلاثين ألفاً لديهم عشرة آلاف فرس، ومر في طريقه على ديار ثمود، فقال رسول الله ﷺ: **«لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين ـ أن يصيبكم ما أصابهم»**. ثم قال ﷺ: لما مر بالحجر لا تسألوا الآيات (خوارق العادات) فقد سألها قوم صالح، فبعث الله لهم ناقة فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم ـ فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً ـ فعقروها فأخذتهم صيحة.

وأقام ﷺ بتبوك عشرين ليلة يقصر الصلاة ـ وهرقل ملك الروم يومئذ بحمص ـ وذكر ابن عائذ في مغازيه أن رسول الله ﷺ نزل بتبوك في زمن قل ماؤها فيه. فاغترف رسول الله ﷺ غرفة بيده من ماء فتمضمض بها، ثم بصقه فيها ففارت عينها حتى امتلأت وفي صحيح مسلم أنه قال قبل وصوله إليها، إنكم ستأتون غداً إن شاء الله تعالى عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي. قال فجئناها وقد سبق إليها رجلان والعين مثل الشراك تبضي بشيء من ماء ـ فسألهما رسول الله ﷺ هل مسستما من مائها شيئاً ـ قالا نعم ـ فسبهما النبي ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول ـ ثم غرفوا من العين قليلاً حتى اجتمع في شيء، وغسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء منهمر، حتى استقى الناس، ثم قال رسول الله ﷺ يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملىء جناناً!!

الجيش في تبوك:

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك مكث بها عشرين ليلة، ولم يجد المسلمون

كيداً ولا عدواً، ووادع أهل أيلة وهي العقبة الآن، وكذلك أهل أذرعات وأهل أذرح وأهل جربا وأهل دومة الجندل، وصالح ملكهما الأكيدر الذي استسلم لجيش خالد بن الوليد الذي أرسله رسول الله ﷺ أثناء غزوة تبوك صالح الأكيدر على ألفي بعير وثمانمائة فرس وأربعمائه درع وأربعمائة رمح.

وآثر الروم وحلفاؤهم من العرب المنتصرة الاختفاء حول حدودهم، وأيقنت القبائل التي تعمل لحساب الروم أن اعتمادها على ساداتها من الروم قد فات أوانه فتحدث ﷺ عن معجزة غيبية سوف تقع في تبوك تحولها من أرض قاحلة بلا ماء ولا مرعى إلى جنات وحدائق وزروع وهو ما حصل في زمننا هذا ونحن له شهود وهو من أعلام نبوته ﷺ.

تآمر بعض المنافقين على قتل رسول الله ﷺ:

وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة وفي أثناء عودته ـ تآمرت جماعة من المنافقين على قتل رسول الله ﷺ غيلة ـ وذلك لما أقبل رسول الله ﷺ على عقبة في الطريق أمر مناد ينادي بأن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد وأن العسكر يأخذ بطن الوادي. فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل فغشوا عماراً وهو يسوق برسول الله ﷺ ـ فأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل ـ فقال رسول الله ﷺ لحذيفة (قد ـ قد) حتى هبط رسول الله ﷺ ورجع عمار فقال يا عمار هل عرفت القوم ـ فقال لقد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون قال هل تدري ما أرادوا؟ قال الله ورسوله أعلم ـ قال أرادوا أن ينفروا برسول الله راحلته ويطرحوه أرضاً فنزل فيهم قول الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبَة: الآية ٧٤].

ويروى عن عروة بن الزبير أن هذه الحادثة وقعت معها حادثة أخرى سبقتها وهي أن الجلاس بن سويد بن الصامت كان له ربيب من امرأته اسمه عمير بن سعد، فقال الجلاس إن كان ما جاء به محمد حقاً فنحن أشر من حميرنا هذه التي نحن عليها، فقال عمير والله يا جلاس لأنك أحب الناس إليّ وأحسنهم عندي بلاء وأعزهم على أن يصلك شيء تكرهه، ولقد قلت مقالة لأن ذكرتها لتفضحني، ولئن كتمتها لتهلكني، ولأحدهما أهون عليّ من الأخرى فأخبر بها رسول الله ﷺ فأنكرها وحلف بالله ما قالها فأنزل الله الآيـــة ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبَة: الآية ٧٤] فجمعت الآية الحادثتين ووقع الغدر بقوله تعالى ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبَة: الآية ٧٤]، وبعد نزول الآية قال الجلاس لقد قلت وقد عرض الله عليّ

التوبة فأنا أتوب. . فقبل منه ذلك[1].

ثم إن الله سبحانه وتعالى عقب على فعلتهم هذه بقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [التوبة: الآية ٧٤].

قصة مسجد الضرار:

وأقبل رسول الله ﷺ من تبوك فنزل بذي أوان، وبينها وبين المدينة مرحلة وكان أصحاب مسجد الضرار أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه ـ فقال إني على جناح سفر وحال شغل، ولو قدمنا إن شاء الله لآتيناكم فصلينا لكم فيه، فلما نزل بذي أوان جاءه خبر المسجد من السماء فدعا ابن الدخشم أخا بني سلمة بن عوف ومعن بن عدي العجلان فقال انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فأهدماه. وأحرقاه ـ فخرجا مسرعين حتى أتيا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعبد أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي ودخل إلى أهله فأخذ سعفاً من النخيل فأشعل فيه ناراً ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله فحرقاه وهدماه فتفرقوا عنه فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧﴾ [التوبة: الآية ١٠٧].

فرح رسول الله ﷺ بدخول المدينة:

ودخل رسول الله ﷺ المدينة ولاحت له معالمها من بعيد فقال هذه طابة، وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه، وتسامع الناس بمقدمه فخرج النساء والصبيان والولائد يقلن:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع

وذكر ابن القيم أن بعض الرواة ذكروا أن هذا الترحاب تم عند قدومه أولاً إلى المدينة قادماً من مكة وأن ذلك وهم ظاهر لأن أهل المدينة استقبلوه عن طريق قباء ولا

---

(١) ذكره ابن إسحاق.

توجد هناك ثنيات ولما دخل المدينة قال له عمه العباس: يا رسول الله ائذن لي أمتدحك فقال رسول الله ﷺ قل لا يفضض الله فاك فقال:

من قبلها طبت في الظلال وفي مستودع حيث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر أنت ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد ألجم نسراً وأهله الغرق
تنقل من صالب إلى رحم إذا مضى عالم بدا طبق
حتى احتوى بيتك المهيمن من خندق علياء تحتها النطق
وأنت لما ولدت أشرقت الأرض وضاءت بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضياء وفي النـ ـور وسبل الرشاد نخترق

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ثم جلس للناس. فجاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانون رجلاً فتقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ووكل سرائرهم إلى الله.

قصة تخلف كعب بن مالك وأصحابه رضي الله عنهم:

وجاء كعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ فلما سلم عليه تبسم - تبسم المغضب ثم قال له تعال - قال: فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ فقلت بلى - إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر ليوشكن الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه أني لأرجو فيه عفو الله عني، والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر في حين تخلفت عنك فقال رسول الله ﷺ - أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك.

وثار رجال من بني سلمة فأتبعوني يؤنبوني - فهلا اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلفون - فقال والله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم هل قال أحد مقالتي؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل مقالتك فقيل لهما مثل الذي قيل لك، فقلت من هما؟ قالوا: مرارة بن الربعي العامري وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا رجلين صالحين شهدا بدراً فقلت لي فيهما أسوة.

ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيتها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا حتى تنكرت لي الأرض، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحبي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج أشهد

الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ وأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أم لا، ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي وإذا التفت إليه أعرض عني.

حتى إذا طال عليّ من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي، وأحب الناس إليّ، فسلمت عليه فوالله ما رد عليّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت فعدت إليه فنشدته فسكت فعدت عليه فنشدته فسكت، فقال الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار.

ملك غسان يغري كعب بن مالك بالانتقال إليه:

فبنيما أنا بسوق المدينة إذا جاء نبطي من أنباط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع لي كتاباً من ملك غسان. فإذا فيه:

(أما بعد فإنه بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا) فقلت لما قرأتها ـ وهذا أيضاً من البلاء، فتيممت بها التنور فأسرجتها فيه ـ حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك فقلت أطلقها أم ماذا؟ قال: لا ولكن اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إليّ صاحبي مثل ذلك فقلت لأمرتي إلحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

فجأت امرأة هلال بن أمية فقالت يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا ولكن لا يقربك قالت ـ إنه والله ما به حركة إلى شيء والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا.

نزول القرآن بالتوبة على الثلاثة الذين خلفوا:

قال كعب ولما مضت خمسون ليلة من حين ما نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا. فلما صليت صلاة الفجر على سطح بيت من بيوتنا وبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى، وقد ضاقت عليَّ نفسي وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته. يا كعب بن مالك أبشر. فخررت ساجداً لله وعرفت

أن جاء فرج من الله، وأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر فذهب الناس يبشروننا وذهبت قبل صاحبي، وكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوته إياهما ببشراه والله ما أملك غيرهما واستعرت ثوبين فلبستهما فانطلقت إلى رسول الله ﷺ فتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئونني بالتوبة - ليهنك توبة الله عليك - قال كعب حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره، ولست أنساها لطلحة فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال: وهو يبرق وجهه من السرور أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك، قال، قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال لا بل من عند الله، وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله فقال ﷺ: «**أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك، قلت إني أمسك سهمي الذي بخيبر**». فقلت يا رسول الله إن الله إنما نجاني بالصدق وإن من توبتي ألا أحدث إلاً صدْقاً ما بقيت، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا ما أبلاني والله ما تعمدت بعد ذلك إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، فأنزل الله تعالى على رسوله ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبَة: الآيتان ١١٧، ١١٨].

فوالله ما أنعم الله عليّ نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك، كما هلك الذين كذبوا فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد قال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [التوبَة: الآية ٩٥]. قال كعب - وكان تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايع لهم واستغفر لهم وأرجأ أمرنا حتى قضى الله فيه فبذلك قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبَة: الآية ١١٨]. وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فتقبل منه.

وروى ابن سعد الدارمي أن عشرة آخرين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك

ـ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد فمر بهم رسول الله ﷺ فقال: من هؤلاء الموثقون أنفسهم بالسواري؟ قالوا: هذا أبو لبابه وأصحابه تخلفوا عنك يا رسول الله أوثقوا أنفهسم حتى يطلق النبي ﷺ ويعذرهم، فقال ﷺ: وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين، فيما بلغهم ذلك قالوا ـ ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا فأنزل الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ﴾ [التوبَة: الآية ١٠٢]. فلما نزلت أرسل إليهم رسول الله ﷺ فأطلقهم وعذرهم فجاؤا بأموالهم ـ فقالوا يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا قال: ما أمرت أن آخذ أموالكم فأنزل الله ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبَة: الآية ١٠٣]. وهؤلاء الرهط من المسلمين أبطأت بهم نياتهم من غير شك ولا ارتياب ولا نفاق إنما قعدوا تكاسلاً وانشغالاً فاعترفوا بذنوبهم فتابوا فتاب الله عليهم.

العدو الوحيد الذي بقي بين المسلمين هم المنافقون:

كنا ذكرنا أن الدعوة كانت منحصرة عداوتها في مكة في المشركين من كفار قريش وقبائل العرب الأخرى ـ ولما هاجر المسلمون إلى المدينة لإقامة دولتهم فوجؤوا بنوع آخر من العداوات ويتمثل ذلك في فئتين، فئة اليهود وفئة المنافقين ففئة اليهود كنا تحدثنا عنها مراراً بأنها انتهت مع إجلاء بني قينقاع وبني النضير. وإبادة بني قريظة واستسلام خيبر وفدك ووادي القرى ـ وتيماء.

وأما وجود طائفة المنافقين نشأ مباشرة من الأوضاع التي نتجت عن ظروف الهجرة النبوية إلى المدينة التي تمت فيها. بأن تحول مركز الزعامة في الأوس والخزرج من رؤسائهم وزعمائهم إلى رسول الله ﷺ، ومن أولئك عبد الله بن أبي بن سلول الذي كان قومه من الخزرج ينظمون له ليتوجوه ملكاً عليهم قبل مقدم رسول الله ﷺ.

وكذلك أبو عامر الفاسق واسمه عبد عمرو بن صيفي، فإنه هو الآخر كان سيداً مطاعاً في الأوس. ولما جاء الإسلام شرق به وجاهر رسول الله ﷺ بالعداوة فخرج من المدينة إلى مكة ليحارب مع قريش رسول الله ﷺ هو وأتباعه من الأوس، وهو الذي أوعز لقومه بإقامة مسجد الضرار، وبعد فتح مكة خرج إلى الطائف فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام فمات فيها شريداً طريداً كما دعا عليه رسول الله ﷺ.

ولما أصبح الإسلام له بالمدينة قوة يحسب حسابها كل أحد ـ ويضطر لمصانعتها

من لا يجرؤ بالإفصاح عن معاداتها - وخاصة بعد غزوة بدر وانتصار المسلمين انتصاراً عظيماً. اضطر أولئك المنافقون إلى الدخول في الإسلام كرهاً على نفاق وضغينة لدخول أهليهم وشيعتهم فيه وأصبحوا هم ولا بد لهم كي يحفظوا بمقامهم الموروث بينهم وبمصالحهم كذلك أن يتظاهروا باعتناق الدين الجديد الذي اعتنقه أهلوهم وأشياعهم، وكانت هذه الفئة هي أشد أعداء الإسلام على الإطلاق لأنها تعمل للمكيدة من داخل الصفوف بعد أن عز عليها أن تكيد من خارجها، من ذلك ما حصل في يوم أحد انخذل عدو الله عبد الله بن أبي بن سلول بثلث العسكر هو ومن تبعه من قومه وسماهم الله ذلك اليوم بالمنافقين بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عِمرَان: الآيتان ١٦٦، ١٦٧].

ويوم الأحزاب (الخندق) وصف الله سبحانه وتعالى خيانتهم في حفر الخندق عند تسللهم وتركهم العمل فيه بقوله تعالى: ﴿۞ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الأحزَاب: الآية ١٨]. ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزَاب: الآيتان ١٢، ١٣].

وفي يوم الحديبية يبين الله ظنونهم السيئة بقوله تعالى فيهم: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ﴿٦﴾﴾ [الفَتْح: الآية ٦]. وقوله تعالى: ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴿١٢﴾﴾ [الفَتْح: الآية ١٢].

وأما غزوة تبوك فقد نزلت فيها سورة التوبة وتسمى الفاضحة لأنها نزلت بفضح المنافقين، وأظهرت أنواعاً كثيرة من أوجه نفاقهم، وعينت أوصافهم وما يشتملون عليه من الدسائس والمؤامرات ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [التوبَة: الآية ٤٢] ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا

﴿خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [التوبة: الآيات ٤٥-٤٨]. ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٥٧، ٥٨]. ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ [التوبة: الآية ٧٤]. ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ [التوبة: الآية ٦١] إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٠] ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ٦١].

وفوق ذلك كله ما وصفهم به في سورة المنافقون وهي سورة خاصة بصفتهم ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ [المنافقون: الآيات ١-٣]. إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [يس: الآيتان ١٧، ١٨].

ونحن وإن كنا أسهبنا في استجلاب النصوص الواردة في المنافقين فإن قصدنا أن نبين أنهم هم العدو المستتر الذي يتتبع القرآن في سورة التوبة معايبهم حتى يقف على إرجافهم وكذبهم لأجل الحذر منهم ولتتقيه الأمة من هذه الأخلاط السيئة المتلبسة بها حتى تتفرغ لأداء رسالتها الكبرى.

﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٧٥، ٧٦].

ولكن الوصف المانع الجامع الشامل لخساستهم جاء في أول سورة البقرة وهو قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: الآيات ٨ ـ ١٨].

إسلام ثقيف

وكنا قد ذكرنا في سياق غزوة الطائف أن ثقيفاً انهزمت مع هوازن في حنين وأوطاس وتراجعت ودخلت حصونها في الطائف، وتهيأت لحصار طويل وحاصرها رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة، ثم استشار في أمرها نوفل بن معاوية فقال: يا نوفل ما ترى في المقام عليهم؟ فقال يا رسول الله ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك.

فأمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب أن يؤذن بالرحيل، فلما قفلت بهم المطايا - قالوا يا رسول الله أحرقتنا نبال ثقيف فادع عليهم. فقال عليه الصلاة والسلام اللهم اهدي ثقيف وائت بهم..

قدوم وفد ثقيف:

ولما عاد رسول الله ﷺ من تبوك لم يلبث طويلاً حتى جاءت البشريات بقدوم وفد ثقيف ليبايعوا رسول الله ﷺ وفيهم كنانة ابن عبد ياليل وهو «رأسهم يومئذ» وفيهم عثمان بن أبي العاص وهو أصغر الوفد فقال المغيرة بن شعبة يا رسول الله أنزل قومي عليّ فأكرمهم فإني حيث الجرح فيهم فقال رسول الله ﷺ: **«لا أمنعك أن تكرم قومك ولكن أنزلهم حيث يسمعون القرآن»**.

مفاوضات وفد ثقيف:

وكانوا يفدون إلى رسول الله ﷺ كل يوم - ويخلفون عثمان بن أبي العاص على رحالهم لأنه أصغرهم فكان عثمان كلما رجع الوفد إليه وقالوا بالهاجرة عمد إلى رسول الله ﷺ فيسأله عن الدين واستقرأه القرآن فاختلف إليه عثمان مراراً حتى فقه في الدين وعلم، وكان إذا وجد رسول الله ﷺ نائماً عمد إلى أبي بكر، وكان يكتم ذلك من أصحابه. فأعجب ذلك رسول الله ﷺ فأحبه ومكث الوفد يختلفون إلى رسول الله ﷺ وهو يدعوهم إلى الإسلام. فأسلموا فقال كنانة بن عبد ياليل هل أنت مقاضينا حتى نرجع إلى قومنا؟ فقال: نعم إن أنتم أقررتم بالإسلام أقاضيكم وإلا فلا قضية ولا صلح بيني وبينكم - قال أفرأيت الزنى فإنا قوم نغترب ولا بد لنا منه. قال هو عليكم حرام فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسرَاء: الآية ٣٢]. قالوا أرأيت الربا فإنه يموالنا كلها؟ قال - لكم رؤوس أموالكم، أن الله تعالى يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٨]. قالوا: أفرأيت الخمر فإنه عصير أرضنا لا بد لنا منها؟ قال إن الله قد

حرمها وقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٩٠﴾ [المَائدة: الآية ٩٠] . فارتفع القوم وخلا بعضهم ببعض، فقالوا: ويحكم إنا نخاف إن خالفناه يوماً كيوم مكة، انطلقوا فكاتبوه على ما سألناه.

إسلام وفد ثقيف:

فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: نعم لك ما سألت أرأيت الربة ماذا نصنع فيها. قال: اهدموها، قالوا: هيهات لو تعلم الربة إنك تريد هدمها لقتلت أهلها، فقال عمر بن الخطاب: ويحك يا بن عبد ليل ما أجهلك إنما الربة حجر فقالوا: إنا لم نأتيك يا ابن الخطاب. وقالوا لرسول الله ﷺ: «تول أنت هدمها فأما نحن فإنا لا نهدمها أبداً» قال ﷺ: «سأبعث إليكم من يكفيكم هدمها» فكاتبوه، فقال كنانة بن عبد ليل: أئذن لنا قبل رسولك ثم ابعث في آثارنا فإنا أعلم بقومنا فأذن لهم رسول الله ﷺ وأكرمهم وحباهم وجعل عليهم عثمان بن أبي العاص لما رأى من حرصه على الإسلام وكان قد تعلم سوراً من القرآن قبل أن يخرج، فقال كنانة بن عبد ليل أنا أعلم الناس بثقيف فاكتموهم القضية وخوفوهم بالحرب والقتال، وأخبروهم بأن محمداً سألنا أموراً أبيناها عليه سألنا أن نهدم اللآت والعزى وأن نحرم الخمر والزنى وأن نبطل أموالنا في الربا فخرجت ثقيف حين دنا منهم الوفد يتلقونهم، فلما رأوهم قد ساروا العنق وقطروا الإبل وتغشوا ثيابهم كهيئة القوم قد حزنوا وكربوا ولم يرجعوا بخير. فقال بعضهم لبعض ما جاء وفدكم بخير ولا رجعوا به.

وترجل الوفد وقصدوا اللات ونزلوا عندها، واللات وثن كان بين ظهراني الطائف يستر ويهدى له الهدي كما يهدى لبيت الله الحرام، فقال ناس من ثقيف حين نزل الوفد إليها إنهم لا عهد لهم برؤيتها ثم رجع كل رجل منهم إلى أهله، وجاء كل منهم خاصته من ثقيف فسألوهم ماذا جئتم به وبماذا رجعتم؟ قالوا: أتينا رجلاً فظاً غليظاً يأخذ من أمره ما يشاء قد ظهر بالسيف وداخ له العرب، ودان له الناس، فعرض علينا أموراً شداداً هدم اللآت والعزى وترك الأموال من الربا إلاّ رؤوس أموالكم وحرم الخمر والزنى، فقالت ثقيف: والله لا نقبل هذا أبداً، فقال الوفد: أصلحوا السلاح وتهيؤوا للقتال وتعبؤوا له، ورمموا حصنكم، فمكثت ثقيف بذلك يومين أو ثلاثة، يريدون القتال ثم ألقى الله سبحانه وتعالى في قلوبهم الرعب، وقالوا: والله ما لنا من طاقة، وقد داخ له العرب كلها، فارجعوا إليه فأعطوه ما سأل وصالحوه عليه.

إسلام ثقيف:

فلما رأى الوفد أنهم قد رغبوا واختاروا الأمان على الحرب. قال الوفد: فإنا قد قاضيناه وأعطيناه ما أحببنا، وشرطنا ما أردنا ووجدناه أتقى الناس وأوفاهم وأرحمهم

وأصدقهم، وقد بورك لنا وبكم في مسيرنا إليه، وفيما قاضيناه عليه فأقبلوه عافية الله، فقالت ثقيف: فلم كتمتمونا هذا الحديث وغممتمونا أشد الغم؟ قالوا: أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان، فأسلموا مكانهم ومكثوا أياماً ثم قدم عليهم رسل رسول الله ﷺ قد أمّر عليهم خالد بن الوليد وفيهم المغيرة بن شعبة فلما قدموا عمدوا إلى اللات ليهدموها واستكفت ثقيف كلها الرجال والنساء والصبيان حتى خرج العواتق من الحجال لا ترى عامة ثقيف أنها مهدومة يظنون أنها ممتنعة فقام المغيرة بن شعبة فأخذ الكرزين، وقال لأصحابه: والله لأضحكنكم من ثقيف، فضرب بالكرزين ثم سقط يركض فارتج أهل الطائف بضجة واحدة، وقالوا: أبعد الله المغيرة قتلته الربة، وفرحوا حين رأوه ساقطاً، وقالوا: من شاء منكم فليقترب ويستجهد على هدمها فوالله لا تستطاع فوثب المغيرة بن شعبة، فقال: قبحكم الله يا معشر ثقيف. إنما هي لكاع حجارة ومدر فأقبلوا عافية الله واعبدوه ثم ضرب الباب فكسره ثم علا سورها وعلا الرجال معه، فما يزالوا يهدمونها حجراً حجراً حتى سووها بالأرض، وجعل صاحب المفتاح يقول ليغضبن الأساس فليخسفن بهم، فلما سمع ذلك المغيرة، قال لخالد: دعني أحفر أساسها فحفره حتى أخرجوا ترابها وانتزعوا حليها ولباسها فبهتت ثقيف فقالت عجوز منهم: أسلمها الرضاع وتركوا المصاع.

وأقبل الوفد حتى قدموا على رسول الله ﷺ بحليها وكسوتها فقسمه رسول الله ﷺ من يومه، وحمد الله على نصرة نبيه وإعزاز دينه.

وقال ابن إسحاق لما افتتح رسول الله ﷺ مكة وفرغ من تبوك وأسلمت ثقيف وبايعت ضربت إليه وفود العرب من كل وجه ويقول سبحانه وتعالى لنبيه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [سورة النصر: الآيات ١ ـ ٣].

قصة وفد نصارى نجران:

ونذكر من تلك الوفود على سبيل المثال وفد نصارى نجران لتعلقه بمحور الرسالة وهو موضوع كتابنا هذا لأنهم من أهل الكتاب الذين يقطنون داخل جزيرة العرب وبين ظهراني المسلمين بعد أن رفضوا الدخول في الإسلام ورفضوا المباهلة التي أمر الله بها بعد المحاجة التي دارت بينهم وبين رسول الله ﷺ في شأن عيسى ابن مريم عليه السلام وقد قال الله فيهم: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ۝٦٠ فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ

عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عِمرَان: الآيات ٥٩-٦٤] .

فقصة خلق عيسى بدون أب التي جعلتهم يستغربونها، والذي أغرب منها قصة خلق آدم حين تقاس معها، فآدم خلق من غير أب ولا أم ومع ذلك لم يصوغوا حوله الأساطير التي صاغوها حول عيسى ودون أن يقولوا عن آدم أن له طبيعة لاهوتية منسوبة إلى الله، سبحانه عما يقولون علواً كبيراً، وأن مدار الخلق هو النفخة الإلهية في هذا وذاك وإن هي إلاّ الكلمة (كن) فيكون.

كتاب رسول الله ﷺ إلى أهل نجران:

وكان رسول الله ﷺ قد أرسل إلى أهل نجران كتاباً (باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب أما بعد، فإني أدعوكم إلى عبادة الله عن عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد فإن أبيتم فالجزية فإن أبيتم فقد أذنتكم بحرب، والسلام).

فلما أتى أسقف نجران الكتاب قرأه ففزع منه وذعر ذعراً شديداً، فبعث إلى رجل من أهل نجران يدعى شرحبيل بن وداعة، وكان من همدان، ولم يكن يدعي أحد قبله إذا نزلت معضلة في الوادي، فدفع إليه الأسقف كتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فقال الأسقف: يا أبا مريم ما رأيك؟ فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة، فما يؤمن أن يكون هذا هو ذلك الرجل ليس لي في النبوة رأي، فعرض الأسقف كتاب رسول الله ﷺ على عدد كبير من رجالات نجران يطلب رأيهم، فاتبعوا جميعاً رأي شرحبيل بن وداعة فلما اجتمع الرأي منهم على تلك المقالة أمر الأسقف بالناقوس فضرب ورفعت المسوح في الصوامع، وكذلك كانوا يفعلون إذا فرغوا، فاجتمع أهل الوادي وهم ثلاث وسبعون قرية فيهم مائة وعشرون ألف مقاتل كما قال الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه زاد المعاد.

فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ وسألهم عن الرأي فيه فاجتمع رأي أهل الوادي على أن يبعثوا وفداً برآسة شرحبيل بن وداعة الهمذاني ومعه عبد الله بن شرحبيل وجبار بن فيض الحارثي، فيأتوهم بخبر رسول الله ﷺ، فانطلق الوفد حتى إذا كانوا بالمدينة نزلوا بالمسجد فعمدوا إلى جهة بيت المقدس يؤدون صلاتهم على

ما تقتضي به طقوس النصرانية، وأراد الناس منعهم، فقال رسول الله ﷺ: دعوهم حتى انتهوا من عبادتهم ووضعوا ثياب السفر ولبسوا حللاً من الحبرة وأردية الكهنوت الفاخرة وتحلّوا بخواتم الذهب وجاؤوا يخبون في الحرير لملاقاة رسول الله ﷺ فأبى أن يتحدث معهم حتى يرجعوا إلى ملابس سفرهم ويدعوا هذه الزينة فرجعوا إلى ملابسهم التي أتوا بها.

فعرض عليهم رسول الله ﷺ الإسلام فقالوا له: أسلمنا قبلك، قال: كذبتم يمنعكم من الإسلام إدعاؤكم لله ولداً وعبادتكم الصليب وأكلكم الخنزير. فجادلوه في عيسى وقالوا من أبوه؟ فروي أن النبي ﷺ رد عليهم قائلاً: **«ألستم تعلمون أن الله حي لا يموت؟ وأن عيسى يأتي عليه الفناء»**، قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه؟ قالوا: بلى، قال: إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ قالوا: بلى، قال: هل يعلم عيسى من ذلك شيئاً إلاّ ما علم؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى في الرحم كيف يشاء، وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث، قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع ولدها. ثم غذي كما يغذى الصبي، ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث؟ قالوا: بلى. قال فكيف يكون هذا كما زعمتم. فقالوا: ألست تقول في عيسى إنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه، قال: بلى.

قصة المباهلة:

فلما رأى النبي ﷺ أن الجدل يتمادى بالقوم وأنهم مصرون على اعتبار عيسى إلهاً وولداً لله: سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون. قال لهم ﷺ: **«أقيموا غداً حتى أخبركم»** فنزلت آية المباهلة، التي سبق أن أوردناها في أول هذا البحث وهي من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ [آل عمران: الآية ٥٨]، إلى قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: الآية ٦٤]. وهنا ظهر الحق من الزيف ووضحت القضية جلياً، يوجه الله رسوله الكريم إلى أن ينتهي الجدل والمناظرة في هذا الحق البين، وأن يدعوهم إلى المباهلة كما هي مبينة في الآية التالية: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: الآية ٦١].

وقد دعا رسول الله ﷺ وفد نجران الذين يناظرونه في قضية عيسى إلى هذا

الاجتماع الحاشد وأقبل بنفسه وحفيديه الحسن والحسين وابنته فاطمة واستعد أن يشترك مع وفد نجران في صلاة جامعة تنزل فيها لعنة الله على المغترين الكاذبين من الفريقين. فنظروا إلى رسول الله ﷺ وحفيديه وابنته فشعروا بأن الكاذب منهما لن يهلك وحده بل ستهلك معه أسرته ومن وراءه، فخافوا العاقبة وأبوا عن المباهلة، وقالوا فيما بينهم: من يدري قد يكون محمد صادقاً في أن عيسى بشر مثله، ونكون نحن واهمين في انتحال الألوهية لعيسى (عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم) فجاء متحدث القوم شرحبيل بن وداعة وقال لرسول الله ﷺ: رأيت خيراً من ملاعنتك فقال النبي ﷺ: **«ما هو؟»** قال: ادع لك الحكم فينا فمهما قضيت فهو جائز. فقال رسول الله ﷺ: **«لعل وراءك أحداً يثرب عليك»**، فقال شرحبيل: سل عني، فلما سأل عنه أخبر أن أهل الوادي لا يصدرون ولا يردون إلاّ عن رأيه، فقال رسول الله ﷺ: **جاحد موفق.**

ورجع رسول الله ولم يلاعنهم وعقد معهم صلحاً أصبحوا بمقتضاه من رعايا الدولة الإسلامية، وجاء في شروط هذا الصلح أن لنصارى نجران جوار الله وذمة محمد النبي ﷺ على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وتبعهم، وأن لا يغيروا مما كانوا عليه ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملتهم ولا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته، ولا ما تحت أيديهم من قليل أو كثير.. .إلخ وشهد على تلك المعاهدة أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو ومالك بن عوف والأقرع بن حابس والمغيرة بن شعبة.

فماذا كلف به نصارى نجران بأزاء هذه الحقوق؟ هو أن يدفعوا للدولة التي أصبحوا يعيشون في ظلها والتي تدافع عنهم إذا احتاجوا إلى ذلك الفاحلة في السنة، وهو بدل تافه عن الزكاة التي تقبض من المسلمين وحدهم مع ضمان الحرية الدينية لهم.

الباب الخامس

ويشتمل على شمائله ﷺ

الفصل الأول

شمائله ﷺ

بقي علينا أن نعرف شيئاً عن السيرة الذاتية لصاحب الرسالة ﷺ التي يعرف بها حسن أوصافه وصفاته الخلقية والخلقية وذكر كمالاته المؤدية إلى كمال محبته ﷺ، بعد أن عرفنا بعضاً من سيرته العملية التي مرت بنا في ثنيا الكتاب والتي توضح المراحل التي مرت بها الدعوة وحتى تكتمل الصورة من الناحيتين وذلك لإلقاء الضوء على حياته الذاتية والتطبيقية لنستمد منها الأسوة الحسنة والهدي والرشاد إلى الطريق المستقيم.

صفاته الذاتية:

فرسول الله ﷺ أوتي كل الحسن، ولم يؤت يوسف إلاّ شطره. كما جاء في الأثر. ذكره ابن كثير في تفسير سورة يوسف[(١)].

وروي عن عائشة رضي الله عنها، قالت: دخل النبي ﷺ علي يوماً مسروراً ووجهه يبرق.

وروى عقيل عن ابن شهاب، عن كعب بن مالك، عن أبيه، عن جده، قال: لما أن سلمت على رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه، وكان إذا سر استنار وجهه كأنه قطعة قمر[(٢)].

وصف أم معبد:

وقد اشتملت كتب الحديث وكتب السير على عدة أوصاف لسيدنا رسول الله ﷺ ومن أجمل تلك الأوصاف وصف أم معبد، وهي عاتكة بنت خالد بن منقذ الخزاعية الصحابية الجليلة. فقد روى عنها أخوها حبيش بن خالد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ

---

(١) وقد تقدم ص ١١.
(٢) أخرجه البخاري.

حين خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة هو وأبو بكر ومولى أبو بكر عامر بن فهيرة رضي الله عنهما ودليلهما الدؤلي عبد الله بن الأريقط مروراً على خيمتي أم معبد الخزاعية وكانت امرأة برزة جلدة تحتبي بفناء قبتها ثم تسقي وتطعم، فسألوها تمراً ولحماً ليشتروا منها فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك، وكان القوم مرملين مسنتين، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة، فقال: ما هذه الشاة يا أم معبد، قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم، قال: هل لها من لبن، قالت: هي أجهد من ذلك، قال: أتأذنين لي أن أحلبها، قالت: نعم، بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حلباً فاحلبها فدعا بها رسول الله ﷺ ومسح بيده ضرعها وسمّى الله تعالى ودعا لها في شأنها فتفاجت عليه ودرت واجترت ودعا بإناء يربض الرهط فحلب فيه ثجاً حتى علاه البهاء ثم سقاها حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا وشرب آخرهم ثم أراضوا ثم حلب فيه ثانياً بعد بدء حتى امتلأ الإناء ثم غادره عندها وبايعها وارتحلوا عنها فما لبث حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً تساوك[1] هزالاً مخاخهن قليل فلما رأى أبو معبد اللبن عجب وقال: من أين لك هذا اللبن يا أم معبد؟ والشاء عازب حيال ولا حلوب في البيت، قالت: لا والله إلاّ أنه مرّ بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا، قال: صفيه لي أم معبد، قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة[2]، أبلج[3] الوجه، حسن الخلق، لم تعبه ثجلة[4]، ولم تزر به صلعة[5]، وسيماً[6] قسيماً[7]، في عينيه دعج[8]، وفي أشفاره وطف[9]، وفي عنقه سطع[10]، وفي صوته صحل[11]، وفي لحيته كثافة[12]، أزج[13] أقرن[14]، إن صمت فعليه الوقار[15]، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء[16]، فهو أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنهم وأجملهم من قريب حلو المنطق، فصل لا نزر[17] ولا هذر[18]، كأن منطقه خرزات[19]

---

(١) أي تتمايل.
(٢) الحبس.
(٣) حسن.
(٤) عظم البطن.
(٥) انحسار الشعر عن الرأس.
(٦) حسناً.
(٧) تقاسمه الحسن.
(٨) اسوداد سواد العين وشدة البياض بياضه.
(٩) طول.
(١٠) ارتفاع.
(١١) رقة العود.
(١٢) وفور.
(١٣) رقيق الحاجبين في طول.
(١٤) مقرون الحاجبين.
(١٥) السكينة.
(١٦) الحسن.
(١٧) قليل.
(١٨) كثرة الكلام بلا طائل.
(١٩) حبات.

نظم يتحدرن، ربعة[1] لا يأس من طول، ولا تقتحمه[2] عين من قصر، غص بين غصنين[3] فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفون[4] به إن قال أنصتوا لقوله وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفود[5] محشود[6]، لا عابس[7] ولا مفند[8]، قال أبو معبد: هو والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة ولقد هممت بأن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً، فأصبح صوت بمكة عالياً يسمعون الصوت ولا يدرون من صاحبه وهو يقول:

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين قالا خيمتي أم معبد
هما نزلاها بالهدى واهتدت به ... فقد فاز من أمسى رفيق محمد
فيا لقصي ما زوى الله عنكم ... به من فخار لا تبارى وسؤدد
ليهن بني كعب مقام فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلبت ... له بصريح ضرة الشاة مزبد
فغادرها رهناً لديها لحالب ... يرددها في مصدر ثم مورد

فلما سمع بذلك حسان رضي الله عنه قال يجاوب الهاتف:

لقد خاب قوم غاب عنهم نبيهم ... وقدس من يسري إليهم ويغتدي
ترحل عن قوم فضلت عقولهم ... وحل على قوم بنور مجدد
هداهم به بعد الضلالة ربهم ... وأرشدهم من يتبع الحق يرشد
وهل يستوي ضلال قوم تسفهوا ... عمي وهداة يهتدون بمهتد
لقد نزلت منه على أهل يثرب ... ركاب هدى حلت عليهم بأسعد
نبي يرى ما لا يرى الناس حوله ... ويتلو كتاب الله في كل مسجد
وإن قال في يوم مقالة غائب ... فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد
ليهن أبا بكر سعادة جده ... بصحبته من يسعد الله يسعد

كما وصفه حسان رضي الله عنه:

متى يبد في الداجي البهيم جبينه ... يلح مثل مصباح الدجى المتوقد
فمن كان أو من قد يكون كأحمد ... نظام لحق أو نكال لملحد

---

(١) معتدل القامة.
(٢) تتخطاه.
(٣) أي ناعم بين ناعمين.
(٤) يحدقون به.
(٥) مخدوم.
(٦) مطاع.
(٧) منقبض الوجه.
(٨) مكذب أو صدق وغيره.

وقال أيضاً:

أغر عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهد

وقد جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد رحمه الله عن العرباض بن سارية رضي الله عنه الذي يقول فيه ﷺ: **«سأخبركم بأول أمري»**، ثم ذكروا رؤيا أمه حين وضعته أنه خرج منها نور ساطع أضاءت منه قصور الشام[١] وقال ﷺ: **«اللهم كما أحسنت خَلقي فحسن خُلقي»**[٢].

وصف هند بن أبي هالة لرسول الله ﷺ:

عن الحسن بن علي رضي الله عنهما، قال: سألت خالي هند بن أبي هالة، وكان وصافاً عن حلية النبي ﷺ، وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئاً، فقال: كان رسول الله ﷺ، فخماً مفخماً[٣] يتلألأ تلألؤ[٤] القمر ليلة البدر[٥]، أطول من المربوع[٦] وأقصر من المشذب[٧]، عظيم الهامة[٨]، رجل[٩] الشعر إن انفرقت عقيقته[١٠] فرق وإلاّ فلا يجاوز شعره شحمة[١١] أذنيه إذا هو وفرة[١٢]، أزهر[١٣] اللون، واسع الجبين[١٤]، أزج[١٥] الحواجب توابع من غير قرن[١٦]، بينهما عرق[١٧] يدره الغضب[١٨]، أقنى[١٩] العرنين[٢٠]، له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله، أشم[٢١] كث[٢٢] اللحية، سهل[٢٣] الخدين، ضليع[٢٤] الفم، مفلج[٢٥] الأسنان، دقيق[٢٦] المسربة[٢٧]، كأن عنقه جيد

---

(١) تقدم ص ٥٩.
(٢) مسند أحمد.
(٣) عظيماً معظّماً.
(٤) لمعان.
(٥) القمر إذ تم.
(٦) معتدل القامة.
(٧) شديد الطول.
(٨) الرأس.
(٩) بين السبوطة الجعودة.
(١٠) شعره.
(١١) أسفلها معلق القرط منها.
(١٢) كثرة.
(١٣) شد حسن.
(١٤) الجبهة.
(١٥) دقيقهما من طول.
(١٦) اختلاط الحاجبين.
(١٧) واحد العروق.
(١٨) يهيجه ويحركه.
(١٩) مرتفع رأس الأنف.
(٢٠) الأنف كله.
(٢١) رفع رأسه.
(٢٢) كثير شعرها.
(٢٣) لين.
(٢٤) عظيم.
(٢٥) متباعد.
(٢٦) رقيق.
(٢٧) الشعر وسط الصدر إلى البطن.

دمية[١] في صفاء الفضة معتدل الخلق[٢]، بادن[٣] متماسك[٤]، سواء البطن والصدر، عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين، ضخم[٥] الكراديس[٦]، أنور المتجرد[٧] موصل ما بين اللبة[٨] والسرّة[٩] بشعر يجري كالخط، عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر طويل الزندين، رحب الراحة[١٠]، شثين[١١] الكفين والقدمين، سائل الأطراف أو قال شائل[١٢] الأطراف، خمصان[١٣] الأخمصين[١٤]، مسيح[١٥] القدمين، ينبو[١٦] عنهما الماء، إذا زال قلعاً يخطو تكفياً[١٧] ويمشي هوناً[١٨]، ذريع[١٩] المشية إذا مشى كأنما ينحط من صبب[٢٠]، وإذا التفت التفت جميعاً خافض الطرف[٢١]، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظة[٢٢]، يسوق أصحابه، يبدر من لقي بالسلام[*].

قال الحسن، قلت لخالي: صف لي منطقه ﷺ، قال: متواصل الأحزان دائم الفكر ليست له راحة، طويل السكت، لا يتكلم في غير حاجة يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه ويتكلم بجوامع الكلم فصل لا فضول ولا تقصير ليس بالجافي[٢٣] ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقت لا يذم منها شيئاً غير أنه لم يكن يذم ذواقاً[٢٤] ولا يمدحه، ولا تغضبه الدنيا وما كان لها، فإذا تعدى الحق لم يقم بغضبه شيء حتى ينتصر له، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، إذا أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح[٢٥]، جل ضحكه التبسم.

---

(١) صورة.
(٢) الصورة.
(٣) ممتلأ.
(٤) متين ابط.
(٥) عظيم.
(٦) المفاصل.
(٧) انحسر عن الثوب من البدن.
(٨) النقرة في أعلى الصدر.
(٩) وسط الإنسياب.
(١٠) الكف.
(١١) غليظ.
(١٢) خفيف.
(١٣) ضامن.
(١٤) باطن القدمين.
(١٥) أملسهما.
(١٦) يرتفع.
(١٧) إسراعاً.
(١٨) غير مختن.
(١٩) سريعها.
(٢٠) المنحدر من عال.
(*) رواه الطبراني والبيهقي في الشعب كما في الجامع الصغير للسيوطي.
(٢١) العين.
(٢٢) مسارقة النظر.
(٢٣) الخليط.
(٢٤) طعاماً.
(٢٥) اشتد غضبه أو القدموس.

نظم أوصاف رسول الله ﷺ:

وقد نظم أحد الفضلاء تلك الأوصاف:

لقد كان خير الخلق أبهر طلعة ... من البدر بل من شمسه هو ألهب
جميل المحيا أزهر اللون أبلج ... بهي بهيج الوجه أبيض مشرب
أشم أزج الحاجبين مفلج ... كحيل الجفون أدعج العين أهدب
مرجل شعر جعده رحب راحة ... سواء الحشي والصدر عذب مؤدب
مدور وجه أنوار متجددة ... كأن المهى بوجهه ليس تغرب
أسيل خدود انحل كث لحيته ... طويل بنان واسع الصدر أشنب
جليل المشاش بادن متماسك ... ضليع فم ضخم الكرادس قلب
بعيد الذي بين المناكب واسع ... جبين طليق الوجه ليس يقطب
إذا افتر رؤيا النور من فيه خارجاً ... كأن ثناياه بروقاً تلهب
حكى ثغره حب الغمام إذا بدى ... ذكي الحجى سبط العظام مطيب
قويم القناة لم يكن متردداً ... قصيراً ولا هُوَّ الطويل مشذب
ولكن وسيطاً ربعة القد طائلاً ... مماشيَّه ولو إلى الطول ينسب
طويل سكوت سالم صدره دقيـ ... ـق مسربة أقنى وجيهاً مرجب
وقد وسع الأقوام حلماً وبسطة ... وصاروا سواء فيه وهو لهم أب
مهيب إذا لاقيته عن بديهة ... وإما تخالطه فخلق محبب
أشد من العذرا حياءً بخدرها ... كريم السجايا للردى متجنب
يزول تقلعاً ويخطو تكفؤاً ... ويمشي الهوينا دائم البشر طيب
فدونك من أوصافه الغر جملة ... تضمنها نظمي بها الدهر أعذب
أأحمد هذا أحمد متوسل ... بمدحك والأجواد بالمدح تطلب
مدحتك يا خير الأنام ولم تكن ... لمدحي فقيراً بل أنا المتكسب
لإن كنت ممن يحسن المدح ثم لم ... أقوله فيك إنني لمخيب
مدحتك بالنظم المجوَّد حوكه ... زكاة على أهل القصائد توجب

كما نظم تلك الأوصاف الشيخ عبد الله السالم بن محمد بن حنبل الحسني الشنقيطي:

حمداً لمن شرف نور الحق ... بحسن خلقه وحسن الخلق
صلى عليه بارئ البرايا ... من خصه بأفضل المزايا
هذا ولما فاتنا مرأى النبي ... وكان أسنى مطلب ومرغب
وكان في نعوته البهية ... مزية أعظم بها مزية

قد دون الحفاظ منها جملاً   جليلة تكسو الذراري خجلا
جمعتها كالجوهر المنظم   برسم خدمة الجناب الأعظم
فقلت ناقلاً عن الحفاظ   محافظاً جهدي على الألفاظ
قد كان أحسن الورى وأجملا   وكان أبهى صورة وأكملا
وكان فخماً بادناً مفخما   وكان ضرب اللحم لا مطهما
ولا مكلثما عظيم الهامة   ربعة قد في اعتدال القامة
لا بائنا مشذباً ممغطا   ولا قصير متردد الخُطَا
ومع ذا يطول من ماشاه   إذ ليس يعلوه الورى حاشاه
وكان أزهر وكان أنورا   أبيض مشرباً بلون أحمرا
ليس بأمهق ولا بآدم   بوجهه ضوء كضوء الجيلم
وجه كما شئت من استدارته   يطرد الجمال في أسرته
يجري على خديه ماء الذهب   عرقه كلؤلؤ ملتهب
يقول من ينعته في الجملة   لم أر قبله وبعد مثله
يهابه بديهة من أبصره   يحبه الخيلط مهما اختبره
يزري بهاء وجهه الحَسَّان   بالبدر في ليلة الاصحيان
بل لو رأيته رأيت الشمسا   طالعه فطب بذاك نفسا
وكان رحب راحة سبط العصب   في وجهه عرق يدره الغضب
ألين من مس الحرير كفه   أطيب من شذا الغوالي عرفه
وكان أدعج وكان أنجلا   أهدب أبلج أزج أشكلا
أشنب أفلج ضليع الفمَ   يفتر عن كالبرد المنهم
ضحكة تبسم وربما   أبدى نواجذ كدر نظما
كان جهير الصوت فيه صحل   ونطقه مرتل مفصل
وكان ذا عقيقة إن تنفرق   فراقها يتركها أن تتفق
شعره مغدودف يوفره   لشحمة الأذن وطوراً يضفره
وكان رجلاً غير جعد مفرط   بل كان بين سبط وقطط
لم يبلغ العشرين شيب لحيته   ورأسه وكان ذا من حليته
وكان شثن قدم وكف   وسائر الأطراف أقنى الأنف
وواسع الجبين سهل الخدين   شيح الذراعين طويل الزندين
كان عريض الصدر كث اللحية   عنقه كمثل جيد دمية
ضخم الكراديس جليل المنكبين   عبل الأسافل وعبل العضدين

أجـرد ذا مــســربــة دقــيــقــة　　وعــكــنــة رائــقــة أنــيــقــة
بــمــنــكــبــيــه شــعــر وبــأعــا　　لي الـصـدر مـنـه والـذراعـيـن مـعـا
وخــاتــم الــنــبــوة ألــذ كــان لَــهْ　　بــكــتــف يــســري كــزر الــحَــجَــلَــهْ
أو مــثــل جــمــع حــولــه خــيــلان　　مــثــل الــثــآلــيــل بــه تــزدان
كــان فــســيــح الــقــدمــيــن يــنــب　　عــن قــدمــيــه الــمــاء إذ يــصــب
خــمــصــان الأخــمــصــيــن ذا حــمــوشــة　　فــي ســاقــه عــقــبــه مــنــهــوشــة
يــقــبــل فــي الــتــفــاتــه جــمــيــعــاً　　وكــان هــونــاً مــشــيــه ذريــعــا
فــي الــمــشــي ذو تــقــطــع ويــخــطــو　　تــكــفــؤاً كــأنــمــا يــنــحــط
مــن صــبــب وكــان جــل نــظــره　　لــحــظــاً ومــن ســيــمــاه غــض بــصــره
يــقــلــب كــفــه إذا هــو عــجــب　　بــهــا يــشــيــر ويــشــيــح إن غــضــب
ويــســتــنــيــر وجــهــه إذا يــســر　　كــأنــه فــي الــحــســن قــطــعــة قــمــر
وربــمــا بــعــود أو بــمــخــصــره　　نــكــت فــي الأرض لــهــم أضــمــره
يــجــلــس حــيــث مــجــلــس بــه انــتــهــى　　صــلــى عــلــيــه ربــه بــلا انــتــهــا

وصف علي بن أبي طالب لرسول الله ﷺ عن سيرته في داخل بيته ومع أصحابه:

قال الحسين بن علي رضي الله عنهما، فسألت أبي عن دخول النبي ﷺ فقال:

كان إذا آوى إلى منزله جزّأ دخوله إلى ثلاثة أجزاء جزءاً لله وجزءاً لأهله وجزءاً لنفسه، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس فيرد ذلك بالخاصة على العامة ولا يدخر عنهم شيئاً، وكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بأدبه وقسمه على قدر فضلهم في الدين، فمنهم ذو الحاجة ومنهم ذو الحاجتين ومنهم ذو الحوائج، فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما أصلحهم والأمة من مسألتهم عنهم وأخبارهم بالذي ينبغي لهم ويقول: (ليبلغ الشاهد الغائب وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغها، فإنه من أبلغ سلطاناً حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة) لا يذكر عنده إلاّ ذلك ولا يقبل من أحد غيره يدخلون رواداً ولا يفترقون إلاّ عن ذواق ويخرجون أدلة يعني على الخير، قال: فسألته عن مخرجه كيف يصنع فيه؟ قال: كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلاّ فيما يعنيه، ويؤلفهم ولا يفرقهم ويكرم كل كريم قوم ويوليه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره ولا خلقه، ويتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويحسن الحسن ويقومه ويقبح القبيح ويوهنه، معتدل الأمر غير مختلف يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا، لكل حال عنده عتاد، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه، الذين يلونه من الناس خيارهم أفضلهم عنده، أعمهم نصيحة وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة وموازرة.

قال: فسألته عن مجلسه، فقال كان رسول الله ﷺ لا يقوم ولا يجلس إلاّ عن ذكر، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، يعطي كل جلسائه بنصيبه، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه ممن جالسه، ومن سأله حاجة لم يرده إلاّ بها أو بميسور من القول، قد وسع الناس بسطة وخلقاً فصار لهم أباً، وصاروا عنده في الحق سواء، مجلسه حلم وحياء وصبر وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات ولا تؤبن فيه الحرم، يتعاطون فيه بالتقوى متواضعين يوقرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب.

قال الحسين: سألت أبي عن سيرة النبي ﷺ في جلسائه فقال: كان النبي ﷺ دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤيس منه، ولا يجيب فيه، قد ترك نفسه من ثلاث: الرياء والإكثار وما لا يعنيه وترك الناس من ثلاث: لا يذم أحداً ولا يعيبه ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلاّ فيما رجا ثوابه، وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا لا يتنازعون عند الحديث، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ حديثهم عنده حديث أوليتهم، يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته، حتى إن كان أصحابه ليستجلبونهم ويقول إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فأرفدوه ولا يقبل الثناء إلاّ من مكافئ ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجور فيقطعه بنهي أو قيام.

يقول أحد الفضلاء:

فتنزه في ذاته ومعانيه ... استماعاً إن عز منها اجتلاء
واملاء السمع من محاسن يمليها ... عليه الإنشاد والإنشاء
كل وصف له ابتدأت به استو ... عب أخبار الفضل منه ابتداء
سيد ضحكه التبسم والمشي ... الهوينا ونومه الإغفاء
ما سوى خلقه النسيم ولا غـ ... ـير محياه الروضة الغناء
رحمة كله وحزم وعزم ... ووقار وعصمة وحياء
لا تحل البأساء منه عرى الصـ ... ـبر ولا تستخفه السراء
كرمت نفسه فما يخطر السو ... ء على قلبه ولا الفحشاء
عظمت نعمة الإله عليه ... فاستغلت لذكره العظماء
جهلت قومه عليه فأغضى ... وأخو الحلم دأبه الإغضاء
وسع العالمين علماً وحلماً ... فهو بحر لم تعيه الأعباء
معجز القول والفعال كريم الخلـ ... ـق والخلق مقسط معطاء

أخرج البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بعث من خير قرون بني آدم قرناً بعد قرن حتى كنت من القرن الذي كنت فيه» وفي صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى قريشاً من بني إسماعيل واصطفى بني هاشم من قريش واصطفاني من بني هاشم» وقال الله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القَلَم: الآيات ١-٤] .

وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث قتادة عن زرارة بن أوفى، عن سعد بن هشام، قال: سألت عائشة أم المؤمنين فقلت: أخبريني عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: أما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، فقالت: كان خلقه القرآن، وهو امتثال أمر ربه سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ﴾ [الأنعَام: الآية ٥٠] . وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النّحل: الآية ٤٤] . وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يُونس: الآية ١٥] .

قال ابن كثير في سيرته، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾ [الأنعَام: الآيتان ١٦٢ - ١٦٣] . ومعنى هذا أنه عليه السلام مهما أمره به القرآن امتثله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا ما جبله الله عليه من الأخلاق الجبلية الأصيلة العظيمة التي لم تكن لأحد من البشر ولا تكون على أجمل منها، وشرع له من الدين العظيم الذي لم يشرعه لأحد قبله وهو مع ذلك خاتم النبيين، فلا رسول بعده ولا نبي ﷺ فكان فيه من الحياء والكرم والشجاعة والحلم والصفح والرحمة وسائر الأخلاق الكاملة ما لا يحد ولا يمكن وصفه.

وقال مالك عن الزهري، عن عروة، عن عائشة أنها قالت: ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلاّ اختار أيسرهما، وما انتقم لنفسه إلاّ أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها[١] .

وروى مسلم عن أبي كريب، عن أبي أسامة، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: (ما ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئاً قط لا عبداً ولا امرأة ولا خادماً، إلاّ أن يجاهد في سبيل الله، ولا نيل منه شيء فينتقم من صاحبه إلاّ ينتهك شيء من محارم الله فينتقم الله عز وجل).

وفي الصحيحين واللفظ لمسلم من حديث حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث مالك.

قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس، وقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس لأبي طلحة عرى في عنقه السيف وهو يقول: (لم تراعوا لم تراعوا) وقال: (وجدناه بحراً) وكان فرساً يبطأ وفي رواية (إنه لبحر).

وفي مسلم من حديث أنس: كنا إذا اشتد البأس اتقينا برسول الله ﷺ.

ولا شيء أدل على كمال شجاعته ﷺ من كونه يوم هوزان لما فر جمهور أصحابه يومئذ ثبت بأبي وأمي هو، وهو راكب بغلته الشهباء ينوه بإسمه الشريف يقول: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»، وهو مع ذلك يركضها إلى نحو العدو وذلك برهان كامل على كمال شجاعته ﷺ وعلى كمال توكله على الله عز وجل.

وفي صحيح مسلم من حديث إسماعيل بن علية عن عبد العزيز، عن أنس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة أخذ أبو طلحة بيدي فانطلق بنا إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله ﷺ: إن أنساً غلام كيس فليخدمك، قال: فخدمته في السفر والحضر والله ما قال لي لشيء صنعته لِمَ صنعت هكذا؟ ولا لشيء لم أصنعه لِمَ لم تصنع هكذا؟

وأما جوده وكرمه ﷺ:

فأخرج الشيخان من طريق الزهري عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون في شهر رمضان حين يلقاه جبريل بالوحي فيدارسه القرآن، فرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة.

وفي الصحيحين أيضاً من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط، فقال: لا.

وأخرج الإمام أحمد من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لم يسأل شيئاً على الإسلام إلاّ أعطاه، قال: فأتاه رجل فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة، قال: فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة.

ولا شيء أدل على كرمه مما جرى من أفعاله في غنائم أوطاس فقد ورد في السيرة أنه جاءه أبو سفيان بن حرب رضي الله عنه فقال: يا محمد أعطني فقد أصبحت أغنى قريش، فقال ﷺ: **«أعطوه مائة من الإبل وزنوا له أربعين أوقية من الذهب»**، فقال: بأبي وأمي أنت ما أكرمك وأحلمك، وابني يزيد؟ فقال ﷺ: **«أعطوه مائة من الإبل وزنوا أربعين أوقية»**، فقال: بأبي أنت ما أحلمك وأكرمك، وابني معاوية؟ فقال ﷺ: **«أعطوه مائة من الإبل وزنوا أربعين أوقية»**. فقال أبو سفيان: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، والله إن هذا لعطاء من لا يخشى فاقة.

وقد تقدم أنه يومئذ أعطى مائة من الإبل لكل من أبي سفيان وابنيه يزيد ومعاوية، وحكيم بن حزام، وعلقمة بن علاثة، والعلاء بن حارثة الثقفي حليف بني زهرة، والحارث بن هشام، وجبير بن مطعم، ومالك بن عوف النضري، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى وعيينة بن حصن الفزاري، وصفوان بن أمية، والأقرع بن حابس، وغيرهم.

وأما تواضعه ﷺ فقد كان في غاية التواضع، روى الإمام أحمد والنسائي من حديث حماد بن سلمة، عن ثابت وزاد النسائي: حميد عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال له رجل: يا سيدنا وابن سيدنا، فقال رسول الله ﷺ: **«يا أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله ورسوله والله ما أحب أن ترفعوني فوق ما رفعني الله»**.

وفي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله»**.

وأسند البيهقي إلى عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر ويقل اللغو ويطيل الصلاة ويقصر الخطبة ولا يستنكف أن يمشي مع العبد ولا مع الأرملة حتى يفرغ لهم من حاجاتهم.

ومن تواضعه ما رواه الإمام أحمد قال: ثنا عبد الرزاق، ثنا معمر، عن ثابت، عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهراً وكان يهدي النبي ﷺ الهدية من البادية فيجهزه النبي ﷺ إذا أراد أن يخرج، فقال رسول الله ﷺ: **«إن زاهراً باديتنا ونحن حاضرته»**، وكان رسول الله ﷺ يحبه، وكان رجلاً دميماً، فأتاه رسول الله ﷺ وهو يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره فقال: أرسلني من هذا؟ فالتفت فعرف النبي ﷺ فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه وجعل رسول الله ﷺ يقول: **«من يشتري العبد»**، فقال: يا رسول الله إذن والله تجدني كاسداً، فقال رسول الله ﷺ: **«لكن عند الله لست بكاسد»، أو قال: «لكن عند الله أنت غال»**. قال ابن كثير: وهذا إسناد رجاله كلهم ثقات على شرط الصحيحين.

وسيرة رسول الله ﷺ كلها صفحات من السماحة واليسر واللين والتوفيق إلى اليسر في تناول الأمور جميعاً.

جاءه أعرابي يوماً يطلب منه شيئاً ـ فأعطاه ـ ثم قال له: أحسنت إليك؟ قال الأعرابي: لا، ولا أجملت، فغضب المسلمون، وقاموا إليه، فأشار إليهم أن كفوا، ثم

دخل منزله، وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئاً، ثم قال: أحسنت إليك؟ قال: نعم، فجزاك الله من أهل ومن عشيرة خيراً. فقال النبي ﷺ: «**إنك قلت، ما قلت، وفي نفس أصحابي شيء من ذلك، فإذا أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي، حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك**». قال: نعم، فلما كان الغداة جاء، فقال النبي ﷺ: «**إن هذا الأعرابي، قال، ما قال فزدناه، فزعم أنه رضي، أكذلك؟**» فقال الأعرابي: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

فقال ﷺ: «**إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه فتبعها الناس، فلم يزيدها إلاّ نفوراً، فناداهم صاحب الناقة، خلوا بيني وبين ناقتي فإني أرفق وأعلم فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها، فأخذ لها من قمام الأرض، فردها هوناً، هوناً، حتى جاءت واستناخت، وشد عليها رحلها. واستوى عليها. وإني لو تركتكم حيث قال الرجل فقتلتموه دخل النار**»[1].

وهذه سيرته مع النفوس الشاردة ومع أصحاب الجفوة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧].

فصل في أن الله بعثه ليتمم مكارم الأخلاق:

ولقد بعث رسول الله ﷺ ليتمم مكارم الأخلاق بذاته وبسلوكه وليتممها بقوله، وفعله، وبرسالته، إنه لم يبعث لينشر الأخلاق الكريمة فحسب، وإنما بعث ليتمم مكارمها، ومكارم الأخلاق لم تكن قبل الرسول قد تمت. وكانت الإنسانية بذلك ناقصة مادة ومعنى وكانت الدنيا ينقصها أن تتعطر أرضها بأزكى الأجساد وأن يتعطر جوها بأزكى الأرواح، وكان لا بد من وجود كائن بهذه الغاية يكمل الله به الدين، ويتمم به النعمة. يقول الله سبحانه وتعالى لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعَام: الآية ١٦٢] ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعَام: الآية ١٦٣]. هذه الآية تحدد درجة الأخلاق القرآنية التي وصل إليها الرسول ﷺ وهي الذروة من إسلام الوجه لله رب العالمين في محياه ومماته.

وهذا ما دل عليه قوله ﷺ: «**أدبني ربي فأحسن تأديبي**»، فجعله سبحانه وتعالى ميسراً في حياته فقال تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الأعلى: الآية ٨]. فالتيسير طابع إلهي على حياته ﷺ البشرية كما جعل شريعته ميسرة فقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٥]. وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى

---

(١) رواه البزار.

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: الآية ٧٨] . وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: الآية ٢٨٦] . وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: الآية ٦] . وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٥] ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: الآية ٩٦] . وقال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: الآية ١١٩] . وقال ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».

فجعل الله حياة نبيه كلها ميسرة وقال ﷺ: «إن هذا الدين يسر، ولن يشاد هذا الدين أحد إلاّ غلبه»[(١)]، أخرجه البخاري وقال: لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم[(٢)]، رواه أبو داود، وقال ﷺ: «أوغلوا في هذا الدين برفق فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى». رواه البخاري وقال: «بشّروا ولا تنفروا ويسّروا ولا تعسّروا»[(٣)]، رواه البخاري. وقال: رحم الله عبداً سمحاً إذا باع وإذا اشترى، وإذا اقتضى[(٤)]، رواه البخاري، وقال المؤمن: هيّن ليّن[(٥)]، أخرجه البيهقي، المؤمن يَألف، ويُؤلف، الدارقطني وقال: إن أبغض الرجال إلى الله الألدّ الخصم[(٦)].

سيرته ﷺ في اللباس والطعام والشراب والفراش:

وكان ﷺ ميسراً في اللباس، والطعام والفراش وغيرهما.

وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلاّ اختار أيسرهما، وقالت أيضاً عنه: كان رسول الله ﷺ إذا خلا في بيته ألين الناس، بساماً ضحوكاً. وفي صحيح البخاري كانت الأمة تأخذ بيده فتنطلق به حيث شاءت.

وقد جاء في كتاب زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم رحمه الله أن يهدي رسول الله ﷺ في اللباس أن يلبس ما تيسر من اللباس، تارة صوف، وتارة قطن وتارة كتان، وقد لبس البرود اليمانية ولبس الجبة والقباء والقميص، والسراويل، والإزار والرداء، والخف، والنعل وأرخى الذؤابة من خلفه تارة وتركها تارة إلخ.

وقال في هديه في الطعام لا يرد موجوداً، ولا يتكلف مفقوداً، فما قرب إليه شيء من الطيبات إلاّ أكله، إلاّ أن تعافه بنفسه فيتركه من غير تحريم، وما عاب طعاماً قط، إن

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي، وابن حبان.
(٢) أبو داود، والترمذي، وابن حبان.
(٣) الترمذي، وابن حبان.
(٤) الترمذي، وابن حبان.
(٥) النسائي، والطبراني.
(٦) أخرجه مسلم.

اشتهاه أكله وإلاّ تركه، كما ترك أكل الضب لما لم يعتده عند قومه، ولم يحرمه على الأمة بل أكل على مائدته وهو ينظر، وأكل الحلوى والعسل، وكان يحبهما، وأكل الرطب والتمر وشرب اللبن خالصاً ومشوباً، والسويق والعسل بالماء. وشرب نقيع التمر وأكل الخزبرة، وهي حساء يتخذ من اللبن والدقيق. وأكل القثاء بالرطب وأكل الأقط، وأكل التمر بالخبز، وأكل الخبز بالخل، وأكل القديد، وأكل الدباء المطبوخة وكان يحبها، وأكل المسلوقة، وأكل الثريد بالسمن وأكل الخبز بالزيت، وأكل البطيخ بالرطب، وأكل التمر بالزبد وكان يحبه.

زهــده ﷺ:

ولم يكن يرد طيباً ولا يتكلفه، بل كان هديه كل ما تيسر، فإن أعوزه صبر.

وقال همام حدثنا قتادة: كنا نأتي أنس بن مالك وخبازه قائم فقال: كلوا، فما أعلم رسول الله ﷺ رأى رغيفاً مرققاً حتى لحق بالله ولا رأى شاة سميطاً بعينه قط.

وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: ما شبع رسول الله ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض(١).

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال دخل رسول الله ﷺ في فتح مكة على أم هانيء وكان جائعاً، فقال لها: أعندك طعام آكله؟ فقالت: إن عندي لكسرة يابسة وإني لأستحي أن أقدمها إليك، فقال: هلميها، فكسرها في ما وجاءته بملح: فقال: ما من إدام، فقالت: ما عندي إلاّ شيء من خل، فقال: هلميه فلما جاءت به صبه على طعامه فأكل منه ثم حمد الله وأثنى عليه: ثم قال: نعم الإدام الخل يا أم هانيء، لا يقفر بيت فيه خل، هذا في فتح مكة وقد فتحها عنوة وجميع ما فيها تحت قبضته ودخلها وهو يقود جيشاً جراراً من عشرة آلاف مقاتل.

وقالت عائشة رضي الله عنها: كنا آل محمد نمكث شهراً ما نستوقد ناراً، إن هو إلاّ التمر والماء، وقالت: ما رفع رسول الله ﷺ غداء لعشاء ولا عشاء لغداء ولا اتخذ من شيء زوجين ولم يأكل على خوان ولم يأكل طعاماً من نوعين(٢).

وعن ابن مجير قال: أصاب النبي ﷺ جوع يوماً فعمد إلى حجر فوضعه على بطنه ثم قال: ألا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة، وكان خيّر ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم.
(٢) رواه البخاري.

أن يكون له مثل أحد ذهباً فقال: لا يا رب أجوع يوماً فأدعوك وأشبع يوماً فأحمدك وكان يقول في دعائه: اللهم أحيني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين، وقد أوتي مفاتيح خزائن الأرض كلها، فأبى أن يقبلها واختار الآخرة عليها.

وعن ابن سيرين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ دخل على بلال فوجد عنده صبراً من تمر، فقال: ما هذا يا بلال؟ فقال: تمر، ادخرته. قال: ويحك يا بلال أوَما تخاف أن يكون لك بخار في النار، أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً.

وفي هديه في الفراش كان ينام، على الأديم (الجلد) وعلى الحصيرة تارة وعلى الأرض تارة، وقال هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: كان فراش رسول الله ﷺ من أدم حشوه ليف، وقالت أيضاً: دخلت علي امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية، فانطلقت فبعثت إلي بفراش حشوه صوف فدخل رسول الله ﷺ فقال: ما هذا يا عائشة؟ قلت: فلانة رأت فراشك فبعثت إلي بهذا. فقال: رديه يا عائشة. قالت: فلم أرده وأعجبني أن يكون في بيتي حتى قال ذلك ثلاث مرات. قالت، فقال: رديه، فوالله لو شئت لأجرى الله علي معي جبال الذهب والفضة[(١)].

الفصل الثاني

وجوب محبته ﷺ

أولاً: الأدلة على عظم قدره ﷺ:

كنا قد بينا في مقدمة الكتاب أن أحد فصوله هو إبراز محبته ﷺ وأنها واجبة بالكتاب والسنَّة والإجماع، وأنها شاملة محبة شخصه الكريم ومحبة أتباعه فيما جاء به عن ربه، لأننا وجدنا من يفرق بين المحبتين، ويقول: إن الواجب هو محبة الأتباع فقط دون شخصه الكريم، وكما سبق أن قلنا إن من تدبر كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ يبهره ما يجد فيهما من النصوص التي تنبىء بمكانة محمد ﷺ عند ربه عز وجل وما حباه به من مزايا وخصائص لم يعطها غيره من الأنبياء والمرسلين عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

وخاصة ما ورد من ذكره والتنويه به ﷺ في سورة الأحزاب وسورة الحجرات وسورة النجم وسورة التحريم وسورة المجادلة، وما ورد من تكريم الله تعالى له ونعمه عليه في سورة الفتح وسورة الضحى وسورة الانشراح وغير ذلك، ولا تكاد تخلو سورة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد.

من القرآن الكريم إلاّ وله فيها ذكر (صلوات الله وسلامه عليه) بتنويه أو تفضيل ولا يتسع المقام لاستقراء كل الآيات الدالة على مناقبه، ومفاخره ولكن نجلب منها بعضاً تبركاً واستطابة لنفوسنا وانشراحاً لصدورنا وتنويراً لقلوبنا، فقال تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: الآيتان ٤٣، ٤٤]. وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: الآية ١١٣]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: الآية ٣٣] . وقال تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: الآية ٧٩]. وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: الآية ١] . وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: الآية ٩٧] . وقال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴿٨﴾﴾ [الأعلى: الآيات ٦ ـ ٨].

وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء: الآيات ٢١٧، ٢١٩] ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: الآية ٦١]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٦٢] ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٦٣]. وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الطلاق: الآيتان ١٠، ١١].

فكأنه سبحانه وتعالى جعل الرسول نفس الذكر مبالغة في تشريفه كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠] . وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: الآية ٤٤] . وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: الآية ٤٨] . وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: الآيات ١٩٢-١٩٤] . وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: الآية ٨٧] . وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٤٥] ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٤٦] . وقال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾ [الفتح: الآيات ١ - ٣].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: الآية ٤٠] ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: الآية ٤٠] ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ٤٠].

وقال تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٦].

وقال تعالى: ﴿يسٓ ﴿١﴾﴾ [يس: الآية ١] ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ [يس: الآية ٢] ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يس: الآية ٣] ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: الآية ٣٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: الآية ١٠]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحجرات: الآيتان ٢،٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٥٦]. وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: الآية ٨]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: الآية ٤]. وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٥٢].

ولو تتبعنا ما في المصحف من الآيات التي تدل على التنويه بمكانته ﷺ عند ربه وفضله لطال بنا المقام فهذا التنويه والتكريم دلالة على المحبة.

وهذا فضل الله خص به رسوله محمداً ﷺ فشاء سبحانه وتعالى أن يجعل سيرة رسوله صفحة معروضة للأجيال، فضمنها هذا القرآن الكريم المتلو في كل زمان ومكان تخليداً لذكراه في قلوب المؤمنين على مر الزمان ليقوم المؤمنين بواجبهم بتعزيره وتوقيره ومحبته. فقد كان أصحابه الأبرار لفرط محبتهم لا يكادون يملؤون عيونهم منه إجلالاً وتوقيراً.

ثانياً: الأدلة التي تثبت تفاضل الرسل فيما بينهم، ثم فضله عليهم لأن ذلك مما يزيد محبته ﷺ:

فقد جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة تفاضل الأنبياء فيما بينهم من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: الآية ٥٥]. وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٣]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ

﴿إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: الآية ٣٣] .

وقال في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٤] . وقال فيه أيضا: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣٠] . وقال فيه أيضاً: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النِّساء: الآية ١٢٥] . وقال في حق موسى عليه السلام: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النِّساء: الآية ١٦٤] . وقال فيه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: الآية ١٤٤] . وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣] . وقال في حق عيسى عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [المَائدة: الآية ١١٠].

ثم بيّن سبحانه وتعالى تفضيل أولي العزم من الرسل على بقية الرسل فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٧] . وقال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: الآية ١٣] . وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٥] .

وهذه الآيات لها دلالة واضحة على مزيد العناية والتفضيل لأولي العزم من الرسل على غيرهم، وقوله تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٥] . فيها هي الأخرى دلالة واضحة على العناية به ﷺ حيث لا يأمره ربه سبحانه وتعالى إلاّ بالأعلى والأفضل والأكمل.

مشاركته ﷺ لبعض إخوانه من أولي العزم فيما يمتازون به: فقد شارك إبراهيم عليه السلام في الخلة حيث قال ﷺ: «**إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً**»(١) وقوله ﷺ: «**لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله**»(٢).

وروي عن ابن عباس في حديث آخر ذكر فيه (وإني حبيب الله ولا فخر)، وشارك موسى عليه السلام في التكليم ليلة الإسراء الوارد في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ

---

(١) متفق عليه. (٢) رواه مسلم.

أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النَّجم: الآيتان ١٠ ـ ١١].

ثالثاً: فضائل نبينا محمد ﷺ التي اختصه الله بها على سائر الأنبياء وغيرهم من خلق الله وهي من دلالة محبته ﷺ عند ربه وأدلة فضله كثيرة منها:

١ ـ فضل الملة التي جاء بها والكتاب الذي أنزل عليه وخيرية الأمة التي أرسل إليها فهذه مسلمات لا خلاف فيها.

وقد نظمها أحمد البدوي الشنقيطي مستفتحاً بها نظمه لغزواته ﷺ فقال:

حمداً لمن أرسل خير مرسل ... لخير أمة بخير الملل

٢ ـ خصوص[1] رسالات الأنبياء قبله إلى أممهم وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٤]. عموم رسالته ﷺ فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سَبَإ: الآية ٢٨]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: الآية ١٥٨]. وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النِّساء: الآية ٧٩]. وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفُرقان: الآية ١]. وقوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: الآية ١٩]. وقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يُونس: الآية ٢].

٣ ـ أخذ الميثاق على النبيين لأن بعث محمد ﷺ ليؤمنن به وينصرنه كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨١].

٤ ـ جعل الله سبحانه وتعالى رسالة سيدنا محمد ﷺ هي الرسالة الأخيرة وشريعته هي الشريعة الخاتمة لتكون هي شريعة الناس جميعاً، ولتهيمن على كل ما كان قبلها وتكون هي المرجع النهائي وذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المَائدة: الآية ٤٨].

٥ ـ قال ﷺ: «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب،

---

(١) المثير لهذه الخصوصية هو الحديث المتفق عليه وفيه وكان الرجل يبعث إلى قومه خاصة ويبعث إلى الناس عامة.

وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسداً وطهوراً وأرسلت إلى الخلق كافة»[1].

٦ ـ وكونه ﷺ هو خاتم النبيين قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: الآية ٤٠].

٧ ـ كما أنه خص بإعطائه ﷺ حق التحريم والتحليل والأمر والنهي في التشريع، وأن أمره من أمر الله وطاعته من طاعة الله فهو نهاية من التقدير والتعظيم ولم تعط لأحد سواه، قال الإمام الشافعي رحمه الله: أعلم الله خلقه أن حكم رسول الله ﷺ هو حكمه جل ثناؤه بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: الآيتان ٣،٤]. وقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: الآية ٨٠] . وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: الآية ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥١﴾ [النور: الآية ٥١]. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: الآية ٧]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: الآية ١٠]. وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾ [النور: الآية ٦٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله»[2]**. متفق عليه.

فقال الإمام الشافعي بهذه النصوص مجتمعة أعلمهم سبحانه وتعالى: أن الفرض عليهم اتّباع أمره وأمر رسوله وأن طاعة رسوله طاعته جل ثناؤه على معنى افتراض حكمه، وما سبق في علمه جل ثناؤه من أن إسعاده بعصمته وتوفيقه وما شهد له به من هدايته واتباع أمره، وقال القرطبي رحمه الله: خص الله رسوله في أحكام الشريعة بمعان لم يشاركه فيها أحد في باب الفرض والتحريم والتحليل.

٨ ـ خص الله محمداً ﷺ برفع ذكر اسمه مع اسمه تشريفاً وتعظيماً وهو قوله تعالى:

---

(١) رواه مسلم.
(٢) متفق عليه.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝﴾ [الشرح: الآية ٤] . قال الإمام الشافعي رحمه الله: أخبرنا ابن عيينة عن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝﴾ [الشرح: الآية ٤] . قال: لا أذكر إلاّ ذكرت معي أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فهو فرض عند الإيمان والأذان والصلاة والخطب وتلاوة القرآن وعند العمل بالطاعة والوقوف عن المعصية.

٩ - أقسم الله سبحانه وتعالى بعمر سيدنا محمد ﷺ بقوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝﴾ [الحجر: الآية ٧٢] . فهذا إنعام من الله لنبيه ﷺ بالتبجيل والتكريم أن يقسم بحياته إذ لم يقسم بحياة أحد من الأنبياء إلاّ بمحمد ﷺ.

قال ابن كثير في تفسيره[١]: (أقسم الله بحياة محمد ﷺ وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض).

قال عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس أنه قال: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝﴾ [الحجر: الآية ٧٢].

١٠ - وخص ﷺ بأن نبوته كتبت له قبل نفخ الروح في آدم عليه السلام، روي عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله متى كنت نبياً؟ قال ﷺ: **«وآدم بين الروح والجسد»**[٢]. رواه الترمذي وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى[٣]، وسيد ولد آدم هو محمد بن عبد الله ﷺ، آدم فمن دونه تحت لوائه، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: **«إني عند الله لمكتوب خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته، أي كتبت نبوتي وأظهرت لما خلق الله آدم قبل نفخ الروح فيه كما يكتب الله رزق العبد فيه وأجله وعمله وشقي أو سعيد إذا خلق الجنين قبل نفخه الروح فيه»**.

١١ - وخص رسول الله ﷺ بأن أمته أكثر الأمم في دخول الجنة وأفضلها قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٠].

وقال ﷺ ما من الأنبياء نبي إلاّ أعطى من الآيات ما مثله أوفى أو آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي. فأرجو أني أكثرهم تابعاً يوم القيامة[٤].

وقال ﷺ: **«عرضت عليَّ الأمم، فأخذ النبي يمر معه الأمة والنبي يمر معه النفر والنبي**

---

(١) تفسير ابن كثير ج٢ (ص٥٥٥).
(٢) رواه الترمذي.
(٣) الفتاوى ج١١ (ص٩٧).
(٤) رواه مسلم والبخاري.

يمر معه الخمسة والنبي يمر وحده فنظرت فإذا سواد كثير قلت يا جبريل هؤلاء أمتي قال: لا، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد كبير قال: هؤلاء أمتك»[١] .

١٢ ـ وكون أمته شهداء على الناس قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٣]. وهذا من الخيرية التي خص بها رسول الله ﷺ.

١٣ ـ دليل سيادته على جميع بني آدم وتصريحه بذلك وهو مشروع لا يقول إلاّ حقاً قال ﷺ : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة[٢] ، وقال أيضاً: أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من تشق عنه الأرض وأول شافع وأول شفيع[٣] . وقال ﷺ : «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»**[٤] .

وقال عبد الله بن سلام رضي الله عنه أكرم الخليقة على الله أبو القاسم ﷺ .

وقال ﷺ : «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلاّ تحت لوائي وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر**».

١٤ ـ وخص الله نبيه محمداً ﷺ بالإسراء من المسجد الحرام إلى بيت المقدس من بين إخوانه الأنبياء، فقد ذكر ابن القيم في كتابه زاد المعاد في هدي خير العباد، ما نصه (أسري برسول الله ﷺ) بجسده على الصحيح من المسجد الحرام إلى بيت المقدس راكباً على البراق بصحبة جبريل عليه الصلاة والسلام، فنزل هناك وصلى عليه الصلاة والسلام بالأنبياء إماماً وربط البراق بحلقة باب المسجد ثم عرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا فاستفتح له جبريل ففتح له فرأى هنالك آدم أبو البشر فسلم عليه فرد عليه السلام ورحب به وأقرّ بنبوته، وأراه الله أرواح السعداء عن يمين آدم وأرواح الأشقياء عن يساره، ثم عرج به إلى السماء الثانية فاستفتح له فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم فلقيهما فسلم عليهما فردا عليه ورحباً به، وأقرّا بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الثالثة فرأى فيها يوسف فسلّم عليه ورحب به وأقرّ بنبوته ثم عرج إلى السماء الرابعة فرأى فيها إدريس فسلم عليه ورحب به وأقرّ بنبوته ثم عرج به إلى السماء الخامسة فرأى فيها

---

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه أحمد والترمذي.
(٤) ج٣ (ص٣٤).

هارون بن عمران فسلم عليه ورحب به وأقرّ بنبوته ثم عرج به إلى السماء السادسة فلقى فيها موسى بن عمران فسلم عليه ورحب به وأقرّ بنبوته فلما جاوزه بكى موسى، فقيل له ما يبكيك؟ فقال: أبكي لأن غلاماً بعث من بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ما يدخلها من أمتي، ثم عرج به إلى السماء السابعة فلقي فيها إبراهيم فسلم عليه ورحب به. وأقرّ بنبوته، ثم رفع إلى سدرة المنتهى ثم رفع له البيت المعمور ثم عرج به إلى الجبار جل جلاله فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاة، فرجع حتى مر على موسى، فقال له: بم أمرت؟ قال: بخمسين صلاة، قال: إن أمتك لا تطيق ذلك، ارجع إلى ربك واسأله التخفيف لأمتك فالتفت إلى جبريل كأنه يستشيره في ذلك فأشار أن نعم إن شئت، فعلا به جبريل حتى أتى به الجبار تبارك وتعالى وهو في مكانه وهذا لفظ البخاري في بعض الطرق فوضع عنه عشراً ثم نزل حتى مرّ بموسى فأخبره، فقال: ارجع إلى ربك واسأله التخفيف فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل حتى جعلها خمساً، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف فقال ﷺ **«قد استحيت من ربي، ولكن أرضى وأسلم فلما بعد نادى مناد قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي»**. رواه ابن القيم عن الإمام البخاري.

وقال ابن القيم اختلف الصحابة هل رأى ربه تلك الليلة أم لا؟

فصح عن ابن عباس أنه رأى ربه، وقيل رآه بفؤاده، وصح عن أم المؤمنين عائشة وابن مسعود إنكار ذلك.

وذكر ابن القيم أن ابن تيمية رحمه الله جمع بين الأقوال بأن الرؤية حصلت ولكن لم تكن في ليلة الإسراء، وأنها كانت منامية في المدينة المنورة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح وأن ذلك هو الذي بنى عليه الإمام أحمد رحمه الله وقال: نعم رآه حقاً فإن رؤيا الأنبياء حق . . . إلخ

وهذا الإسراء وهذا الارتقاء فوق السبع الطباق إلى ذلك المقام الذي أصبح يسمع فيه صريف الأقلام في اللوح المحفوظ، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾[الإسراء: الآية ١]. والذي وصف الله بأن عبده كان منه قاب قوسين أو أدنى وأنه أوحى إليه ما أوحى وأنه عاين من آيات ربه الكبرى، ما زاغ البصر وما طغى، أنها زيادة في توكيد الحقيقة والقسم من الله على صحة ذلك: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾[النجم: الآيات ١ـ ٤].

فهي رحلة واقعية لا مراء ولا جدال فيها، والإسراء معجزة يؤخذ منها فضلهﷺ على جميع إخوانه الرسل بإمامته لهم، واطلاعه على الجنة والنار، وعلى سدرة المنتهى، وعلى كل الآيات التي رآها، ولقياه الأنبياء والرسل الذين سلم عليهم في السموات وصلى بهم في بيت المقدس. وحديث الإسراء متفق عليه.

١٥ - رخصﷺ بالشفاعة الكبرى في فصل القضاء لأهل الموقف بعد مراجعة الخلائق لآدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى فيقول كل واحد منهم لست لها فيأتونهﷺ فيقول: **«أنا لها»**، ويستأذن ربه فيأذن له، فيشفع فتقبل شفاعته وله شفاعات كثيرة أخرى فمن هذه الشفاعات: شفاعته في يوم يدخلون الجنة بغير حساب وشفاعته في قوم يستحقون النار فلا يدخلونها، ومنها شفاعته في بعض أهل النار فيخرجون منها، ومنها شفاعته في تخفيف عذاب بعض أهل النار كأبي طالب كما يدل عليه قولهﷺ المتفق عليه هو في ضحضاح من النار يغلي منه دماغه ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار.

١٦ - وخص رسول اللهﷺ بالمقام المحمود بوعد من ربه سبحانه وتعالى فقال تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء: الآية ٧٩]. وهذا المقام وردت فيه عدة روايات على النحو التالي:

(أ) أنه لواء الحمد الذي يعقد لهﷺ في المحشر حتى يقف آدم وذريته تحته في ذلك الموقف العظيم.

(ب) وروي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه الشفاعة في فصل القضاء، ويروي فيه أحاديث منها حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهﷺ: **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ، آدم فمن سواه إلاّ تحت لوائي وأنا أول من تشق عنه الأرض ولا فخر فيفزع الناس ثلاث فزعات فيأتون آدم عليه السلام فيقولون: أنت أبونا فاشفع لنا إلى ربك، فيقول: إني أذنبت ذنباً أهبطت منه إلى الأرض، ولكن ائتوا نوحاً فيأتون نوحاً فيقول: إني دعوت على أهل الأرض دعوة فأهلكوا، ولكن اذهبوا إلى إبراهيم فيأتون إبراهيم فيقول: ائتوا موسى عليه الصلاة والسلام فيقول: إني قتلت نفساً، ولكن ائتوا عيسى، فيأتون عيسى عليه السلام فيقول: إني عبدت من دون الله، ولكن ائتوا محمداًﷺ فيأتون فانطلق معهم فآخذ بحلقة باب الجنة، فأقعقها، فيقال: من هذا؟ فأقول: محمد**

فيفتحون لي ويقولون مرحباً، فأخر ساجداً، فيلهمني الله عز وجل من الثناء والحمد والمجد فيقال: ارفع رأسك سل تعط، واشفع تشفع، وقل يسمع لقولك فهو المقام المحمود الذي قال الله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسرَاء: الآية ٧٩][(١)].

(ج) وقيل إنه الوسيلة والفضيلة (وهو مقام لا ينبغي إلاّ لعبد واحد وأرجو أن أكون هو).

وأخرج البخاري عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة»، وهذه الأقوال لها أدلتها وهي متقاربة.

١٧ - وحكى المقري صاحب الإضاءة أن رسول الله ﷺ هو أفضل خلق الله فقال في نظمه:

وانعقد الإجماع أن المصطفى ... أفضل خلق الله والخلف انتفى
وفضل المخصوص بالإسراء ... على البرايا دون ما استثناء

الفصل الثالث

رسالته ﷺ عالمية

وقال الحافظ ابن كثير: ولا شك أنه صلوات الله وسلامه عليه، أفضل البشرية بل الخليقة وزيادة على ذلك أن رسالته ﷺ عالمية تشمل الكون كله الإنس والجن وذلك بدليل الآيات التالية:

---

(١) قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية ما نصه: قلت: لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً تشريفات يوم القيامة لا يشاركه فيها أحد فهو أول من تنشق عنه الأرض ويبعث راكباً إلى المحشر وله اللواء الذي آدم فمن دونه تحته وله الحوض الذي ليس من الموقف أكثر وارداً منه وله الشفاعة العظمى عند الله ليؤتي فصل القضاء بين الخلائق وذلك بعدما يسأل الناس آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى فكل يقول لست لها حتى يأتوا محمداً فيقول أنا لها.. ومن ذلك أنه يشفع في الأقوام قد أمر بهم إلى النار فيردون عنها وهو أول الأنبياء يقضي بين أمته وأولهم اجازة على الصراط بأمته وهو أول شفيع في الجنة وفي حديث الصور أن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته انتهى إلى آخر كلامه رحمه الله وهونفيس فيراجع.

(أ) قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١﴾ [الفُرقان: الآية ١].

(ب) قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧]. (والعالم هو ما سوى الله).

(ج) قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ٩٠﴾ [الأنعَام: الآية ٩٠].

(د) قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٤].

(هـ) قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ٥٢﴾ [القَلَم: الآية ٥٢].

(و) قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٤].

وقد وصف الله نبيه محمداً ﷺ بالعبودية مرات في القرآن الكريم في مقام التكريم والتشريف منها في سورة الإسراء، قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسرَاء: الآية ١]. الإسراء الثانية في سورة الكهف قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ [الكهف: الآيتان ١ ـ ٢]. والثالثة في سورة الفرقان قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١﴾ [الفُرقان: الآية ١]. والرابعة في سورة الجن وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: الآية ١٩]. وقوله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ٩﴾ [الحَديد: الآية ٩]. والتعبير بلفظ العبد في هذا المقام العظيم يدل دلالة واضحة على أن مقام العبودية هو أشرف صفات المخلوقين وأعظمها وأجلها، إذ لو كان هناك وصف أعظم منه ليعبر به في هذا المقام العظيم الذي العبد اخترق فيه السبع الطباق ورأى من آيات ربه الكبرى ما رأى.

ثم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ٥٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ٥٧﴾ [الأحزَاب: الآيتان ٥٦ ـ ٥٧]. والصلاة من الله على نبيه هي الثناء عليه في الملأ الأعلى، وصلاة ملائكته عليه هي دعاؤهم له عند الله سبحانه وتعالى، وذلك تسخير من الله، حين نتصور أن الله سبحانه وتعالى رب هذا الكون الذي قال للكون (كن

فيكون)، فكان هو الله ذو الجلال والإكرام، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، هو القائل أن الله وملائكته يصلون على النبي ثم يأمرنا بالصلاة والسلام عليه لندرك مدى هذا التكريم العظيم ليبجل نبيهﷺ ويعطيه المقام المحمود الذي لا ينبغي لأحد سواه.

فما دلالة هذا الاحتفاء وهذا التقدير وهذا التعظيم إلاّ المحبة، ومما ورد من الأحاديث في فضل الصلاة عليهﷺ.

قالﷺ: **«ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلّوا على نبيهم إلاّ كان عليهم حسرة يوم القيامة وإن دخلوا الجنّة للثواب»**[١].

«أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة»[٢].

«البخيل مَن ذكرت عنده فلم يصلِ عليَّ»[٣].

«رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلِ عليَّ»[٤].

«مَن ذكرت عنده فليصلِ عليَّ»[٥].

«مَن صلّى علي واحدة صلّى الله عليه بها عشراً»[٦].

«إن للّه ملائكة سيّاحين يبلغوني عن أمتي السلام»[٧].

«ما من أحد يسلّم عليّ إلاّ رد الله روحي حتى أرد عليه السلام»[٨].

«إني لقيت جبريل فبشرني وقال: ربك يقول مَن صلّى عليك صلّيت عليه ومن سلّم عليك سلّمت عليه فسجدت لله شكراً»[٩].

«مَن صلّى عليَّ واحدة صلّى الله عليه عشر صلوات وحُطّت عنه عشر خطيئات ورُفعت له عشر درجات وكُتبت له عشر حسنات»[١٠].

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وابن حبان.
(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وابن حبان.
(٣) أخرجه الترمذي وابن حبان.
(٤) أخرجه الترمذي وابن حبان.
(٥) أخرجه النسائي والطبراني.
(٦) أخرجه مسلم.
(٧) أخرجه النسائي وابن حبان.
(٨) أخرجه أبو داود.
(٩) أخرجه أحمد، والحاكم.
(١٠) النسائي، وابن حبان، والطبراني.

«مَن صلّى على النبي ﷺ واحدة صلّى الله وملائكته عليه سبعين صلاة»[1].

«مَن سرّه أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلّى علينا أهل البيت فليقل اللهم صلّ على محمدٍ النبيّ الأميّ وأزواجه أمّهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنّك حميد مجيد»[2].

«مَن صلّى على محمد وقال: اللهم أنزله المقعد المقرّب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتي»[3].

«قيل: يا رسول الله جعلت لك صلاتي كلّها، قال: إذاً تكفي همك ويغفر ذنبك»[4].

«أكثروا من الصلاة عليّ يوم الجمعة فإن صلاتكم معروضة عليّ»[5].

«ليس أحد يصلي عليّ يوم الجمعة إلاّ عرضت عليّ صلاته»[6].

«كل دعاء محجوب حتى يُصلى على محمد وعلى آل محمد»[7].

حرمة تناول ما يؤذيه ﷺ وإن كان مباحاً شرعاً:

عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني في أن ينكحوا ابنتهم علياً بن أبي طالب، فلا آذن ثم لا آذن إلاّ أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي، وينكح ابنتهم، فإنما هي بضعة مني يريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها»[8].

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: الآيتان ٢٨،٢٩].

وهذا الخيار ينطوي على حكمة بالغة وهو نص يدافع الله به عن رسوله الكريم حتى ولو مع أقرب الناس إليه عندما تجمع عليه ﷺ أزواجه، وآلمنه بمطالبهن بتوسعة الحال

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل.
(٢) أخرجه مسلم، وأبو داود.
(٣) أخرجه البزار، والطبراني.
(٤) النسائي، وابن حبان، والطبراني.
(٥) أخرجه أبو داود، وابن حبان.
(٦) أخرجه الحاكم.
(٧) أخرجه الطبراني.
(٨) رواه البخاري، باب النكاح، ج٩ من فتح الباري (ص٣٢٧)..

وقلن له: نحن على ما ترى من الفاقة والضيق، فأمر الله أن يتلو عليهن ما أنزل في حقهن في هذا المطلب، إما اختيار الله ورسوله والدار الآخرة كلية أو اختيار الزينة والمتاع في الدنيا، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة، وكن بذلك حيث مكانتهن من رسول الله ﷺ، ثم أنزل الله فيهن قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٢]. هذه الخصوصية بتذكيرهن يعلو مكانتهن وامتيازهن على النساء بمكانتهن من رسول الله ﷺ وبما أنعم الله عليهن فجعل بيوتهن مهبط الوحي بقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٤]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب: الآية ٣٣].

الآيات الدالة على أن الله سبحانه وتعالى لم يخاطب الرسول ﷺ باسمه تعظيماً له:

وفي دلائل النبوة لأبي نعيم ما نصه (ومن فضائله إخبار الله عز وجل عن إجلال قدر نبيه ﷺ وتبجيله وتعظيمه، وذلك أنه ما خاطبه في كتابه ولا أخبر عنه إلاّ بالكناية التي هي النبوة والرسالة التي لا أجل منها قدراً ولا أعظم منها فخراً، وخاطب غيره من الأنبياء بأسمائهم ولم يذكرهم بالكناية التي هي غاية المرتبة إلاّ أن يكون الرسول محمد ﷺ في جملتهم بمشاركته معهم في الخطاب والخبر.

فأما حال الانفراد فما ذكرهم إلاّ بأسمائهم، والكناية عن الإسم غاية التعظيم للمخاطب المجلل، والمدعو العظيم، لأن من بلغ به غاية التعظيم كني عن إسمه إن كان ملكاً قيل له أيها الملك وإن كان أميراً قيل له يا أيها الأمير، وإن كان خليفة قيل له يا أيها الخليفة، وإن كان مراتب أهل الديانات قيل له أيها الحبر أو أيها القس أو أيها الفقيه، أيها القاضي ففضل الله عز وجل نبيه ﷺ وبلغ به غاية الرتبة وأعالي الرفعة فلم يسمه باسمه في النداء إلاّ بالكناية، تعظيماً له، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: الآية ٤١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأنفال: الآية ٦٤] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١﴾ [المزمل: الآية ١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر: الآية ١]. وأما جميع الرسل سواه فقد نودوا بأسمائهم يا نوح، يا هود، يا صالح، يا إبراهيم، يا شعيب، يا موسى، يا عيسى.

وأما اسمه الأصلي ﷺ فلم يرد في القرآن إلاّ في الخبر عنه، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾ [آل عمران: الآية ١٤٤]. وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ [الأحزاب: الآية ٤٠].

فجاء اسمه في تلك الآيات حتى لا يجحد، ويعلم أنه هو الرسول ولذلك كان اسمه مضافاً للرسالة. والله سبحانه وتعالى نهى المؤمنين أن ينادوا نبيهم باسمه أو بلقبه ووصف الذين ينادونه بذلك بأنهم قوم لا يعقلون.

أكـنـيـه حـيـن أنـاديـه لأكـرمـه ولا ألـقـبـه والـسـوأة الـلـقـبـا

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النُّور: الآيـة ٦٣]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الحُجرَات: الآية ٤].

أدلة منع رفع الصوت عند رسول الله ﷺ:

كما أن الله سبحانه وتعالى أمرهم بالأدب بين يدي الرسول ﷺ في المخاطبة في إبداء الاقتراحات منهم، وأن لا يقولوا في أمر حتى يستأذنوا، ولا يفضوا في أمر إلى أن يرجعوا فيه إليه، ألزمهم سبحانه وتعالى بالأدب مع نبيهم في الحديث والخطاب وتوقيرهم له في قلوبهم توقيراً ينعكس على نبرات أصواتهم وجوارحهم ويميز شخص رسول الله ﷺ بينهم ويميز مجلسه فيهم وجعل ذلك الإلزام في نداء تحذيري: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحُجرَات: الآيتان ١- ٢].

والآية الأخيرة نازلة في الخيرين: أبي بكر وعمر، لكونهما تلاحيا في خلاف بينهما في أمر من أمور المسلمين بين يدي رسول الله ﷺ أشار فيه أبو بكر أن يؤمر على وفد بني تميم الذي قدم على رسول الله ﷺ في السنة التاسعة القعقاع بن معبد بن زرارة، وأشار عمر أن يؤمر عليهم الأقرع بن حابس بن عقال: فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلاّ خلافي. فقال عمر: ما أردت إلاّ خلافي فارتفعت أصواتهما فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ [الحُجرَات: الآية ٢][1]. ذكره البخاري في صحيحه وبعد هذا التحذير الشديد والوعيد المخيف جاء الترغيب اللطيف يعرض حال الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ لأن اختارهم بعد أن امتحن الله قلوبهم للتقوى وجعلها مليئة بالتقوى ووهبهم المغفرة والأجر العظيم. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحُجرَات: الآية ٣].

---

(١) ذكره البخاري في صحيحه.

وقد شدد عمر بن الخطاب رضي الله عنه النكير على رجلين رفعا أصواتهما في مسجد رسول الله ﷺ بعد وفاة رسول الله ﷺ... وقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً بعد أن قالا له إنهما من أهل الطائف لأن حرمة رسول الله ﷺ ميتاً كحرمته حياً.

كما أن رسول الله ﷺ كره صياح وإزعاج وفد بني تميم حين قدومهم عليه، وذلك بندائهم له من وراء حجرات أزواجه المطلة على المسجد بقولهم: يا محمد، أخرج لنا. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [الحجرات: الآيتان ٤ ـ ٥]. ما وجه هذا التحذير الإلهي للمؤمنين إلاّ أن يتأدبوا في مخاطبة نبيهم ﷺ خشية أن تحبط أعمالهم وهم لا يشعرون، وهم الصفوة من أمته، وبيّن سبحانه وتعالى أن رفع الصوت في مجلسه يفضي إلى ارتكاب الإثم الذي يحبط العمل، وأن غض الصوت يفضي إلى رضوان الله، ويصف الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى وأن لهم بذلك المغفرة والأجر العظيم.

إن الترغيب العميق بعد التحذير المخيف له دلالة في تربية المؤمنين على احترام وتعظيم نبيه ﷺ في تعظيمه وتوقير مجلسه.

وانعقد إجماع الأمة الإسلامية على أن عدم احترام نبينا محمد ﷺ المشعر بالغض منه أو التنقص منه أو الاستخفاف به أو الاستهزاء به، ردة عن الإسلام وكفر بالله والعياذ بالله.

الفصل الرابع

أدلة المحبة من الكتاب والسنة

فقد أوجب الله محبة نبيه محمد ﷺ وقرنها بمحبته تعالى فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: الآية ٢٤].

يقول القاضي عياض عن هذه الآية: فكفى بهذا حضاً وتنبيهاً ودلالة وحجة على إلزام محبته ﷺ ووجوب فرضها وعظم خطرها واستحقاقه لها إذ قرن سبحانه من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله وأوعدهم بقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: الآية ٢٤]. ثم فسقهم بتمام الآية وأعلمهم بأنهم ممن ضل ولم يهده الله،

وبدليل نص مفهوم المخالفة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾ [الكَوثَر: الآية ٣] . ويقول ابن تيمية في كتابه الصارم المسلول على من يسبّ الرسول ﷺ عن هذه الآية: (إن الله بتر شانىء رسوله من كل خير فيبتر ذكره وأهله وماله في الدنيا ويخسر ماله في الآخرة ويبتر حياته فلا ينتفع بها، ولا يتزود فيها صالحاً لمعاده، ويبتر قلبه فلا يعي ولا يؤله لمعرفته ومحبته والإيمان برسله، ويبتر أعماله فلا يستعملها في طاعة، ويبتره من الأنصار فلا يجد له ناصراً ولا عوناً، ويبتره من جميع القرب والأعمال الصالحة فلا يتذوق لها طعماً ولا يجد لها حلاوة، وإن باشرها بظاهره فقلبه شارد عنها والعياذ بالله وبدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣﴾ [الضّحى: الآيات ١ ـ ٣]. أي ما تركك ربك ولا جفاك، والتفسير الثاني منذ أحبك ما كرهك كما زعم من يريد إيذاء روحك وإيجاع قلبك وإقلاق خاطرك، وهو ربك وأنت عبده المنسوب إليه المضاف إلى ربوبيته وهو راعيك وكافلك واذكر ما كان من شأنه معك، ألم تحط يتمك رعايته؟ ألم تدرك حيرتك هدايته؟ ألم يغمر فقرك عطاؤه: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨﴾ [الضّحى: الآيات ٦-٨] ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾ [الضّحى: الآيتان ٤، ٥]. فهل بعد هذا من تكريم، إنها عبارات توحي بالحب والحنان في مناجاة الحبيب واستحضار مظاهر الرعاية والعناية والتسلية والترويح والطمأنينة للقلب المفجوع بوحشة انقطاع الوحي وهو الزاد الذي تتغذى به روحه ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ٣ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ٤﴾ [الشّرح: الآيات ١ ـ ٤] . فيها تخفيف العبء في حمل الرسالة الذي أنقض ظهرك وانشراح الصدر لهذه الدعوة، فهي المناجاة الحلوة والحديث الودود والعطف والتيسير، ورفع الذكر في الأرض وفي الملأ الأعلى وهو منفرد به ﷺ دون سائر العالمين حين قدر الله أن تمر القرون وتتكرر الأجيال وملايين الناس في كل مكان تهتف بهذا الاسم الكريم مع الصلاة والتسليم عليه تقديراً وتعظيماً ومحبة وإجلالاً، فهل بعد هذا من تكريم؟ إن المتأمل في هذا التعبير يجد من عظمة الحب والود الذي يلقاه نبينا محمد ﷺ من ربه ما يبهر المتأمل لذلك.

وكما قلنا سابقاً فإن الله سبحانه وتعالى يتولى الدفاع عن نبيه محمد ﷺ ولا يتركه لأخص أصحابه، فهذا أبو بكر وعمر وهما أفضل رجلين بعد رسول الله ﷺ من أمة محمد ﷺ عندما تلاحيا ورفعا أصواتهما بين يدي رسول الله ﷺ نزل الوحي وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢﴾ [الحُجرَات: الآية ٢].

وما تضمنته الآية الكريمة من لزوم توقيره ﷺ وتعظيمه جاء مبيناً في آيات أخر مثل قوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: الآية ٩]. وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٧]. ثم بيّن سبحانه وتعالى أن توقيره واحترامه ﷺ هو بغض الصوت عنده لا يكون إلاّ من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، أي أخلصها له وأن لهم بذلك عند الله المغفرة والأجر العظيم وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحجرات: الآية ٣]. وكذلك حال زوجتي رسول الله ﷺ أم المؤمنين عائشة وأم المؤمنين حفصة رضي الله عنهما وهما من أحب نسائه إليه عندما تمالأتا عليه في إفشاء حديث أسره النبي إلى حفصة أفشته إلى عائشة، فأظهر الله نبيه ﷺ عليه حمية له من كيدهن، ثم بيَّن الله لهن خطر تلك الممالآت، ودعوتهما إلى التوبة لتعود قلوبهما فتميل إلى الله فقد بعدت عنه بذلك التمالىء على رسوله ﷺ وقال لهما: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [التحريم: الآية ٤].

هذا إشعار بأنه سبحانه وتعالى بذاته العلية يتولى تطهير بيت رسول الله ﷺ فهذا من أعظم التشريف والتكريم، فإن الحادثة وإن كانت من امرأتين زوجتين فإن الأمر احتاج إلى موالاة الله وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة إلى رسول الله ﷺ ليبين للجميع أن رسول الله ﷺ ليس متروكاً لأي أحد مهما كانت قرابته والتصاقه برسول الله ﷺ، فإن التهديد الذي تبع ذلك الحادث رهيب: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾ [التحريم: الآية ٥].

فما دلالة ذلك إلاّ محبة رسول الله ﷺ؟ وأن يجعل هذا التطهير والتكريم صفحة معروضة في كتاب الله تعالى تتلى في الملأ الأعلى وفي الأرض إلى قيام الساعة وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [الأحزاب: الآيتان ٥٣، ٥٤].

فما دلالة هذه التوجيهات والآداب التي أمر الله بها المؤمنين لعدم دخول بيوته ﷺ إلاّ بعد الاستئذان، وعدم السمر فيها بعد الطعام، وكيفية مسألة أزواجه متاعاً إلاّ من وراء حجاب وعدم نكاح أزواجه من بعده أبداً إلى غير ذلك من الأشياء التي كانت تؤذي

رسول الله ﷺ فيستحي أن يظهرها لأصحابه حتى تولى الله سبحانه وتعالى عنه الجهر بالحق بها: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزَاب: الآية ٥٣]. فما دلالة هذا الدفاع عما يؤذي رسول الله ﷺ إلاّ محبة الله لعبده محمد ﷺ. ولو تتبعنا القرآن الكريم لوجدنا آيات كثيرة لا تحصى توحي بتكريم الله لنبينا محمد ﷺ وهي دلالة على الشعور بمحبته وتعظيمه من ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦٤]. فهذه منة من الله على عباده المؤمنين، فالذي لا يعترف بهذه المنة وقيمتها الذاتية وهي شخص رسول الله ﷺ غير جدير بأن يتذوق حلاوة الإيمان وهي محبة الله ورسوله كما جاء في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ثلاث مَن كنّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان وذكر منها أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**». متفق عليه.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التّوبَة: الآية ١٢٨]. فالله وصف رسوله ﷺ بأن همه وشأنه ما يدخل أمته الجنة وينقذهم من النار وأنه حريص على ذلك.

وقال القرطبي: لم يجمع الله لأحد من الأنبياء إسمين من أسمائه تعالى إلاّ لنبينا محمد ﷺ قال تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التّوبَة: الآية ١٢٨]. فلازم ذلك تعظيمه وتقديره ومحبته وقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزَاب: الآية ٦]. فجعل الرسول له الولاية العامة والخاصة على كل نفس مؤمنة هو أولى بها من صاحبها، أي أحق وأقرب إليهم من أنفسهم، أو أشد ولاية ونصرة لهم منها فإنه عليه الصلاة والسلام لا يأمرهم ولا يرضى منهم إلاّ بما فيه صلاحهم ونجاتهم، بخلاف النفس فإنها قد تكون أمّارة بالسوء.

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه، فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقحمون فيه**». فاستوجب ذلك أن يكون شخصه الكريم ﷺ **أحب إليهم من أنفسهم امتثالاً لقوله تعالى:** ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [التّوبَة: الآية ١٢٠]. كما جاء في الصحيحين والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده ووالده والناس أجمعين، وفي الصحيح أيضاً أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يا رسول الله والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلاّ من نفسي، فقال ﷺ: لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال: يا رسول الله والله لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي، فقال ﷺ: «الآن يا عمر» ويكفي أن عمر وهو من هو قد احتاج من

رسول الله ﷺ إلى هذه اللفتة في شأن محبته ﷺ لأن الأمر أمر تكليف يتوقف عليه إيمان عمر. وقد جاء في الصحيح (ما من مؤمن إلا أنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة) اقرؤوا إن شئتم: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٦]. فأيما مؤمن ترك مالاً فورثته، وإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه هذه كلها دواعي ودلائل المحبة.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: الآيتان ٢٨ ـ ٢٩].

وهذا الخيار ينطوي على حكمة بالغة وهو نص يدافع الله به عن رسوله الكريم حتى ولو مع أقرب الناس إليه، قالوا: إنه لما نصر الله رسوله ورد عنه الأحزاب وفتح عليه قريظة والنضير، ظن أزواجه ﷺ أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم، قلن لرسول الله ﷺ: نحن ما ترى من الفاقة والضيق، فآلمن قلبه بمطالبهن بتوسعة الحال، فأمره الله أن يتلو عليهن ما أنزل في حقهن في هذا المطلب، إما اختيار الله ورسوله والدار الآخرة كلية أو اختيار الزينة والمتاع في الدنيا، فليست هناك مجاملة ولا رقة ولا عاطفة تسترضي أنوثة المرأة، فهو يريدهن محتسبات قويات في الصبر والمجاهدة والإخلاص والعفة والقناعة، ولذلك سماهن الله أمهات المؤمنين تعظيماً لحقهن وتأكيداً لحرمتهن وتفضيلاً لهن على سائر النساء. ورغم حب النساء للزينة والمتاع في الدنيا فإنهن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة وكن بذلك حيث مكانتهن من رسول الله ﷺ فما دلالة ذلك إلاّ محبته ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٢]. هذه الخصوصية بتذكيرهن بعلو مكانتهن وامتيازهن على النساء بمكانتهن من رسول الله ﷺ وبما أنعم الله عليهن فجعل بيوتهن مهبط الوحي بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٤]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: الآية ٣٣].

أدلة محبة أصحاب رسول الله ﷺ:

روى الإمام البخاري عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: **«ما أعددت لها؟»** قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله، قال: **«أنت مع من أحببت»**.

وفي رواية أخرى للبخاري أن رسول الله ﷺ قال للرجل: «**إنك مع من أحببت**»، فقلنا: ونحن كذلك؟ قال: **نعم**. ففرحنا يومئذ فرحاً شديداً.

يقول الإمام الحافظ بن حجر في هذا المقام:

وقائل هل عمل صالح أعددته يدفع عنك الكرب
فقلت حسبي خدمة المصطفى وحبه فالمرء مع من أحب

وقال العلامة محمد حبيب الله، صاحب زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم:

من رام أن يبلغ أقصى المنى في الحشر مع تقصيره في القرب
فليخلص الحب لمولى الورى والمصطفى فالمرء مع من أحب

روى ابن إسحاق عن الزهري أن عروة بن مسعود الثقفي قال لقريش:

يا معشر قريش والله لقد وفدت على كسرى، وعلى قيصر، وعلى النجاشي، ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمداً ما تنخم نخامة إلاّ وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ولا يتوضأ إلاّ ابتدروا إلى وضوئه ولا يبصق بصاقة إلاّ ابتدروها ولا يقطع شيء من شعره إلاّ أخذوه ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً، فروا رأيكم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «**أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة، وأحبوني لحب الله وأحبوا أهل بيتي لحبي**»[1].

وروى ابن إسحاق أن أمرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد فأخبروها بذلك فقالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: بحمد الله هو كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظره، فلما رأته، قالت: كل مصيبة بعدك صغيرة.

وروى مسلم في صحيحه، قول النبي ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده ليأتين على أحدكم يوم، ولا يراني، ثم لأن يراني أحب إليه من أهله وماله معهم**».

روى مسلم عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال: عبد خيّره الله بأن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده، فبكى أبو بكر، فقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، قال: فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا به، وقال رسول الله ﷺ: «**إن آمن الناس علي في ماله وصحبته أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام، لا تبقين في المسجد خوخة إلاّ خوخة**

---

(١) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

أبي بكر وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً».

وروى الحاكم في مستدركه عن عمر بن الخطاب، قال: لما خرج رسول الله ﷺ إلى غار ثور ومعه أبو بكر رضي الله عنه فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه ففطن له رسول الله ﷺ فسأله، فقال أبو بكر: يا رسول الله أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك. فقال: يا أبا بكر لو كان شيء أحببت أن يكون ذلك دوني؟ فقال: نعم، والذي بعثك بالحق.

ولما انتهينا إلى الغار، قال أبو بكر: مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ لك الغار. فدخله فاستبرأه حتى إذا كان في أعلاه... ذكر أنه لم يستبرئ الحجرة، فقال مكانك حتى أستبرئ الحجرة، فاستبرأها. ثم أذن له في دخول الغار.

وجاء في عيون الأثر وفي إنارة الدجى أنه:

لما أخرج أهل مكة زيداً بن الدثنة من الحرم ليقتلوه قال له أبو سفيان بن حرب: أنشدك الله يا زيد، تحب أن محمداً الآن مكانك تضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ فقال زيد: والله ما أحب أن محمداً مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة، وإني جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيت أحداً من الناس يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً ﷺ.

ويروى عن بلال رضي الله عنه أنه لما حضرته الوفاة كان أهله يقولون: واكرباه، وهو يقول: واطرباه، غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه.

وروي عن عمرو بن العاص رضي الله عنه يقول: ما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ.

وعن علي رضي الله عنه يقول: كان رسول الله ﷺ أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا ومن الماء البارد على الظمأ.

وروى مسلم من حديث أبي هريرة إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل عليه السلام فقال: إني أحب فلاناً فأحببه فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض. والرسول ﷺ يدخل في هذا النداء دخولاً أوّلياً، وروى البخاري في حديث من عادى لي ولياً، وذكر فيه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به إلى آخر الحديث، فالرسول يدخل في هذه المحبة دخولاً أولياً.

وفرض عمر بن الخطاب لكل رجل من أهل بدر خمسة آلاف درهم في كل سنة ولأبناء البدريين ألفين ألفين إلاّ حسناً وحسيناً وعباس وأبناءه فإنه ألحقهم بفريضة البدريين

لقرابتهم من رسول الله ﷺ، ثم جاء ابنه عبد الله بن عمر يشكو وقال: فرضت لي ثلاثة آلاف وفرضت لأسامة أربعة آلاف، وقد شهدت من المواقع ما لم يشهده أسامة. فأجابه عمر: نعم. زدته لأنه كان أحب إلى رسول الله ﷺ منك، وكان أبوه أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك[1] وحب التسعة الذين قدموا أنفسهم يوم أحد واحداً بعد واحد فداء لرسول الله سبعة من الأنصار وإثنين من المهاجرين حتى قتلوا جميعاً.

وكان لرسول الله ﷺ مولى يسمى ثوبان وكان شديد الحب لرسول الله ﷺ، فأتاه يوماً وقد تغير وجهه ونحل جسمه وظهر الحزن عليه فسأله رسول الله ﷺ عن حاله، فقال: يا رسول الله، ما بي من وجع غير أني إذا لم أرك اشتقتك واستوحشت وحشة عظيمة قد ذكرت الآخرة حيث لا أراها هناك لأني إن دخلت الجنة فأنت تكون في درجات النبيين، فلا أراك فنزل قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النِّساء: الآية ٦٩].

والأدلة التي تثبت وجوب محبته ﷺ كثيرة وواضحة وصريحة ومن أهمها وأعظمها شهادة الله لنبيه ﷺ بعظم خلقه وهي من أهم موجبات المحبة قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾ [القَلَم: الآية ٤]. فهذا هو أقصى الثناء من رب العالمين، وكفى بالله شهيداً، لأن الذي وهبها هو الذي خلق الخلق والخُلق، وهو الذي قسم بين خلقه الخلُق: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [المُلك: الآية ١٤]. وهو ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ [الأنعَام: الآية ٧٣].

وفي حديث عن عائشة رضي الله عنها عند مسلم: لما سئلت عن خلقه، قالت: كان خلقه القرآن معنى ذلك أنه يطبق ما في القرآن حرفياً، ولذلك جعله الله قدوة حسنة: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزَاب: الآية ٢١]. ونحن لذلك لا نستطيع أن نصفه بما يوصف به العظماء والحكماء سوى الأنبياء من ناحية الكمال لأن ما فيه حقيقة وما في غيره يكون مجازاً وقد يكون مبالغاً فيه.

والذي يزعم أن محبته ﷺ هي في اتّباعه فقط دون شخصه الكريم فما ينقم عليه من خلق ينفر منه ويحول دون محبته الذاتية، فالناس متفقون على أن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها، والذين التقوا به ﷺ وصاحبوه يشهدون بإحسانه عليهم حتى شاع في الناس أن محمداً ﷺ يعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

---

(١) رواه البخاري.

وقد جاء في الصحيح أنه ﷺ ازدحم عليه الأعراب عند تقسيمه غنائم حنين يقولون: يا رسول الله أقسم علينا فيئنا، حتى اضطروه إلى شجرة فانتزعت رداءه فقال عليه الصلاة والسلام:

أيها الناس ردوا علي ردائي فوالذي نفسي بيده لو كان لكم عندي عدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً، ثم قام إلى جنب بعير فأخذ من سنامه وبرة فجعلها بين أصابعه ثم رفعها فقال: أيها الناس والله ما لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلاّ الخمس والخمس مردود عليكم(١).

وعن أنس بن مالك قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة حتى أثرت في عاتقه ﷺ من شدة جذبته. قال: مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه ﷺ فضحك ثم أمر له بعطاء. وفي الصحيح أن صفوان بن أمية قال: ما زال رسول الله ﷺ يعطيني من غنائم حنين، وهو أبغض الخلق إلي حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلي منه ﷺ، كما رأت فيه زوجته أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها من السمات الخلقية البارزة الأصيلة والتي لها دلالتها مما جعلها تمجد العنصر الأخلاقي فيه ﷺ عند مبعثه فتقول له: أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق.

تحليل السيد قطب لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٩]:

قال السيد قطب رحمه الله في الظلال عند قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٩]. إذا نظرنا في هذه الآية نجد حقيقة الرحمة الإلهية المتمثلة في أخلاق النبي ﷺ وطبيعته الخيرية الرحيمة الهينة اللينة المعدة لأن تتجمع عليها القلوب، وتتألف حولها النفوس، وإن الذي حدث من تصرف أصحابه يوم أحد جعل في نفسه شيئاً من ذلك التصرف، وهو أنهم تحمسوا للخروج إلى العدو وهو خلاف رأيه، ثم اضطربت صفوفهم فرجع ثلث الجيش قبل المعركة وخالفوا بعد ذلك أمره وضعفوا أمام إغراء الغنيمة، ووهنوا أمام إشاعة مقتله، وانقلبوا على أعقابهم مهزومين، وأفردوه في النفر القليل، وتركوه يثخن بالجراح وهو صادق يدعوهم في

---

(١) رواه البخاري.

أخراهم، وهم لا يلوون على أحد فأنزل الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾[آل عِمرَان: الآية ١٥٩]. إن هذا النص يتوجه إليه ليطيب قلبه وإلى المسلمين يشعرهم نعمة الله عليهم به ﷺ ويذكره هو ويذكرهم هم رحمة الله الممثلة في خلقه الكريم الرحيم الذي تتجمع حوله القلوب ذلك ليستجيش كوامن الرحمة في قلبه ﷺ فتغلب على ما أثاره تصرفهم فيه وليحسوا هم حقيقة النعمة الإلهية بهذا النبي الرحيم، ثم إن الله سبحانه وتعالى يدعو نبيه أن يعفو عنهم فهي رحمة الله التي نالته ونالتهم، فجعلته ﷺ رحيماً بهم، ليناً معهم، ولو كان فظاً غليظ القلب ما تألفت حوله القلوب، ولا تجمعت حوله المشاعر فالناس في حاجة إلى كنف رحيم وإلى رعاية فائقة وإلى بشاشة سمحة، وإلى حلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم.

وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ، وهكذا كانت حياته مع الناس، ما غضب لنفسه ولم ينتقم لها ولم يقتص ممن أساء إليه، وما من أحد عاشره أو رآه إلاّ امتلأ بحبه، **(انتهى بتصرف)**.

وكيف لا يحبه من رآه وهو الذي قال: أدَّبني ربي فأحسن تأديبي، (رواه أحمد والحاكم)، وقال الله له: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَاۖ﴾[الطُور: الآية ٤٨]. وقال ﷺ: **«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»**. رواه أحمد والحاكم في المستدرك.

وقد مر بنا في مقدمة الكتاب أن من تدبر كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ يهوله ما يجد فيهما من النصوص التي تنبىء عن مكانة سيدنا محمد ﷺ عند ربه عز وجل وبما حباه به من خصائص لم يعطها غيره من الأنبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

ونحن نرى أن نكتفي بهذا القدر الذي قدمنا آنفاً من ذكر ما خص الله به نبيه محمداً ﷺ من فضائل امتاز بها عن إخوانه الأنبياء خشية التطويل لا على سبيل أننا استقصينا ما ورد في القرآن الكريم والسنَّة المطهرة مما فضله الله به والذي ينبىء عن علو مكانته عند ربه، وإلاّ فقد تركنا الكثير منها مثل قوله ﷺ: **«لو كان موسى حياً لما وسعه إلاّ اتباعي»** وما ثبت بأن عيسى حي وسيهبط إلى الأرض ليحكم بشريعته ﷺ، وأن ملك الموت قال له ﷺ لما استأذنه في قبض روحه لم أستأذن على أحد قط قبلك، وأن الأموات يسألون في القبور عنه ﷺ وأن الله جعل معجزته خالدة إلى يوم القيامة وأن معجزات الأنبياء تنتهي معهم وهذا على سبيل المثال لا الحصر.

وقال العلامة ابن كثير رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسرَاء: الآية ٧٩].

قال: قلت لرسول الله ﷺ تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد وتشريفات لا يساويه فيها أحد.

وهذا هو قصدنا من هذا الفصل، إبراز مكانته ﷺ عند ربه لندلل بذلك على مدى محبة الله له وهذا ليس من الغلو أو المبالغة أو تجاوز الحد في الإطراء المنهي عنه بقوله ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم فإني أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله»، والنصارى حذفوا قول عيسى عليه السلام الوارد في قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريَم: الآيتان ٢٩ ـ ٣٠]. فحذفوا عبودية عيسى ونسبوه إلى الله جل ربنا عن ذلك علواً كبيراً وهذا هو الغلو المنهي عنه وهو الإطراء بالكذب والزور، ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: الآية ١٧١]. فادعاؤهم له الولد والشريك هو الغلو المنهى عنه وهو الإطراء بالكذب والتقول على الله بما لم يقل كما جاء في الآية: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [النِّساء: الآية ١٧١]. والآية فيها من المديح لعيسى عليه السلام ما يناسب مقامه وهو أنه رسول الله وهذا غاية التشريف، وأنه كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فإضافته إلى ربه في هذا التعبير غاية في التكريم، ثم بيّن سبحانه وتعالى بعد ذلك أن نسبته إليه أو الادعاء أنه شريك له مع غيره هذا غلو وافتراء.

وحديث لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم (رواه مسلم) فدلالته كما في الآية السابقة أي لا تخرجوني عن مقام العبودية لله كما فعلت النصارى ولا تجعلوني لله نداً ولا شريكاً وهو تحذير بأن يستهوينا الشيطان بأن نقول أقوالاً أو نفعل أفعالاً تؤول بنا إلى الشرك، وهو ما حذر منه رسول الله ﷺ مثل السجود لغير الله والذبح والنذر والحلف أو اتخاذ قبره وثناً يعبد من دون الله أو إشراكه في أي نوع من العبادة.

وبالمناسبة فإننا نُعرِّف باختصار ما يحب سبحانه وتعالى حتى لا يظن ظان أننا نقدس أو نعبد ما سوى الله سبحانه وتعالى لنميز بين حقوق الله التي هي من خصائص ربوبيته وألوهيته والتي لا يجوز صرف شيء منها لغيره سبحانه وتعالى وما يجب لرسله.

نعترف ونقرر بإيماننا بالله ورسوله بأننا لا نعبد إلاّ الله وحده لا شريك له، ولا ندعو معه ولا من دونه، وأننا لا نتخذ الملائكة والنبيين أرباباً، فكيف بالأئمة والأشياخ

والعلماء والملوك وغيرهم، وأن لا ندعو ولا نرجو ولا نخشى ولا نستعين ولا نستعيذ ولا نستغيث إلاّ بالله العلي العظيم، ونؤمن بالقدر ولا نلجأ إلاّ إلى الله في المصائب التي تنزل بنا والكروب التي لا يقدر على كشفها إلاّ الله، لأن ذلك من أخص الحقوق التي هي من خصائص الربوبية ومحل الشهادة من الدليل قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النَّمل: الآية ٦٢]. كلا لا يفعل ذلك إلاّ الله.

ونعتقد بأنه لا فرق بين إجابة المضطر وكشف السوء عن المكروب وبين تحصيل المطالب الأخرى التي لا يقدر عليها إلاّ الله مثل الأولاد وطلب المغفرة والنجاة من الدواهي والابتلاءات، كما يفعل بعض الجهال عند قبور من يعتقدون فيهم زاعمين أن ذلك من دين الله ومن محبة رسول الله ﷺ وأن القبور من مواطن الإجابة كل ذلك من الباطل ولا نقول به أعاذنا الله من الردة بعد الإيمان.

فمن دعا غير الله طالباً منه ما لا يقدر عليه إلاّ الله من جلب نفع أو دفع ضر، مثل أن يقول اغفر لي أو ارحمني أو أغثني أو أنت حسبي فقد شبه المخلوق بالخالق في خصائص الألوهية فإن من خصائص الألوهية التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع والمغفرة وإجابة المضطر للواحد القهار.

وأما ما يحب للرسل فهو الإيمان بهم جميعاً وتصديقهم فيما يبلغونه عن الله وطاعتهم واتباع هديهم وإجلالهم وتعظيمهم واعتقاد أنهم أفضل الخلق عند الله، قد اختصهم الله بوحيه وجعلهم وسائط بينه وبين خلقه في تبليغ دينه وهم أكمل الخلق علماً وعملاً.

وبعد هذا التعريف المختصر الذي بيّنا فيه ما يحب الله وما يحب لرسله عليهم وعلى نبينا أزكى الصلاة والتسليم، نعود إلى موضوعنا وهو التعريف بوجوب محبة سيدنا محمد ﷺ وقد ثبت في الحديث الصحيح في كتاب الإيمان من البخاري أن محبة الأنصار آية الإيمان وأن بغض الأنصار آية النفاق. فكيف برسول الله ﷺ الذي حصل للأنصار منه هذه المزية وتحقيق توحيد الله في ألوهيته وربوبيته، لا نرى أنه ينافي محبة رسول الله ﷺ وإنما هو من طاعة الله لأن الداعي إليها هو حب الله جل جلاله وحب دينه وكتابه.

قال الشاعر:

ومن يعترض والعلم عنه بمعزل ... يرى النقص في عين الكمال ولا يدري

والحقيقة أن الناس يتفاوتون في المحبة بعضهم غلاظ جفاه أخذوا من المحبة بالحظ الأدنى واعتبروها لا تعني شيئاً في الدين ولا رابط بينها وبين الإيمان، وبعضهم

جهّال جاوزوا الحد بالتوسل وطلب البركة بالتمسيح على الرخام والأبواب والشبابيك، وبقي الحق ضائعاً بين الإفراط والتفريط وهذا شبيه بين ما فعلته الشيعة والنواصب، فالنواصب يلعنون علياً ويسبون آل البيت ويقال إن منهم الحجاج بن يوسف والشيعة أفرطوا في علي وآل البيت.

الفصل الخامس

أدلة محبة الحيوان والجماد لرسول الله ﷺ

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ من سفر حتى إذا دفعنا إلى حائط من حيطان بني النجار إذا فيه جمل لا يدخل الحائط أحد إلاّ شد عليه. قال: فذكروا ذلك للنبي ﷺ فجاء حتى أتى الحائط، فرغا البعير فجاءه واضعاً شفره حتى برك بين يديه. قال: فقال النبي ﷺ: **«هاتوا خطاماً فخطمه فدفعه إلى صاحبه»**، قال: ثم التفت إلى الناس، فقال: **«إنه ليس شيء بين السماء والأرض إلاّ يعلم أني رسول الله إلاّ عاصي الجن والإنس»**(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى خيبر أخدُمه، فلما قدم النبي ﷺ راجعاً وبدا له أحد، قال: هذا جبل يحبنا ونحبه(٢). وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ صعد أحداً وأبو بكر، وعمر، وعثمان، فرجف بهم، فضربه برجله وقال: اثبت أُحُد، فما عليك إلاّ نبي وصديق وشهيدان(٣).

وعن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك، حديث طويل وفيه: فقال رسول الله ﷺ: **«إني مسرع فمن شاء منكم فليسرع معي ومن شاء فليمكث»**، فخرجنا حتى أشرفنا على المدينة فقال ﷺ: **«هذه طابة، وهذا أحد، وهو جبل يحبنا ونحبه»**(٤).

وفي حديث متواتر عن حنين الجزع الذي كان يسند إليه رسول الله ﷺ قبل أن يصنع له منبر. وثبت أنه لم يتوقف حنينه إلاّ بعد أن وضع يده الشريفة عليه ومسحه ثم ضمه إلى صدره(٥).

وعن جابر بن أبي سمرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إني لأعرف**

---

(١) رواه الإمام أحمد والدارمي وابن أبي شيبة والطبراني.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه البخاري.
(٤) متفق عليه.
(٥) كما رواه البخاري وغيره.

حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن»[١] .

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما انتهى من غزوة خيبر سألت يهودية عن أحب الأعضاء إلى رسول الله ﷺ من الشاة قيل لها الذراع، فذبحت شاة وطبختها وسمّتها وزادت السم في الذراع فأخبرته الذراع أنها مسمومة وأن الشاة كلها مسمومة، فقال ﷺ لأصحابه: **«ارفعوا أيديكم»** ، ثم دعا اليهودية فاعترفت بذلك[٢] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون عليه وأنه استصعب عليهم فمنعهم ظهره، وأن الأنصار جاؤوا إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا: يا رسول الله إنه كان لنا جمل نستقي عليه، وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهره وقد عطش الزرع والنخل، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: **«قوموا»** فقاموا فدخل الحائط والجمل في ناحيته فمشى النبي ﷺ نحوه فقالت الأنصار: يا رسول الله قد صار مثل الكلب نخاف عليك صولته قال: **«ليس علي منه بأس»** فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ أقبل نحوه حتى خرّ ساجداً بين يديه، فأخذ رسول الله ﷺ بناصيته أذل ما كانت قط، حتى أدخله في العمل. فقال له أصحابه: يا رسول الله هذا بهيمة لا يعقل يسجد لك ونحن نعقل فنحن أحق أن نسجد لك، قال: **«لا يصلح بشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها»**[٣] .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فأقبل أعرابي، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : **«أين تريد»** قال: إلى أهلي، قال: هل لك إلى الخير؟ قال: ما هو؟ قال تشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، قال: هل من شاهد على ما تقول، قال ﷺ : **«هذه الشجرة»** فدعاها رسول الله ﷺ وهو بشاطىء الوادي، فأقبلت تخد الأرض خداً حتى كانت بين يديه فاستشهدها ثلاثاً، فشهدت أنه كما قال، ثم رجعت إلى منبتها، ورجع الأعرابي إلى قومه، وقال: إن يتبعوني آتيتك بهم، وإلاّ رجعت إليك فكنت معك[٤] .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أصابت الناس سنة على عهد رسول الله ﷺ فبينما رسول الله ﷺ يخطب على المنبر يوم الجمعة قام أعرابي فقال: يا رسول الله هلك المال، وجاع العيال فادع الله لنا أن يسقينا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه، وما في

---

(١) رواه مسلم.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه أحمد والبزار.
(٤) رواه ابن حبان والدارمي، وأبو يعلى، والطبراني في الكبير والبزار والبيهقي.

السماء قزعة، قال: فثار سحاب أمثال الجبال ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته، قال: فمطرنا يومنا ذلك وفي الغد ومن بعد الغد والذي يليه إلى الجمعة الأخرى، فقام ذلك الأعرابي أو رجل غيره فقال: يا رسول الله، تهدّم البناء وغرق المال، فادع الله لنا، فرفع رسول الله ﷺ يديه وقال: «اللهم حوالينا ولا علينا»، قال: فما جعل يشير بيده إلى ناحية من السماء إلاّ تفرجت: حتى صارت المدينة مثل الجوبة، متفق عليه، والشاهد إشارته إلى الغيم بيده فينقشع.

وفي رواية أنه ﷺ ضحك لما أشار إلى الغيم فانجاب عن المدينة: وقال: در أبي طالب، لو كان حياً لقرت عيناه، من الذي ينشدنا شعره؟

فقال علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: يا رسول الله كأنك أردت قوله:

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يعوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده في نعمة وفواضل
كذبتهم وبيت الله نبزي محمداً ... ولما نقاتل دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

فقام رجل من كنانة وأنشد:

لك الحمد والحمد ممن شكر ... سقينا بوجه النبي المطر
دعى الله خالقه دعوة ... وأشخص معها إليه البصير
فلم يك إلاّ كلقاء الردى ... وأسرع حتى رأينا الدرر
وكان كما قاله عمه ... أبو طالب أبيض ذو غرر
ويسقي به الله صوب الغمام ... وهذا العيان لذاك الخبر

فقال ﷺ: «إن يك شاعر يحسن فقد أحسن».

ويقول أحد الشعراء:

ودعا للأنام إذ دهمتهم ... سنة من محولها شهباء
فاستهلت بالغيث سبعة أيام ... عليهم سحابة وطفاء
تتحرى مواضع الرعي والسقي ... وحيث العطاش توها السقاء
وأتى الناس يشكون أذاها ... ورخاء يؤذي الأنام غلاء
فدعا فانجلى الغمام فقل في ... وصف غيث إقلاعه استسقاء
ثم أثرى الثرى فقرت عيون ... بقراها وأحييت أحياء
فترى الأرض غبة كسماء ... أشرقت من نجومها الظلماء

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية

فأراهم انشقاق القمر(١).

وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣﴾ [القَمَر: الآيات ١ ـ ٣].

وروى مسلم عن جابر بن عبد الله عنهما ـ في حديثه الطويل ـ وفيه قال: سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا وادياً أفيح (أي واسعاً) فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته، فأتبعته بأدواة من ماء فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئاً يستتر به، فإذا شجرتان بشاطىء الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: انقادي عليَّ بإذن الله فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده. حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ من أغصانها، فقال: انقادي عليَّ بإذن الله فانقادت معه كذلك حتى إذا كان بالنصف مما بينهما، لأم بينهما فقال: التئما عليَّ بإذن الله، فالتأمتا.

وروى الإمام البخاري في باب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام وفي الجمعة، باب الخطبة على المنبر (أن رسول الله ﷺ) كان يخطب يوم الجمعة على جذع نخلة فقالت امرأة من الأنصار: أو رجل، يا رسول الله ألا نجعل لك منبراً؟ قال: إن شئتم، فجعلوا له منبراً، فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر، فصاح الجذع صياح الصبي، ثم نزل ﷺ فضمه إليه فسكن، فقال ﷺ: والذي نفس محمد بيده لو لم ألتزمه لما زال هكذا حتى يوم القيامة، حزناً على فراق رسول الله ﷺ.

وروى عبد الله بن عمر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان في محفل من أصحابه، إذ جاء أعرابي قد صاد ضباً وجعله في كمه ليذهب به فيأكله، فلما رأى الأعرابي الجماعة، قال: ما هذا؟ قالوا: النبي ﷺ، فجاء يشق الناس، وقال: واللاّت والعزى ما أحد أبغض إلي منك، ولولا أن تسميني قومي عجولاً لعجلت بقتلك، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله دعني أقم فأقتله، فقال: يا عمر أما علمت أن الحليم كاد أن يكون نبياً. ثم قال للأعرابي: ما حملك على ما قلت؟ فقال واللات والعزى لا آمنت أو يؤمن بك هذا الضب، وأخرج الضب من كمه فطرحه بين يدي رسول الله ﷺ. قال رسول الله ﷺ: **«يا ضب»**، فأجابه الضب بلسان عربي مبين يسمعه القوم جميعاً: لبيك وسعديك يا زين من يوافي القيامة، قال: **«من تعبد؟»** قال: الذي في السماء وعرشه وفي الأرض سلطانه وفي الجنة رحمته وفي النار عقابه، قال: **«فمن أنا يا ضب؟»** قال: رسول رب العالمين وخاتم النبيين، وقد أفلح من صدقك وقد

---

(١) متفق عليه.

خاب من كذبك، فقال الأعرابي: لا، لا، أتبع أثراً بعد عين، والله لقد جئتك وما على ظهر الأرض أحد أبغض إلي منك، وإنك اليوم أحب إلي من نفسي ومن والدي، وإني لأحبك بداخلي وخارجي وسري وعلانيتي، أشهد ألاّ إله إلاّ الله وأنك محمد رسول الله.

فقال ﷺ: **«الحمد لله الذي هداك بي، إن هذا الدين يعلو ولا يعلى»**، فرجع الأعرابي إلى قومه فأخبرهم بالقضية، وكان من بني سليم، فأتى رسول الله ﷺ ألف إنسان منهم، فأمرهم أن يكونوا تحت راية خالد بن الوليد، ولم يؤمن من العرب ألف في وقت واحد غيرهم.

ولو تتبعنا أخبار الجمادات والحيوانات في تصديقها وطاعتها ومحبتها لرسول الله ﷺ مثل عذق النخلة وإدرار الشياه الذي تكرر في حادثتي ابن مسعود وأم معبد والإبل والخيل البطاء التي يزجرها لأصحابها فتكون أنشط ما تكون. وإشهاد الشجر والضب وغير ذلك لطال بنا المقال.

والقصد ضرب الأمثلة، لا حصر المعجزات والخوارق. فعقل المسلم وعاطفته لا يملئها إلاّ حب الله ورسوله، ونحن نتحدث عمن هو أحب إلينا من أولادنا ووالدينا وأنفسنا وأموالنا والناس أجمعين ﷺ.

فهذه جمادات وحيوانات وردت النصوص أنها تحب شخص رسول الله ﷺ وتطيعه فما بال المسلم المطلع على شرف أخلاقه وكمال فضائله الرحيمة المعدة من الله أن تتجمع عليها القلوب وتتألف حولها النفوس بشهادة الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٩]. وشهادة أخرى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القَلَم: الآية ٤]. فهو ﷺ لم ينفر منه إلاّ معاند ولا استوحش منه إلاّ مباعد أو من ساقه الحسد إلى شقوقه وقاده الحرمان إلى مخالفته والعياذ بالله.

تبرك أصحابه به ﷺ:

كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء فما يؤتى بإناء إلاّ غمس يده فيه فربما جاؤوه في الغداة الباردة فيغمس يده فيها.

وفي الرواية الأخرى (رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه وطاف به أصحابه فما يريدون أن تقع شعرة إلاّ في يد رجل وفي صحيح مسلم، باب قربه ﷺ من الناس وتبركهم به، وتواضعه لهم.

وقال النووي في ذلك إجابة من سأله حاجة أو تبركاً بمسّ يده وإدخالها في الماء وفيه التبرك بآثار الصالحين، وبيان ما كانت الصحابة عليه من التبرك بآثاره ﷺ وتركهم

بإدخال يده الكريمة في الآنية وتبركهم بشعره الكريم وإكرامهم إياه بأن يقع شيء منه إلاّ في يد رجل سبق إليه، باب طيب ريحه[1].

روى مسلم عن أنس بن مالك، قال: ما شممت عنبراً قط ولا مسكاً ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله ﷺ، ولا مسست شيئاً قط ديباجاً ولا حريراً ألين مساً من رسول الله ﷺ، وقال أيضاً: كان رسول الله ﷺ، أزهر اللون، كأن عرقه اللؤلؤ. إذا مشى تكفأ.

وقال أنس بن مالك: دخل علينا رسول الله ﷺ، فقال عندنا فعرق وجاءت أمي بقارورة فجعلت تسلت العرق فيها، فاستيقظ رسول الله ﷺ، فقال: **«يا أم سليم، ما هذا الذي تصنعينه؟»** قالت: هذا عرقك نجعله من طيبنا وهو من أطيب الطيب[2]. وقال أنس بن مالك: كان النبي ﷺ يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها وليست فيه، قال: فجاءت ذات يوم، فقيل لها هذا النبي ﷺ، نام في بيتك على فراشك، قال: فجاءت وقد عرق واستنقع عرقه على قطعة أديم على الفراش، فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره في قواريرها. ففزع النبي ﷺ فقال: **«ما تصنعين يا أم سليم؟»** فقالت: يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا، قال: **«أصبت»**[3].

روى مسلم عن أنس بن مالك عن أم سليم، أن النبي ﷺ كان يأتيها فيقيل عندها فتبسط له نطاقاً ـ فيقيل عليه ـ وكان كثير العرق فكانت تجمع عرقه فتجعله في الطيب والقوارير، فقال النبي ﷺ: **«يا أم سليم ما هذا؟»** قالت: عرقك، أدوف به طيبي. ومن خصائص رسول الله ﷺ أن النجس من الناس طاهر منه ﷺ من أدلة ذلك ما روى عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، أنه أتى رسول الله ﷺ وهو يحتجم، فلما فرغ قال: يا عبد الله اذهب بهذا الدم، فأهرقه حيث لا يراك أحد، فلما برز عن رسول الله ﷺ عمد إلى الدم فشربه فلما رجع قال: ما صنعت بالدم، قال: عمدت إلى أخفى موضع علمت فجعلته فيه، فقال رسول الله ﷺ: **«لعلك شربته»**، قال: نعم. قال: **«ويل للناس منك، وويل لك من الناس»**[4].

كما ورد في الأحاديث أن مالك بن سنان الخدري والد أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أنه شرب دم رسول الله ﷺ يوم أحد، وأن رسول الله ﷺ قال لمالك مجّه، فقال: والله لا أمجه، فقال رسول الله ﷺ: **«من أحب أن ينظر إلى من خالط دمه**

---

(١) شرح مسلم للنووي، ج١٥، (ص٨٣).
(٢) (ص٨٥ و٨٦ و٨٧).
(٣) متفق عليه.
(٤) متفق عليه.
(٥) متفق عليه.

دمي فلينظر إلى مالك بن سنان». وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال: **«من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى مالك بن سنان»**.

وروى الدارقطني أن أم أيمن بركة رضي الله عنهما مولاة رسول الله ﷺ أنها شربت بول رسول الله ﷺ، وأنه قال لها: لن تشتكي بطنك بعد، وقال الدارقطني إنه على شرط البخاري.

وروى الذهبي في أعلام النبلاء، أن معاوية رضي الله عنه لما حضرته الوفاة، قال لابنه يزيد: إن أخوف ما أخاف، شيء عملته في أمرك، شهدت رسول الله ﷺ يوماً قلم أظافره، وأخذ من شعره فجمعت ذلك، فإذا متّ فاحشي به فمي وأنفي.

وروى أيضاً في كتاب أعلام النبلاء، أن معاوية رضي الله عنه أوصى فقال: كنت أوضىء رسول الله ﷺ، فنزع قميصه وكسانيه فرفعته وخبأت قلامة أظفاره، فإذا مت فالبسوني القميص على جلدي واجعلوا القلامة مسحوقة في عيني فعسى الله أن يرحمني ببركتهما.

الفصل السادس

أزواج النبي ﷺ

قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٥٠ ۞ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ۝٥١ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ۝٥٢﴾ [الأحزاب: الآيات ٥٠ ـ ٥٢].

اختص رسول الله ﷺ بإباحة الجمع له بين أكثر من أربع نسوة كسائر الأنبياء، وهو إجماع وقد ذكر الإمام الشافعي رحمه الله أن لنبينا محمد ﷺ الزيادة على التسعة اللائي تجمعن عنده فظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٠]. الآية فذكر الله عز وجل فيها ما أحل له، فذكر أزواجه اللائي آتى أجورهن، وذكر بنات عمه وبنات عماته، وبنات خاله وبنات خالاته، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي فقال

الشافعي: فدل ذلك على معنيين:

أحدهما: أنه أحل له مع أزواجه من ليس له بزوج يوم أحل له، وذلك أنه لم يكن عنده ﷺ من بنات عمه ولا بنات خاله ولا بنات خالاته امرأة، وكان عنده نسوة تسع.

وثانيهما: أنه أحل له من العدد ما حظر على غيره وقد جعل الله هذه الخصوصية للنبي ﷺ بما أنه ولي المؤمنين والمؤمنات جميعاً وأولى بهم من أنفسهم وقال الله تعالى له: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٠].

وقد ذكر ابن أبي حاتم أن رسول الله ﷺ تزوج ثلاث عشرة امرأة ستاً من قريش: خديجة، وسودة، وعائشة، وحفصة، وأم سلمة، وأم حبيبة.

وثلاثاً من بني عامر بن صعصعة، وامرأتين منهما من بني هلال بن عامر: ميمونة بنت الحارث، وزينب أم المساكين، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية، وصفية.

وأما ما ملكت يمينه ﷺ مما أفاء الله عليه فليس مقيداً ومنهن أم إبراهيم، ماريا القبطية، وريحانة. وأما بنات عمه وبنات عماته، وبنات خاله، وبنات خالاته فقيدهن الله سبحانه وتعالى بالهجرة: ﴿الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٠]. ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٠]. ولا شرط في الواهبة إلاّ قبولها من رسول الله ﷺ إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين.

وفي حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: قالت فلما أنزل الله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: الآية ٥١]. قلت: يا رسول الله ما أرى ربك إلاّ يسارع في هواك[1].

ويقول بعض أهل العلم إن السرّ في إباحة أكثر من أربع لنبينا محمد ﷺ لتبيان مكانته وفضله، ولنقل بواطن الشريعة وظواهرها قولاً وفعلاً وعن عبادته التي لا يمكن الاطلاع عليها إلاّ من الزوجات الملاصقات له في حالة الخلوة والمنام وهو امتثال قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٣٤]. فهن بمثابة أصحابه من الرجال لينقلن أحكام النساء إلى بقية المسلمات اللائي لم يتمكن من الحضور لمقابلته ﷺ، وقد ثبت ذلك في كثرة الأحاديث المروية عنهن، فإنهن كن من وسائل تأليف القلوب، فالمصاهرة تجلب الإلفة وتربط علائق النسب والدم وهي من وشائج القرابات التي تكون العلاقة بين ذوي الأرحام في القبائل المختلفة.

---

(١) متفق عليه.

فالمجتمع عليه أن زوجاته اللائي بنى بهن إحدى عشرة، مات عن تسع منهن، وماتت اثنتان منهن في حياته ﷺ، وهما خديجة بنت خويلد، وزينب بنت خزيمة رضي الله عنهما.

وقد نظم أحد الفضلاء أزواجه اللاتي مات عنهن رسول الله ﷺ:

توفي رسول الله عن تسع نسوة ... إليهن تعزى المكرمات وتنسب
فعائشة ميمونة وصفية ... وحفصة تتلوهن هند وزينب
جويرية مع رملة ثم سودة ... ثلاث وست نظمهن مهذب

وهن محرمات على غيره أبداً كما جاء في التنزيل: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٥٣].

أولى زوجاته ﷺ:

خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي رضي الله عنهما يجتمع نسبها مع نسب رسول الله ﷺ في قصي، وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤي يجتمع نسبها مع نسب رسول الله ﷺ في لؤي بن غالب.

وهي أول امرأة (آمنت) برسول الله ﷺ وصدقته وآزرته، بل قال ابن إسحاق وغيره كانت أول من آمن برسول الله ﷺ وصدقت ما جاء به فخفف الله بذلك عن رسول الله ﷺ كل شيء يكرهه من الرد عليه حينما يرجع إليها إلاّ ثبتته وهونت عليه أمر الناس، وكان رسول الله ﷺ قد تزوج بها وهي بنت أربعين سنة قبل البعثة بخمس عشرة من السنين وجميع أولاده ﷺ منها إلاّ إبراهيم فإنه من مارية القبطية.

وفي الصحيحين عن عائشة أن الله سبحانه وتعالى أرسل لها بالسلام، وهو السلام وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب، ولم يتزوج عليها رسول الله ﷺ حتى ماتت بعد أن مضى من النبوة سبع سنين وقيل عشر وقيل ماتت قبل الهجرة بأربع سنين، وقيل بخمس، وقالت عائشة: ماتت قبل أن تفرض الصلاة، تعني قبل أن يعرج النبي ﷺ وكان موتها في رمضان وكان لها حين توفيت خمس وستون سنة رضي الله عنها، وكنا أوضحنا جزءاً من سيرتها في سيرة زواجها برسول الله ﷺ.

الزوجة الثانية:

سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس القرشية العامرية. أمها الشموس بنت

قيس بن زيد الأنصارية من بني عدي بن النجار، وهي بنت أخي سلمى والدة عبد المطلب جد رسول الله ﷺ من الأب والأم، أسلمت قديماً وبايعت وكانت تحت ابن عمها السكران بن عمرو، وكان قد أسلم وهاجر بها إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ثم رجع بها إلى مكة (فمات عنها) فلما حلت تزوجها رسول الله ﷺ في السنة العاشرة من النبوة، وروي عن عائشة قالت: لما توفيت خديجة، جاءت خولة بنت حكيم إلى النبي ﷺ فقالت: ألا تتزوج؟ قال: من؟ قالت: إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً، قال: من البكر؟ قالت: بنت أحب خلق الله إليك عائشة بنت أبي بكر، قال: ومن الثيب؟ قالت: سودة بنت زمعة بن قيس. قد آمنت بك واتبعتك على ما أنت عليه، قال: فاذهبي فاذكريهما علي، فذكرت ذلك لأبي بكر فقال: ادعوا لي رسول الله ﷺ فجاء فأنكحه. ثم أتت زمعة تفعل مثل ذلك[1].

واستمرت مع النبي ﷺ وكانت قد كبرت عنده فأراد طلاقها، فوهبت يومها لعائشة فأمسكها، وقيل بل طلقها وراجعها والصحيح الأول، وقال ابن عبد البر: أسنت عند رسول الله ﷺ فهم بطلاقها، فقالت: لا تطلقني وأنت في حل من شأني، فإنما أريد أن أحشر في أزواجك وإني قد وهبت يومي لعائشة وإني لا أريد ما يريد النساء، فأمسكها رسول الله ﷺ حتى توفي عنها.

وأخرج الترمذي هذه القصة عن ابن عباس بسند حسن أنهما لما خشيت أن يطلقها قالت: لا تطلقني وامسكني واجعل يومي لعائشة (ففعل) فنزلت: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: الآية ١٢٨]. وماتت بعده بالمدينة في آخر خلافة عمر بن الخطاب هذا هو المشهور. وقال الواقدي توفيت سنة أربع وخمسين في خلافة معاوية.

الزوجة الثالثة:

عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها، وأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية ولدت بعد المبعث بأربع سنين أو خمس.

روى النسائي من حديثها قالت: تزوجني رسول الله ﷺ وأنا بنت سبع سنين، وبنى بي وأنا بنت تسع وقبض عني وأنا بنت ثماني عشرة وفي رواية لغيره: وأنا بنت ست سنين ويجمع بينهما: بأنها كانت أكملت السادسة ودخلت في السابعة تقريباً، فإن النبي ﷺ تزوجها بمكة سنة عشر من النبوة في شوال، وأعرس بها في شوال أيضاً على رأس ثمانية

(١) رواه ابن أبي عاصم وغيره.

أشهر من مهاجره ولم يتزوج رسول الله ﷺ بكراً غيرها، اتفق عليه أهل النقل، وكذلك تكنى أم عبد الله. ولهذا يقال إنها أتت من النبي بسقط ولم يثبت وقيل إنما كناها بابن أختها عبد الله بن الزبير، وقيل له عليه الصلاة والسلام أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة، قيل: فمن من الرجال؟ قال: أبوها، مكثت مع رسول الله ﷺ تسع سنين وخمسة أشهر. ولما أمر رسول الله ﷺ بالتخيير بدأ بها قبل أزواجه وقال: إني أعرض عليك أمراً فلا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك.

وقد قال النووي في شرح مسلم: إنما بدأ النبي ﷺ بها في التخيير دون غيرها لفضلها عليهن، ويضاف إليه تقديم النبي ﷺ لها في الدخول عليها بعد فراغه من اعتزالهن.

وأما إرشاده ﷺ لها إلى مراجعة أبويها في ذلك فإنه أنما أرشدها إلى ذلك خشية أن يحملها صغر السن على اختيار الشق الآخر، ولاحتمال أن لا يكون عندها من الملكة ما يدفع ذلك العارض، فإذا استشارت أبويها أوضحا لها ما في ذلك من المفسدة وما في مقابله من المصلحة، ولهذا فطنت عائشة رضي الله عنها لذلك فقالت: إن أبوي لم يكونا يأمراني لفراقه.

وقد وقع في رواية عمرة عن عائشة في هذه القصة وخشي رسول الله ﷺ حداثتي وهو شاهد لهذا التأويل.

وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها يكفيها شرفاً وفخراً وطهارة بأن أنزل الله في حق براءتها من الإفك ست عشرة آية في كتابه العزيز تتلى إلى يوم القيامة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝١١﴾ [النُّور: الآية ١١]. إلى قوله تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٢٦﴾ [النُّور: الآية ٢٦]. وعائشة هي أول أهل ذلك البيت الذي تولى الله أمره وتطهيره، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب: الآية ٣٣].

وروى ابن سعد من طريق عبد الملك بن عمير، عن عائشة قالت: أعطيت خلالاً ما أعطيتها امرأة: ملكني رسول الله ﷺ وأنا بنت سبع سنين، وأتاه الملك بصورتي في كفه فنظر إليها، وبنى بي لتسع سنين ورأيت جبريل ولم تره امرأة غيري، وكنت أحب نسائه إليه، وكان أبي أحب أصحابه إليه ومرض رسول الله ﷺ في بيتي فمرضته فقبض

ولم يشهده غيري والملائكة. . . وأورد من وجه آخر ضعيف: قالت عائشة فضلت بعشر فذكرت:

مجيء جبريل بصورتها، قالت: ولم ينكح بكراً غيري، ولا امرأة أبواها مهاجرين غيري، وأنزل الله براءتي من السماء، وكان ينزل عليه الوحي وهو معي، وكنت أغتسل أنا وهو في إناء واحد، وكان يصلي وأنا معترضة بين يديه، وقبض بين سحري ونحري وفي بيتي وليلتي، ودفن في بيتي.

قال الشعبي: كان مسروق إذا حدث عن عائشة يقول: حدثتني الصديقة ابنة الصديق حبيبة حبيب الله. وكانت وفاتها في رمضان سنة ثمان وخمسين في ليلة الثلاثاء لسبع عشر خلت منه. وهذا هو الصحيح عند الأكثر، وقيل سنة سبع وخمسين وقيل سنة ست وخمسين. ودفنت بالبقيع رضي الله عنها.

الزوجة الرابعة:

حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنها، وأمها زينب بنت مظعون بن عثمان مولدها قبل النبوة بخمس سنين، وكانت تحت خنيس بن حذافة السهمي فتوفى عنها من جراحات أصابته ببدر وهو بالمدينة سنة اثنين، وقيل استشهد بأحد سنة ثلاث والأول أشهر فتزوجها رسول الله ﷺ بعد عائشة في شعبان على رأس ثلاثين شهراً من مهاجره على القول الأول وبعد أحد على الثاني وكان عمر رضي الله عنه بعد انقضاء عدتها قد عرضها على أبي بكر فسكت ثم عرضها على عثمان لما ماتت رقية بنت رسول الله ﷺ فقال: ما أريد أن أتزوج اليوم، فانطلق عمر إلى رسول الله ﷺ فشكى إليه عثمان وخبره بعرض حفصة عليه، فقال رسول الله ﷺ يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة، ثم تزوج عليه الصلاة والسلام حفصة وزوّج ابنته أم كلثوم عثمان فلقي أبو بكر عمر فقال: لا تجد علي فإن رسول الله ﷺ كان ذكر حفصة فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ ولو تركها لتزوجتها، أخرجه أبو عبيدة في ذكر أزواج النبي ﷺ وأصله في صحيح البخاري بغير هذا السياق.

قال ابن عبد البر: وطلقها رسول الله ﷺ تطليقة ثم ارتجعها، وذلك أن جبريل قال له: راجع حفصة فإنها صوامة قوامة، وإنها زوجتك في الجنة، أخرجه ابن سعد وأخرجه أبو نعيم في الحلية عن عقبة بن عامر قال: طلّق رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر فبلغ ذلك عمر فحثا التراب على رأسه وقال: ما يعبأ الله بعمر وابنته، بعدها نزل جبريل من الغد على النبي ﷺ فقال: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة لعمر، وماتت رضي الله عنها في شعبان سنة خمس وأربعين. ذكره ابن سعد عن الواقدي وعاشت ستين

سنة وقيل بل ماتت سنة إحدى وأربعين وقيل سنة خمسين عام فتح إفريقية في زمَن يزيد بن معاوية وهو ما رواه ابن وهب عن مالك.

الزوجة الخامسة:

زينب بنت خزيمة بن الحارث: أم المساكين كانت عند الطفيل بن الحارث فطلقها فتزوجها أخوه عبيدة فقتل يوم بدر شهيداً، فتزوجها رسول الله ﷺ في رمضان على رأس واحد ثلاثين شهراً من الهجرة بعد حفصة وكانت أخت ميمونة بنت الحارث لأمها.

وذكر ابن سعد في ترجمة أم سلمة بسند منقطع عنها في خطبة النبي ﷺ لها قال: قالت فتزوجني رسول الله ﷺ فانتقلني فأدخلني بيت زينب بنت خزيمة أم المساكين بعد أن ماتت ومكثت عند رسول الله ﷺ شهرين أو ثلاثة، والصحيح أنها ماتت في ربيع الأول سنة أربع رضي الله عنها.

الزوجة السادسة:

أم سلمة: هند بنت أبي أمية واسمه حذيفة وقيل سهيل بن المغيرة، المخزومية وشذ من قال اسمها رملة. وكانت عند أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد وهما أول من هاجر إلى أرض الحبشة ثم هاجرت إلى المدينة فيقال: إنها أول ظعينة دخلت إلى المدينة مهاجرة، ثم مات أبو سلمة رضي الله عنه بعد مرجعه من قطن (جبل لبني أسد) وكان جرح بأحد فانتقض عليه جرحه في جمادي الآخرة سنة أربع فاعتدت أم سلمة وحلت لعشر بقين من شوال سنة أربع فتزوجها رسول الله ﷺ في ليال بقين من شوال المذكور.

وأخرج ابن أبي عاصم من طريق عبد الواحد بن أيمن عن أبي بكر بن عبد الرحمن عن أم سلمة قالت: لما خطبني النبي ﷺ قلت له في خلال ثلاث: أما أنا فكبيرة السن، وأنا امرأة معيل، وأنا امرأة شديدة الغيرة، فقال: أنا أكبر منك، وأما العيال فإلى الله، وأما الغيرة فأدعوا الله فيذهبها منك فلما تزوجها ودخل بها قال: إن شئت سبعت لك وإن سبعت لك سبعت لنسائي، قالت بالثلاث والحديث في صحيح مسلم من طرق.

الزوجة السابعة:

زينب بنت جحش بن رئاب: وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ وكانت قبله ﷺ عند زيد بن حارثة مولاه ثم طلقها، فلما حلت خطبها رسول الله ﷺ فزوجه الله إياها من السماء سنة أربع وقيل سنة ثلاث وقيل خمس وهي يومئذ بنت خمس وثلاثين سنة. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: الآية ٣٧]. وأوْلَم عليها رسول الله ﷺ وأطعم المساكين خبزاً ولحماً، وفيها نزل الحجاب.

وقد ورد في صفة تزويجه ﷺ بها عدة أخبار أقواها: ما أخرجه مسلم عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: اذكرها علي قال: فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمر عجينها قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أن رسول الله ﷺ ذكرها فوليتها ظهري ونكصت على عقبي فقلت: يا زينب أرسل رسول الله ﷺ يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن، وذكر قصة الحجاب. وقد أثنت عليها عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك بأن الله عصمها بالورع قالت: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ وكانت تفخر على نساء النبي ﷺ بأنها بنت عمته، وبأن الله زوجها له وهن زوجهن أولياؤهن، وهي أول نساء النبي موتاً بعده. وفي الصحيحين واللفظ لمسلم من حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: **«أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يداً»** (قالت: فكنّ يتطاولن أيتهن أطول يداً) قالت: فكانت أطولنا يداً زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق، ومن طريق يحيى عن عمرة، عن عائشة نحو المرفوع بلفظ قالت عائشة: فكنا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ نمد أيدينا في الجدار فنتطاول، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش، وكانت امرأة قصيرة ولم تكن بأطولنا فعرفنا حينئذ أن النبي ﷺ أراد طول اليد بالصدقة. قال الواقدي: ماتت سنة عشرين وهي بنت خمسين وصلى عليها عمر رضي الله عنه، كما رواه الطبراني وقيل عاشت ثلاثاً وخمسين سنة، والله أعلم.

الزوجة الثامنة:

جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار المصطلقية: سبيت يوم المريسيع في غزوة بني المصطلق سنة خمس أو ست، ووقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس فكاتبها على تسع أواقي فأدى عليه الصلاة والسلام عنها كتابتها وتزوجها، وكان إسمها برة فسماها النبي ﷺ بجويرية.

وقد روى ابن إسحاق قال: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عمه عروة، عن خالته عائشة قالت: لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية في السهم لثابت بن قيس أو لابن عم له فكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حلوة ملاحة، لا يراها أحد إلاّ أخذت بنفسه. فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها، قالت عائشة: فوالله ما هو إلاّ أن رأيتها فكرهتها، وقلت: يرى منها ما قد رأيت، فلما دخلت على رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك وقد كاتبت على نفسي فأعني على كتابتي، فقال: أو خير من ذلك؟ أؤدي

عنك كتابتك وأتزوجك، قالت: نعم، ففعل ذلك فبلغ الناس أنه قد تزوجها، فقالوا: أصهار رسول الله ﷺ فأرسلوا ما كان في أيديهم من بني المصطلق.

فلقد أعتق الله بها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة أعظم منها على قومها بركة وأخرجه أحمد وأبو داود من طريق ابن إسحاق وأخرجه الحاكم من طريق مجاهد، قال، قالت جويرية: يا رسول الله إن أزواجك يفخرن علي يقلن: (لم يتزوجك رسول الله ﷺ إنما أنت ملك يمين، فقال رسول الله ﷺ: **«أعظم صداقك؟ ألم أعتق أربعين رقبة من قومك»**.

وقد ذكر الشيخ غالي بن المختار قال الشنقيطي في نظمه للأمهات:

ومن بني مصطلق جويرية ... أبرك عرس أمنا الخزاعية
نال بها عشيرها إذ أسروا ... ما لم ينله بالنساء معشر
إذ أعتقوا وهم زهاء مائة ... بيت من استرقاق أهل الملة
وهي بنت حارث نجل أبي ... ضرار القائد صاحب النبي
يجمعها مع النبي الهادي ... جدهما إلياس ذو الأيادي

وأخرج ابن سعد عن أبي قلابة قال: جاء أبو جويرية فقال: إن ابنتي لا يسبى مثلها، فأنا أكرم من ذلك، فخل سبيلها، قال: أرأيت إن خيرناها أليس قد أحسنا؟ قال: بلى وأديت ما عليك، قال: فأتاها أبوها فقال: إن هذا الرجل قد خيرك فلا تفضحينا، فقالت: فإني اخترت رسول الله ﷺ قال: قد والله فضحتينا، وماتت رضي الله عنها سنة خمسين من الهجرة، وقيل بقيت إلى ربيع الأول سنة ست وخمسين، قاله الواقدي وقيل عاشت خمساً وستين سنة. والله أعلم.

الزوجة التاسعة:

أم حبيبة: رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب، تزوجت بعبيد الله بن جحش وأسلمت هي وإياه، ثم هاجرا جميعاً إلى أرض الحبشة فتنصر عبيد الله هناك، وثبتت هي على إسلامها فبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي فزوجه إياها.

وقد روى ابن سعد من طريق إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص قال: قالت أم حبيبة رأيت في النوم كأن زوجي عبيد الله بن جحش بأسوء صورة ففزعت فأصبحت فإذا به قد تنصر، فأخبرته بالمنام فلم يجفل به، وأكب على الخمر حتى مات.

فأتاني آت في النوم فقال: يا أم المؤمنين، ففزعت فما هو إلاّ أن انقضت عدتي فما شعرت إلاّ برسول النجاشي يستأذن فإذا هي جارية، يقال لها أبرهة، فقالت: إن

الملك يقول لك وكِّلي من يزوجك، فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص بن أمية فوكَّلته وأعطيت أبرهة سوارين من فضة، فلما كان العشي أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب ومن كان من المسلمين فحضروا فخطب النجاشي فحمد الله وأثنى عليه وتشهد ثم قال: أما بعد فإن رسول الله ﷺ كتب إليَّ أن أزوجه أم حبيبة، فأجبته، وقد أصدقتها عنه أربعمائة دينار، ثم سكب الدنانير، فخطب خالد فقال: فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وزوجته أم حبيبة وقبض الدنانير، وعمل لهم النجاشي طعاماً فأكلوا، قالت أم حبيبة: فلما وصل إلي المال أعطيت أبرهة منه خمسين ديناراً، فردتها علي وقالت: أن الملك قد عزم علي في ذلك. وردت علي ما كنت أعطيها أولاً، ثم جاءتني من الغد بعود وورس وعنبر وزباد كثير فقدمت به معي على رسول الله ﷺ وروى ابن سعد أن ذلك كان سنة سبع وقيل سنة ست والأول أشهر.

قال النووي في شرح مسلم وليس هذا بالنجاشي الذي صلى عليه رسول الله ﷺ قال: وكل ملك بلد الحبشة فهو نجاشي، كما أن كسرى إسم لكل من ولي الفرس، وقيصر لكل من ملك الروم، وتبع لكل من ملك حمير، والعزيز لكل من ملك مصر وكذا قال مسلم في صحيحه أنه غير الذي صلى عليه النبي ﷺ.

وهذا الذي قالاه خلاف ما في السير فإن الذي فيها أن هذا هو النجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ في السنة التاسعة وأعلم بموته في اليوم الذي مات فيه وبينه وبينه مسيرة شهر، فنادى بالصلاة وكبر أربعاً، وكذا ذكر ابن الأثير والبيهقي وذكر ابن العماد في شرح الدرة وكان أبو سفيان شديد البأس في محاربة رسول الله ﷺ فقيل له أن محمداً قد نكح ابنتك، فقال: هو الفحل لا يقدع أنفه وهذا المثل قد تمثل به ورقة بن نوفل في النبي ﷺ حين خطب خديجة بنت خويلد.

وخبرها مع أبي سفيان حين ورد المدينة في حال كفره ودخوله عليها وطيها فراش رسول الله ﷺ لئلا يجلس عليه، ومعاتبته لها على ذلك مشهور. وماتت أم حبيبة سنة أربع وأربعين وقيل سنة اثنين وقيل سنة تسع وخمسين وهو بعيد. والله أعلم.

الزوجة العاشرة:

صفية بنت حي بن أخطب: أحد بني النضير كان أبوها سيدهم فقتل مع بني قريظة وكانت زوجة سلام بن مشكم ثم خلف عليها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق الشاعر فقتل عنها يوم خيبر، ولم تلد لأحد منهما شيئا، فصارت صفية مع السبي فأخذها دحية ثم استعادها النبي ﷺ فاصطفاها لنفسه فأعتقها وتزوجها وجعل عتقها صداقها.

وقد روى ابن إسحاق من رواية يونس بن بكير عنه قال: حدثني والدي إسحاق بن

يسار قال: لما افتتح رسول الله ﷺ القموص حصن بني أبي الحقيق، أتى بصفية بنت حيي ومعها ابنة عم لها جاء بهما بلال فمر بهما على قتلى يهود، فلما رأتهم المرأة التي مع صفية صكت وجهها وصاحت وجثت التراب على رأسها.

فقال رسول الله ﷺ: «أغربوا هذه الشيطانة عني». وأمر بصفية فجعلت خلفه وألقى عليها ثوبه فعرف الناس أنه اصطفاها لنفسه، وقال لبلال: أنزعت الرحمة من قلبك حين تمر بالمرأتين على قتلاهما، وكانت صفية رأت قبل ذلك أن القمر وقع في حجرها، فذكرت ذلك لزوجها فلطم وجهها وقال: إنك لتمدين عنقك إلى أن تكوني عند ملك العرب فلم يزل الأثر في وجهها حتى أتى بها رسول الله ﷺ فسألها عنه فأخبرته. وفي رواية لابن أبي عاصم أنها رأت في المنام أن الشمس نزلت حتى وقعت على صدرها فقصت ذلك على زوجها فقال: تكونين إلى هذا الملك الذي نزل بنا، قال: فافتتحها رسول الله ﷺ فضرب عنق زوجها صبراً...

وأخرج ابن سعد عن الواقدي بأسانيده في قصة خيبر قال: ولم يخرج من خيبر يعني النبي ﷺ حتى طهرت صفية من حيضها فحملها وراءه فلما صار إلى منزل على ستة أميال من خيبر مال يريد أن يعرس بها فأبت عليه فوجد في نفسه، فلما كان بالصهباء وهو على بريد من خيبر، نزل هناك فمشطتها أم سليم وعطرتها، قالت أم سنان الأسلمية، وكانت من أوضأ ما يكون من النساء. فدخل على أهله فلما أصبح سألتها عما قال لها فقالت: قال لي ما حملك على الامتناع من النزول أولاً؟ قالت: خشيت عليك من قرب اليهود، فزادها ذلك عنده منزلة. قيل ماتت سنة ست وثلاثين، حكاه ابن حبان وجزم به ابن منده وقال الواقدي: ماتت سنة خمسين وهو أقرب وقيل سنة اثنين وخمسين والله أعلم.

الزوجة الحادية عشر:

ميمونة بنت الحارث الهلالية: خالة ابن عباس رضي الله عنهما، كانت تحت مسعود بن عمرو بن عمير الثقفي ففارقها وخلف عليها أبو رهم بن عبد العزي، وقيل غير ذلك فتوفي عنها وتزوجها رسول الله ﷺ في ذي القعدة سنة سبع التي اعتمر فيها عمرة القضاء في ذي القعدة، وقد ثبت أنه عليه الصلاة والسلام لما قدم مكة أقام عليه الصلاة والسلام بها ثلاثاً، فجاءه سهيل بن عمرو في نفر من أصحابه من أهل مكة فقال: يا محمد أخرج عنا، اليوم آخر شرطك، فقال: دعوني أبتني بامراتي، وأصنع لكم طعاماً، فقالوا: لا حاجة بنا إليك ولا إلى طعامك، أخرج عنا، فخرج رسول الله ﷺ

وبنى بها بسرف حيث تزوجها. وذكر الزهري وقتادة أنها وهبت نفسها للنبي ﷺ فنزلت فيها الآية. وقيل الواهبة غيرها وقيل إنهن تعددن وهو الأقرب، وقال ابن سعد كانت آخر امرأة تزوجها رسول الله ﷺ يعني ممن دخل بها.

وماتت رضي الله عنها بسرف موضع بناء النبي ﷺ بها ودفنت في موضع قبتها التي ضربها النبي ﷺ حين البناء وذلك سنة إحدى وخمسين وقال الواقدي سنة إحدى وستين، قال وهي آخر من مات من أزواج النبي ﷺ وقيل إنها ماتت قبل وفاة عائشة، والله أعلم. فهؤلاء نساؤه المدخول بهن إحدى عشرة امرأة ومات عليه الصلاة والسلام عن تسع منهن.

وقد نظم صاحب قرة الأبصار في سيرة المشفع المختار ذلك فقال:

بيان أزواج النبي المصطفى	صلى عليه ربنا وشرفا
وعدة الأزواج باتفاق	أي[1] أتى وجاء في البواقي
خلف تركنا ذكره فالمتفق	عليه أولاهن ذكرها سبق
بنت خويلد التي قد صدقت	قبل النساء بالنبي فارتقت
وما تزوج أحد عليها أحدا	حياتها من النساء أبدا
ثم تزوج ابنة الصديق	وعمرها ست على التحقيق
بالبلد الحرام قبل الهجرة	بسنتين عند أهل الخبرة
ثم بنى بها بعيدما ارتحل	بطيبة وعمرها تسعاً وصل
ومات عنها وهي بنت (حي)[2]	صلى عليه رب كل شي
ولم يكن تزوج المختار	بكراً سواها فلها الفخار
وكمْ حوت في مدة يسيرة	من العلوم الجمة الغزيرة
وبالبقيع فنت في (حن)[3]	ليلاً وسودة سمت في السن
فوهبت ليلتها لها لكي	تحشر في أزواجه بنت لؤي
وبعد موت زوجها السكران	تزوجت خير بني عدنان
صلى عليه ربنا وسلما	وآله وصحبه وكرما
وهاجرا في الدين هجرتين	جزاهما الرحمن جنتين
وعام (ند)[4] في خلافة عمر	توفيت بطيبة فاقف الأثر

---

(١) في هذه الأبيات استخدم الناظم رمز الحروف أي.

(٢) حبي ١٨.

(٣) حن ٥٨.

(٤) ند ٥٤.

وحفصة تزوجت خير البشر ... بعد خنيس ثم لما أن صدر
طلاقها منه بردها أمر ... وموتها عام الجماعة ذكر
وزينب أم المساكين قتل ... بأحد عنها ابن جحش فقبل
تزوجت خير نبي وثوت ... شهرين أو ثلاثة ثم توت
ولم يمت حياته من النسا ... إلاّ خديجة وذي فاقتبسا
وبنت جحش بنت عمة الرسول ... زوجها الرحمن بارئ العقول
خير نبي إذ قضي منها الوطر ... زيد وماتت في خلافة عمر
وبالبقيع دفنت وهاجرا ... ثنتين في أول من قد هاجرا
ومن نساء المصطفى جويريه ... توفيت في عام (نو)[1] لتدريه
وقد سباها في غزاة المصطلق ... من بعلها مسافع بالمنزلق
ودفع النجوم لابن قيس ... عنها فما أبركها من عرس
إذ أرسل الناس السبايا طرا ... لما غدا المصطلقين صهرا
للمصطفى عليه من رب الأنام ... وآله أزكى الصلاة والسلام
ورملة بنت أبي سفيانا ... تزوجت خير الورى وكانا
وليها خالد أو عثمان ... عند النجاشي كما أتانا
وسلم المهر إليها أجمعا ... من الدنانير مئات أربعا
وعام سبع أهديت لأحمدا ... وموتها في عام (مد)[2] قد بدا
وكم حوت من شرف صفية ... لما غدت لأكرم البرية
زوجا وكانت سبيت في خيبرا ... فاختارت لنفسه خير الورى
أعتقها مهراً لها حقًا جعل ... وعام خمسين بها الموت نزل
وعام سبع بعد فتح خيبرا ... ميمونة نكحها معتمرا
وبعد عودة بها كان البنا ... في سرف وكان ذاك مدفنا
لها وكانت آخر النساء ... تزوجا له بلا امتراء
عليه أزكى صلوات ربه ... والآل والأزواج ثم صحبه
وعام خمسين وواحد نزل ... بها الحمام عندما حان الأجل
ومهر كل كان خمس مائة ... من الدراهم سوى صفية
ورملة فإنه تقدما ... بيان ما أصدق كلا منهما

---

(١) نو ٥٦.

(٢) مد ٤٤.

حجة الوداع

كنا ذكرنا في سياق غزوة تبوك أن الله سبحانه وتعالى أمر رسوله ﷺ في سورة التوبة وهي آخر ما نزل من القرآن أن يقاتل أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وكان ذلك هو سبب غزوة تبوك، وقد ذكر الإمام البغوي في تفسيره أنه لما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك أرجف المنافقون وقالوا: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً.

وأخذ بعض المشركين ينقضون عهودهم توقعاً منهم بأن رسول الله ﷺ وأصحابه المؤمنين لن ينقلبوا إلى أهليهم من غزوة تبوك، وأن الروم سوف تقتل من تقتل، وتأسر من تأسر منهم، وما علموا أن الله مظهر دينه ولو كره الكافرون، فأنزل الله سبحانه وتعالى أول سورة براءة تحدد العلاقات التي سوف تقوم بين الأمة الإسلامية والمشركين من العرب والكفار من أهل الكتاب.

وبدأت بالمشركين من العرب فأمهلتهم أربعة أشهر، وذلك بنبذ العهود المطلقة وإتمام مدة من له عهد إلى مدته، فإذا انسلخت تلك الشهود فلا عهد ولا ذمة لهم. وأما حكمة ذلك فهي محو بقية الشرك من جزيرة العرب بالقوة وجعلها خالصة للمسلمين وأما أهل الكتاب فعليهم الدخول في الإسلام، فإن أبوا فالجزية، فإن أبوا فالقتال.

وكان رسول الله ﷺ ينوي الحج بعد عودته من غزوة تبوك في عام تسع، إلاّ أنه بدا له أن البيت يحضره المشركون يطوفون عراة فأرسل أبا بكر رضي الله عنه بأن يحج بالناس، ثم أتبعه بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه بأول سورة براءة وبنبذ العهود يقول: يا أيها الناس لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته.

وفي عام عشر توالت وفود القبائل على رسول الله ﷺ بالمدينة يبايعون على الإسلام، حتى إذا كان في نهاية ذي القعدة تجهز للحج ﷺ وأمر الناس بالجهاز له وخرج معه قرابة مائة ألف، وأخرج معه كل نسائه في الهوادج وساق معه الهدى، فقلده وأشعره وحج بالناس حجة الوداع. فدخل مكة من أعلاها عن طريق كداء حتى انتهى إلى باب بني شيبة فلما رأى البيت قال: **«اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً ومهابة»**، ثم مضى رسول الله ﷺ يعلم الناس مناسكهم ويبين لهم سنن حجهم ويقول خذوا عني مناسككم لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، وفي يوم عرفة ألقى خطبته الجامعة في جموع المسلمين الذين احتشدوا حوله في الموقف وكان من جملتها.

أيها الناس اسمعوا قولي. فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً.

أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا وإن كل شيء من أمر الجاهلية موضوع تحت قدمي، فدماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم بن ربيعة بن الحارث وربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضع ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله.

أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به.

أيها الناس إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله وإن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة إثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان.

أيها الناس اتقوا الله في النساء، فإنكم إنما أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، إن لكم عليهن حقاً ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن أن لا يطئن فروشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فأضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. فأعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلغت وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعدي إن اعتصمتم به كتاب الله وسنَّة رسوله. أيها الناس اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشي مجدوع ما أقام فيكم كتاب الله تعالى.

والخطبة طويلة وجامعة لكثير من مبادىء الإسلام وخاصة بأن الناس سواسية في الحقوق والواجبات وأنه لا فضل لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى.

وفي يوم عرفة هذا أنزل الله فيه قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائدة: الآية ٣].

ولما قضى رسول الله ﷺ مناسكه في حجة الوداع شد الرحال إلى دار الهجرة (المدينة المنورة)، وكان قد استشعر أن أجله قد اقترب، بعد نزول: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [النّصر: الآيات ١ ـ ٣]. فقال لمعاذ بن جبل قبل مبعثه إلى اليمن وقبل حجة الوداع: يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعل أن تمر بمسجدي هذا وقبري، فبكى معاذ حزناً على فراق رسول الله ﷺ، إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث ما كانوا.

وروى البيهقي عن ابن عباس، قال: لما نزلت سورة إذا جاء نصر الله والفتح دعا

رسول الله ابنته فاطمة وسارها، فبكت ثم سارها، فضحكت، وبعد وفاة رسول الله ﷺ سألت أم سلمى فاطمة عن الذي سارها به رسول الله ﷺ فأبكاها أولاً، ثم أضحكها ثانياً، فقالت لها فاطمة: إنه ﷺ أعلمها أولاً «أنه نعى إليَّ نفسه» فبكيت، ثم قال لي ثانياً: «اصبري فإنك أول أهلي لحوقاً بي» فضحكت. وكان ﷺ يقول لأهل الموقف بعرفة وهو على ناقته القصواء في جماهير الحجيج المائجة في أول موسم يخلص فيه الحج من الشرك وتتمحض فيه العبادة لله: **«أيها الناس خذوا عني مناسككم لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا»**. وهو يريد أن يفرغ في آذانهم وقلوبهم آخر ما لديه من النصح وتبليغ الرسالة ثم يتبع ذلك، **«اللهم هل بلغت؟»** فيقولوا: نعم، فيقول: **«اللهم اشهد»**. ثم نزل عليه في ذلك اليوم وهو يوم عرفة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائدة: الآية ٣].

فتبين من ذلك أن أعمال الدعوة تمت، وأن الرسالة تبلغت، وأن صفحة نزول الوحي من السماء قد أوشكت على الانطواء، وأن الأمة التي أراد الله لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس قد التأم شملها، وتأسست على وحدانية الله وعلى إقامة شريعته وشعائره، وأن سكان جزيرة العرب قد انخلعوا من عبادة الأوثان إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، وأن الإيمان استقر في قلوب العصبة المؤمنة التي اختارها الله لنصرة نبيه ﷺ وحمل رسالته من بعده. وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان تصديقاً لوعد الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبَة: الآية ٣٣].

وروى ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ لما قفل من الحج أقام بالمدينة بقية ذي الحجة ومحرم وصفر، وجهز جيشاً إلى الروم وأمر عليه أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يطأ بالخيل تخوم البلقاء من أرض الشام إرهاباً للروم وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضاربين على الحدود، وخرج أسامة بجيشه حتى نزلو الجرف، وفي أثناء ذلك شعر رسول الله ﷺ بالمرض واشتد عليه فأقام أسامة والجيش الذي معه لينظروا ما الله قاض في رسوله ﷺ.

وفي الصحيحين عن عقبة بن عامر، قال ﷺ على قتلى أحد صلاته على الميت كالمودع للأحياء والأموات، ثم انصرف إلى المنبر فقال: إني فرطكم وإني شهيد عليكم، وإني والله أنظر إلى حوضي الآن وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، وإني والله ما أخاف أن تشركوا بعدي ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها، (يعني الدنيا).

وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري، قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: **«إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله»** ثم خرج رسول الله ﷺ إلى البقيع واستغفر لأهلها ثم انصرف راجعاً بادئاً معه الوجع الذي قبضه الله فيه.

وكان يتنقل بين بيوته وهو موعوك معصوب الرأس، قال الفضل بن العباس رضي الله عنه: فأخذت بيده ﷺ في مرضه حتى دخل المسجد، وجلس على المنبر، فقال: ادع الناس، فاجتمعوا إليه، فقال: بعد حمد الله والثناء عليه فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه، أو من كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه، وقام يدعو لبعض أصحابه، اللهم ارزق فلاناً صدقاً وإيماناً وأذهب عنه النوم، والآخر اللهم ارزقه صدقاً وإيماناً، وصير أمره إلى خير.

وروي عن عبد الله بن كعب بن مالك أن علياً بن أبي طالب خرج من عند رسول الله ﷺ في وجعه الذي توفي فيه، فقال الناس: يا أبا حسن كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ قال: أصبح بحمد الله بارئاً، وكان رسول الله ﷺ لما عجز عن الصلاة بالناس استقدم أبا بكر ليؤمهم.

وعن أنس بن مالك، قال: لما كان يوم الاثنين، والناس في صلاة الفجر، وأبو بكر يصلي بهم لم يفجأهم إلاّ رسول الله يكشف ستره حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم صفوف في الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف وظن أن رسول الله يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهمَّ الناس أن يفتتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر.

وزاد ابن إسحاق في روايته عن الزهري، عن أنس، وانصرف الناس وهم يرون أن رسول الله ﷺ قد أفاق من وجعه فرجع أبو بكر إلى أهله.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل علينا عبد الرحمن بن أبي بكر، في يده سواك أخضر فنظر رسول الله إلى يده نظراً عرفت منه أنه يريده، فأخذته فألنته له ثم أعطيته إياه فاستن به، ثم وضعه، ووجدت رسول الله ﷺ يثقل في حجري فذهبت أنظر في وجهه، فإذا نظره قد شخص وهو يقول: بل الرفيق الأعلى من الجنة. وإني لمسندته إلى صدري، وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: إن من نعم الله علي أن رسول الله ﷺ، توفي في بيتي وفي يومي وبين سحري، ونحري وأن الله جمع بين ريقي وريقه.

وقبض رسول الله ﷺ في يوم الاثنين نصف النهار لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة إحدى عشرة مثل الوقت الذي دخل فيه المدينة وتسرب النبأ الفادح، فقام عمر، وهو يقول والله ما مات رسول الله وقد أخرجه الخبر عن صوابه، فجاء أبو بكر

على فرس من منزله بالسنح، فدخل فتيمم رسول الله وهو مغشى بثوب حبرة فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبّله وبكى ثم قال: بأبي أنت وأمي طبت حياً وميتاً، والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبداً، ثم خرج وعمر يكلم الناس بأن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفي، والله ليرجعن رسول الله ﷺ ليقطعن أيديهم وأرجلهم. فقال أبو بكر: إجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس على أبي بكر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أما بعد، فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

وقال عز وجل: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزُمَر: الآية ٣٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٤٤]. قال ابن عباس: والله لكأن الناس لم يعلمون أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر رضي الله عنه، وظلل الحزن والكآبة على فقدان الرجل الذي أحيا موات القلوب وأخرج الناس من الظلمات إلى النور: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [الحَديد: الآية ٩].

ولما فرغ الناس من بيعة أبي بكر وجمعهم الله، وصرف عنهم كيد الشيطان أقبلوا على تجهيز نبيهم ﷺ، فقام أهله الأقربون بغسله، علي والعباس وابنه قثم، وشقران مولى رسول الله، وكذلك أسامة بن زيد، ولم يجردوه من لباسه. وكانوا يصبون الماء من فوق قميصه، وحفروا قبره في المكان الذي قبض فيه في بيت عائشة رضي الله عنها.

ويذكر أنه لما انتهى الدفن: جاءت التعزية يسمعون الصوت والحس ولا يرون الشخص: السلام عليكم يا أهل البيت ورحمة الله وبركاته: كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة، إن في الله عزاء من كل مصيبة وخلفاً من كل هالك ودركاً من كل فائت، فبالله ثقوا، وإياه فارجعوا فإن المصاب من حرم الثواب والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

وذكر أن أعرابياً مر بعد الدفن على قبره ﷺ فأنشد:

يا خير من دفنت في القاع أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

وأظلمت الدنيا وخاصة المدينة وانهمر البكاء من أهلها وقام حسان بن ثابت رضي الله عنه، يعبّر عما في قلبه وقلوب أصحابه.

بطيبة رسم للرسول ومعهد ... منير وقد تعفو الرسوم وتهمد

ولا تنمحي الآيات من دار حرمة ... بها منبر الهادي الذي كان يصعد
وواضح آيات وباقي معالم ... وربع له فيه مصلى ومسجد
بها حجرات كان ينزل وسطها ... من الله نور يستضاء ويوقد
معالم لم تطمس على العهد آيها ... أتاها البلى فالآي منها تجدد
عرفت بها رسم الرسول وعهده ... وقبراً به وأراه في التراب ملحد
ظللت بها أبكي الرسول فأسعدت ... عيون ومثلاها من الجفن تسعد
تذكر آلاء الرسول وما أرى ... محيصاً لها نفسي فنفسي تبلد
مفجعة قد شفها فقد أحمد ... فظلت لآلاء الرسول تعدد
وما بلغت من كل أمر عشيرة ... ولكن نفسي بعض ما فيه تحمد
أطالت وقوفاً تذرف العين جهدها ... على طلل القبر الذي فيه أحمد
فبوركت يا قبر الرسول وبوركت ... بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
وبورك لحد منك ضمن طيبا ... عليه بناء من صفيح منضد
تهيل عليه الترب أيد وأعين ... عليه وقد غارت بذلك أسعد
لقد غيبوا حلماً وعلماً ورحمة ... عشية علوه الثرى لا يوسد
وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم ... وقد وهنت منهم ظهور وأعضد
يبكون من تبكي السموات يومه ... ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد
وهل عدلت يوماً رزية هالك ... رزية يوم مات فيه محمد
تقطع فيه منزل الوحي عنهم ... وقد كان ذا نور يغور وينجد
يدل على الرحمن من يقتدي به ... وينقذ من هول الخزايا ويرشد
إمام لهم يهديهم الحق جاهداً ... معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا
عفو عن الزلات يقبل عذرهم ... وإن يحسنوا فالله بالخير أجود
وإن ناب أمر لم يقوموا بحمده ... فمن عنده تيسير ما يتشدد
فبينا هم في نعمة الله بينهم ... دليل به نهج الطريقة يقصد
عزيز عليه أن يحيدوا عن الهدى ... حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
عطوف عليهم لا يثني جناحه ... إلى كنف يحنو عليهم ويمهد
فبينا هم في ذلك النور إذ غدا ... إلى نورهم سهم من الموت مقصد
فأصبح محموداً إلى الله راجعاً ... يبكيه جفن المرسلات ويحمد
وأمست بلاد الحرم وحشاً بقاعها ... لغيبة ما كانت من الوحي تعهد
قفاراً سوى معمورة اللحد ضافها ... فقيد يبكِّيه بلاط وغرقد

ويصف الدكتور عبد الوهاب عزام (عليه رحمة الله) عند زيارته القبر الشريف حجرة

أم المؤمنين عائشة فيقول:

يا لك من بقعة بهجة النور والإيمان - لا يرى هذا الجلال ولا يسمع هذا الوحي - وإنما هي وقفة يمحي فيها الزمان والمكان، فيصل الأزل بالأبد والسماء بالأرض. يا لك بقعة صغيرة لا يدرك العقل مداها، ولا يبلغ الفكر منتهاها.

يا لك من حجرة يظل الفكر مسافراً في أرجائها محلقاً في أجوائها، فيطوف أرجاء التاريخ ويحلق في أقطار السماء والأرض وكأنما طوى الزمان وزويت الأرض واجتمعت الإنسانية، وحشر البر والحق عظيم في ذلك الضريح.

يا لك بقعة كالكوكب المضيء تناله الأعين في لمحة، وتحيط أشعته بالعوالم العظيمة.

يا لك بقعة كمنبع النهر العظيم متدفق بالحياة فياض بالبركة مداد بالخير يحيي الأجيال بعد الأجيال.

يا حيرة الوصف وعجمة البيان، أهي عنوان كتاب انطوى على الحق والصدق والخير والبر والإحسان والرحمة، يقرأه القارىء جملة ثم لا يزول، تروعه منه الصفحة بعد الصفحة، أم هي تاريخ لا يزال الدهر يكتب صفحاته، وإنما أوله وحي الله، وآخره غيب الله.

أمم هداها محمد ﷺ، وكل لسان يدعو إلى الخير وكل يد تمتد بالبر والإحسان، وكل كلمة حق ودعوة صدق وكل نية محمودة وسعي مشكور فهنا منبعه ومن هذه البقعة مصدره، بل كان نزعة إلى سؤدد، وكل طموح إلى علاء وكل شرع نافذ بالعدل، كل ذلك شعاع من هذا النور.

ولست تتمثل هنا مجداً ولا سلطاناً ولا سؤدداً ولا علواً إلاّ تمثلته تواضعاً للحق وبراً بالخلق وسلطان الضعفاء.

موقف يتضاءل في جلاله كل جلال، ويصفو في جماله كل جمال لمحات تطهر فيها النفوس، ولا ينظر الإنسان نظرة في هذا المسجد المبارك الشريف إلاّ وقعت عينه على ذكرى كريمة. **انتهى**.

هذا قلب مؤمن امتلأ إعجاباً ومحبة بما جاءت به رسالة سيدنا محمد ﷺ فهيجته الزيارة للقبر الشريف ما يعرفه عن صاحب الرسالة ﷺ.

ويروى أن النبي ﷺ لم يعش بعد عودته من تلك الحجة مائة يوم بل توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين نصف النهار لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة

إحدى عشرة من مهاجره ﷺ من مكة إلى المدينة مثل الوقت الذي دخل المدينة وما ترك ﷺ درهماً ولا ديناراً ولا عبداً ولا أمة إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها وسلاحه وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة. وقالت أمنا عائشة رضي الله عنها توفي، رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير[1]!

(١) رواه البخاري.

الباب السادس

الفصل الأول

ما خلفه رسول الله ﷺ بعد رحيله إلى الرفيق الأعلى

أثر الدعوة ونجاحها بعد رحيل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ونوضحها في النقاط التالية:

١ - استسلام العرب وإقرارهم بالتوحيد وانخلاعهم عن الشرك وعبادة الأوثان وانصياعهم إلى كتاب الله وسنَّة رسوله.

٢ - ظهور دين الإسلام على جميع الأديان.

٣ - استقرار الدين الإسلامي في قلوب العصبة التي اختارها الله لحمل الرسالة.

٤ - المعالم التي أعطاها ﷺ لأصحابه لإكمال نشر الإسلام.

تمهيد:

وكنا قد ذكرنا بأن رسول الله ﷺ قد استشعر قُرب أجله قبل أدائه مناسك حجة الوداع فقال لمعاذ بن جبل عندما بعثه إلى اليمن: يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري (فبكى معاذ) إن أولى الناس بي المتقون، من كانوا وحيث ما كانوا.

فقد روى البخاري عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب سأل ابن عباس عن تفسير سورة النصر فقال: هو إعلام رسول الله ﷺ بدنو أجله، فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلاّ ما تقول.

وكان ﷺ قال لأهل الموقف بعرفة في حجة الوداع وهو على ناقته القصواء في جماهير الحجيج المائجة في أول موسم يخلص فيه الحج من الشرك وتتمحص فيه العبادة لله الواحد القهار: أيها الناس خذوا عني مناسككم لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا وهو يريد أن يفرغ في آذان الناس وقلوبهم آخر ما لديه من النصح وتبليغ الرسالة وهي نصيحة مودع.

أيها الناس قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا أبداً، كتاب الله وسنَّة نبيكم ﷺ ويعيد عليهم صيحات الإنذار ويستثير أقصى ما في الأعماق من الانتباه كوصية

الوالد الحنون لولده عند انتزاع الروح ليرشده إلى ما ينفعه في آخر لحظة.

أيها الناس، ثم يتبع ذلك أيها الناس، ثم يتبع ذلك اللهم هل بلغت؟ فيقولون: نعم، فيقول: اللهم اشهد. وهكذا انطوت صفحة نزول الوحي من السماء بعد رحيله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ولكن ذلك الحدث رغم فداحته وعظمه لم يحدث إلاّ بعد استكمال الدين عقيدة وشريعة وشعائر ودخل الناس في دين الله أفواجاً ودانت جزيرة العرب بالإسلام، ونزل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: الآية ٣]. وقال ﷺ: **«تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ إلاّ هالك كتاب الله وسنّة نبيكم»**.

ولم ينقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلاّ بعد أن استقر الدين الإسلامي في نفوس العصبة الذين اختارهم الله لنصرة نبيه ودينه وهم السابقون الأولون من المهاجرين الأنصار في أرض الجزيرة العربية، وظهر أن الإيمان والتوحيد غلبا بالفعل الكفر والشرك، واستقرت العقيدة في وحدانية الله في هذه الأرض، لقد صدق الله وعده بأن يتم نوره في حياة رسوله ﷺ فأقام الملة الإسلامية على منهج الله، فقد ظهر هذا الدين وغلب وعلا في أنحاء الجزيرة العربية وصار الناس، إما مؤمن داخل في الدين وإما مهادن باذل الطاعة والمال أو محارب خائف من سطوة الإسلام وأهله. وكان رسول الله ﷺ قد بشر أصحابه بذلك في أول عهد الدعوة بمكة.

روى خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة في أول أمر الدعوة، حينما كنا مضطهدين من قبل المشركين بمكة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا، فقال رسول الله ﷺ: **«كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتممن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلاّ الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون**[1]».

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه بينما أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل، فشكا إليه الفاقة ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: يا عدي هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها، قال: إن طالت بك الحياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلاّ الله، قلت فيما بيني وبين نفسي أين دعاة طيء (أي قطاع طريق بني طيء) الذين قد سدوا البلاد أين هم؟ ثم قال ﷺ: ولئن طالت بك الحياة

(١) رواه البخاري.

لتفتحن كنوز كسرى، قلت: كنوز كسرى بن هرمز؟!!! قال: كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك الحياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله فلا يجد أحداً يقبله منه.

وعن سفيان بن أبي زهير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يفتح الشام فيخرج من المدينة قوم بأهليهم يبسون (يدخلون إلى بلاد الخصب) والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، ثم يفتح اليمن فيخرج من المدينة قوم بأهليهم يبسون والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، ثم يفتح العراق فيخرج من المدينة قوم بأهليهم يبسون والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القراط فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحماً»**، أو قال: ذمة وصهراً.

وقد وقع هذا كله، فإن ذلك من دلائل نبوته ﷺ.

إتمام وعد الله بإظهار دينه:

لقد جرى قدر الله وصدق وعده بأن يظهر هذا الدين، فكان من الحكم أن يتم وهو قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: الآية ٣٢]. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: الآية ٣٣]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح: الآية ٢٨]. وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: الآية ٨] ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: الآية ٣٣]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: الآيتان ٢٠، ٢١]. وشهادة الله بأنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق هي الشهادة، وهي كلمة الفصل التي ليس بعدها زيادة، لقد تمت إرادة الله فظهر هذا الدين على كل دين، على الوثنية، وعلى اليهودية، والنصرانية، والمجوسية وغير ذلك.

ظهر في ذاته كدين فما يثبت له دين آخر في حقيقته وطبيعته، وكذلك الحال بالنسبة لبسط نفوذه، فقد ظهر هذا الدين قوة وحقيقة ونظام حكم على الأديان الأخرى فدانت له معظم الرقعة المعمورة في ذلك التاريخ في مدة نصف قرن من تاريخ بدء الدعوة، ثم زحف زحفاً سليماً حتى دخل فيه بالدعوة خمسة أضعاف ما دخل فيه إبان حركة الجهاد.

وجاء تكرار قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: الآية ٣٣]. في الآيات السابقة لتبين أن الهدى ودين الحق هو هذا القرآن الذي هو مرجع هذا الدين.

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۝١٠٦﴾ [الإسراء: الآية ١٠٦].

لقد جاء هذا القرآن ليخرج الله سبحانه وتعالى أمة مسلمة وفق المنهج الرباني ويقيم لها نظاماً يثبتها ويصونها على وجه الأرض ثم تحمله إلى مشارق الأرض ومغاربها وتعلم به البشرية ليستقر الحق في الأرض ويثبته على أساس وحدانية الله والتزام بشرعه.

أمة الإسلام وخيريتها:

إن القرآن وهو ينشىء هذه الأمة من حيث لم تكن، وينشأها لتصبح أمة فريدة في تاريخ البشرية، والله يقول: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٠]. إنها كانت نشأة، ولم تكن خطوة ولا مرحلة ولا وثبة، كانت إخراجاً من صنع الله كتعبير القرآن الدقيق فهي أمة منبثقة من بين دفتي كتاب الله بامتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه على أساس ميثاق الإيمان.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨٥﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨٥]. وقد ذكرهم الله سبحانه وتعالى بنعمة الله وميثاقه بالطاعة وذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ﴾ [المَائدة: الآية ٧]. من بعد قوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ [المَائدة: الآية ٦].

لقد نشأت هذه الأمة نشأتها بهذا الدين واحتلت مكانتها بهذا المنهج القويم، وقادت نفسها وقادت معها البشرية بعد ذلك بكتاب الله الذي بيدها، ولقد صدق الله وعده وهو يقول للعرب: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾ [الأنبيَاء: الآية ١٠]. ذكر تشريف ورفعة وعلو مكان ومقام بقوله: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٨]. وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ﴾ [الزّخرُف: الآية ٤٤] ذكر تشريف فبسبب هذا الكتاب ذكرت هذه الأمة في الأرض وأصبح لها وجود وحضارة عالمية.

والقرآن جاء ليتجاوز قريشاً في مكة والعرب في الجزيرة والجيل الذي عاصر الدعوة في الأرض، ليتجاوز هذا المدى المحدد من المكان والزمان، ويؤثر في مستقبل البشرية

كلها في جميع أعصارها وأقطارها، ويكيف مصيرها منذ نزوله إلى الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولقد نزل في أوانه المقدر له في نظام هذا الكون كله ليؤدي دوره هذا في الوقت الذي قدره الله له.

ولقد حول خط سير البشرية إلى الطريق الذي خطته يد القدر بهذا النبأ العظيم، سواء في ذلك من آمن به ومن صد عنه ومن جاهد معه ومن قاومه. ولم يمر بالبشرية في تاريخها كله حادث أو نبأ ترك فيها من الآثار ما تركه هذا النبأ العظيم.

ولقد أنشأ من القيم والتصورات، وأرسى من القواعد والنظم في هذه الأرض كلها وفي أجيال البشرية جميعها ما لم يكن العرب يتصورونه ولو في الخيال. وما كانوا يدركون في ذلك الزمان أن هذا النبأ إنما جاء ليغير وجه الأرض ويوجه سير التاريخ ويحقق قدر الله في مصير هذه الحياة ويؤثر في ضمير البشرية وفي واقعها ويصل هذا بخط سير الوجود كله، وبالحق الكامن في خلق السموات والأرض وما بينهما، وأنه ماض كذلك إلى يوم القيامة، يؤدي دوره في توجيه أقدار الناس وأقدار الحياة والعرب الذين نزل عليهم هذا القرآن يدركون أن الإسلام هو الذي نقلهم من طور القبيلة واهتمامات القبيلة وثارات القبيلة، لا ليكونوا أمة فحسب ولكن ليكونوا على حين فجأة ومن غير تمهيد أمة تقود البشرية وترسم لها مُثلها وقيمها ومنهج حياتها وأنظمتها في صورة غير معهودة في تاريخ البشرية الطويل، فالإسلام هو الذي منحهم فضيلة وجودهم كأرقى أمة تتخلق بأرقى درجات العلم وأرقى درجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. بعد أن كانوا هملاً، فالإسلام هو الذي منحهم وجودهم القومي ووجودهم السياسي ووجودهم العالمي، وقبل كل شيء وجودهم الإنساني الذي يرفع إنسانيتهم، ويكرم آدميتهم، ويقيم نظام حياتهم على أساس هذا التكريم الذي منحهم الله، والذي أفاضوه على البشرية كلها بعد ذلك وعلموها كيف تحترم الإنسان وتكرمه بتكريم الله غير مسبوقين في هذا.

والعرب الذين نزل عليهم هذا القرآن أدركوا أن الإسلام وحده هو الذي جعل لهم رسالة يقدمونها للعالم.

الهدف من وجود أمة الإسلام:

والهدف الذي جاء به القرآن هو إيجاد أمة مسلمة في ظل دولة تؤمن بالله على أساس عقيدة تنفرد بأن الله واحد لا شريك له في أُلوهيته وربوبيته وتحكم كتابه وسنَّة رسوله، وإقامة شعائره وحدوده في كل ما أمر به ونهى عنه.

ومن أراد المجادلة والمماحلة فليقل لنا أين كان وجود العرب بين الأمم قبل الإسلام ورسوله وقرآنه؟ أين كانت على مستوى سجل الحضارات التي كانت في زمانها

مثل فارس والروم والصين والهند والإغريق؟ أين هي من هؤلاء؟ أين كانت في التاريخ العالمي وما دورها فيه؟ كانوا أشتاتاً من غير جامع وهملاً من غير رابط وأحياء من غير غرض ولا هدف.

وصف كسرى للعرب قبل الإسلام:

ونعود إلى ما وصفهم به كسرى ملك فارس قبل ظهور الإسلام، قال كسرى:

لقد فكرت في أمر العرب وغيرهم من الأمم ونظرت في حال من يقدم علي من وفود الأمم، فوجدت الروم لها حظ في اجتماع إلفتها، وعظم سلطانها، وكثرة مدائنها، ووثيق بنيانها، وأن لها ديناً يبين حلالها وحرامها، ويرد سفيهها ويقيم جاهلها ورأيت الهند نحواً من ذلك في حكمتها وطبعها مع كثرة أنهار بلادها وثمارها وعجيب صناعتها وطيب أشجارها ودقيق حسابها وكثرة عددها، وكذلك الصين في اجتماعها وكثرة صناعات أيديها في آلة الحرب وصناعة الحديد وفروسيتها وهمتها، وأن لها ملكاً يجمعها، والترك والخزر على ما بهم من سوء الحال في المعاش وقلة الريف والثمار والحصون وما هو رأس عمارة الدنيا في المساكن والملابس، لهم ملوك تضم قواصيهم وتدبر أمرهم، ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير في أمر دين ولا دنيا ولا حزم ولا قوة، مع أن ما يدل على مهانتها وذلها وصغر همتها لحالتهم التي هي بها مع الوحوش النافرة والطير الحائرة يقتلون أولادهم من الفاقة، ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة، فقد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذاتها، فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الإبل التي تعافها كثير من السباع لثقلها، وسوء طعمها وخوف دائها، وإن قرى أحدهم ضيفاً عدها مكرمة، وإن أطعم أهله عدها غنيمة تنطق بذلك أشعارهم وتفتخر بذلك رجالهم.

ما خلا هذه التنوخية التي أسس جدي اجتماعها وشد مملكتها ومنعها من عدوها يعني (اليمن) ثم لا أراكم تستكتون على ما بكم من الذلة والقلة والمهانة والفاقة والبؤس.

كما وصفهم ابن خلدون بقوله: لم تكن أمة من الأمم أسغب عيشاً من العرب لبعدهم عن الأرياف وخصوبتها وحبوبها، فإن كثيراً منهم يأكل العقارب والجرابيع والضبوبة، ويفخرون بأكل العلهز وهو وبر الإبل يخلطونه بدمها ويطبخونه.

المستوى الأخلاقي لدى العرب قبل الإسلام:

وبعث رسول الله ﷺ والمستوى الأخلاقي في جزيرة العرب في الدرك الأسفل، كان التظالم فاشياً تعبر عنه حكمة الشاعر زهير بن أبي سلمى:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

ومن الأرجاس تلك الأدواء الخلقية والاجتماعية التي كانوا عليها في الوقت ذاته من مفاخرهم في أشعارهم ومن مفاخراتهم في أسواقهم من الخمر إلى القمار إلى حرب الثارات التي تتفانى فيها القبيلة الواحدة والقبائل فيما بينها على أتفه الأسباب، فقد هانت عليهم الحرب وإراقة الدماء، حتى كانت تثيرها حادثة ليست بذي بال فقد وقعت الحرب بين بكر وتغلب ابني وائل ومكثت أربعين سنة، أريقت فيها دماء غزيرة، وما ذاك إلاّ أن كليباً رئيس قبيلة معد كان له حمى وهي أرض يمنعها من سائمة الغير، فدخلت فيها ناقة لعجوز يقال لها البسوس فرمى كليب ضرع ناقة البسوس فاختلط دمها بلبنها وكانت البسوس جارة لجساس بن مرة وهي خالته، فما كان من جساس إلاّ أن قتل كليباً على فعلته انتقاماً لجارته البسوس مع أن جساساً خال أولاد كليب، وبهذه الفعلة اشتعلت الحرب بين قبيلتي بكر وتغلب، وكان كما قال المهلهل أخو كليب: فقد فنيت الحياة وثكلت الأمهات، ويتم الأولاد، دموع لا ترفأ، وأجساد لا تدفن.

وكذلك حرب داحس والغبراء وهما فرسا رهان قتل بسببهما ألوف من الناس من قبيلتي عبس وذبيان ويرجعون في نسبهم إلى غطفان، وهذا يدل على فراغ الحياة من الاهتمامات الكبيرة التي تشغلهم عن تفريغ الطاقة في هذه الأمور الحقيرة فإذا خلت قلوب الناس من عقيدة إلهية تحكم تصوراتهم ومن شريعة منبثقة من هذه العقيدة تحكم حياتهم، فلن يؤول حالهم إلاّ إلى الجاهلية.

ضلال في التصور والاعتقاد، وضلال في مفهومات الحياة، وضلال في الغاية والاتجاه، وضلال في العادات والسلوك وضلال في الأنظمة والأوضاع، وضلال في المجتمع والأخلاق لا يعرفون آخرة ولا ميعاداً.

ولقد التقط الإسلام العرب من سفح الجاهية في التقاليد والعادات والأخلاق مثل شرب الخمر والقمار والعلاقات الجنسية الفوضوية والتبرج والاختلاط واحتقار المرأة ومهانتها والثأرات والغارات والنهب والسلب، مع تفرق الكلمة وضعف الحيلة أمام العدو الخارجي كالذي حدث عام الفيل من هجوم الأحباش على الكعبة والله سبحانه وتعالى خاطب هذه الأمة التي اختارها بأن تكون خير أمة أخرجت للناس بأن هذا الدين الذي ارتضاه لهم محفوظ بالقرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ثم قال: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ [المَائدة: الآية ٣]. يئسوا أن يبطلوه أو ينقصوه أو يحرفوه وقد كتب الله له الكمال وسجل له البقاء إلى قيام الساعة.

فإذا ما انتصر أعداء الله على المسلمين في موقعة أو في فترة أمكن ذلك ولكنهم لا يغلبون هذا الدين، فهو وحده الذي يبقى محفوظاً لا يناله الدثور، ولا يناله التحريف

على كثرة ما أراد أعداؤه له. فما استطاعوا أن ينالوا منه في ذاته أبداً وما كان لهم أن ينالوا من أهله إلاّ أن ينحرف أهله عنه.

المنهج الذي يعصم أمة الإسلام:

والدين الذي ارتضاه الله للأمة الإسلامية مؤسس بنيانه على القرآن الكريم وسنَّة رسول الله ﷺ، والقرآن الذي أنزل على قلب رسول الله ﷺ لينشىء به أمة وليقيم به دولة، ولينظم به مجتمعاً وليربي به ضمائراً وأخلاقاً وعقولاً، وليجدد به روابط ذلك المجتمع فيما بينه، وروابط تلك الدولة مع سائر الدول، وعلاقات تلك الأمة بشتى الأمم، وليربط ذلك كله برباط قوي واحد يجمع متفرقه ويؤلف أجزاءه، وذلك هو الدين على أساس العقيدة.

الأصل فيه إفراد الله بالعبادة وهو القصور الاعتقادي وتخليصه من أساطير الوثنية وانحرافات أهل الكتاب وتحريفاتهم إلى جانب تبصير الجماعة المسلمة بحقيقة ذاتها وحقيقة دورها، إلى جانب أحكام الشعائر التعبدية التي تظهر روح الفرد المسلم وروح الجماعة المسلمة وتربطها بربها إلى جانب التشريعات الاجتماعية التي تنظم روابط مجتمعها، والتشريعات الدولية التي تنظم علاقاتها بغيرها، إلى جانب التشريعات التي تحلل وتحرم ألواناً من المآكل والمشارب والمناكح أو ألواناً من الأعمال والمسالك التي تمثل المنهج الرباني الذي تبنى عليه مصالح الأمة الإسلامية.

وهذا يسوقه القرآن في شتى سوره المتفرقة التي تؤلف وتمثل المنهج الرباني الذي يتضمنه، و يكتفي السياق بالمعنى الضمني إنما ينص عليه نصاً ويؤكده تأكيداً ويتكىء عليه اتكاءً شديداً، وهو ينص على أن هذا هو الدين، وأن الإقرار به كله هو الإيمان، وأن الحكم به كله هو الإسلام. إن السياق القرآني يستند في تقريره أن الحكم بما أنزل الله هو الإسلام، وأن ما شرعه الله للناس من حرام وحلال هو الدين، ولما كانت رسالة سيدنا محمد ﷺ هي خاتمة الرسالات وشاملة لبني الإنسان عموماً، ليست خاصة لمجموعة من الناس في بيئة خاصة كما كانت الرسالات قبلها، فهي تخاطب جميع الناس لأنها تخاطب فطرة الإنسان التي لا تتبدل ولا تتحور ولا ينالها التغير، فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبدل لخلق الله ذلك الدين القيم.

وفصل في هذه الرسالة شريعة تتناول حياة الإنسان من جميع أطرافها وفي كل جوانب نشاطها وتصنع لها المبادىء الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطور فيها ويتحور بتغير الزمان والمكان ووضع لها الأحكام التفصيلية والقوانين الجزئية وهي تحتوي على كل ما يحتاج إليه الإنسان في حياته من تاريخ بدء الرسالة إلى آخر الزمان من ضوابط

وتوجيهات وتشريعات وتنظيمات لكي تستمر وتنمو وتتطور وتتجدد حول هذا المحور وداخل هذا الإطار.

قال الله تعالى للذين آمنوا: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المَائدة: الآية ٣] . فأعلن لهم إكمال العقيدة وإكمال الشريعة معاً فهذا هو الدين، ولم يعد للمؤمن أن يتصور أن بهذا الدين نقصاً يستدعي الإكمال ولا قصوراً يستدعي الإضافة ولا محلية أو زمانية تستدعي التطوير، وإلاّ فما هو بمؤمن وما هو مقر بصدق الله وما هو بمرتضي ما ارتضاه الله للمؤمن.

إن شريعة ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن هي شريعة هذا الزمان وكل زمان إلى قيام الساعة، لأنها بشهادة الله شريعة الدين الذي جاء للإنسان مخاطباً بها إلى قيام الساعة، الأحكام التفصيلية جاءت لتبقى كما هي، والمبادىء الكلية جاءت لتكون هي الإطار الذي تتحرك فيه الأمة الإسلامية إلى آخر الزمان دون أن تخرج عليه. والله الذي خلق الإنسان هو الذي رضي له هذا الدين المحتوي على هذه الشريعة فلا يقول أحد إن شريعة الأمس لا تناسب شريعة اليوم إلاّ إنساناً يزعم لنفسه أنه أعلم من الله بحاجات الإنسان وبأطوار الإنسان، والله يقول: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١٤﴾ [المُلك: الآية ١٤] .

إن معرفة الإنسان لهذه الحقائق الكبرى كما صورها هذا الدين تجعله يدرك أن غاية وجوده في هذه الحياة هي عبادة الله وحده لا شريك له، ومن أجل ذلك خلقه الله ولا شك أن تلك المعرفة والعبادة والانقياد له بالسمع والطاعة ترفعه وتجعل له وجوداً معترفاً به في الحياة الدنيا ورصيداً في الآخرة، والذي ينسى وجود الله لا وجود له، وجوداً فعلياً يشده إلى أفق أعلى وبلا هدف في حياته يرفعه عن السائمة التي ترعى.

وكبرى هذه الحقائق وأهمها وأعظمها وأجل أمرها ما جاء به هذا الدين هو الإيمان بالله. إنها أكبر من سنَّة الوجود الذي كان أساس ابتداء وجود الإنسان نفسه وسائر ما يتعلق به من آلاء الرزق والصحة والحياة والمتاع.

إنها المنّة التي تحصل للوجود الإنساني حقيقة مميزة وتجعل له في نظام الكون دوراً أصيلاً عظيماً. الإيمان بالله نور يكشف حقائق الأشياء وحقائق القيم وحقائق التصورات حتى ترى به الأشياء مستقرة في مواضعها من غير لبس. والإيمان هدية من الله ورحمة ونعمة أنعم بها على عباده المؤمنين: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾ [الحُجرَات: الآيتان ٧، ٨].

الفصل الثاني

الإيمان الذي يقود للاستقامة على منهج الله

فالإيمان تصديق القلب بالله ورسوله، التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب والتصديق المطمئن الثابت المتيقن الذي لا يتزعزع ولا يضطرب صاحبه ولا تهجس فيه الهواجس، ولا يتلجلج فيه القلب أو الشعور، والذي ينبثق عنه النهوض بمشاق التكاليف التي من أجلها تبذل المهج والأرواح، ولأجلها تحتمل المحن والمشاق والإيمان بالله يجعل المؤمن مطيعاً لربه فيما يحب ويكره، ويكون هواهُ تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ. ويجعل نفسه لا تبالي المنافع أو المضار، فالإيمان الجامع للعقيدة والشريعة هو وسيلة الوفاق بين الجماعة المسلمة وعلى قدر قوتها وصحتها تكون قوة الائتلاف، وتكون قوة الفرد والجماعة على العمل الصالح والدأب على السير والصبر عليه والثبات على الشدائد، وهذا ما تركه رسول الله ﷺ لأصحابه، والإيمان بالله قوام العقائد الصحيحة ونظام السيرة القويمة وعماد الحياة الروحية السعيدة، ومدد كل خير ومنبع كل طمأنينة ومصدر كل سعادة وهو الهادي إلى الصراط المستقيم.

فالإيمان بالله نقطة تحول تجمع جوامع البر والخير والإحسان، تبين أصول الاعتقاد وتكاليف الشريعة في العبادات والمعاملات والزواجر والأوامر والنواهي وعلى التواصي بالحق والتواصي بالصبر وعلى مكارم الأخلاق.

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٧].

فنجد في تحديد هذه الآيات للإيمان تحديداً كاملاً دقيقاً حاسماً جامعاً لشروط الإيمان وفيها من التكريم للمؤمنين بأن جمع إيمانهم مع إيمان رسوله ﷺ.

وإذا تحصنت النفس بالإيمان، وقويت واستنارت وارتقت بالطاعة لربها، ونفرت من النزاع والخلاف، وانطلقت من حدود الأهواء والشهوات والرغبة والرهبة والعصبية، حين ذلك ترتقي وتصبح مؤهلة للحق والخير والعدل والإحسان، فكانت أهلاً للخلافة في الأرض: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ

﴿٨﴾ [المَائدة: الآية ٨]. (أي لا يحملنكم بغض قوم أن تظلموهم)، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعَام: الآية ١٥٢].

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ [الأعرَاف: الآية ١٨١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النِّساء: الآية ١٣٥]. نداء للمؤمنين بأن يتحملوا الأمانة العظيمة التي وكلت إليهم، ومنها الحكم بالعدل بين الناس. إنها أمانة القيام بالقسط في كل حال وكل مجال، القسط الذي هو ضد البغي والظلم، والذي يكفل العدل والذي يعطي كل ذي حق حقه (شهداء لله) حسبة لله، وتعاملاً مباشراً معه لا لحساب أحد من المشهود لهم أو عليهم، ولا لمصلحة فرد أو جماعة، ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ﴾ [النِّساء: الآية ١٣٥].

فمنهج الله يجند النفس في وجه ذاتها وفي وجه غرائزها وعواطفها تجاه نفسها أولاً وتجاه الوالدين والأقربين ثانياً، وهي مجاهدة شاقة، وهي الرقابة التي تشعر صاحبها بأن الله مطلع على مزاولة كل ما يفعل، وكذلك هي مجندة ضد مشاعرها الفطرية أو الاجتماعية حين يكون المشهود له أو عليه فقيراً تشفق النفس من شهادة الحق ضده وتود لو تشهد له معاونة لضعفه، أو من يكون فقره مدعاة للشهادة ضده بحكم الرواسب النفسية الاجتماعية، ويكون المشهود له أو عليه غنياً تقتضي الأوضاع الاجتماعية مجاملته لمصلحة أو طمع. ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ﴾ [النِّساء: الآية ١٣٥].

وقد ذكر منها: حب الذات هوى، وحب الولدين والأقربين هوى، والعطف على الفقير في موطن الشهادة والحكم هوى، ومجاملة الغني هوى، ومضارته هوى والتعصب للعشيرة والأمة والوطن هوى.

وأمر الله بالعدل يتكرر في كل الكتاب ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النّحل: الآيتان ٩٠، ٩١].

هذه مبادىء السلوك الأساسية التي جاء بها القرآن، فهي الأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي والأمر بالوفاء بالعهد والنهي عن نقض الإيمان بعد توكيدها.

والقرآن جاء على هيئة تدل على أنه خطاب صادر من ملك مقتدر قاهر فوق عباده فيما يحب أن يلقيه إليهم من عزائم أمره ونهيه ووعظه وزجره ووعده ووعيده بأسلوب متميز واضح، لا يشبه نظم البشر للكلام، وقد استجمع فيه من الفضيلة في صورة الخطاب ومن الفضيلة في نظم الألفاظ ومن الفضيلة في تأليف المعاني ما عجز عنه بلغاء الجن والإنس، وقد تحداهم الله سبحانه وتعالى بأن يأتوا بمثله ثم نفى قدرتهم على ذلك فقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسرَاء: الآية ٨٨].

ومدار الشرائع التي جاء بها القرآن متعلق بالاعتقادات والعبادات والمعاملات والزواجر ومكارم الأخلاق، فالاعتقادات مبنية على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النِّساء: الآية ١٣٦]. وأما العبادات فهي مبنية على الصلاة والزكاة والصوم والحج، ثم يلحق بذلك الجهاد لحراسة الدين، وأما المعاملات فهي كالبيع والإجازة والمناكحات والخصومات، كالدعاوي والبيّنات، والأمانات كالودائع والعورى، والتركات كالوصايا والمواريث.

وأما الزواجر، فمدارها على قتل النفس كالقود والدية، ومزجرة أخذ المال والحرابة كالقطع والصلب، ومزجرة هتك الستر كالجلد والرجم، ومزجرة ثلب العرض كالجلد مع التفسيق ومزجرة، خلع البيضة كالقتل بسبب الردة.

فالحدود التي جاءت بها الشريعة الإسلامية هي للمحافظة على الكليات الخمسة وهي حفظ الدين وحفظ النفس وحفظ العقل وحفظ النسل وحفظ المال، فإذا اختلت واحدة من الأمور الخمسة اختلت لأجلها الحياة، وقد شرع الله لحفظ هذه الضرورات أحكاماً لوجودها، وأخرى للمحافظة عليها وهي تندرج تحت الأحكام المنوّه عنها آنفاً في قسم المعاملات والزواجر وما يتبع ذلك من الأحكام لضبط نوازع الناس وإغواء الشيطان لهم وذلك لدفع الظلم ونشر العدل.

تعريف الماوردي للتكليف الشرعي:

وقد عرف ذلك الإمام علي بن محمد الماوردي فقال:

التكليف: هو إلزام ما ورد به الشرع تعبداً، وهو نوعان:

أحدهما: ما تعلق بحق الله تعالى من أمر بطاعة ونهي عن معصية.

والثاني: ما تعلق بحقوق عباده من تقدير الحقوق وتقرير العقود، ليكونوا مدبرين

بشرع مسموع ومنقادين لدين متبوع فلا تختلف فيه الآراء ولا تتبع فيه الأهواء، وليعلموا به ابتداء النشأة وانتهاء الرجعة فتصلح به سرائرهم الباطنة، وتخشع له قلوبهم القاسية وتجتمع به كلمتهم المتفرقة وتتفق عليه أحوالهم المختلفة، ويسقط به تنازعهم في الحقوق المتجاذبة ويكونوا على رغب في الثواب، يبعثهم على الخير ورهب من العقاب يكفهم عن الشر. وهذه أمور لا يصلح الخلق إلاّ عليها ولا يوصل بغير الدين المشروع إليها، إذ ليس في طباع البشر أن يتفقوا على مصالحهم من وازع، ولا يتناصفوا في الحقوق من غير دافع لحرصهم على اختلاف المنافع. **انتهى**.

الأخلاق الإسلامية وارتباطها بالعقيدة:

وقد مرت بنا المعطيات الأساسية التي تعتبر المبادىء التي بني الإسلام عليها سلوك الفرد والجماعة وهي المنطلقات الأساسية تحتل المكان البارز في حياة المسلمين، لأن قواعد الأخلاق الإسلامية تتميز عن غيرها لاقترانها دائماً بأمر التكليف، حيث نرى اقتران أمر التكليف في كثير من آيات القرآن الكريم بالأمر بالفضائل الأخلاقية كالبر والإحسان والحث على التعاون والمودة والأمانة وأمثالها وكل ذلك يعتمد في نظر الإسلام على أهداف العقيدة الإسلامية باعتبار أن العقيدة الإيمانية هي معيار توزن عليه الأعمال والأقوال وكل التصرفات لحفظ كرامة الإنسان وصيانة وتحقيق سعادته في دنياه وآخرته.

ومن أمثلة الآداب التي يربطها بعد رابطة العقيدة هي برّ الوالدين ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسرَاء: الآية ٢٣]. ثم بعد الوالدين ذوي القربى أجمعين، وعظم الله صلة الأرحام، إذ بيّن صلتها بتقوى الله فقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النّساء: الآية ١].

وقال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ﴾ [الإسرَاء: الآية ٢٦]. وقال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [محَمَّد: الآية ٢٢].
وقول رسول الله ﷺ: «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك، قالت: بلى يا رب. ثم يصل بهم المساكين وابن السبيل: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسرَاء: الآيتان ٢٦،٢٧]. ثم يبين آداب الإنفاق: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسرَاء: الآية ٢٩]. وهذا هو التوازن فلا يكون بخيلاً ولا مسرفاً. كما يوصي بعدم قتل الأبناء وهم الأولاد خشية الإملاق لأن الرزق بيد الله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإسرَاء: الآية ٣٠]. وهو أمر من أعمال الجاهلية.

ومن الآداب التي يدعو لها الإسلام الاحتراز من دواعي الزنا والأسباب التي تؤول إليه وهو الاختلاط، ويحرم الخلوة بالأجنبية وينهى عن التبرج بالزينة ويحض على الزواج لمن استطاع ويوصي بالصوم لمن لا يستطيع ويكره موانع الزواج كالمغالاة في المهور ويوقع أشد العقوبة على جريمته حين تقع وعلى رمي المحصنات الغافلات دون برهان ثابت، إلى آخر وسائل الوقاية توقياً للوقوع فيه، ويجيء بالحلول ليحفظ الجماعة من التردي والانحلال، فالدين الإسلامي وضع وسائل عملية تمنع الأخلاق أن تتبدل، ومن أساسها كبح الغرائز، وجعل ذلك ضوابط لا تخرج عنها، ثم هو ينهي عن قتل النفس وعن أكل مال اليتيم ثم أمر بالوفاء بالعهد وشدد عليه كما أمر بإيفاء الكيل والاستقامة في الوزن. ثم أمر بالتثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسرَاء: الآية ٣٦].

إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل، أمانة يسأل عنها صاحبها، ثم ينهى المسلم عن التكبر والخيلاء وهو ما ينتج عنه البغض والحسد بطر الحق وهو ما عرّفه رسول الله ﷺ بقوله: «**الكبر، بطر الحق وغمط الناس**»[1].

وأيضاً من الآداب التي يدعو لها القرآن التثبت في الحكم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحُجرَات: الآية ٦] .

كما أدبهم بأن عرّفهم كيفية معالجة الإجراءات العملية التي تنظم ما يقع في المجتمع الإسلامي من خلاف وفتن وقلاقل تفسد كيانه لو تركت بغير علاج على قاعدة أساسية في المجتمع وهي الأخوة بين المؤمنين مع الأخذ بالعدل والإحسان والقسط والإصلاح وتقوى الله ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾ [الإسـرَاء: الآيـة ٦٣] ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحُجرَات: الآيتان ٩، ١٠].

ومن الآداب التي يدعو لها الإسلام بأن تكون بين المؤمنين: الحفاظ على المشاعر

---

(١) رواه مسلم.

النفسية تجاه بعضهم بعضاً في خلقهم وسلوكهم وفي معاملاتهم التي تستوجب الاحترام فيما بينهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحُجرَات: الآية ١١].

كما أن الإسلام يدعو المؤمنين بأن يكونوا نظيفي المشاعر مكفولي الحرمات مصوني الغيبة والحضور، لا يؤخذ فيه أحد بظنه ولا تتبع عورات ولا يتعرض أمن الناس وكرامتهم وحريتهم لأدنى مساس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٢].

كما أن القرآن دعا الناس إلى عدم التكبر والتفاخر بالأحساب والأنساب فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحُجرَات: الآية ١٣].

هذه هي مناحي الإسلام في تشريعه، وهي جامعة لكل نواحي الحياة الاجتماعية غير أن تشريعه كان تشريعاً كلياً يقرر المبادىء العامة ويضع الأسس الثابتة ويدع المجال للتفصيل والتطبيق ليتم له الخلود.

فالقرآن يأتي أحياناً بالتفصيل الدقيق وأحياناً بالإجمال ويأمر الرسول ﷺ بالبيان والتفصيل.

وهناك أنواع من المعاملات يتناولها مباشرة مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٥]، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٩]، ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المَائدة: الآية ٤٥]، ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النِّساء: الآية ٣٤]، ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٨]،﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المَائدة: الآية ١]، ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٨]، ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣٣]، ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النِّساء: الآية ١١].

وهكذا يتولى القرآن تربية النفوس وتهذيبها وتعليمها بما يصلح أمرها بالسماحة والطاعة بأسلوب التشويق والترغيب ولو تتبعنا القرآن في عرض ما يدعو إليه من التوجيه في الآداب لملأنا صحفاً. وإنما هذه أمثلة، وأما السنّة فهي الأخرى تحتوي مثل ذلك، والرسول ﷺ يقول: «**أوتيت القرآن ومثله معه يعني السنة وهي الحكمة وهي التي ذكرها الله**

سبحانه وتعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٩].

وأيضاً من الآداب التي يدعو لها الإسلام حسن الخلق الذي ينشر المحبة والإلفة ويستوجب التمسك بالفضيلة وهو قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعرَاف: الآية ١٩٩]. أي خذ ما وسعك من أخلاق الناس في المعاشرة والصحبة ولا تطلب إليهم الكمال، واعف عن أخطائهم وضعفهم ونقصهم ولا تكلفهم الشاق من الأخلاق وأحسن إليهم بالعطف والحنان والعرف هو الأمر الواضح من الخير الذي تعرفه فطرة البشر في بساطتها بغير تعقيد ولا تشديد والذي لا يحتاج إلى نقاش أو جدال، وأعرض عن الجاهلين، وهو عدم مؤاخذتهم أو الجدال معهم وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسرَاء: الآية ٩]. وهي عبارة شاملة لكل الفضائل التي تتميز بها الشريعة الإسلامية من درء المفاسد وجلب المصالح والجري على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات.

القاعدة الصلبة: وهم أصحابه الذين قاموا بنشر الإسلام بعده:

وبعد هذا العرض الموجز من أجل إعطاء فكرة عما خلفه رسول الله ﷺ بعد رحيله إلى الرفيق الأعلى، وما تركه لأصحابه ليكملوا ما تبقى من نشر الإسلام بعد كمال الدين ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وإعطاء الرسول ﷺ لأصحابه معالم واضحة بأن دعوته ستبلغ مشارق الأرض ومغاربها وبيَّن ذلك قبل أن يستتب له الأمر في جزيرة العرب، وحتى قبل أن يفرغ من قريش بمكة بعد صلح الحديبية مباشرة ومن مظاهر ذلك إرساله إلى هرقل ملك الروم، وكسرى ملك فارس، والمقوقس ملك مصر والحارث الغساني ملك الحيرة والنجاشي ملك الحبشة. يدعوهم إلى الإسلام، وهذه الممالك هي المحيطة بجزيرة العرب، وقد مرّ بنا بأنه ﷺ أخبر أصحابه بقرب فتح هذه البلاد، وأن أناساً من أمته عرضوا عليه غزاة في سبيل الله يركبون ثبج البحر ملوكاً على الأسرة وقد حصل ذلك عند فتح جزائر الروم (البحر الأبيض المتوسط) وهي قبرص وردوس وصقلية ومالطا وغيرها حتى بلغ الفتح الإسلامي المحيط الأطلسي غرباً والصين شرقاً، ليظهر دين الله في جزيرة العرب وحدها بل ظهر في المعمورة من الأرض في ذلك التاريخ ظهر في إمبراطورية كسرى كلها وجزء من بلاد خرسان وأذربيجان إلى بخارى في بلاد الصين وظهر في قسم كبير من امبراطورية الروم في الشام ومصر وشمال ووسط أفريقيا، وظهر في الهند وجنوب شرق آسيا (أندونيسيا والملايو وسنغفورة والفلبين وتايلند وسيام وغيرها) على يد أصحاب رسول الله ﷺ تلك الفئة الفريدة المختارة لحمل تلك الرسالة، وقد وصفهم الله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ

﴿لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ [التوبة: الآية ٨٨ ـ ٨٩].

وقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: الآية ٢٩].

وبذلك الثناء الكريم من الله على تلك الجماعة الفريدة السعيدة التي رضي الله عنها ويصفها في عدة مشاهد لإبراز حالاتها، حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: الآية ٢٩]. ومشهد هيئة عبادتهم ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: الآية ٢٩]. وتبيان قصدهم من ذلك ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: الآية ٢٩]. مبيناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود، وتلك صفتهم في الإنجيل أشداء على الكفار ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، فأبو عبيدة قتل يوم بدر أباه مشركاً، وكذلك همَّ أبو بكر الصديق بقتل ولده عبد الرحمن حينما قال له ولده عبد الرحمن بعد إسلامه: لقد برزت لي يوم بدر فأعرضت عنك، فقال أبو بكر: أما أنا لو رأيتك وبرزت لي لقتلتك، وقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير، وقتل عمر بن عمير، وقتل عمر بن الخطاب خاله العاص، وقتل عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب علي بن أبي طالب أبناء عمومتهم من بني عبد مناف يوم بدر أثناء البراز شيبة وعتبة أبناء ربيعة والوليد بن عتبة بن ربيعة متجردين من علائق الدم والقرابة إلى آصر الدين والعقيدة، وكان هذا أبلغ ما ارتقى إليه صور الروابط والقيم في ميزان الله تعالى وأنزل الله فيهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: الآية ٢٢]. وهي صورة وضيئة المراد منها التكريم ورسم حالة هؤلاء المؤمنين في مقام كريم عند ربهم، وهذا هو منتهى الحظوة والسعادة أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم الغالبون. ومن هؤلاء المؤمنين السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه وهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ ولازموه من بدء الدعوة إلى فتح مكة إلى أن دخل الناس في دين الله أفواجاً.

هذه الجماعة المثالية التي تربت ونمت في أحضان رسول الله ﷺ جاعلته القدوة الحسنة كما كان يرعاهم بعينيه الساهرتين ويربيهم التربية الصالحة ويحضهم على الصبر والتثبت في مواجهة المعاناة المريرة والابتلاءات الشاقة المضنية كما كانت هذه الفئة تتلقى التوجيهات الربانية والرعاية الإلهية فيما ينزل في شأنها من الوحي وهي بذلك تعد إعداداً محكماً لتحمل هذه الأمانة الكبرى وتحقيق مشيئة الله بها في الأرض، وهم الذين قالوا

حينما بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة، ربح البيع، والله لا نقيل ولا نستقيل، وأزل الله فيهم قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٢٣].

هذه الفئة هي قاعدة الإسلام الصلبة التي قامت عليها الدعوة واتسعت أبعادها قبيل الفتح وبعده، وهي تمثل المجتمع المدني بجملته باستثناء بعض المنافقين المتدارين تحت اسم الإسلام.

وهذه القاعدة الصلبة هي التي حرست الإسلام بعد الفتح عندما تعرضت لهزات عنيفة مثل وقعة حنين حينما ولى جيش المسلمين مدبرين، وحيث باغتهم العدو في أول وهلة نادى رسول الله ﷺ العصبة الذين تربوا على يديه تربية إيمانية عميقة، الذين سبق أن باعوا أنفسهم في سبيل الله واندقوا تحت وطأة الأحداث واستبسلوا وثبتوا في كل وقعة وتعرضوا للمحن الطويلة والأذى والتنكيل والقتل والتشريد وصبروا وصابروا على أنواع المصائب.

فقال رسول الله ﷺ لعمه العباس وكان جهير الصوت: **«اهتف يا عباس يا أهل بدر، يا أهل بيعة الرضوان، يا للمهاجرين والأنصار يا أهل السمرة وهي الشجرة التي وقعت تحتها البيعة»**، فكروا إليهم وهم يقولون لبيك لبيك وثبتوا وثبتت المعركة فاجتلد الفريقان اجتلاداً شديداً ونظر رسول الله ﷺ فأعجبه صدق حملة أصحابه بعد فرارهم وقال عليه الصلاة والسلام الآن حمي الوطيس، وانهزم المشركون وولوا الأدبار فأتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون وغنم المسلمون أموالهم وسبوا نساءهم وذراريهم.

وهذه القاعدة الصلبة من المهاجرين والأنصار هم الذين ثبتوا عند الهزة الكبرى بعد وفاة رسول الله ﷺ وارتداد كثير من القبائل عن الإسلام فاستطاعت هذه القاعدة بصلابتها وقوة إيمانها وخلوصها لدينها أن تقف في وجه التيار الجارف، وأن ترده إلى مجراه وأن تعيد سكان الجزيرة مرة أخرى إلى الإسلام.

فالذين دخلوا في الإسلام بعد الفتح هم طبقات مستسلمة وعلى درجات متفاوتة منهم كارهون للإسلام وهم المنافقون ومنهم المنساقون إلى الإسلام بالقهر والغلبة أو تقليداً ولو لم يكونوا منافقين ولكنهم لم يكونوا بعد قد فقهوا في الإسلام ولا انطبعوا بطابعه. ومنهم المؤلفة قلوبهم ومنهم الأعراب الذين ورد قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: الآية ١٤]. وقوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

(٩٨) [التوبة: الآيتان ٩٧ ـ ٩٨]. والمجتمع المسلم في المدينة ظل سليماً في جملته بسبب اعتماده أساساً على تلك القاعدة الصلبة الخالصة من السابقين من المهاجرين والأنصار وبقيت مسلمة الفتح وما بعدها تنصهر شيئاً فشيئاً وتتناسق مع القاعدة إلى أن اندمجت مع المجتمع المدني وقاعدته الصلبة.

والذين حملوا على شرف الدين في مبدأ أمرهم كرهاً، حتى وقفوا على فضائل دعوة الحق أخيراً واستناروا بنور الإيمان وتعرفوا على مزاياه أنه هو الحق المنقذ من نار الجحيم إلى جنة الخلود والنعيم، وهو مثال لما وقع لقبائل قريش وهوزان وثقيف بعد دخولهم في الإسلام عنوة، وأكبر دليل على ذلك فإن قواد جيش المسلمين في فتح بلاد فارس والروم هم من أشد صناديد قريش الذين حاربوا الإسلام بادئ ذي بدء كأبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان فهؤلاء كانوا من أشد أعداء الإسلام وهم الذين فتحوا بلاد الشام.

وكذلك الحال بالنسبة لمسلمة القبائل الأخرى التي أسلمت طوعاً أو كرهاً واتحدت وتآخت تحت راية الإسلام، واجتمعت كلمتهم على إعلاء كلمة الله.

فقد استنفرهم أبو بكر الصديق لقتال فارس والروم، فأرسل أنساً بن مالك إلى عرب اليمن من قبائل سبأ.

فأتى بذي الكلاح رويفع بن ناكور وقيس بن مكشوح المرادي وما جمعوا من قبائل حمير ومن مراد وفدج.

ثم قدمت قيس عيلان من العدنانية وطيء والأزد، وغيرهم من القحطانية وقد اختارت العدنانية التوجه إلى العراق مثل تميم وأسد وفزارة وربيعة، واختار اليمنيون الشام.

انطلق المسلمون بروح معنوية عالية يجاهدون في سبيل الله واستطاعوا في مدة قصيرة أن يدحروا أمامهم أكبر القوى آنذاك وهي دولتا الفرس والروم.

وبهذه الانتصارات كانت الفتوحات الإسلامية الواسعة قد امتدت من الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً.

الخاتمة

قبل أن نتحدث عن حالة المسلمين في هذا العصر وما حل بهم من التردي والانحطاط والضعف والخذلان والتخلف وغلبة الأعداء، رأينا أنه من المستحسن أن نمهد بالحديث عن ماضي المسلمين الزاهر ومجدهم الذي خلدوه خلال ثلاثة عشر قرناً، لربط الحاضر بالماضي، حتى تنجلي الصورة عن العوامل التي كانت السبب فيما حصل وكنا ذكرناه في فصل ما بعد رحيل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى أن الإسلام انتشر انتشاراً عظيماً بفضل الله ثم بفضل فتوحات أصحاب رسول الله ﷺ من بعده فقد امتد من الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً واندلاح شمالاً وجنوباً في قارات آسيا وأوروبا وإفريقيا، وأقام عهداً زاهراً بسط فيه العدل والأمان والعلم والعمران، وانتظمت الحياة بين شعوبه المختلفة وظلوا على ذلك قروناً أمة واحدة أينما كانت أرضهم ومهما نأت ديارهم وتباعدت أمصارهم، تربطهم عقيدة واحدة وشريعة واحدة وقبلة واحدة، يبلغون الكمال في تدبير دينهم ودنياهم أحياناً يقصرون أحياناً تبعاً لقوة القائمين على الأمر. ومع ذلك فهم في منعة من عدوهم باعتصامهم بكتاب ربهم والتمسك بشرعه امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٣]. وكانت الجهات التي تلي الأعداء تتعرض للغزو ولكن الدول الإسلامية المجاورة تمد دائماً بالنجدة والمعونة كلما هددها العدو مثل جزيرة الأندلس، فقد أمدتها دول المغرب المجاورة لها مرات عديدة وخاصة من دولة المرابطين ودولة الموحدين، وكذلك الحال في الشرق الإسلامي، مثل ما قام به الخليفة المعتصم في دولة العباسيين عندما استنجدت به المرأة بقولها وامعتصماه في عمورية، ومثل ما قام به بنو حمدان في حلب وغيرهم، ومثل ما كان في الحروب الصليبية التي وقعت في فترة من فترات الضعف والتفكك الإسلامي حيث احتل الصليبيون بيت المقدس وما دونه مما يليهم من أرض الشام في عام ١٠٩٦م ولكن روح الإسلام كانت لا تزال قوية وتجري في عروق أبنائه فنبهتهم تلك الحادثة من رقدتهم وأردتهم عاقبة تفرقهم، فهبوا لمقاومة العدو واتحدوا تحت قيادة القائد العظيم صلاح الدين الأيوبي رحمه الله فدحروا الأعداء وأجلوهم عن ديار الإسلام في المشرق العربي

واستمرت أوروبا[١] تدفع بالجيوش بعد الجيوش بقيادة قياصرتها، وتنهزم في كل معركة مدة مائتي عام وقد وقع ملك فرنسا لويس التاسع في أسر الجيش المصري وسجن في بيت قاضي المنصورة حتى أفدي بمال جزيل.

وفي أثناء الحروب الصليبية جاء دور التتار الذين غزوا ديار الإسلام واحتلوها من أطراف الصين إلى دار الخلافة في بغداد.

نكبة التتار من أشد النكبات التي تعرض لها المسلمون في تاريخهم الطويل حيث اجتاحوا بلاد الإسلام من أواسط آسيا إلى عاصمة الخلافة في بغداد، فهم أشبه بما يقال عن يأجوج ومأجوع. وقال ابن الأثير في كامله، حادثة التتار من الحوادث العظمى والمصائب الكبرى التي عقمت الدهور عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين ولو قال قائل: إن العالم منذ خلقه الله تعالى إلى الآن لم يبتلوا بمثل ما فعل التتار لكان صادقاً.

فقد خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا بلاد تركستان فاحتلوها ثم بلاد بخاري وسمرقند ثم إلى خراسان وأذربيجان وبلاد الكز ثم إلى بلاد سجستان وكرمان وهذه البلاد دمروها تدميراً هلكاً وتخريباً وإبادة وقتلاً حتى وصلوا إلى العراق، وكان الخليفة في ذلك الوقت المستعصم بالله أبو أحمد وكان له وزير رافضي يعمل على إزالة الدولة العباسية السنيّة، لتحل محلها دولة علوية ويدعى مؤيد الدين العلقمي، وكان يكاتب التتار خفية ويشجعهم على دخول بغداد، وسهل لهم سبل ذلك واتفق أن يكون نائباً عليها، فوعدوه بذلك وتأهبوا لقصد بغداد، وتقدم أول جيشهم بقيادة هولاكو في مائتي ألف فارس مدججين بالسلاح، وكان من كيد الوزير الرافضي أن سرح أكثر جيش الخلافة، حتى لا يجد التتار مقاومة، وهكذا أسقطت بغداد ولحقت ببلاد ما وراء النهر فأصابها ما أصابهم من تدمير وحرق وقتل وإباحة، ويقال إن عدد من قتل من أهلها يزيد بكثير عن ألف ألف وأخذوا جميع كتب مكتباتها ووضوعها في نهر دجلة، حتى يقال: إن نهر دجلة مكث أسابيع يجري بالمداد الأسود لكثرة ما وضع فيه من الكتب.

---

(١) وهي العدو الوحيد الذي استمر على مر الزمان يحارب الإسلام ويكيد له وهو مصداق حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: «**أما فارس فنطحة ونطحتان ثم لا فارس ولا كسرى، وإنما أخاف عليكم الروم ذوات القرون ـ كلما مضى قرن يخلفه قرن**» أو كما قال: وعقد هذا صاحب عمود النسب بقوله:

ونطحة أو نطحتان فارس ... وليس بفهم بعدما مداعس
والروم كلما مضى قرن لها ... يخلفه قرن يوم ما وهى

ولما فرغ هولاكو من تدمير المدينة وقتل الخليفة وأهل بغداد وأقام له نواباً من طرفة ونكثوا العهد مع الوزير ابن العلقمي الرافضي في إقامته خليفة علوياً فمات كمداً لا رحمه الله.

وقام هولاكو يهدد عواصم الأقاليم الإسلامية الأخرى مثل دمشق والقاهرة، ولكن العالم الإسلامي في ذلك الوقت كان لا يزال تجري فيه روح الإسلام رغم أن المماليك هم حكامه، ولكن أخذتهم الغيرة على حماية بلاد الإسلام، فخرج الملك المظفر سيف الدين قطز المملوكي حاكم مصر على رأس جيش عظيم، وكان يعاونه ركن الدين بيبرس مؤيدين بعلماء الأمة الإسلامية وعلى رأسهم العلامة العز بن عبد السلام والتقى الجمعان عند عين جالوت وذلك يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان عام ٦٥٨ من الهجرة، فانهزم التتار شر هزيمة وانتصر المسلمون وقتل من التتار مقتلة عظيمة وولوا الأدبار ومن ثم صغر شأنهم إلى أن دخلوا في الإسلام. ولما توقفت تلك الحروب الصليبية والتتارية التي كانت وحدت المسلمين في تلك الفترة في بلاد العراق والشام ومصر. عاد المسلمون إلى الفرقة من جديد غير أنه دخل عنصر آخر في الإسلام لم يكن له دور قبل ذلك وهو دولة بني عثمان، وهم الأتراك وهم شعب قوي دخل بلاد آسيا الصغرى هرباً من زحف التتار المتوحشين ولما خمدت نار التتار بدأت الدولة العثمانية الناشئة الواقعة على تخوم بيزنطة الشرقية في آسيا الصغرى تأخذ دورها في نشر الإسلام والدفاع عنه ففي عام ١٣٥٠م قامت الدولة العثمانية تتشوف إلى دخول قسم أوروبا الشرقي المجاور لها، فعبروا الدردنيل إلى أوروبا ثم حاصروا القسطنطينية ولم يتمكن الصليبيون من فك الحصار محتجين أن وضع التسليح الذي كانوا عليه لا يسمح للأساطيل النصرانية بعبور الدردنيل لفك الحصار من جهة بحر مرمرة وبعد ذلك بسنوات من الحصار سقطت القسطنطينية في يد العثمانيين مع بلغاريا وصربيا ثم استمر العثمانيون في الزحف فاحتلوا كسوفا والبوسنة وبعد ذلك جميع بلاد اليونان وبلاد السلافية والإلبانية وحتى وصلوا مشارف فينا في عام ١٥٤٢م وهذا هو الذي أوقف غزو الصليبيين للمشرق الإسلامي، ولكنهم ركزوا على المغرب الإسلامي والذي كادت تنقطع علاقته بالمشرق العربي، ومدت الدولة العثمانية سلطانها على جل بلاد الإسلام من الجزائر غرباً إلى حدود روسيا شرقاً إلى أطراف بحر العرب إلى تخوم صحراء إفريقيا حاملة لواء دولة الخلافة الإسلامية، ولكنها للأسف لم تمد يد العون لبلاد الأندلس التي ركز عليها الصليبيون لما فشلوا في المشرق وشجع بابا النصارى مد الإسبان بالرجال والمال والعتاد حتى توفرت لهم القوة، فراحت إسبانيا تهاجم بعنف مملكة غرناطة الأندلسية محاولة الاستيلاء عليها والتي لم تجد من ينجدها أو يمد لها يد العون فسقطت في يد الإسبان عام ١٤٩٢م. كما راحت بعد ذلك تهاجم

شمال إفريقيا فاحتلت عدداً من مرافئه (سبتة وإشبيلية) بينما راح البرتغاليون يحتلون بعض المواقع على ساحل المغرب استخدموها مراكز لهم في محاولتهم الالتفاف حول القارة الإفريقية وقد تم لهم ذلك بعد اكتشافهم خط رأس الرجاء الصالح حيث داروا بالقارة الإفريقية وواصلوا السير إلى الهند وإلى شرق آسيا وكان هذا هو أول عهد عصر الاكتشافات للخطوط البحرية التي قادت الأوروبيين إلى اكتشاف الأمريكتين وأستراليا ونيوزيلندا وغير ذلك من جزر البحار (١).

واستطاعوا بتلك الاستكشافات وبالثروة الهائلة التي حصلوا عليها من غزوهم لسكان الأمريكيتين ونهب ثروات البلاد التي احتلوها أن يكونوا أساطيل بحرية وقوية ويصنعوا آلة حرب حديثة، ويسيروا الجيوش القوية المجهزة بالعتاد الفائق الذي قهروا به جل سكان العالم وفي أثناء ذلك استطاعوا أن يكتشفوا وسائل العلم التجريبي الذي بنوا عليه ثورتهم الصناعية والاقتصادية وفتحوا بذلك عصراً جديداً عماده طاقة البخار التي حركوا بها الآلات ثم الكهرباء مما مكنهم من أسباب التفوق في الاختراعات.

هذا من جهة دولة غرب أوروبا، أما من ناحية الشرق، فكانت روسيا القيصرية قد غاظها احتلال العثمانيين لمركز المذهب الأرثوذكسي في القسطنطينية وهم أرثوذكس غير أنهم في ذلك الوقت لا يملكون القوة لمحاربة العثمانيين ولكنهم رأوا في احتلال إسبانيا لبلاد الأندلس تشجيعاً على احتلال بلاد الإسلام المجاورة لهم. فاحتلوا جميع البلاد الإسلامية التي كان يحكمها التتار المسلمون من حدود الصين إلى البحر الأسود إلى جنوب شرق آسيا وكان جل العالم العربي في تلك الفترة تحت الدولة العثمانية بصفتها دار الخلافة والدولة العثمانية قد أصابتها في تلك الفترة الترهل والضعف والتفكك والانحطاط في كل المستويات والأربيون يطلقون عليها في ذلك الوقت الرجل المريض، وكانوا قد اتفقوا على تقسيم تركة ذلك الرجل المريض قبل أن يجهزوا عليه ويقتلوه بما يعرف بإتفاقية (سايكس بيكو) فوزعوا البلاد العربية بين بريطانيا وفرنسا وقد تم لهم ذلك بعد هزيمة ألمانيا وتركيا في الحرب العالمية الأولى واستسلامهما.

وهكذا خضعت بلاد العرب وبلاد الإسلام بالعموم للاستعمار الأوروبي وكانت الكارثة التي أطبقت على الإسلام كله شرقه وغربه، وأعظم مكيدة دبرها الانقلاب العسكري على دار الخلافة التي كانت تجمع شتات المسلمين. أن جاؤوا بحاكم ملحد علماني لا يعترف بدين ولا رسالة عمل مع الغزو الصليبي على هدم الإسلام، وحمل

---

(١) يقول المستكشف البحار البرتغالي الذي قام بالدوران حول أفريقيا الآن طوقنا رقبة الإسلام ولم يبق إلا جذب الحبل فيختنق فيموت.

الناس على الانسلاخ من مقومات دينهم انسلاخاً كلياً في معاملاتهم وأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم، وهذا الحاكم يدعى مصطفى كمال أتاتورك، ثم عمموا منهجه وأفكاره على الأقطار الإسلامية وقاموا بإعطاء فلسطين لليهود لتكون رأس حربة لهم بين البلاد العربية ومدوها بكل ما تحتاجه من مال وسلاح ورجال وبدأوا في قتل الروح الإسلامية آخذين بثأرهم وعدائهم الصليبي الموروث مستخدمين قوتهم المادية والثقافية.

فرجال السياسة يضعون الخطط لإذلال المسلمين، وتحكيم دولهم فيهم، والمبشرون يقومون بنشر دعوتهم ويتخذون لذلك المستشفيات والمدارس والملاجىء والإسعافات ستاراً لنشر دعوتهم، والملحدون يدعون للإلحاد وينشرون آراءهم في لباقة ومهارة أو رعاية صريحة أو تحت ألوان براقة خداعة بإسم الحضارة والحرية. ولكل من المستعمرين طريقته في إخضاع الناس لحكمهم، فالفرنسيون غلاظ جفاة يقولون نحن الصليبيين غلبناكم وسنعاملكم بالقسوة والعنف، وأما الإنجليز وهم الرواد في بلاد المشرق فلهم أسلوبهم المتميز في الخبث والدهاء، لا يتظاهرون بمحاربة الإسلام علناً خشية إثارة مشاعر المسلمين ولكنهم يسلكون طريق أخبث من محاربته جهاراً وهي الاستيلاء على دور التعليم، وعن طريقه يقومون بنشر مبادئهم، فأولاً يبدأون بإنشاء جيل من أبناء المسلمين يربونه بثقافتهم التي لا تدين بدين ويدسون لهم ضمن ذلك أن الإسلام هو سبب تخلف بلادهم مع الإيحاء إليهم بازدراء الدين الإسلامي وتعاليمه، ويبقون على ذلك حتى كوّنوا أجيالاً بهذه العقلية، وطفقوا يصبغون البلاد الإسلامية بصبغتهم في المأكل والمشرب والملبس، ولم يمض عقدان من الزمن حتى أصبح منهجهم هو السائد، ووضعوا الخط والمناهج لترسيخ ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم وعاداتهم وتقاليدهم مع العمل المتواصل لإبعاد تعاليم الإسلام وتحييد أهله عن الدخول في السياسة، كما هو مبدأ أوروبا بفصل الدين عن السياسة، وانكمش العلماء إلى زوايا مساجدهم أو جحور بيوتهم وفسح المجال للأقليات من يهود ونصارى التي كانت موجودة أصلاً ببعض البلاد تحت الحكم الإسلامي، وصار لهم دور بارز في إدارة دفة الحكم، ونشأ عن هذا مجتمع جديد علماني إلحادي يحكم بأنظمة المستعمر، يبيح كل ما هو محرم في دين الإسلام وأصبح التحاكم إلى ما يسمونه بالمحاكم المدنية، قد يكون القاضي يهودياً أو نصرانياً أو ممن سلك مسلكهم وعلى هيئة قضائهم في بلادهم. وأصبحت قيادة البلاد في يد هذه الفئات من الناس، وتحولت البلاد من بلاد إسلام التي يطلق عليها في التعريف الإسلامي (دار الكفر) وهي الأرض التي تحكم بشرع حكامها أو أهواء قادتها دون النظر إلى ما يعتنقه قاطنوها، وقد عمت هذه الظاهرة جل الأقطار الإسلامية من مشرقها إلى مغربها.

والبلاد الإسلامية التي غشاها الاستعمار بقيت في الإطار الذي ذكرناه إلى نهاية

الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٥م حيث بدأ بعضها يحصل على استقلاله ولكنها متأثرة تأثراً كبيراً بما فرض عليها من أفكار ومفاهيم تخالف دينها وتراثها.

والمستعمر الذي خرج (ظاهراً) أبقى حكمه في يد من صبغهم بمنهجه ممن يكيدون للإسلام وقد حذر الله تعالى المؤمنين من ذلك فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٨].

ولنأخذ لذلك مثالاً:

يقول أهل الفقه في إزالة النجاسة إنه يلزم عين النجاسة وهو الغائط مثلاً ثم يبقى حكم طهارتها وهو غسل مكان عين النجاسة لأن إزالة النجاسة لا يطهر مكانها، فلا بد من غسله، فلو افترضنا أن المستعمر خرج فعلاً فقد بقي حكمه ولا يتطهر مكانه إلا بإزالة حكمه، والذي هو أدهى وأمر وأشد وأنكى هو ما وقع للمسلمين بعد رحيل المستعمر الأجنبي من بلادهم. وهي أن الطبقة التي تكونت في عهد المستعمر من الملاحدة والعلمانيين من أهل البلاد وما انضم إليهم من الأقليات اليهودية والنصرانية والذين كان المستعمر قد ربّاهم على يده وقربهم وهيأهم لاستخلافه من بعده قد اتحدوا ضد أهل البلاد من المسلمين وتمالوا مع المستعمر بأن لا يمكن المسلمين من الوصول إلى سدة الحكم خشية أن يوجد من بينهم من يطمع في إعادة الحكم الإسلامي إلى البلاد، فإن ذلك فيه خطر عليهم وعلى مصالح المستعمر من بعدهم.

والمسلمون منذ استقلالهم يطالبون بتكوين وسيلة تجمع كلمتهم وتوحد صفوفهم مثل بقية النحلات الأخرى من يهود ونصارى مع أن النصارى على اختلاف طوائفهم أعطوا الحق في تجمعاتهم من كاثوليك وبروتستانت وأرثوذكس وأرمن وسريان ونساطرة وكلدان ولاتين وغير ذلك، وأعطى الحق أيضاً للملاحدة والعلمانيين والشيوعيين وأضرابهم ممن تأثروا بالحركات المادية الحديثة والأفكار الإلحادية الهدامة التي انحرفوا بها عن عقيدة الإسلام السليمة.

وأما المسلمون الذين يمثلون ٩٠٪ من سكان أقطار الإسلام ذات الكثافة السكانية كمصر والشام والعراق وشمال إفريقيا بكامله فقد فرض عليهم أن يبقوا مسلمين أفراداً لا ولاء بينهم وأشتاتاً من غير جامع، وهملاً من غير رابط، حتى لا يتحدوا على هدف واحد يجمعهم، وإذا قامت دعوة تدعوا إلى فكرة تجمع المسلمين على أمر رشد يربط

بينهم ويشد أزرهم يقال هذا تعصب ديني، ولا يجوز، وتقوم العناصر المعادية من الأقليات غير المسلمة أو المضادة للإسلام الموجودة في مراكز السلطة بتقويض أي فكرة تجمع أمر المسلمين، ويقولون الدين لله والوطن للجميع. أو (الدين بينك وبين ربك) أو يقولون ما لله لله وما لقيصر لقيصر. وما حصل عليه المسلمون من نجاح في فتوحاتهم ومعاركهم لم يكن أبداً لكثرة في عدد أو قوة في عتاد. بل كان العكس في أغلب الأحيان إذ كانوا في نقص من العدو وقلة من العتاد. وإنما كان نصرهم بما يحملون بين جوانبهم من عقيدة تدفعهم إلى الاستشهاد في سبيل الله.

إذاً يتبين مما قلناه، وما مر بنا سابقاً بأن التميز الذي كان قائماً بين ملّة الإسلام وملّة الكفر أصبح لا وجود له بسبب تصرف بعض حكام المسلمين في هذا العصر، فهم لا يرون أن الأقليات اليهودية والنصرانية التي تعيش بينهم وتقطن بلادهم أعداءً للإسلام والمسلمين بل بالعكس يرون أهل هذه الأقليات مواطنين صالحين، مع أنهم لم يتخلوا عن تعصبهم لنصرانيتهم أو يهوديتهم وولائهم لأهل ملتهم في خارج وطنهم، وإنما الذي تخلى عن تعصبه لدينه وولائه لملته هو الحاكم المسلم الذي سمح لتلك الأقليات أن تنظم حياتها وتقيم تحالفها وتكون لها نحلة تجتمع عليها، ومنع ذلك على المسلمين الذين لهم الأكثرية المطلقة في البلاد، فكلما قامت جماعة من المسلمين تريد أن تعقد أمر رشد يربط بينهما ويشد أزرها يقال هذا تعصب ديني ولا يجوز، وتقوم العناصر المعادية من الأقليات الموجودة في مراكز السلطة من اليهود والنصارى أو من حذا حذوهم بتقويض أي فكرة ترفع أو تجمع من شأن المسلمين حتى يبقوا شتاتاً، وهذا ما حدث منذ أكثر من خمسين سنة تقريباً.

ولذلك نشطت البعثات لجلب تلك الأفكار والأنظمة من مصادرها وكان من نتيجة ذلك انجرافهم وسقوطهم في أوحال المدنية الغربية وهي عبادة الدنيا، والاستغراق في شهواتها ومتاعها وملذاتها، والتفسخ والانحلال والضعف في كل مجال، وانصرافهم عما يصلح شأنهم وسيرهم وراء أعدائهم وتقليدهم إياهم شبراً بشبر وهزائمهم أمام اليهود. ونسيان الإله المعبود وتعاليمه.

يقول أحد مفكري الإسلام: إن العالم الإسلامي اليوم يجتاز مرحلة من أسوأ مراحله، وسماها مرحلة (التيه) كما وقع لبني إسرائيل ـ والتيه في اللغة هو الحيرة قال: تاه، يتيه، تيهاً، وتوهاً، وتاه في الأرض ذهب متحيراً وضل الطريق. ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٢٦].

وبنو إسرائيل الذين وقع عليهم التيه ذكرهم نبيهم موسى عليه السلام بنعم الله عليهم، إذ نجاهم من فرعون الذي كان يقتل أبناءهم ويستحي نساءهم، وأنه سبحانه وتعالى أغرق عدوهم وهو فرعون أمام أعينهم، وجعلهم ملوكاً بعد ما كانوا عبيداً لفرعون، وأنزل عليهم المن والسلوى، وظلل عليهم الغمام، وفجر لهم الأرض المقدسة، وأمرهم بدخولها ولكنهم عتوا وعصوا وتمردوا على موسى عليه السلام: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المَائدة: الآية ٢٤].

فعاقبهم الله بالتيه أربعين سنة يصبحون حيث يمسون، ويمسون حيث يصبحون، لا يعرفون جهة ولا وجهة حتى هلك ذلك الجيل الذي عصى وتربى على الذل والهوان.

وأما التيه أو الحيرة التي يعيشها المسلمون في هذا العصر والتي ضرب بها المثل المفكر الإسلامي فلا شك أنها أشد وأقسى وأمر من أي ابتلاء وقع للأمة الإسلامية على مر العصور، فالنكبات التي عددها المفكر الإسلامي مثل التتار والصليبيين وقتال أهل الردة والتي ذكر أن المسلمين خرجوا منها منتصرين بسبب تمسكهم بدينهم.

ثم يقول: إن المحنة التي فيها المسلمون الآن طالت ولا يبدو في الأفق أن لها مخرجاً.

أقول: وبالله التوفيق، بأن أمر المسلمين في الزمن السابق كان واضحاً جلياً بالنسبة لما هم عليه الآن، فهم كانوا مقتنعين بحقيقة ما هم عليه من أمر دينهم، وما استقر في ضمائرهم من صدق منهجهم وشرف فضائل دينهم، وثبات ما هم عليه من الإيمان به عقيدة وشريعة معتصمين بكتاب ربهم معترفين له بجسيم المنة وجزيل النعمة باذلين مهجهم وأرواحهم دونه والوقائع التي كانت تدور بينهم وبين أعدائهم كانت تجري بين طائفتين، أمة مسلمة، وأخرى كافرة، كل طائفة متميزة عن الأخرى وأما اليوم فطائفة المسلمين غير متميزة في نفسها، فضلاً عن أنها محاطة بأربعة أعداء من داخلها ومن خارجها.

أعداء الأمة الإسلامية: العدو الأول:

من داخلها؛ أحدهما منافق يدّعي الإسلام في ظاهره ولكنه يمقت الإسلام، ولا يقره بمنهجه ولا شريعته ولا يقوم بشعائره، ولربما ينكر بعض أصوله. وهو محسوب على الإسلام بالتبعية، وهذا النوع (وعلى مر العصور) أخطر أعداء الإسلام والمسلمين.

والثاني: ينتمي لأحد الأقليات غير المسلمة أساساً والتي كانت تحت الحكم الإسلامي في البلاد قبل دخول المستعمر بها وأصبح هو المسَلّم في درجة واحدة بحكم

نظام المواطنة ومن المعلوم والمسلَّم به أن عداوته للإسلام كامنة ومتأصلة فيه لاختلاف الدين والمبادئ.

وأما الاثنان اللذان من الخارج فأحدهما اليهود، واليهود عداوتهم للإسلام منذ رسالة محمد رسول الله ﷺ، وقد احتلوا بيت المقدس في هذا الزمان، وهو ثالث الحرمين الشريفين ومسرى رسول الله ﷺ وهو من بلاد الإسلام المقدسة وقد احتلوا أرض فلسطين وشردوا أهلها وعداوتهم قائمة وغنية عن التعريف. ولقد وصف القرآن الكريم هذه، العداوة أبلغ وصف حين قال: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المَائدة: الآية ٨٢].

وأما العدو الثاني الخارجي وهو الغرب الصليبي ويشمل أوروبا والأمريكتين وهم العدو اللدود للإسلام منذ فجره الأول وإلى الآن. وكما قلنا سابقاً فلا يزالون يحشدون طاقاتهم لمحو الإسلام رغبة في الأخذ بثأرهم الموروث، مستخدمين قوتهم المادية والثقافية والاقتصادية والعسكرية التي مكنتهم من إخضاع بلاد المسلمين لنفوذهم وإجبار أهلها على قبول وصايتهم عليهم (عدو في ثياب صديق).

فلا تُشترى قطعة سلاح إلاّ من طرفهم، ولا يدرب جيش إلاّ من قبلهم ومع ذلك فهم الذين يضعون الخطط والبرامج في كل مجال لأهل بلاد الإسلام ورغم ذلك فإنهم هم الحليف المؤازر لعدوهم اليهودي الجاثم على أرضهم. والله تعالى يحذر من هؤلاء الأعداء ويعرفهم بهم أنهم أعداء، ومع ذلك نجد الكثير من المسلمين قد وقع في حبائلهم، قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المَائدة: الآية ٥١]. ثم انظر لحال بعض المسلمين.

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى　　عدواً له ما من صداقته بد

والله سبحانه وتعالى وصف للناس اتخاذهم الشيطان وذريته أولياء من دونه وهو ربهم الذي أمدهم بكل النعم بأنه بئس البدل: فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: الآية ٥٠]. فكيف يكون العدو صديقاً. فهؤلاء الأعداء من الداء الذي تنخر في جسم الأمة الإسلامية ولا يمكن أن تستعيد عافيتها إلاّ بعد أن تتعالج من أسقامها.

إذاً سبب الحيرة التي أصابت المسلمين واضح وهو انسلاخ جل بلاد الإسلام من مصدر قوتها وهو الإسلام الذي كان يجمع كلمتها. فالمسلمون كانوا أمة واحدة أينما

كانت أقطارهم ونأت ديارهم، وهم كما جاء في الحديث (وهم يد على من سواهم)(*) منذ ألف وثلاثمائة سنة حينما كان الإسلام يحكم أقطارهم. سواء في بغداد أو دمشق أو القاهرة أو مراكش أو قرطبة فإذا داهم عدو أي قطر سارع المجاور له يمد يد المعونة والنجدة حتى يتم صد الغزاة.

فصلاح الدين الأيوبي من الدولة الزنكية شمال الموصل، وجد بلاد الشام مع مصر وقاد جيوش المسلمين وطرد الصليبيين وحرر بيت المقدس وهو كردي. وقطز قاد جيوش المسلمين من مصر ووحدها مع بلاد الشام لمحاربة التتار بعد احتلالهم دار الخلافة في بغداد وهزمهم في موقعة عين جالوت وكان عبداً مملوكياً (ذلك باعتبار نشأته صغيراً).

ويوسف بن تاشفين قاد جيوش المرابطين من مراكش إلى بلاد الأندلس التي كان يهددها الصليبيون، ودحرهم في موقعة الزلاقة وهو صنهاجي من عرب لمتونة من الصحراء الكبرى وهكذا كان حال المسلمين لما كانوا تحت راية دينية واحدة وهي راية الإسلام لم يقف شيء أمامهم لأن وجهتهم واحدة والمطلوب متساو عندهم وهم مستميتون عليه وأعداؤهم، وإن كانوا أضعافهم لا يقفون أمامهم وقد حصل ذلك مراراً ومثله ما وقع في صدر الإسلام في الفتوحات، فكانت جيوش الإسلام بالقادسية من بلاد فارس واليرموك من بلاد الروم في كل معسكر في الجهتين بضعاً وثلاثين ألفاً.

وجموع فارس بالقادسية مائة وعشرين ألفاً، وجموع هرقل باليرموك أربعمائة ألف فارس، فلم يقف للمسلمين أحد من الجانبين لأن اجتماع المسلمين وقوة إيمانهم ضاعف قوتهم وهي المصابرة التي جاءت في القرآن: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنفال: الآية ٦٥].

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٢٠]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران: الآيات ١١٨-١٢٠].

(*) روى ابن ماجه نحوه.

وهذا وصل لحالة بلاد الإسلام التي أدخلت دساتير الغرب وأنظمته التي تحكم بغير ما أنزل الله.

وإذا كنا شخّصنا الداء فما الدواء؟

الدواء الشافي، هو ما جاء عن الله سبحانه وتعالى، فقد جعل العقيدة هي قاعدة التجمع التي يقوم على أساسها وجود الأمة المسلمة بدلاً من وشائح القرابة والنسب والعصبية والوطن، حيث لا يرى قيام أمة مسلمة من أفراد مهما بلغت كثرتهم دون أن يكون لهم ولاء مشترك يربطهم بعقيدتهم ويمكنهم من إقامة شريعتهم وشعائرهم، ووحدة تدفع عنهم أعداءهم وهدف يضم مصالحهم، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٩٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرَات: الآية ١٠]. وهو بهذا يحصر ولائهم فيما بينهم ثم يؤكده بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفَال: الآية ٧٢]. ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفَال: الآية ٧٣]. وذلك بعدما بيّن أن أعداءهم الكفار هم فيما بينهم بعضهم أولياء بعض، وهو ولاء مقابل ولاء فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفَال: الآية ٧٣]. أي إذا لم تقيموا بينكم الولاء الذي يربط بعضكم ببعض وهو شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله اعتقاداً وعبادةً وشريعةً وسلوكاً وتعاوناً ونصحاً لله ولرسوله وللمؤمنين وأئمتهم وعامتهم تكن فتنة في الأرض وفساد كبير يتغلب فيها الباطل على الحق ويتغلب عليكم أعداؤكم وهو ما وقع في عصرنا الحاضر.

وهذه القاعدة هي أول ما فعل رسول الله ﷺ بعد استقراره بالمدينة المنورة فوضع كتاب معاهدة بين المهاجرين والأنصار ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس، ووادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم ثم زاد على ذلك أن آخى بين المهاجرين والأنصار مما يؤكد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبَة: الآية ٧١]. فالله سبحانه وتعالى وصف المؤمنين والمؤمنات أنهم جماعة متماسكة قوية متضامنة تقوم بواجبها الديني والدنيوي في وحدة من النصيحة لبعضها البعض، مما أكد ذلك بآية أخرى فقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: الآية ٢٩]. وكما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾

[العصر: الآيات ١ ـ ٣]. وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: الآية ٤٦]. وطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ هما المؤديتان إلى عدم التنازع، المؤدي إلى الفشل واختلاف الكلمة وذهاب الريح والذي هو القوة فقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: الآية ٦٠].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، رواه الشيخان وزاد البخاري في روايته وشبك بين أصابعه، وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»**(١). فالإسلام دين ودولة معاً، والحاكم إن لم يكن على دين تجتمع عليه القلوب حتى يرى أهله الطاعة فيه فرضاً، والتناصر عليه حتماً فلا بقاء له ويقال: (الملك والدين توأمان) الدين أس، والملك حارس، وكل ما لا أس له فمعدوم وكل ما لا حارس له فضائع، هذا هو الذي أمر به الدين الإسلامي الحنيف وعلى ضوئه جرى تطبيق هذه القاعدة من عهد الصحابة (رضوان الله عليهم) ثم من جاء بعدهم وسار على منهجهم إلى أن جاءت نكبة الأندلس وهي عقاب من الله للمسلمين على تفرقهم وتشتتهم وحرب بعضهم لبعض، وتعاونهم مع أعدائهم من الصليبيين ضد بعضهم البعض، واتخاذ أولئك الأعداء بطانة من دون المؤمنين مخالفة لأمر الله.

ومن ذلك التاريخ والمسلمون في انحدار وانحطاط وذل وضعف إلى أن زحف عليهم عدوهم الصليبي واجتاحهم واحتلهم احتلالاً عسكرياً.

ونحن وإن كنا يائسين من رجوع الحكام في البلاد الإسلامية إلى الإسلام في هذه الظروف التي تمر بها البلاد فلعدة عوامل منها:

١ ـ تغلغل الفكر الصليبي واليهودي وسيطرته على عقول أبناء المسلمين بأن الإسلام لا يصلح كنظام حكم في هذه الأيام، وإجبار البلاد الإسلامية أن تتبع الحكومات الصليبية في نظمها ومناهجها وأفكارها وتقاليدها وسلوكها وتعاملها، واعتبارها الوسيلة الوحيدة لإلحاقها بالتقدم الحضاري المنشود، ولذلك نشطت البعثات لجلب تلك الأفكار والنظم من دول الغرب الكافرة.

---

(١) رواه الشيخان

٢ ـ سيطرة الحكومات الصليبية على بلاد الإسلام بوجه عام بالتغلب المادي والثقافي والاقتصادي والتكنولوجي والعسكري مما مكنها من التحكم في إدارة البلاد بطريق مباشر أو غير مباشر بالمعاهدات والمعونات والحمايات، وجعل حكام البلاد خاضعين لسلطانها رغبة أو رهبة لارتباط مصالحهم بتلك الحكومات.

٣ ـ الخطة الموضوعة من أيام المستعمر وهي عدم تمكين المسلمين من وسيلة تكفل لهم جمع كلمتهم حتى لا يتحدوا على هدف واحد وضربهم بالأقليات اليهودية والنصرانية التي تعيش معهم وتقطن بلادهم والتي تمثل جزءاً من السلطة وولاءهم للعدو الأجنبي وهم مهيمنون على مراكز القوة في كل قطاعات الدولة التي يعيشون فيها وخاصة منها الإعلام والاقتصاد والسياسة.

٤ ـ محاربة كل دعوة تطالب بإقامة حكم إسلامي في أي بلد من البلدان الإسلامية خشية أن يجعلوا ذلك البلد تحت حكم ديني غير صليبي.

فإذا كان البلد فيه أقلية غير إسلامية يقال كيف يحكم الإسلام على ناس غير مسلمين وأما عكس ذلك فجائز أن يحكم بحكم الأقلية على الأغلبية مع فارق الأغلبية. والبلاد الإسلامية التي لا توجد فيها أقلية غير إسلامية وأهلها مسلمون مائة في المائة لا يسمح لأهلها إقامة أحزاب إلاّ أن تكون علمانية ويكون الحكم علماني مثل حزب البعث والشيوعي والقوميين على اختلاف نحلاتهم ورجال السياسة جلّهم من العلمانيين. والغرب يتظاهر بعشق الحرية لبني الإنسان ويطالب الشعوب بالديمقراطية وحقوق الإنسان ولكنه يتناقض في هذا المطلب إذا كان أهل البلاد من المسلمين. وقد وصفهم أحد الكتاب الإسلاميين بما نصه:

إن سلوك الغرب في البلاد الإسلامية يعيشون مع الذئب ويبكون مع الراعي، يتظاهرون بالعطف ويضمرون البغض، ويعلنون المعونة ويبطنون الاستغلال، فهم على المبدأ الذي حكاه القرآن عن اليهود بأنهم قالوا: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٧٥].

٥ ـ وضع خطط مدروسة ومرسومة لإشغال المسلمين عما يصلح شأنهم عن طريق سياسة فرق تسد أو انشغالهم وتوجيههم إلى ما يفسد أخلاقهم وإبقاءهم ملتهين بالتوافه من ذلك مثلاً.

(أ) منع الحكومات بالبلاد الإسلامية أن تستثمر فيما بينها ثروات بلادها حتى تكون مكتفية عن استيراد ما تحتاجه من الدول الأجنبية مثال: نجد بلداً كالسودان فيه

سهول خصبة بمئات الملايين من الهكتارات تجري فيها أنهار وتسقط فيها أمطار موسمية غزيرة، وبه يد عاملة رخيصة عاطلة، فلو كانت الأمور تجري بطريقة سليمة كان الأولى أن تستثمر فيه الدول الإسلامية الغنية وتحصل على حاجتها من الحبوب التي تستوردها من بلاد الكافر الصليبي بدلاً أن تضع أموالها في بنوك الأعداء يستثمرونها لصالحهم.

(ب) العلة الأخرى: وهي إشغال الناس وتوجيههم إلى ما يفسد أخلاقهم بأنواع الترفيه الذي أصبح إلزاماً المشاركة فيه، وحتى ولو كان المشارك لا يجد ميلاً في طبعه لهذا الترفيه، مثل الفنون وأنواع اللعب من حيث هي، فقد أخذت دوراً هاماً وحجماً كبيراً في هذا العصر تنفق عليها الأموال الكثيرة بسخاء مفرط وتشغل وقتاً وحيزاً كبيرين من وسائل الإعلام وإشغال النشء بها عن التحصيل العلمي، وإهدار الوقت فيما لا طائل وراءه والذي لا يحسن الحديث والمشاركة فيها يعتبر مغفلاً وغير جدير بالاهتمام به.

يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله معلقاً على أنواع الألعاب. نجدّ في الهزل ونعطيه هذا الاهتمام. ونهزل في أساسيات الدين الذي يجب أن نجد فيه انقلاب في تعاريف الحياة.

(ج) وعلة العلل الإعلام اللاأخلاقي ودوره في توجيه الناس إلى ما يفسد أخلاقهم وخاصة في البلاد التي أعطت للمرأة الحرية في السفور والتبرج والاختلاط، وهو مبدأ ترتكب فيه جميع المحرمات من فواحش وخمور ودعارة وقمار واستخدام كل المغريات والبطش في كل فنون الإثارة من أغان ورقص وخلاعة وسباحة على شواطىء البحار شبه عراة وجميع أنواع الفجور ترتكب باسم الحرية والسياحة والترفه (وشم الهوى وتغيير الجو) وما إلى ذلك من المسميات وهذا ما يستمتع به في تلك البلاد المباحة المحارم لا ناه ولا متناه.

وهذا ما تدعو إليه المدنية والحضارة الحديثة وهذا هو التوجه الذي يدعو إليه المبشر الصليبي بأن نتخلى عن ديننا ونسقط في الرذائل وفي هذا الوحل الخبيث ولا نفيق من سكرتنا.

والمجتمع الإسلامي تسلط عليه جميع أجهزة التوجيه والإعلام لتدمير القيم الأخلاقية الإسلامية وسحق التصورات الدينية وتنفيذ ما نصت عليه مؤتمرات المبشرين وبروتوكولات صهيون من ضرورة إخراج المرأة المسلمة إلى الشارع، وجعلها فتنة

للمجتمع باسم التطور والتحضر والحرية، ومصلحة العمل والإنتاج، بينما ملايين اليد العاملة من الرجال في بلاد الإسلام عاطلة، لا تجد الكفاف وتيسير وسائل الانحلال والدعارة باسم السياحة ووصف الكفر بأنه غير مضاد للإسلام، والفسق والفجور والانحلال بأنه موضة وتطور وتقديم وتجديد في الحياة. وانقلاب في تعاريف الحياة كما يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله.

يقول العلامة المؤرخ ابن خلدون: إن الأمة الإسلامية إذا اتجهت إلى الترف والدعة والراحة والسكون صار لهم ذلك طبيعة وجبلة شأن العوائد كلها، يرجعون إلى تحصيل ثمرات ذلك من المباني والمساكن والملابس فيبنون القصور ويجرون المياه إليها ويغرسون الرياض ويجلبون المهرة في فن المطابخ والمطاعم والمشارب والآنية وسائر الماعون وينغمسون شيئاً فشيئاً فيستمتعون بأحوال الدنيا ويؤثرون الراحة على المتاعب، ويتأنقون في أحوال الملابس والمطاعم والآنية والفرش، ويألفون ذلك ويورثونه من بعدهم لأجيالهم، وينزعون إلى رقة العيش، ويتفاخرون في ذلك في أكل الطيب ولبس الأنيق وركوب الفاره من المراكب ويناغي خلفُهم في ذلك سلفُهم في المباهات والولائم والأعراس، وتكثر حوائجهم باختلاف ما تنزع إليه نفوسهم من الشهوات والملذات، والتنعم بأصناف الترف وما تتلون به موائدهم حتى يبتعدوا عن البداوة والخشونة، وينسون خلق البسالة التي كانت هي الحماية، وينتقلون من عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة، ويفقدون حلاوة العز والشرف بسبب الترف الذي بلغ غايته من النعيم نضارة العيش فيصيرون عيالاً من جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم وهم أجبن من حمر مستنفرة فرت من قسورة!!!

اللهم يا من أعززت المسلمين بعد عناء، وقوّيتهم بعد ضعف ووحّدت كلمتهم بعد فرقة، وألّفت بين قلوبهم بعد شتات، أدرك يا الله آخرهم بما تداركت به أولهم وأعزّهم بما أعززت به سلفهم، وبصّرهم بوجوه ضعفهم حتى يتخذوا العدة لنهوضهم وأنزلهم سبيل القوة حتى يعودوا سيرتهم، وردّهم إلى دينهم ردّ رشد وصلاح إنك سميع الدعاء.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً

انتهى من تحريره في غرة شعبان عام ١٤٢١

الفهرس

الشيخ
عبد الله الشنقيطي

محور رسالة الإسلام

دار
عبد الله الشنقيطي